إختصر وخرّج أحاديثه

لدكتور محمد أبو زيد أبو زيد

مناهج المفسرين

وهو مختصر

التفسير والمفسرون

مكتبة الجيل الجديد

الجمهورية اليمنية

مناهجُ المفسّرين
وَهوَ
مُختَصَرُ التفّسِير والمفسّرين

بسم الله الرحمن الرحيم

الجيل الجديد ناشرون

اليمن - صنعاء

هاتف: ٢١٣١٦٢/٤/٥

فاكس: ٢١٣١٦٣

E-mail :

Aljeel@y.net.ye

Web site:

www.aljeel-aljadeed.com

قسم التوزيع والجملة :

(٢٥٥٢٨٦) تحويله (١٠٤)

فرع الجامعة الجديدة هـ/ ٢٢٧٥٤٠

فرع الحي السياسي هـ/ ٤٧٣٩٤٠

فرع عدن : هـ/ ٢٦٦٤٦٩-٠٢

فرع تعز : هـ/ ٢٦٥٩٥٥ - ٠٤

فرع الحديدة : هـ/ ٢٣٨٨٣٢ - ٠٣

فرع حضرموت : هـ/ ٣٨٤٠٥٢ - ٠٥

فرع إب : هـ/ ٤٠١١٩٠-٠٤

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الرابعة

مكتبة الجيل الجديد

مناهج المفسرين

وهو مختصر

التفسير والمفسرون

اختصره وخرّج أحاديثه

الدكتور/ محمد أبو زيد أبو زيد

الجيل الجديد ـ ناشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى:

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

[سورة صٓ: ٢٩]

مقدمة الطبعة الثانية

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠ ـ ٧١].

أما بعد،

فلا شك أن الذهبي ـ رحمه الله ـ قد أجاد وأفاد كثيراً من كتابه: **(التفسير والمفسرون)**. حتى صار هذا الكتاب مرجعاً في بابه، وكتب الله له القبول فدُرّس في كثير من الجامعات حتى صار مرجعاً هاماً من مراجعها، لا يستغني عنه الطالب والباحث.

ومن خلال عملي في التدريس الجامعي، وتخصصي في هذا الباب من العلوم الشرعية كنت أدرّس هذا الكتاب لما له من قيمة علمية. ومن خلال تدريسي له كانت لي بعض الملاحظات والآراء فيه؛ إذ لا تخلو أعمال البشر من نقيصة ما وبالذات في ميدان العلوم والتأليف فيها، إذ أبى الله أن يتم كتاب غير كتابه سبحانه. فقمت بتأليف هذا المختصر الذي يسهل الرجوع لهذا الكتاب مع تقديم خدمات كثيرة له تجعله أكثر فائدة، وقد كتب الله القبول لهذا المختصر حيث نفذت منه الطبعة الأولى وطلب مني أن أطبعه الطبعة الثانية إذ قد قرّرَته عدة من الجامعات، لذلك قمت بتعديله وتجويده وتدقيقه ليخرج أحسن مما كان. فأسأل المولى أن ينفع به قارئة وكاتبه.

وعملي في الكتاب يتلخص فيما يأتي:

ـ كان اختصاري مركزاً على الاستطرادات والأمثلة الضعيفة في دلالتها، والأحاديث والآثار الأضعف في الصحة من غيرها، وعلى ما يعد الأبعد عن ما يسمى مناهج المفسرين، وهو أقرب إلى تاريخ التفسير أو أصول التفسير وعلوم القرآن. والأهم من هذا حذف ما هو

من المآخذ على الكتاب بقدر الإمكان، والتعليق على أكثر ما ذكر في المختصر إن كان يحتاج إلى تعليق.

- قمت بتخريج الأحاديث النبوية والآثار.

- كانت لي أيضا بعض التعليقات التي ارتأيتها مناسبة ومتممة للفائدة. وكنت أضع لتعليقاتي وتخريجي للأحاديث حاشية خاصة حسب الأرقام هكذا: ١ - ، ٢ - ، ٣ - .. بغير أقواس. وأما حواشي الذهبي فهي مميزة بالأقواس هكذا: ١)، ٢) ...

- لم تكن لي أية كتابة - تقريبا - في متن الكتاب؛ فكله باق بعبارة المؤلف نفسه اللهم إلا كلمات معدودة جعلتها بين قوسين معكوفين هكذا: [ ]، إضافة إلى بعض العناوين والترقيمات، والترتيبات المسهلة على قارئ الكتاب قراءته ومذاكرته، وبعض المواضع القليلة التي كان لا بدّ من اختصارها بعبارتي.

- كثيرا ما يذكر الذهبي موضع الاستدلال من الآية مبتورا، فقمت بإكمال ما ينبغي إكماله بحيث يتضح المعنى أكثر، بالاضافة إلى تدقيق النص القرآني وتشكيله.

- أصبح شبه مصطلح أن يقال: ﷺ: للرسول محمد ﷺ، و رضي الله عنه: للصحابة الكرام، و عليه السلام: لباقي الرسل، ورحمه الله: للعلماء. ولكن الذهبي لم يلتزم بهذا مما يوقع القارئ بإشكال، فيظن بعض العلماء صحابة لقوله في حقهم: رضي الله عنه وهكذا. فأعدت هذا الأمر حسب الاصطلاح الذي ذكرته.

- تم تصحيح بعض التراجم التي ذكرها الذهبي.

- تمت إضافة كثير من التراجم فيما لم يذكره الذهبي.

- نظرا للفارق الزمني بيننا وبين الذهبي فقد تغيرت بعض المعلومات حول الكتب. فكثيرا ما قال الذهبي عن كتاب: غير مطبوع. ثم طبع بعد ذلك، وقد قمت بإضافة هذه المعلومات على قدر استطاعتي في معرفة ما طبع من هذه الكتب.

- قمت بمراجعة الأعلام المذكورة في الكتاب وتم تصحيح ما يحتاج إلى تصحيح منها.

- شرحت كثيرا من الألفاظ التي تحتاج إلى شرح، وبعضها تم استبداله بمعناه أثناء الاختصار وهو قليل.

- جعلت في آخر الكتاب فهرسا للأعلام لتسهل الاستفادة منها.

- صححت ما وقفت عليه من أخطاء مطبعية واضحة وما أكثرها.

- عادة يذكر الذهبي مراجعه في الحاشية بشكل مختصر جدا، حيث يكتفي باسم الكتاب ورقم الصفحة، مكتفيا بذكر اسم المؤلف في أصل الكتاب، فقمت بذكر كافة المعلومات عن الكتاب عند ذكره لأول مرة، وبذكر المؤلف مع اسم كتابه في الباقي.

هذا ماقمت به راجيا التسديد والتوفيق منه سبحانه، وسأحاول أن أتعهد الكتاب بمزيد من الفوائد مع كل طبعة إن شاء الله.

وفي الختام أسأله سبحانه أن ينفع بهذا الكتاب كاتبه وقارئه..

والحمد لله رب العالمين

الدكتور
محمد أبوزيد أبوزيد
٢٨ جمادى الاولى، ١٤٢٣هـ
/الموافق: ٦/٨/٢٠٠٢م

محمد حسين الذهبي

(١٣٣٤هـ الموافق: ١٩١٥م / ١٣٩٧هـ الموافق: ١٩٧٧م)

ولادته بقرية مطوبس بمحافظة كفر الشيخ سنة ١٣٣٤هـ / ١٩١٥م. حفظ القرآن الكريم بقريته، ثم درس في دسوق، ثم معهد الإسكندرية الديني، ثم كلية الشريعة. وحصل على العالمية سنة ١٣٥٨هـ، وكان ترتيبه الأول. اشتغل بالتدريس في معاهد الأزهر، ثم حصل على الدكتوراه من كلية أصول الدين سنة ١٣٦٦هـ وعين بها سنة ١٣٧٦هـ. عين أمينا عاما مساعدا لمجمع البحوث الإسلامية، ثم عميدا لكلية أصول الدين، ثم أمينا عاما لمجمع البحوث الإسلامية، ثم وزيرا للأوقاف[1]. وهو عالم أزهري كبير. عرف ببحوثه القيمة في مناهج التفسير. اغتيل في شهر رجب.

من مؤلفاته:

١. الاتجاهات المنحرفة في تفسير القرآن الكريم: دوافعها ودفعها. ـ ط٢ ـ القاهرة: دار الاعتصام.

٢. التفسير والمفسرون ـ ط٣ ـ القاهرة: مكتبة وهبة، ١٤٠٥هـ، في مجلدين. وهو ـ كما يقول الذهبي عن نفسه في نهاية المجلد الثاني ـ من باكورة أعماله في التأليف.

٣. الشريعة الإسلامية: دراسة مقارنة بين مذاهب أهل السنة ومذهب الجعفرية. ط٢ ـ القاهرة: دار الكتب الحديثة، ١٣٨٨هـ.

٤. مشكلات الدعوة والدعاة في العصر الحديث وكيفية التغلب عليها ـ المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية، مركز شؤون الدعوة، ١٣٩٧هـ.

٥. أثر إقامة الحدود في استقرار المجتمع ـ القاهرة: دار الاعتصام، ١٣٩٨هـ.

٦. نور اليقين من هدي خاتم النبيين. القاهرة: مكتبة الشهيد الدكتور الذهبي.

٧. علم التفسير ـ القاهرة: دار المعارف، ١٣٩٧هـ [2].

---

١ ـ مجمع البحوث الإسلامية: تاريخه وتطوره / إعداد الأمانة العامة للجنة العليا للاحتفال بالعيد الألفي للأزهر بالأزهر ـ القاهرة: الأزهر، ١٤٠٣هـ، ص ١٠٠. / نقلا عن: المستدرك على تتمة الأعلام للزركلي ـ محمد خير رمضان يوسف ٣/ ٢٤٠.

٢ ـ تتمة الأعلام للزركلي ـ محمد خير رمضان يوسف: ٢/ ١٤٥.

المقدمة

المبحث الأول

معنى التفسير والتأويل والفرق بينهما:

التفسير في اللغة:

هو الإيضاح والتبيين، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان: ٣٣]، أي بيانا وتفصيلا، وهو مأخوذ من الفَسْر وهو الإبانة والكشف. وفي لسان العرب لابن منظور: «الفَسْر: البيان... ثم قال: الفسْر: كشف المغطى، والتفسير: كشف المراد عن اللفظ المشكل».

ومن هذا يتبين لنا أن التفسير يستعمل لغة في الكشف الحسي، وفي الكشف عن المعاني المعقولة، واستعماله في الثاني أكثر من استعماله في الأول.

التفسير في الاصطلاح:

- يرى بعض العلماء أن التفسير ليس من العلوم التي يتكلف لها حَدّ لأنه ليس قواعد أو ملكات ناشئة من مزاولة القواعد كغيره من العلوم التي أمكن لها أن تشبه العلوم العقلية، ويكتفي في إيضاح التفسير بأنه: بيان كلام الله، أو أنه المبين لألفاظ القرآن ومفهوماتها.

- ويتكلف بعض آخر منهم تعريفا فيذكر في ذلك علوما أخرى يحتاج إليها في فهم القرآن: كاللغة، والصرف، والنحو، والقراءات، وغير ذلك.

وهذه التعاريف تتفق كلها على أن علم التفسير علم يبحث عن مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية، فهو شامل لكل ما يتوقف عليه فهم المعنى، وبيان المراد.

التأويل في اللغة:

التأويل: مأخوذ من الأوْل وهو الرجوع. قال في لسان العرب: الأوْل: الرجوع، ثم قال: وأوّل الكلام وتأوّله: دبّره وقدّره. وأوّله وتأوّله: فسره. وعلى هذا يكون التأويل مأخوذاً من: الأوْل، بمعنى: الرجوع، إنما هو باعتبار أحد معانيه اللغوية، فكأن المؤول أرجع الكلام إلى ما يحتمله من المعاني.

وقيل: التأويل: مأخوذ من الإيالة، وهي السياسة، فكأن المؤول يسوس الكلام ويضعه في موضعه[1].

التأويل في الاصطلاح:

١ ـ [التأويل عند السلف: التأويل عند السلف له معنيان:

أحدهما: تفسير الكلام وبيان معناه، سواء أوافق ظاهره أو خالفه، فيكون التأويل والتفسير على هذا مترادفين، وهذا هو ما عناه ابن جرير الطبري بقوله في تفسيره: القول في تأويل قوله تعالى كذا وكذا. وبقوله: اختلف أهل التأويل في هذه الآية. ونحو ذلك، فإن مراده التفسير.

ثانيهما: هو نفس المراد بالكلام، فإن كان الكلام طلبا كان تأويله نفس الفعل المطلوب[2]، وإن كان خبراً، كان تأويله نفس الشيء المخبر به، فإذا قيل: طلعت الشمس، فتأويل هذا هو نفس طلوعها][3]، هذا في نظر ابن تيمية[4] هو لغة القرآن التي نزل بها[5]، وعلى هذا فيمكن إرجاع كل ما جاء في القرآن من لفظ التأويل إلى هذا المعنى الثاني.

٢ ـ التأويل عند المتأخرين من المتفقهة، والمتكلمة، والمحدثة، والمتصوفة:

التأويل عند هؤلاء جميعاً: هو صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به[6]، وهذا هو التأويل الذي يتكلمون عليه في أصول الفقه ومسائل الخلاف. وعلى هذا فالمتأوّل مطالب بأمرين:

---

١) لسان العرب لابن منظور: (أول).

٢ ـ ويمثل لهذا بحديث أم المؤمنين عائشة ﵂: قالت: «كان رسولُ الله ﷺ يُكثِرُ أن يَقُولَ في رُكُوعِهِ وسُجودِهِ: سُبحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمدِكَ، اللَّهُمَّ اغفِر لي، يَتَأَوَّلُ القُرآنَ». البخاري: ٢/ ٢٤٧. ومسلم: ٤٨٤. وأبو داود: ٨٧٧. والنسائي: ٢/ ٢١٩ ./ جامع الأصول: ٢١٥٧. كلهم في الصلاة. قصدها يتأول قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [سورة الأعلى: ١] وغيرها من الآيات التي تأمر بالتسبيح.

٣ ـ اقتبسه الذهبي من مجموع الفتاوى لابن تيمية ـ مكتبة النهضة الحديثة ـ مكة ١٤٠٤هـ ـ ١٣/ ٢٨٨ ـ ٢٨٩.

٤ ـ هو: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن تيمية الحراني ثم الدمشقي الحنبلي، تقي الدين أبو العباس بن شهاب الدين بن مجد الدين، ولد في عاشر ربيع الأول سنة٦٦١، وتحول به أبوه من حران سنة ٦٧ فسمع من ابن عبد الدائم والقاسم الإربلي وقرأ، ودرس. الدرر الكامنة: ١/ ١٦٨.

٥ ـ صرح ابن تيمية برأيه في مجموع الفتاوى ١٣/ ٢٩٠.

٦ ـ ليس سليما تسمية المعنى المراد من اللفظ مرجوحا بأية حال. والأصل أن يسمى: راجحا، طالما ثبت أنه هو المراد من الكلام، بغض النظر عن أي شيء آخر، فالراجح: ما قصده المتكلم، والمرجوح: مالم يقصده.

الأول: أن يبين احتمال اللفظ للمعنى الذي حمله عليه وادعى أنه المراد.

الثاني: أن يبين الدليل الذي أوجب صرف اللفظ عن معناه الراجح إلى معناه المرجوح، وإلا كان تأويلا فاسداً، أو تلاعباً بالنصوص.

وهذا أيضا هو التأويل الذي يتنازعون فيه في مسائل الصفات، فمنهم من ذم التأويل ومنعه، ومنهم من مدحه وأوجبه(١).

وستطلع عند الكلام على الفرق بين التفسير والتأويل على معان أخرى اشتهرت على ألسنة المتأخرين.

الفرق بين التفسير والتأويل

اختلف العلماء في بيان الفرق بين التفسير والتأويل، وليس بعيداً أن يكون منشأ هذا الخلاف، هو ما ذهب إليه الأستاذ أمين الخولي حيث يقول: وأحسب أن منشأ هذا كله، هو استعمال القرآن لكلمة التأويل، ثم ذهاب الأصوليين إلى اصطلاح خاص فيها، مع شيوع الكلمة على ألسنة المتكلمين من أصحاب المقالات والمذاهب(٢)(٣).

[ومن] أقوال العلماء في الفرق بين التفسير والتأويل:

١ ـ قال أبو عبيدة(٤) وطائفة معه: التفسير والتأويل بمعنى واحد(٥). فهما مترادفان، وهذا الشائع عند المتقدمين من علماء التفسير.

٢ ـ قال الماتوريدي: التفسير: القطع على أن المراد من اللفظ هذا، والشهادة على الله(٦).

٣ ـ قال بعضهم: التفسير ما يتعلق بالرواية، والتأويل ما يتعلق بالدراية(٧).

---

١) لخصنا هذا الموضوع من (الإكليل في المتشابه والتأويل) للشيخ ابن تيمية ـ العامرة الشرفية ١٣٢٣هـ: ٢/ ١٥ ـ ١٧ من مجموعة الرسائل الكبرى له، وانظر مقالته في القاعدة الخامسة من جواب المسألة التدبيرية.

٢) التفسير ـ معالم حياته ـ منهجه اليوم: أمين الخولي، دار المعلمين للطبع والنشر ١٩٤٤م ـ ٦.

٣ ـ هذا ما ذهب إليه ابن تيمية في مجموع الفتاوى ١٣/ ٢٨٥.

٤ ـ هو معمر بن المثنى التيمي، النحوي البصري، وكان يميل إلى مذهب الخوارج، وكانت تصانيفه تقارب مائتي مصنف منها كتاب مجاز القرآن. راجع: طبقات المفسرين ـ أحمد بن محمد الأدنروي ـ مكتبة العلوم والحكم ـ المدينة المنورة ـ ١٩٩٧ ـ ط١ ـ تحقيق: سليمان بن صالح الخزي.

٥) الإتقان: الجلال السيوطي، مطبعة مصطفى الحلبي ١٩٣٥م ـ ٢/ ١٧٣.

٦) الإتقان للسيوطي: ٢/ ١٧٣.

٧) الإتقان للسيوطي: ٢/ ١٧٣.

والذي تميل إليه النفس: هو أن التفسير: ما كان راجعاً إلى الرواية. والتأويل: ما كان راجعاً إلى الدراية؛ وذلك لأن التفسير معناه الكشف والبيان. والكشف عن مراد الله تعالى لا نجزم به إلا إذا ورد عن رسول الله ﷺ، أو عن بعض أصحابه[1] الذين شهدوا نزول الوحي وعلموا ما أحاط به من حوادث ووقائع.

وأما التأويل: فملحوظ فيه ترجيح أحد محتملات اللفظ بالدليل، وهذا اجتهاد يتوصل إليه بمعرفة مفردات الألفاظ ومدلولاتها في لغة العرب. قال الزركشي[2]: وكان السبب في اصطلاح كثير على التفرقة بين التفسير والتأويل التمييز بين المنقول والمستنبط؛ ليحيل على الاعتماد في المنقول، وعلى النظر في المستنبط[3].

المبحث الثاني
تفسير القرآن بغير لغته

لنفهم معنى تفسير القرآن بغير لغته، أو الترجمة التفسيرية للقرآن، نقول بأن الترجمة تطلق في اللغة على معنيين:

١ ـ نقل الكلام من لغة إلى لغة أخرى بدون بيان لمعنى الأصل المترجم، وذلك كوضع رديف مكان رديف من لغة واحدة.

٢ ـ تفسير الكلام وبيان معناه بلغة أخرى.

وعلى هذا فالترجمة تنقسم إلى قسمين: ترجمة حرفية، وترجمة معنوية أو تفسيرية.

١ ـ الترجمة الحرفية للقرآن

هي نقل الكلام من لغة إلى لغة أخرى. مع مراعاة الموافقة في النظم والترتيب،

---

١ ـ تفسير الصحابي لا يعتبر حجة؛ لأن الخلاف بينهم ممكن، وإن كان نادرا، ولا يكون قول الصحابي حجة إلا بثلاثة شروط:
١ ـ أن يصح عنه القول.
٢ ـ أن يُشتهر قوله.
٣ ـ أن لا ينكر عليه غيره من الصحابة.
وأما في سبب النزول الصريح فقوله حجة.

٢ ـ هو محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي الموصلي الشافعي بدر الدين، وهو عالم في الحديث والتفسير، ولد في سنة ٧٤٥هـ، وتوفي سنة ٧٩٤هـ. راجع: طبقات المفسرين ـ أحمد بن محمد الأدنروي: ١/ ٣٠٢.

٣) الإتقان للسيوطي: ٢/ ١٨٣.

والمحافظة على جميع معاني الأصل المترجم. والترجمة الحرفية للقرآن: إما أن تكون ترجمة بالمثل، وإما أن تكون ترجمة بغير المثل:

أ ـ أما الترجمة الحرفية بالمثل:

فمعناها أن يترجم نظم القرآن بلغة أخرى تحاكيه حذوا بحذو بحيث تحل مفردات الترجمة محل مفرداته، وأسلوبها محل أسلوبه، حتى تتحمّل الترجمة ما تحمّله نظم الأصل من المعاني المقيدة بكيفياتها البلاغية وأحكامها التشريعية، وهذا أمر غير ممكن بالنسبة لكتاب الله العزيز؛ وذلك لأن القرآن نزل لغرضين أساسيين:

١ ـ كونه معجزاً للبشر، لا يقدرون على الإتيان بسورة مثله ولو اجتمع الإنس والجن على ذلك. وهذا لا يمكن تأديته بالترجمة اتفاقا لعجز اللغات عن نقل ما في القرآن من خواص بلاغية جاءت لمقتضيات معينة وبالتالي ينزل عن مرتبة الإعجاز.

٢ ـ هداية الناس لما فيه صلاحهم في دنياهم وأخراهم باستنباط الأحكام والإرشادات منه، وهذا يرجع بعضه إلى المعاني الأصلية التي يشترك في تفاهمها وأدائها كل الناس، وتقوى عليها جميع اللغات، وهذا النوع من المعاني يمكن ترجمته واستفادة الأحكام منه، وبعض آخر من الأحكام والإرشادات يستفاد من المعاني الثانوية، ونجد هذا كثيراً في استنباطات الأئمة المجتهدين؛ وهذه المعاني الثانوية لازمة للقرآن الكريم وبغيرها لا يكون قرآنا. والترجمة الحرفية إن أمكن فيها المحافظة على المعاني الأولية، فغير ممكن أن يحافظ فيها على المعاني الثانوية.

ومما تقدم يعلم: أن الترجمة الحرفية للقرآن، لا يمكن أن تقوم مقام الأصل في تحصيل كل ما يقصد منه؛ لما يترتب عليها من ضياع الهداية المقصودة من القرآن الكريم، وضياع إعجازه.

ب ـ وأما الترجمة الحرفية بغير المثل:

فمعناها أن يترجم نظم القرآن حذوا بحذو بقدر طاقة المترجم وما تسعه لغته، وهذا إن جاز في كلام البشر، لا يجوز بالنسبة لكتاب الله العزيز؛ لأن فيه من فاعله إهداراً لنظم القرآن؛ وإخلالا بمعناه؛ وانتهاكا لحرمته.

الترجمة الحرفية ليست تفسيراً للقرآن:

إن الترجمة الحرفية بالمثل، على فرض إمكانها فهي ليست من قبيل تفسير القرآن بغير لغته؛ لأنها عبارة عن هيكل القرآن بذاته، إلا أن الصورة اختلفت باختلاف اللغتين: المترجم منها والمترجم إليها. وعلى هذا فأبناء اللغة المترجم إليها يحتاجون إلى تفسيره وبيان ما فيه من أسرار وأحكام، كما يحتاج العربي الذي نزل بلغته إلى تفسيره.

وأما الترجمة الحرفية بغير المثل على فرض جوازها، فهي ليست من قبيل تفسير القرآن بغير لغته، لأنها عبارة عن هيكل للقرآن منقوص غير تام، وهذه الترجمة لم يترتب عليها سوى إبدال لفظ بلفظ آخر يقوم مقامه في تأدية بعض معناه، وليس في ذلك شيء من الكشف والبيان، لا شرح مدلول، ولا بيان مجمل، ولا تقييد مطلق ولا استنباط أحكام، ولا توجيه معان، ولا غير ذلك من الأمور التي اشتمل عليها التفسير المتعارف.

٢ ـ الترجمة التفسيرية للقرآن

الترجمة التفسيرية أو المعنوية: هي شرح الكلام وبيان معناه بلغة أخرى، بدون مراعاة لنظم الأصل وترتيبه، وبدون المحافظة على جميع معانيه المرادة منه. وذلك بأن نفهم المعنى الذي يراد من الأصل، ثم نأتي له بتركيب من اللغة المترجم إليها يؤديه على وفق الغرض الذي سيق له.

وعُلم مما تقدم مقدار الفرق بين الترجمة الحرفية والترجمة التفسيرية، ولإيضاح هذا الفرق نقول:

لو أراد إنسان أن يترجم قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ۝٢٩﴾ [الإسراء: ٢٩] ترجمة حرفية لأتى بكلام يدل على النهي عن ربط اليد في العنق، وعن مدّها غاية المدّ، ومثل هذا التعبير في اللغة المترجم إليها ربما كان لا يؤدي المعنى الذي قصده القرآن، بل قد يستنكر صاحب تلك اللغة هذا الوضع الذي ينهى عنه القرآن. أما إذا أراد أن يترجم هذه الجملة ترجمة تفسيرية، فإنه يأتي بالنهي عن التبذير والتقتير، مصورين بصورة شنيعة، ينفر منها الإنسان، حسبما يناسب أسلوب تلك اللغة المترجم إليها.

إذا علم هذا، أصبح من السهل علينا وعلى كل إنسان أن يقول بجواز ترجمة القرآن ترجمة تفسيرية بدون أن يتردد أدنى تردد؛ لأنها في الحقيقة ليست سوى تفسير للقرآن الكريم بلغة غير لغته التي نزل بها، وبعبارة أخرى هي: ترجمة للتفسير لا للقرآن.

شروط الترجمة التفسيرية

تفسير القرآن الكريم: من العلوم التي فرض على الأمة تعلمها، والترجمة التفسيرية: تفسير للقرآن بغير لغته، فكانت أيضاً من الأمور التي فرضت على الأمة، بل هي آكد لما يترتب عليها من المصالح المهمة، كتبليغ معاني القرآن وإيصال هدايته إلى المسلمين، وغير المسلمين ممن لا يتكلمون بالعربية، وأيضاً حماية للقرآن بالكشف عن أضاليل المبشرين الذين عمدوا إلى ترجمة القرآن ترجمة حشوها بعقائد زائفة وتعاليم فاسدة؛ ليظهروا القرآن

لمن لم يعرف لغته في صورة تنفر منه وتصد عنه؛ لهذا نرى أن نذكر شروط الترجمة التفسيرية وهي:

١ ـ أن تكون الترجمة على شريطة التفسير، لا يعول عليها إلا إذا كانت مستمدة من الأحاديث النبوية، وعلوم اللغة العربية. والأصول المقررة في الشريعة الإسلامية.

٢ ـ أن يكون المترجم بعيداً عن الميل إلى عقيدة زائفة تخالف ما جاء به القرآن، وهذا شرط في المفسر أيضاً.

٣ ـ أن يكون المترجم عالما باللغتين: المترجم منها والمترجم إليها، خبيراً بأسرارهما، يعلم الأسلوب والدلالة لكل منهما.

٤ ـ أن يُكتب القرآن أولا، ثم يُؤتى بعده بتفسيره، ثم يتبع هذا بترجمته التفسيرية حتى لا يتوهم متوهم أن هذه الترجمة ترجمة حرفية للقرآن[١].

---

١) المراجع: المدخل المنير: محمد حسنين مخلوف العدوي، مطبعة المعاهد ١٣٥١هـ ـ ٤١ ـ إلى نهايته، ومجلة نور الإسلام (الأزهر) السنة الثالثة ٥٧ ـ ٦٥، ومنهج الفرقان ـ محمد أبو سلامة: ٢ / ٧١ ـ ٩٠.

الباب الأول

المرحلة الأولى للتفسير
أو
التفسير في عهد النبي ﷺ وأصحابه

الفصل الأول
فهم النبي ﷺ والصحابة للقرآن

تمهيد:

نزل القرآن الكريم على نبي أمي، وقوم أميين، وكان كلامهم مشتملا على الحقيقة والمجاز، والتصريح والكناية، والإيجاز والإطناب. وجرياً على سنة الله تعالى في إرسال الرسل، نزل القرآن بلغة العرب وعلى أساليبهم في كلامهم ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

فَهْم النبي ﷺ والصحابة للقرآن:

كان طبيعياً أن يفهم النبي ﷺ القرآن جملة وتفصيلا، بعد أن تكفل الله تعالى له بالحفظ والبيان، قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة: ١٧ ـ ١٩]، كما كان طبيعياً أن يفهم أصحاب النبي ﷺ القرآن في جملته، أي بالنسبة لظاهره وأحكامه، أما فهمه تفصيلا، فهذا غير ميسور لهم بمجرد معرفتهم للغة القرآن، بل لا بد لهم من البحث والنظر والرجوع إلى النبي ﷺ فيما يشكل عليهم فهمه؛ وذلك لأن القرآن فيه المجمل، والمشكل، والمتشابه، وغير ذلك مما لا بد في معرفته من أمور أخرى يرجع إليها.

تفاوت الصحابة في فهم القرآن:

لم يكونوا في درجة واحدة بالنسبة لفهم معاني القرآن، بل تفاوتت مراتبهم، وأشكل على بعضهم ما ظهر لبعض آخر منهم، وهذا يرجع إلى تفاوتهم في ملازمة الرسول ﷺ وتفاوتهم في القوة العقلية، وتفاوتهم في معرفة ما أحاط بالقرآن من أسباب النزول وظروف وملابسات.

ومما يشهد لهذا الذي ذهبنا إليه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ على المنبر: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١﴾ [عبس: ٣١]، فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأب؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: إن هذا لهو التكلف يا عمر(١)(٢).

ونجد في رواية البخاري، أن عدي بن حاتم لم يفهم معنى قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ﴾ [البقرة: ١٨٧]. وبلغ من أمره أن أخذ عقالا أبيض وعقالا أسود، فلما كان بعض الليل، نظر إليهما فلم يستبينا، فلما أصبح أخبر الرسول بشأنه، فعرض بقلة فهمه، وأفهمه المراد(٣).

وهذا مسروق(٤) يؤكد تفاوت الصحابة في الفهم بقوله: جالست أصحاب محمد ﷺ فوجدتهم كالإخاذ - يعني الغدير - فالإخاذ يروي الرجل، والإخاذ يروي الرجلين، والإخاذ يروي العشرة، والإخاذ يروي المائة، والإخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم(٥).

مصادر التفسير في عهد النبي ﷺ وأصحابه

كان الصحابة في هذا العصر يعتمدون في تفسيرهم للقرآن الكريم على أربعة مصادر:

١. القرآن الكريم.

٢. النبي ﷺ.

٣. الاجتهاد وقوة الاستنباط.

٤. أهل الكتاب من اليهود والنصارى(٦).

---

١) الإتقان للسيوطي: ٢/ ١١٣.

٢ - قال الحاكم عن هذه الرواية ٢/ ٥١٤: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي». وفي فتح الباري: ١٣/ ٢٧١. لم يكن عمر رضي الله عنه يجهل معنى كلمة: (أب) وما كان استفساره عن معنى الكلمة، يقول ابن تيمية: وهذا محمول على أنه رضي الله عنه أراد استكشاف علم كيفية (الأب) وإلا فكونه نباتا من الأرض ظاهر لا يجهل لقوله تعالى: ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝٢٨ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا﴾، مقدمة في أصول التفسير - ابن تيمية - المكتبة العلمية - باكستان - لاهور: ٣٧.

٣ - البخاري: ٤/١١٣. ومسلم: ١٠٩٠. والترمذي: ٢٩٧٣. وأبو داود: ٢٣٤٩. والنسائي: ١٤٨ كلهم في الصيام. وفي جامع الأصول رقم: ٤٩٣.

٤ - ستأتي ترجمته في: (مدرسة التفسير في العراق).

٥) مذكرة تاريخ التشريع الإسلامي لكلية الشريعة - السبكي، السايس، البربري، وادي الملوك، ١٩٣٦م: ٨٤.

٦ - إن مجرد سماع بعض الصحابة لبعض القصص من أهل الكتاب لا يبرر لنا اعتبار أهل الكتاب مصدرا من مصادر التفسير عند الصحابة، ولا يوجد ما يدل على أن الصحابة اهتموا بهذه الروايات على أنها مصدر من مصادر التفسير. بل من عيوب التفسير المأثور عن الصحابة أنه يذكر هذه الإسرائيليات، كما هو معلوم.

ونوضح كل مصدر من هذه المصادر الأربعة فنقول:

المصدر الأول
القرآن الكريم

لا بد لمن يتعرض لتفسير كتاب الله تعالى أن ينظر في القرآن أولاً، فيجمع ما تكرر منه في موضوع واحد، ويقابل الآيات بعضها ببعض، وبهذا يكون قد فسر القرآن بالقرآن، فصاحب الكلام أدرى بمعاني كلامه.

ومن تفسير القرآن بالقرآن: أن يشرح ما جاء موجزا في القرآن بما جاء في موضع آخر مسهباً، وذلك كقصة آدم وإبليس، جاءت مختصرة في بعض المواضع، وجاءت مسهبة مطولة في موضع آخر. وكقصة موسى وفرعون، جاءت موجزة في بعض المواضع، وجاءت مسهبة مفصلة في موضع آخر.

ومن تفسير القرآن بالقرآن: أن يحمل المجمل على المبين ليفسر به، وأمثلة ذلك كثيرة في القرآن، ومنه قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام: ١٠٣]، فسرتها آية: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٣]. ومنه قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَـٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ﴾ [المائدة: ١] فسرتها آية: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَـٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ﴾ [المائدة: ٣].

وكذلك حمل المطلق على المقيد، والجمع بين ما يتوهم أنه مختلف وغير ذلك مما يوجب علينا جمع آيات الموضوع الواحد للاستعانة بتفسير بعضها البعض.

المصدر الثاني
النبي ﷺ

كان الواحد من الصحابة إذا أشكلت عليه آية من كتاب الله، رجع إلى رسول الله ﷺ في تفسيرها، فيبين له ما خفي عليه؛ لأن وظيفته البيان، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

والذي يرجع إلى كتب السنة يجد أنها قد أفردت للتفسير باباً من الأبواب التي اشتملت عليها، ذكرت فيه كثيراً من التفسير المأثور عن رسول الله ﷺ، فمن ذلك:

عن عدي بن [حاتم] قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المغضوب عليهم هم اليهود، وإن الضالين هم النصارى»[1].

وغير هذا كثير مما صح عن رسول الله ﷺ.

الوضع على رسول الله ﷺ في التفسير:

غير أن القصاص والوضاع زادوا في هذا النوع من التفسير كثيراً ونسبوا إلى رسول الله ﷺ ما لم يقله، وليس أدل على هذا مما روي عن أنس أنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَنَـٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾ قال: «القنطار ألف أوقية». وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «القناطر اثنا عشر ألف أوقية»[2].

فمثل هذا التناقض في مقدار وزن القنطار، لا يمكن أن يصدر عن رسول الله ﷺ، ولهذا رد العلماء كثيرا مما ورد من التفسير منسوبا إلى رسول الله ﷺ، وقد نقل عن الإمام أحمد أنه قال: ثلاثة ليس لها أصل: التفسير، والملاحم، والمغازي. ومراده من قوله هذا ـ كما نقل عن المحققين[3] من أتباعه ـ أن الغالب أنه ليس لها أسانيد صحاح متصلة[4].

هل تناول النبي ﷺ القرآن كله بالبيان؟

اختلف العلماء في المقدار الذي بينه النبي ﷺ من القرآن لأصحابه: فمنهم من ذهب إلى القول بأن رسول الله ﷺ بين لأصحابه كل معاني القرآن كما بين لهم ألفاظه، وعلى رأس هؤلاء ابن تيمية[5][6].

---

١ ـ الترمذي: ٢٩٥٦ وقال: حسن غريب. وأحمد في المسند: ٣٧٨/٤. وقد أخرج البخاري ومسلم منه طرفا / جامع الأصول: ٦٦٦٢.

٢) فجر الإسلام: أحمد (بك) أمين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٥م: ٤٢٥، وقد حقق الحافظ ابن كثير في كتابه تفسير القرآن لابن كثير: للحافظ عماد الدين ابن كثير، التجارية (مصطفى محمد) ١٣٥٦هـ عند تفسيره لهذه الآية: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ [آل عمران: ١٤] أنه لم يصح عن رسول الله ﷺ حديث في تحديد القنطار، وما ورد من ذلك فموقوف على بعض الصحابة.

٣ ـ أظن الذهبي يقصد بالمحققين ابن تيمية؛ لأن ما ذكره هو قول ابن تيمية وتتمته: (لأن الغالب عليها المراسيل). مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ـ طبعة لاهور: ١٥.

٤) الإتقان للسيوطي: ١٧٨/٢.

٥) انظر مقالته في كتابه: مقدمة في أصول التفسير، الترقي بدمشق ١٩٣٩م: ٥.

٦ ـ لا أظن بأن هذا رأي ابن تيمية وبهذه الطريقة التي فهمها الذهبي وذلك للأسباب الآتية:

١ ـ قول ابن تيمية المشار إليه في المقدمة ليس فيه لفظ العموم (كل) في الأصل.

٢ ـ يقول ابن تيمية في مقدمته ـ طبعة لاهور: ص ٢: «فالعادة تمنع أن يقرأ كتابا في فن من العلم كالطب والحساب ولا يستشرحوه، فكيف بكلام الله الذي هو عصمتهم»، إذاً يفهم قصد ابن تيمية أن الرسول كان يشرح ويفسر جوابا على أسئلتهم بمعنى ما تدعو الحاجة إليه، ولا يمكن أن يقصد ابن تيمية أن الرسول ﷺ كان يبين كل صغيرة وكبيرة وما يحتاجه الصحابة وما لم =

ومنهم من ذهب إلى القول بأن رسول الله ﷺ لم يبين لأصحابه من معاني القرآن إلا القليل، وعلى رأس هؤلاء، الخويي والسيوطي[1]، وقد استدل كل فريق على ما ذهب إليه بأدلة نوردها ليتضح لنا الحق ويظهر الصواب.

١. أدلة من قال بأن النبي ﷺ بين كل معاني القرآن:

أ ـ قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]. والبيان في الآية يتناول بيان معاني القرآن، كما يتناول بيان ألفاظه، وقد بين الرسول ألفاظه كلها، فلا بد أن يكون قد بين كل معانيه أيضا، وإلا كان مقصراً في البيان الذي كلف به من الله.

ب ـ ما روي عن أبي عبد الرحمن السلمي[2] أنه قال: «حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن، كعثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود، وغيرهما: أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً». والذي حمل الصحابة على هذا، ما جاء في كتاب الله تعالى من قوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]. وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن.

ج ـ قالوا إن العادة تمنع أن يقرأ قوم كتابا في فن من العلم كالطب أو الحساب ولا يستشرحوه، فكيف بكتاب الله الذي فيه عصمتهم، وبه نجاتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة؟.

د ـ روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: من آخر ما نزل آية الربا، وإن رسول الله ﷺ قبض قبل أن يفسرها، وهذا يدل بالفحوى على أنه كان يفسر لهم كل ما نزل. وانه إنما لم يفسر هذه

= يحتاجوه، ولذلك أقرّ ابن تيمية بأن هناك حاجة لبعض معاني القرآن التي لا يجد لها تفسيرا عن الرسول ﷺ ولا عن صحابته فقال في مقدمته :٣٤: «إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا وجدته عن الصحابة فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين».

٣ ـ لو كان ابن تيمية يقول بما فهم الذهبي لما نقل في آخر مقدمته ص٤٠ قول ابن عباس مقراً له ومؤيداً وهو: «التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرف العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله، والله سبحانه وتعالى أعلم ».

٤ ـ إن الشيء الذي يجزم ابن تيمية أن الرسول ﷺ بينه ولا بد أنه نقل إلينا هو أصول الدين: فيقول في مجموع الفتاوى ٣/ ٢٩٤: «فإن المسائل التي هي من أصول الدين، التي تستحق أن تسمى أصول الدين.. لا يجوز أن يقال: لم ينقل عن النبي ﷺ فيها كلام».

١) انظر ما نقله السيوطي عن الخوبي في الإتقان: ٢/ ١٧٤، وما ارتضاه السيوطي في الإتقان: ٢/ ١٧٩.

٢) هو عبد الله بن حبيب التابعي المقرئ المتوفى سنة ٧٢هـ، وهو غير أبي عبد الرحمن السلمي الصوفي المتوفى سنة: ٤١٢ هـ.

الآية، لسرعة موته بعد نزولها، وإلا لم يكن للتخصيص بها وجه[١].

٢. أدلة من قال بأن النبي ﷺ لم يبين لأصحابه إلا القليل من معاني القرآن:

أ ـ عن عائشة قالت: ما كان رسول الله ﷺ يفسر شيئا من القرآن إلا آياً بعدد، علمه إياهن جبريل[٢].

ب ـ قالوا: إن بيان النبي ﷺ لكل معاني القرآن متعذر ولا يمكن ذلك إلا في آي قلائل، ولم يأمر الله نبيه بالتنصيص على المراد في جميع آياته لأجل أن يتفكر عباده في كتابه[٣].

ج ـ قالوا: لو كان رسول الله ﷺ بين لأصحابه كل معاني القرآن لما كان لتخصيصه ابن عباس بالدعاء له بقوله: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل» فائدة؛ لأنه يلزم من بيان رسول الله ﷺ لأصحابه كل معاني القرآن استواؤهم في معرفة تأويله، فكيف يخصص ابن عباس بهذا الدعاء؟[٤].

مناقشة أدلة الفريق الأول

ـ استدلالهم بقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]. غير صحيح؛ لأن الرسول ـ بمقتضى كونه مأموراً بالبيان ـ كان يبين لهم ما أشكل عليهم فهمه من القرآن، لا كل معانيه ما أشكل منها وما لم يشكل.

ـ وأما استدلالهم بما روي عن عثمان وابن مسعود وغيرهما من أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات من القرآن لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها، فغاية ما يفيده، أنهم كانوا لا يجاوزون ما تعلموه من القرآن حتى يفهموا المراد منه، وهو أعم من أن يفهموه من النبي ﷺ أو من غيره من إخوانهم الصحابة، أو من تلقاء أنفسهم، حسبما يفتح الله به عليهم من النظر والاجتهاد.

ـ وأما الدليل الثالث: فكل ما يدل عليه: هو أن الصحابة كانوا يفهمون القرآن ويعرفون معانيه، شأن أي كتاب يقرؤه قوم، ولكن لا يلزم منه أن يكونوا قد رجعوا إلى النبي ﷺ في كل لفظ منه.

---

١) استخلصنا هذه الأدلة من: مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ٥ ـ ٦، ومن الإتقان للسيوطي: ٢/ ٢٠٥.

٢) الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، دار الكتب ١٩٣٥ ـ ١٩٤٥م: ١/ ٣١، ورواية الطبري في تفسيره جامع البيان في تفسير القرآن: ابن جرير الطبري، الأميرية ١٣٢٣هـ: ١/ ٢١ (... إلا آيات تُعدّ).

٣) انظر ما نقله السيوطي في الإتقان عن الخوبي ٢/ ١٧٤.

٤) انظر تفسير القرطبي ١/ ٣٣، [وسيأتي تخريج الحديث عند حديثي عن ابن عباس].

ـ وأما الدليل الرابع: فلا يدل أيضاً؛ لأن وفاة النبي ﷺ قبل أن يبين لهم آية الربا لا تدل على أنه كان يبين لهم كل معاني القرآن، فلعل هذه الآية كانت مما أشكل على الصحابة، فكان لابد من الرجوع فيها إلى النبي ﷺ، شأن غيرها من مشكلات القرآن.

مناقشة أدلة الفريق الثاني

ـ وأما استدلال أصحاب الرأي الثاني بحديث عائشة، فهو استدلال باطل؛ لأن الحديث منكر غريب. وعلى فرض صحة الحديث فهو محمول ـ كما قال أبو حيان[1] ـ على مغيبات القرآن، وتفسيره لمجمله، ونحوه مما لا سبيل إليه إلا بتوقيف من الله[2]. وفي معناه ما قاله ابن جرير[3]، وما قاله ابن عطية[4].

ـ وأما الدليل الثاني، فلا يدل أيضاً على ندرة ما جاء عن النبي ﷺ في التفسير؛ إذ إن دعوى إمكان التفسير بالنسبة لآيات قلائل، وتعذره بالنسبة للكل غير مسلمة.

وأما ما قيل من أن النبي ﷺ لم يؤمر بالتنصيص على المراد في جميع الآيات لأجل أن يتفكر الناس في آيات القرآن فليس بشيء، إذ إن النبي عليه الصلاة والسلام مأمور بالبيان، وقد يشكل الكثير على أصحابه فيلزمه البيان.

ـ وأما الدليل الثالث، فلو سلمنا أنه يدل على أن النبي ﷺ لم يفسر كل معاني القرآن، فلا نسلم أنه يدل على أنه فسر النادر منه كما هو المدعى.

اختيارنا في المسألة:

والرأي الذي تميل إليه النفس ـ بعد أن اتضح لنا مغالاة كل فريق في دعواه ـ هو أن نتوسط بين الرأيين فنقول: إن الرسول ﷺ بيّن الكثير من معاني القرآن لأصحابه، كما تشهد بذلك كتب الصحاح، ولم يبين كل معاني القرآن؛ لأن من القرآن ما استأثر الله تعالى بعلمه، ومنه ما يعلمه العلماء، ومنه ما تعلمه العرب من لغاتها، ومنه ما لا يعذر أحد في جهالته كما قال ابن عباس: التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعرفه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله[5].

هذا، وإن مما يؤيد أن النبي ﷺ لم يفسر كل معاني القرآن، أن الصحابة رضوان الله

---

١ ـ ستأتي ترجمة أبي حيان عند ذكر تفسيره: البحر المحيط.

٢) البحر المحيط: أبو حيان، السعادة ١٣٢٨هـ: ١/ ١٣.

٣) تفسير الطبري: ١/ ٢٩.

٤) ونقله عنه القرطبي في تفسيره: ١/ ٣١.

٥) تفسير ابن جرير الطبري: ١/ ٢٥.

عليهم أجمعين، وقع بينهم الاختلاف في تأويل بعض الآيات، ولو كان عندهم فيه نص عن رسول الله ﷺ ما وقع هذا الاختلاف، أو لارتفع بعد الوقوف على النص.

أوجه بيان السنة للكتاب

١ ـ بيان المجمل في القرآن، مثل: بيانه عليه الصلاة والسلام لمواقيت الصلوات الخمس، وعدد ركعاتها، وكيفيتها، وبيانه لمقادير الزكاة، وأوقاتها، وأنواعها، وبيانه لمناسك الحج، ولذا قال: «خذوا عني مناسككم»[١]. وقال: «صلوا كما رأيتموني أصلي»[٢].

ـ وتوضيح المشكل، مثل: تفسيره ﷺ للخيط الأبيض والخيط الأسود في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [البقرة: ١٨٧] بأنه بياض النهار وسواد الليل[٣].

ـ وتخصيص العام، مثل: تخصيصه ﷺ الظلم في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢] بالشرك، فإن بعض الصحابة فهم أن الظلم مراد منه العموم، حتى قال: وأينا لم يظلم نفسه؟ فقال النبي ﷺ: «ليس بذلك؛ إنما هو الشرك»[٤].

ـ وتقيد المطلق، مثل: تقييده اليد في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَـٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المائدة: ٣٨]. بأنها اليد اليمنى.

٢ ـ بيان معنى لفظ أو متعلقه، كبيان المغضوب عليهم باليهود، والضالين بالنصارى[٥]. وكبيان قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥] بأنها مطهرة من الحيض والبزاق والنخامة[٦].

٣ ـ بيان أحكام زائدة على ما جاء في القرآن الكريم، كتحريم نكاح المرأة على عمتها وخالتها[٧]، وصدقة الفطر، وميراث الجدة، وغير هذا كثير.

---

١ ـ مسلم: ١١٩٧. وأبو داود: ١٩٧٠. والنسائي: ٥/ ٢٧٠. كلهم في الحج. وفي جامع الأصول: ١٥٨٣.

٢ ـ البخاري في الأذان.

٣ ـ البخاري: ٤/ ١١٣. ومسلم: ١٠٩٠. والترمذي: ٢٩٧٣. وأبو داود: ٢٣٤٩. والنسائي: ١٤٨ كلهم في الصيام. وفي جامع الأصول رقم: ٤٩٣.

٤ ـ اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ـ محمد فؤاد عبد الباقي: ح ٧٨. والمسند: ١/ ٣٧٨.

٥ ـ الترمذي: ٢٩٥٦ وقال: حسن غريب. وأحمد في المسند: ٤/ ٣٧٨. وقد أخرج البخاري ومسلم منه طرفا / جامع الأصول: ٦٦٦٢.

٦ ـ البخاري: ٦/ ٢٣٢. ومسلم: ٢٨٣٤. والترمذي: ٢٥٤٠. وفي جامع الأصول: ٨٠٧٦.

٧ ـ البخاري: ٩/ ١٣٨. ١٣٩. ومسلم: ١٤٠٨. والموطأ: ٢/ ٥٣٢. والترمذي: ١١٢٦. والنسائي: ٦/ ٩٦ ـ ٩٨ كلهم في النكاح. وفي جامع الأصول: ٩٠٥٥.

٤ ـ بيان النسخ: كأن يبين رسول الله ﷺ أن آية كذا نسخت بكذا، أو أن حكم كذا نسخ بكذا، فقوله ﷺ: «لا وصية لوارث»[1] بيان منه أن آية الوصية للوالدين والأقربين منسوخ حكمها وإن بقيت تلاوتها.

٥ ـ بيان التأكيد، وذلك بأن تأتي السنة موافقة لما جاء به الكتاب، ويكون القصد من ذلك تأكيد الحكم وتقويته، وذلك كقوله ﷺ: «لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه»[2] فإنه يوافق قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [النساء: ٢٩].

المصدر الثالث

الاجتهاد

كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، إذا لم يجدوا التفسير في كتاب الله تعالى، ولم يتيسر لهم أخذه عن رسول الله ﷺ رجعوا في ذلك إلى اجتهادهم وإعمال رأيهم، وهذا بالنسبة لما يحتاج إلى نظر واجتهاد، أما ما يمكن فهمه بمجرد معرفة اللغة العربية فكانوا لا يحتاجون في فهمه إلى إعمال النظر، فهُم من خُلّص العرب، يعرفون كلام العرب ومناحيهم في القول.

أدوات الاجتهاد في التفسير عند الصحابة:

استعان الصحابة على تفسير بعض آي القرآن بالرأي والاجتهاد بما يأتي:

١ ـ معرفة أوضاع اللغة وأسرارها: لأنها تعين على فهم الآيات.

٢ ـ معرفة عادات العرب: لأن عادات العرب تعين على فهم كثير من الآيات التي لها صلة بعاداتهم، فمثلا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾ [سورة التوبة: ٣٧]، لا يمكن فهم المراد منه إلا لمن عرف عادات العرب في الجاهلية وقت نزول القرآن، وأنهم كانوا يقصدون التأخير في الأشهر الحرم لتناسب أهواءهم في قتال من يقاتلونه في الأشهر الحرم.

٣ ـ معرفة أحوال اليهود والنصارى في جزيرة العرب وقت نزول القرآن: لأنها تعين

---

١ ـ مسند الإمام أحمد: ٥/ ٢٦٧. والترمذي: ٢١٢٢ وقال: حسن صحيح. والنسائي: ٦/ ٢٤٧. وقال الأرناؤوط: وهو حديث حسن / جامع الأصول: ٩٢٥٣.

٢ ـ مسند الإمام أحمد: ٥/ ٧٢، وفي مجمع الزوائد: ٤/ ١٧١ قال الهيثمي: ورجال أحمد ثقاة. وهو في فتح الباري: ٣/ ٢٨٣. وسنن الدارقطني: ٣/ ٢٦. وفي مستدرك الحاكم: ١/ ١٧١. وفي صحيح ابن حبان: ١٣/ ٣١٧.

على فهم الآيات التي فيها الإشارة إلى أعمالهم وعقائدهم والرد عليهم.

٤ ـ قوة الفهم وسعة الإدراك: وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده. وكثير من آيات القرآن يدقّ معناها، ولا يظهر إلا لمن أوتي حظا من الفهم والبصيرة.

المصدر الرابع
أهل الكتاب

وذلك أن القرآن الكريم يتفق مع التوراة في بعض المسائل، وبالأخص في قصص الأنبياء، وما يتعلق بالأمم الغابرة، وكذلك يشتمل القرآن على مواضع وردت في الإنجيل كقصة ميلاد عيسى ابن مريم، ومعجزاته عليه السلام، غير أن القرآن الكريم لم يستوف القصة من جميع نواحيها، بل اقتصر من ذلك على موضع العبرة فقط.

ولما كانت العقول دائما تميل إلى الاستيفاء والاستقصاء، جعل بعض الصحابة ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ يرجعون في استيفاء هذه القصص التي لم يتعرض لها القرآن من جميع نواحيها إلى من دخل في دينهم من أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام، وكعب الأحبار(١)، وغيرهم من علماء اليهود والنصارى.

وهذا بالضرورة كان بالنسبة إلى ما ليس عندهم فيه شيء عن رسول الله ﷺ.

أهمية هذا المصدر بالنسبة للمصادر السابقة:

غير أن رجوع بعض الصحابة إلى أهل الكتاب، لم يكن له من الأهمية في التفسير ما للمصادر الثلاثة السابقة، وإنما كان مصدرًا ضيقاً محدودًا، وذلك أن التوراة والإنجيل وقع فيهما كثير من التحريف والتبديل، فكانوا لا يأخذون عن أهل الكتاب إلا ما يتفق وعقيدتهم ولا يتعارض مع القرآن. أما ما اتضح لهم كذبه مما يعارض القرآن ويتنافى مع العقيدة فكانوا يرفضونه ولا يصدقونه، ووراء هذا وذاك ما هو مسكوت عنه، لا هو من قبيل الأول، ولا هو من قبيل الثاني، وهذا النوع كانوا يسمعونه من أهل الكتاب ويتوقفون فيه، فلا يحكمون عليه بصدق ولا كذب، امتثالاً لقول الرسول ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦]»(٢).

وسنتطرق لمزيد من التفصيل حول الإسرائيليات عند حديثنا عن التفسير المأثور.

---

١ ـ ستأتي ترجمتهم عند الحديث عن أقطاب الروايات الإسرائيلية.

٢ ـ البخاري في تفسير سورة البقرة: ٨/ ١٢٩.

الفصل الثاني

أشهر المفسرين من الصحابة

عدّ السيوطي ـ رحمه الله ـ في الإتقان من اشتهر بالتفسير من الصحابة وسماهم، وهم: الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وابن عباس، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهم أجمعين.

وهناك من تكلم في التفسير من الصحابة غير هؤلاء. غير أن ما نقل عنهم في التفسير قليل جدا، كما أن العشرة الذين اشتهروا بالتفسير، تفاوتوا قلة وكثرة، فأبو بكر وعمر وعثمان لم يرد عنهم في التفسير إلا النزر اليسير، ويرجع السبب في ذلك إلى تقدم وفاتهم، واشتغالهم بمهام الخلافة والفتوحات، أضف إلى ذلك وجودهم في وسط أغلب أهله علماء بكتاب الله، مما جعل الحاجة إلى الرجوع إليهم في التفسير غير كبيرة.

أما علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فهو أكثر الراشدين رواية عنه في التفسير، والسبب في ذلك راجع إلى تفرغه عن مهام الخلافة مدة طويلة، دامت إلى نهاية خلافة عثمان رضي الله عنه، وتأخر وفاته إلى زمن كثرت فيه حاجة الناس إلى من يفسر لهم ما خفي عنهم من معاني القرآن، وذلك ناشئ من اتساع رقعة الإسلام، ودخول كثير من الأعاجم في دين الله، مما كاد يذهب بخصائص اللغة العربية.

وكذلك كثرت الرواية في التفسير عن عبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب. أما باقي العشرة وهم: زيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير، فهم وإن اشتهروا بالتفسير إلا أنهم قلت عنهم الرواية ولم يصلوا في التفسير إلى ما وصل إليه هؤلاء الأربعة المكثرون، والذين سنتحدث عنهم بترتيب يتناسب مع كثرة ما روي عنهم:

١ ـ عبد الله بن عباس

ترجمته:

هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي. ابن عم رسول الله ﷺ. ولد والنبي ﷺ وأهل بيته بالشعب بمكة. فأتي به إلى النبي ﷺ فحنّكه

بريقه، وذلك قبل الهجرة بثلاث سنين، ولازم النبي ﷺ في صغره؛ لقرابته منه، ولأن خالته ميمونة كانت من أزواج رسول الله ﷺ، وتوفي رسول الله ﷺ وله من العمر ١٣ سنة، وقيل ١٥سنة، فلازم كبار الصحابة وأخذ عنهم ما فاته من حديث رسول الله ﷺ، وكانت وفاته سنة ٦٨هـ على الأرجح، وله من العمر ٧٠ سنة. مات بالطائف ودفن بها، وتولى وضعه في قبره محمد بن الحنفية، وقال بعد أن سوّى عليه التراب: مات والله اليوم حبر هذه الأمة.

مبلغه من العلم:

كان ابن عباس يلقب بالحبر والبحر لكثرة علمه، وكان على درجة عظيمة من الاجتهاد والمعرفة بمعاني كتاب الله، ولذا انتهت إليه الرياسة في الفتوى والتفسير، وكان عمر رضي الله عنه يجلسه في مجلس مع كبار الصحابة ويدنيه منه، وكان يقول له: إنك لأصبح فتياننا وجها، وأحسنهم خلقا، وأفقههم في كتاب الله. وكان رضي الله عنه يعتد برأي ابن عباس مع حداثة سنه؛ يدلنا على ذلك رواية ابن عباس، قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه وقال: لِمَ يدخل هذا معنا وإن لنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من أعلمكم، فدعاهم ذات يوم فأدخلني معهم، فما رأيت أنه دعاني يومئذ إلا ليريهم، فقال: ما تقولون في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ①﴾ [النصر: ١] فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم ولم يقل شيئاً، فقال لي: أكذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا، فقال: ما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له، قال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ①﴾ فذلك علامة أجلك ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ③﴾ فقال عمر: لا أعلم منها إلا ما تقول[1].

أسباب نبوغه:

١ ـ دعاء النبي ﷺ له بقوله: «اللهم علمه الكتاب والحكمة». وفي رواية أخرى: «اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل»[2]. والذي يرجع إلى كتب التفسير بالمأثور، يرى أثر هذه الدعوة النبوية يتجلى واضحا فيما صح عن ابن عباس رضي الله عنهما.

٢ ـ نشأته في بيت النبوة، وملازمته لرسول الله ﷺ من عهد التمييز؛ فكان يسمع منه الشيء الكثير، ويشهد كثيراً من الحوادث والظروف التي نزلت فيها بعض آيات القرآن.

٣ ـ ملازمته لأكابر الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ، يأخذ عنهم ويروي لهم، ويعرف منهم مواطن نزول القرآن، وتواريخ التشريع وأسباب النزول، وبهذا استعاض عما فاته من العلم بموت رسول الله ﷺ، وتحدث بهذا ابن عباس عن نفسه فقال: وجدت عامة حديث رسول

---

١ ـ البخاري: ٨/ ٥٦٥،٥٦٦. والترمذي: ٣٣٥٩ كلاهما في تفسير سورة الفتح. وفي جامع الأصول: ٨٩٢.

٢ ـ أحمد: ١/ ٢٦٤ و ٣١٤. وأما رواية البخاري: (اللهم علمه الحكمة)، (اللهم علمه الكتاب)، (اللهم فقهه في الدين). ٤/ ٢١٧، ونحوه عند مسلم: ح ٢٤٧٧. وفي جامع الأصول: ٦٦٠٢.

الله ﷺ عند الأنصار، فإن كنت لآتي الرجل فأجده نائماً، لو شئت أن يوقظ لي لأوقظ، فأجلس على بابه تسفي على وجهي الريح حتى يستيقظ متى ما استيقظ، وأسأله عما أريد، ثم أنصرف.

٤ ـ حفظه للغة العربية، ومعرفته لغريبها، وخصائصها، وأساليبها؛ وكثيراً ما كان يستشهد للمعنى الذي يفهمه من لفظ القرآن بالبيت والأكثر من الشعر العربي.

٥ ـ بلوغه مرتبة الاجتهاد، وعدم تحرجه منه، وشجاعته في بيان ما يعتقد أنه الحق.

قيمة ابن عباس في تفسير القرآن:

تتبين قيمة ابن عباس في التفسير، من قول تلميذه مجاهد عنه: إذا فسّر الشيء رأيت عليه النور. وسؤال عمر له مع الصحابة عن تفسير قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ [النصر: ١] وجوابه بالجواب المشهور عنه[١]، يدل على أن ابن عباس كان يستخرج خفي المعاني التي يشير إليها القرآن، وفي عصر التابعين كانت في مكة مدرسة يتلقى تلاميذها التفسير عن ابن عباس. وقد صرح الزركشي بأن قول ابن عباس مقدم على قول غيره من الصحابة عند تعارض ما جاء عنهم في التفسير[٢].

رجوع ابن عباس إلى أهل الكتاب:

كان ابن عباس يرجع إلى أهل الكتاب في المواضع التي أجملت في القرآن وفُصّلت في التوراة أو الإنجيل، ولكن في دائرة محدودة ضيقة، تتفق مع القرآن وتشهد له، أما ما عدا ذلك فكان ابن عباس لا يقبله ولا يأخذ به.

اتهام جولد زيهر[٣] والأستاذ أحمد أمين لابن عباس وغيره من الصحابة بالتوسع في الأخذ عن أهل الكتاب:

يقول جولد زيهر في كتابه: (المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن): وكثيرا ما يذكر أنه فيما يتعلق بتفسير القرآن، كان ابن عباس يرجع إلى رجل يسمى أبا الجلد [جيلان] بن فروة الأزدي[٤]، الذي أثنى الناس عليه بأنه كان يقرأ الكتب... ومن بين المراجع العلمية المفضلة عند ابن عباس، نجد أيضا كعب الأحبار اليهودي، وعبد الله بن سلام، وأهل الكتاب على

---

١ ـ سبق تخريجي لهذه الرواية آنفا عند الحديث عن مبلغ ابن عباس من العلم.

٢) الإتقان للسيوطي: ٢/ ١٨٣.

٣ ـ مستشرق مجري، عرف بعدائه للإسلام وبخطورة كتاباته عنه، ومن محرري: «دائرة المعارف الإسلامية».

٤ ـ كتبه الذهبي: غيلان. والصحيح: جيلان، كما أثبته وهو: أبو الجلد الجوني حي من الأزد واسمه: جيلان بن فروة وكان ثقة. الطبقات الكبرى ـ محمد بن سعد بن منيع أبو عبد الله البصري الزهري ـ دار صادر ـ بيروت.

العموم. وقد تابعه الأستاذ أحمد أمين على هذا الرأي في كتابه: فجر الإسلام.

ردّ هذا الاتهام:

والحق أن هذا غلو في الرأي، وبعد عن الصواب، فابن عباس ـ كما قلت آنفا ـ وغيره من الصحابة:

أ ـ كانوا يسألون علماء اليهود الذين اعتنقوا الإسلام، ولكن لم يكن سؤالهم عن شيء يمس أصول الدين أو فروعه، وإنما كانوا يسألون أهل الكتاب عن بعض القصص والأخبار الماضية.

ب ـ لم يكونوا يقبلون كل ما يروى لهم؛ فما وافق الدين رووه وما خالفه كذبوه، وما سكت عنه سكتوا عنه، ولم يتحرجوا من روايته وسيأتي تفصيل هذا عند الكلام عن الإسرائيليات في التفسير.

ومما يرد على هؤلاء ما رواه البخاري عن ابن عباس أنه قال: يا معشر المسلمين: تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذي أنزل على نبيه ﷺ أحدث الأخبار بالله، تقرؤونه لم يشب [أي لم يختلط بغيره]، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدّلوا ما كتب الله. وغيروا بأيديهم الكتاب فقالوا: ﴿هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ﴾ [البقرة ٧٩]، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم، ولا والله ما رأينا رجلا منهم قط يسألكم عن الذي أنزل عليكم[١].

رجوع ابن عباس إلى الشعر القديم:

كان يرجع في فهم معاني الألفاظ الغريبة التي وردت في القرآن إلى الشعر الجاهلي، وكان غيره من الصحابة يسلك هذا الطريق في فهم غريب القرآن، غير أن ابن عباس، امتاز بهذه الناحية واشتهر بها أكثر من غيره، فقد روى أبو بكر بن الأنباري عنه أنه قال: الشعر ديوان العرب، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب، رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا ذلك منه[٢].

الرواية عن ابن عباس ومبلغها من الصحة:

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما في التفسير مالا يحصى كثرة، فلا تكاد تجد آية من كتاب الله تعالى إلا ولابن عباس رضي الله عنهما فيها قول أو أقوال، الأمر الذي جعل نقاد الأثر ورواة الحديث يقفون إزاء هذه الروايات وقفة المرتاب، فتتبعوا سلسلة الرواة، وكشفوا للناس عن مقدار هذه

---

١) البخاري في كتاب الشهادات جـ ٥/ ١٨٥ من فتح الباري.

٢) الإتقان للسيوطي: ١/ ١١٩.

الروايات قوة وضعفا. وأرى أن أسوق هنا أشهر الروايات عن ابن عباس، ثم أبين مبلغها من الصحة أو الضعف:

١ ـ طريق معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، وهذه هي أجود الطرق عنه. اعتمدها العلماء أمثال الإمام أحمد والبخاري وغيرهما[١].

طعن جولد زيهر على هذه الطريقة:

يقول جولد زيهر في كتابه: المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن/ ٧٧: صرح النقدة المسلمون بأن ذلك الرجل ـ علي بن أبي طلحة ـ لم يسمع التفسير الذي تضمنه كتابه مباشرة من ابن عباس، وهكذا فإنه حتى في صحة القسم الخاص بالتفسير الأكثر تصديقا يحكم النقدة المسلمون بهذا الحكم فيما يتعلق بصحة نسبته لابن عباس على أنه هو المصدر الأول له.

تفنيد هذا الطعن:

ويظهر لنا أن الأستاذ جولد زيهر جهل أو تجاهل ما ردّ به النقاد المعتبرون، فقد فند ابن حجر هذا النقد بقوله: بعد أن عرفت الواسطة وهو ثقة فلا ضير في ذلك[٢]. وقال صاحب إيثار الحق: وقال الذهبي في الميزان: وقد روى ـ يعني علي بن أبي طلحة ـ عن ابن عباس تفسيرا كثيرا ممتعا، والصحيح عندهم أن روايته عن مجاهد عن ابن عباس، وإن كان يرسلها عن ابن عباس فمجاهد ثقة يقبل[٣].

٢ ـ طريق قيس بن مسلم الكوفي، عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس. وهذه الطريق صحيحة على شرط الشيخين.

٣ ـ طريق ابن إسحاق صاحب السّير، عن محمد بن أبي محمد مولى آل زيد بن ثابت، عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس، وهي طريق جيدة وإسنادها حسن.

٤ ـ طريق إسماعيل بن عبد الرحمن السدي[٤] الكبير، تارة عن أبي مالك، وتارة عن أبي صالح عن ابن عباس. وإسماعيل السُّدّي مختلف فيه، وهو تابعي شيعي[٥].

٥ ـ طريق عبد الملك بن جريج، عن ابن عباس، وهي تحتاج إلى دقة في البحث، ليعرف الصحيح منها والسقيم، فإن ابن جريج لم يقصد الصحة فيما جمع، وإنما روى ما ذكر في كل آية من الصحيح والسقيم.

---

١) الإتقان للسيوطي: ٢/ ١٨٨.

٢) الإتقان للسيوطي: ٢/ ١٨٨.

٣) إيثار الحق ـ أبو عبد الله اليماني ـ الآداب ١٣١٨هـ: ١٥٩.

٤ ـ السُّدِّي: منسوب إلى السُّدَّة، وهي صُفَّة [ظلّة] في باب مسجد الجامع بالكوفة، كان يسكنها إسماعيل السُّدّي فنسب إليها. انظر: السدي في الإكمال (٤/ ٥٦٧ ـ ٥٦٨) والأنساب ٢٩٥ب.

٥) إيثار الحق على الخلق: أبو عبد الله اليماني، الآداب ١٣١٨هـ: ١٥٩.

٦ ـ طريق الضحاك بن مزاحم الهلالي عن ابن عباس، وهي غير مرضية.

٧ ـ طريق عطية العوفي، عن ابن عباس، وهي غير مرضية.

٨ ـ طريق مقاتل بن سليمان الأزدي الخراساني، فقد ضعفوه، وقد كذبه غير واحد، ولم يوثقه أحد، واشتهر عنه التجسيم والتشبيه[1].

٩ ـ طريق محمد بن السائب الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، وهذه أوهى الطرق.

التفسير المنسوب إلى ابن عباس وقيمته:

نسب إلى ابن عباس رضي الله عنهما جزء كبير في التفسير، وطبع في مصر مرارا باسم: (تنوير المقباس من تفسير ابن عباس) جمعه أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزأبادي الشافعي، صاحب القاموس المحيط، وقد اطلعت على هذا التفسير، فوجدت أن جميع ما روي عن ابن عباس في هذا الكتاب يدور على محمد بن مروان السُّدّي الصغير، عن محمد بن السائب الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، وقد عرفنا مبلغ رواية السُّدّي الصغير عن الكلبي فيما تقدم.

أسباب الوضع على ابن عباس:

كان من بيت النبوة والوضع عليه يكسب الموضوع ثقة وقوة، أضف إلى ذلك أن ابن عباس كان من نسله الخلفاء العباسيون، وكان من الناس من يتزلف إليهم، ويتقرب منهم بما يرويه لهم عن جدهم. وسنعرض إلى أسباب الوضع في التفسير، عند الكلام على منشأ الضعف في رواية التفسير المأثور إن شاء الله تعالى .

٢ ـ عبد الله بن مسعود

ترجمته:

هو عبد الله بن مسعود بن غافل، ويكنى بأبي عبد الرحمن الهذلي، وأمه أم عبد بنت عبدود، وكان ينسب إليها أحياناً فيقال: ابن أم عبد. كان رحمه الله خفيف اللحم، قصيراً، شديد [السّمْرة]، أسلم قديماً. قال ابن مسعود: «لقد رأيتني سادس ستة ما على ظهر الأرض مسلم غيرنا»[2]. وهو أول من جهر بالقرآن بمكة وأسمعه قريشاً بعد رسول الله ﷺ. هاجر إلى الحبشة، ثم إلى المدينة، وصلى إلى القبلتين، وشهد الغزوات مع رسول الله ﷺ، وقد شهد له رسول الله ﷺ بالجنة. وقد ولي بيت المال بالكوفة لعمر وعثمان، وقدم المدينة في آخر

---

١) إيثار الحق على الخلق: أبو عبد الله اليماني: ١٥٩. [وانظر كشف الظنون: ١/ ٤٢٩: مقاتل بن سليمان بن بشر الأزدي المتوفى سنة ١٥٠هـ ـ من سلسلة الكذب وفيه مذاهب رديئة].

٢ ـ صحيح ابن حبان: ١٥/ ٥٣٧، رقم: ٧٠٦٢. ومستدرك الحاكم: ٣/ ٣٥٤ رقم: ٥٣٦٨ وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وفي فتح الباري لابن حجر: ٧/ ١٠٣.

عمره، ومات بها سنة ٣٢هـ[١]، ودفن بالبقيع ليلا، تنفيذاً لوصيته بذلك، وكان عمره يوم وفاته، بضعا وستين سنة.

مبلغه من العلم:

كان ابن مسعود من أحفظ الصحابة لكتاب الله، وكان رسول الله ﷺ يقول: «من سره أن يقرأ القرآن رطباً كما أنزل، فليقرأه على قراءة ابن أم عبد»[٢].

وقيل لحذيفة: أخبرنا برجل قريب السَّمْت والدَّل والهدْي [٣]من رسول الله ﷺ نأخذ عنه. فقال: لا نعلم أحداً أقرب سمتا ولا هدياً برسول الله ﷺ من ابن أم عبد، ولقد علم المحفوظون من أصحاب محمد ﷺ، أن ابن أم عبد أقربهم إلى الله وسيلة[٤].

وقد أقامرضي الله عنه بالكوفة يأخذ عنه أهلها الحديث والتفسير والفقه، وهو معلمهم وقاضيهم، ومؤسس طريقتهم في الاعتداد بالرأي حيث لا يوجد النص، ولما قدم عليٌّ الكوفة، حضر عنده قوم وذكروا له بعض قول عبد الله وقالوا: يا أمير المؤمنين ما رأينا رجلاً أحسن خلقاً، ولا أرفق تعليماً، ولا أحسن مجالسة، ولا أشد ورعا من ابن مسعود، قال علي: أنشدكم الله أهو الصدق من قلوبكم؟ قالوا: نعم، قال: اللهم اشهد أني أقول مثل ما قالوا وأفضل[٥].

قيمة ابن مسعود في التفسير:

عن مسروق قال: قال ابن مسعود: «والذي لا إله غيره ما نزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين نزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم أنزلت، ولو أعلم أن أحدا أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه»[٦]. وهذا الأثر يدل على إحاطة ابن مسعود

---

١ - قال ابن تيمية في كتابه: مقدمة في أصول التفسير - طبعة لاهور / ٣١: مات سنة ٣٣هـ على الصحيح.

٢ - المسند للإمام أحمد: ١/ ٧. وفي صحيح ابن حبان: فضل طول القيام، ٢/ ١٨٦، رقم: ١١٥٤. وفي مستدرك الحاكم: ٢/ ٢٤٦، رقم: ٢٨٩٣، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وحسنه الهيثمي في مجمع الزوائد: ٩/ ٢٨٧. وفي سنن البيهقي الكبرى: ١/ ٤٥٢، رقم: ١٩٦٨.

٣ - السمت: الهيئة. والدلّ: الحالة التي يكون عليها الإنسان من السكينة والوقار في الهيئة والشمائل وغير ذلك. والهدي: السمت والطريقة والسيرة. المعجم الوسيط - مجمع اللغة العربية.

٤ - البخاري: ٧/ ٨٠ في فضائل الصحابة. والترمذي: ٣٨٠٩ في المناقب. وفي جامع الأصول: ٦٥٨٧.

٥) انظر ترجمة ابن مسعود في: أسد الغابة في معرفة الصحابة: ابن الأثير الجزري، الوهبية ١٢٨٠هـ: ٣/ ٢٥٦ - ٢٦٠.

٦ - البخاري: ٩/ ٤٣: في فضائل القرآن. ومسلم: ٢٤٦٢ في فضائل الصحابة. والنسائي: ٨/ ١٣٤. وفي جامع الأصول: ٦٥٨٨.

بمعاني كتاب الله، وأسباب نزول الآيات، وحرصه على تعرف ما عند غيره من العلم بكتاب الله تعالى ولو لقي عنتاً ومشقة. وقال مسروق: كان عبد الله يقرأ علينا السورة ثم يحدثنا فيها ويفسرها عامة النهار وقال عقبة بن عامر[1]: ما أدري أحدا أعلم بما نزل على محمد من عبد الله، فقال أبو موسى: إن تقل ذلك، فإنه كان يسمع حين لا نسمع، ويدخل حين لا ندخل[2].وصحّ عن ابن مسعود أنه قال: أخذت من فيّ رسول الله ﷺ سبعين سورة[3].

الرواية عن ابن مسعود ومبلغها من الصحة:

أكثر من روي عنه في التفسير من الصحابة بعد ابن عباس رضي الله عنهما. قال السيوطي في الإتقان: وأما ابن مسعود فقد روي عنه أكثر مما روي عن علي[4]، وقد حمل علم ابن مسعود في التفسير أهل الكوفة نظراً لوجوده بينهم، فمن أشهر الطرق عن ابن مسعود:

١ ـ طريق الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق، عن ابن مسعود. وهذه الطريق من أصح الطرق وأسلمها، وقد اعتمد عليها البخاري في صحيحه.

٢ ـ طريق مجاهد، عن أبي معمر، عن ابن مسعود. وهذه أيضاً طريق صحيحة لا يعتريها الضعف. وقد اعتمد عليها البخاري في صحيحه أيضاً.

٣ ـ طريق الأعمش، عن أبي وائل، عن ابن مسعود. وهذه أيضاً طريق صحيحة يخرّج البخاري منها.

٤ ـ طريق السدي الكبير، عن مرة الهمداني، عن ابن مسعود. وهذه الطريق يخرّج منها الحاكم في مستدركه، ويصحح ما يخرجه. وقد مرّ معنا عند الحديث عن رواة ابن عباس أن السدي الكبير مختلف فيه، وهو تابعي شيعي.

٥ ـ طريق أبي روق عن الضحاك، عن ابن مسعود. وهذه الطريق غير مرضية؛ لأن الضحاك لم يلق ابن مسعود، فهي طريق منقطعة.

٣ ـ علي بن أبي طالب

ترجمته:

هو أبو الحسن، علي بن أبي طالب، بن عبد المطلب، القرشي الهاشمي، ابن عم

---

١ ـ صحابي: هو عُقْبَة بن عامر بن عَبْس بن عمرو بن عَدِيّ، كان واليا على مصر لمعاوية، ثم عزله، ومات بها سنة ٥٨هـ. تهذيب التهذيب: ٧/ ٢٤٢، تقريب التهذيب: ٢/ ٢٧، أسد الغابة: ٤/ ٥٣.

٢ ـ يقصد أن ابن مسعود كان خادم الرسول ﷺ ومن أوائل من أسلم. والأثر رواه مسلم: ٢٤٦١ في فضائل الصحابة.

٣ ـ البخاري: ٩/ ٤٣: في فضائل القرآن. ومسلم: ٢٤٦٢ في فضائل الصحابة. والنسائي: ٨/ ١٣٤. وفي جامع الأصول: ٦٥٨٨.

٤) الإتقان للسيوطي: ٢/ ١٨٧.

رسول الله ﷺ، وصهره على ابنته فاطمة، وذريته ﷺ منهما. أمه فاطمة بنت أسد بن هاشم. وهو رابع الخلفاء الراشدين، وأول من أسلم من الأحداث. وقد شهد علي المشاهد كلها إلا تبوك؛ فإن رسول الله ﷺ خلفه على أهله، وقد أعطاه الرسول ﷺ اللواء في مواطن كثيرة وقال يوم خيبر: «لأعطين الراية رجلاً يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله»(١)، ثم أعطاها لعلي رضي الله عنه، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة(٢)، وقد توفي رحمه الله في رمضان سنة أربعين من الهجرة، مقتولا بيد عبد الرحمن بن ملجم الخارجي(٣)، وعمره ٦٣ سنة، وقيل غير ذلك.

مبلغه من العلم:

كان رضي الله عنه بحراً في العلم، أوتي الحظ الأوفر من الفصاحة والخطابة والشعر، وقد ولاه رسول الله ﷺ قضاء اليمن، ودعا له بقوله: «اللهم ثبت لسانه واهد قلبه»(٤). وعن ابن مسعود قال: كنا نتحدث أن أقضى أهل المدينة علي بن أبي طالب(٥).

مكانته في التفسير:

كان أعلم الصحابة بمواقع التنزيل ومعرفة التأويل. وعن أبي الطفيل(٦) قال: شهدت علياً يخطب وهو يقول: سلوني، فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم، وسلوني عن كتاب الله، فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار، أم في سهل، أم في جبل(٧).

---

١ ـ اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ـ محمد فؤاد عبد الباقي ١٥٥٨.

٢ ـ العشرة المبشرون بالجنة هم: أبو بكر، وعمر، وعثمان وعلي، والزبير، وطلحة، وعبد الرحمن ابن عوف، وأبو عبيدة، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ والحديث رواه أبو داود: ٤٦٤٨ ـ ٤٦٤٩ في السنة، والترمذي: ٣٧٤٩ ـ ٣٧٥٨ في المناقب وقال: حسن صحيح. وقال الأرناؤوط: وهو حديث صحيح.

٣ ـ قال ابن حجر في لسان الميزان: ٣/ ٤٣٩، رقم ١٧١٤: هو عبد الرحمن بن ملجم المرادي ذاك المغتر الخارجي ليس بأهل أن يروى عنه، وما أظن له رواية، كان عابدا قانتا لله لكنه ختم له بشر، فقتل أمير المؤمنين عليا رضي الله عنه متقربا إلى الله بدمه... وهو أحد بني مدرك أي حي من مراد... وقتل ابن ملجم بالكوفة سنة أربعين.

٤ ـ مسند الإمام أحمد: ١/ ١١١. وابن ماجة: ٢/ ٧٧٤ ـ الأحكام ١. وفي فتح الباري: ٨/ ٦٥، رقم: ٤٠٩١. وفي مستدرك الحاكم: ٣/ ١٤٥، رقم: ٤٦٥٨ وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

٥ ـ مستدرك الحاكم: ٣/ ١٤٥ رقم ٤٦٥٨ وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وفي فتح الباري لابن حجر: ٨/ ١٦٧. وأسد الغابة لابن الأثير: ٤/ ١٦ ـ ٤٠.

٦ ـ هو أبو الطُّفَيْل: عامر بن واثلة اللَّيْثي: صحابي. تهذيب الكمال: (٢/ ٦٤٧)، تهذيب التهذيب: (٥/ ٨٢) (١٣٥).

٧ ـ قال ابن حجر في فتح الباري: ٨/ ٥٩٩، رقم: ٤٥٧١: أخرجه البزار وابن مردويه بسند لين.

الرواية عن علي ومبلغها من الصحة:

ما صح عن علي في التفسير قليل بالنسبة لما وُضع عليه، ويرجع ذلك إلى غلاة الشيعة، الذين أسرفوا في حبه فاختلقوا عليه ما هو بريء منه، إما ترويجا لمذهبهم وتدعيما له، وإما لظنهم الفاسد، أن الإغراق في نسبة الأقوال العلمية إليه يعلي من قدره.

ثم هناك ناحية أخرى أغرت الوضاع بالكذب عليه، تلك الناحية هي نسبته إلى بيت النبوة، ولا شك أن هذه الناحية، تكسب الموضوع قبولا، وتعطيه رواجا.

أهم الطرق عن علي في التفسير:

١ ـ طريق هاشم، عن محمد بن سيرين، عن عبيدة السلماني، عن علي. طريق صحيحة، يخرّج منها البخاري وغيره.

٢ ـ طريق ابن أبي الحسين، عن أبي الطفيل، عن علي. وهذه طريق صحيحة، يخرّج منها ابن عيينة في تفسيره.

٣ ـ طريق الزهري، عن علي زين العابدين، عن أبيه الحسين، عن أبيه علي. وهذه طريق صحيحة جدا، حتى عدها بعضهم أصح الأسانيد مطلقاً[١]، ولكن لم تشتهر هذه الطريق اشتهار الطريقين السابقين نظراً لما ألصقه الضعفاء والكذابون بزين العابدين من الروايات الباطلة.

٤ ـ أبي بن كعب

ترجمته:

هو أبو المنذر، أو أبو الطفيل[٢]، أبي بن كعب بن قيس، الأنصاري الخزرجي، شهد العقبة وبدراً، وهو أول من كتب لرسول الله ﷺ مقدمه المدينة[٣]، وقد أثنى عليه عمر رضي الله عنه فقال: أبي سيد المسلمين[٤]. وقد اختلف في وفاته على أقوال كثيرة، والأكثر على أنه مات في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

مبلغه من العلم:

كان أبي بن كعب سيد القراء، وأحد كتّاب الوحي لرسول الله ﷺ، وقد قال فيه ﷺ:

---

١) مقدمة ابن الصلاح: أبو عمر بن الصلاح، طبع الهند ١٣٥٧هـ: ٩.

٢) كنّاه النبي بالأولى، وعمر بالثانية.

٣ ـ فتح الباري لابن حجر: ٩/ ٢٢. قال وأول من كتب له في مكة: عبد الله بن أبي سرح.

٤ ـ الأدب المفرد للبخاري: ١/ ١٦٨. ورواه الحاكم في مستدركه أنه عند وفاته قال الناس: مات سيد المسلمين: ٢/ ٢٤٦ رقم: ٢٨٩٢ ،وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. وفي سنن البيهقي الكبرى: ٦/ ١٦٨، رقم: ١١٧١٧على نحو ما رواه الحاكم.

«وأقرؤهم أبي بن كعب»[1]. وعن مسروق قال: كان أصحاب القضاء من أصحاب رسول الله ﷺ ستة: عمر، وعلي، وعبد الله، وأبيّ، وزيد، وأبو موسى[2].

مكانته في التفسير:

كان أبيّ بن كعب من أعلم الصحابة بكتاب الله تعالى، ولعل من أهم عوامل معرفته بمعاني كتاب الله، هو أنه كان حبراً من أحبار اليهود، العارفين بأسرار الكتب القديمة، وكونه من كتاب الوحي لرسول الله ﷺ، وهذا بالضرورة يجعله على مبلغ عظيم من العلم بأسباب النزول ومواضعه، ومقدّم القرآن ومؤخّره، وناسخه ومنسوخه، ثم لا يعقل بعد ذلك أن تمر عليه آية من القرآن يشكل معناها عليه دون أن يسأل عنها رسول الله ﷺ، لهذا كله عُدّ أبيّ بن كعب من المكثرين في التفسير، الذين يعتد بما صح عنهم، ويعوّل على تفسيرهم.

الرواية عنه في التفسير ومبلغها من الصحة:

كثرت الرواية عن أبي بن كعب في التفسير، وتتبع العلماء طرقها بالنقد؛ لأنه كغيره من الصحابة لم يسلم من الوضع عليه وهذه أشهر الطرق عنه:

١ ـ طريق أبي جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبيّ رضي الله عنه. وهذه طريق صحيحة.

٢ ـ طريق وكيع عن سفيان، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن الطفيل بن أبيّ بن كعب، عن أبيه، وهذه يخرج منها الإمام أحمد في مسنده، وهي على شرط الحسن.

---

١ ـ سنن ابن ماجه ١/ ٥٥، المقدمة ح ١٥٤، والترمذي ١/ ٦٦٥ ـ ح٣٧٩١، وقال عنه: حديث حسن صحيح. وفي البخاري :٩/ ٤٩ موقوفا عن عمر: أقرؤنا أبَي.

٢) انظر أسد الغابة لابن الأثير: ١/ ٤٩ ـ ٥١.

الفصل الثالث

قيمة التفسير المأثور عن الصحابة

تفسير الصحابي له حكم المرفوع، إذا كان مما يرجع إلى أسباب النزول[1]، وكل ما ليس للرأي فيه مجال، أما ما يكون للرأي فيه مجال، فهو موقوف عليه ما دام لم يسنده إلى رسول الله ﷺ. ومثال ما له حكم المرفوع قول جابر رضي الله عنه: كانت اليهود تقول من أتى امرأته من دبرها في قبلها جاء الولد أحول، فأنزل الله عز وجل: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣][2]. وهذا النوع لا يجوز ردّه اتفاقا.

وأما ما حُكم عليه بالوقف، تختلف فيه أنظار العلماء ما بين موجب الأخذ به لفضل علمهم واحتمال سماعهم، وغير موجب الأخذ به لأنه من قبيل الاجتهاد ومعرّض للخطأ.

ونرى التوسط كما في قول الحافظ ابن كثير في مقدمة تفسيره: «وحينئذ إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة، رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة فإنهم أدرى بذلك، لما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح، ولا سيما علماؤهم وكبراؤهم»[3].

---

١ ـ المقصود الصيغة الصريحة في سبب النزول، وأما المحتملة فلا؛ لأنها ليست حجة في السببية لوجود الاحتمال. راجع: مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية طبعة لاهور: ٩.

٢ ـ البخاري: ٨/ ١٤٣ في التفسير. ومسلم: ١٤٣٥ في النكاح. والترمذي: ٢٩٨٢ في التفسير. وأبو داود: ٢١٦٣ في النكاح. وفي جامع الأصول: ٥٠٦.

٣) تفسير ابن كثير ـ التجارية ١٣٥٦هـ: ١/ ٣.

الفصل الرابع

مميزات التفسير في عهد النبي ﷺ وأصحابه

١ ـ لم يفسر القرآن جميعه، وإنما فسر ما غمض فهمه، وهذا الغموض كان يزداد كلما بعد الناس عن عصر النبي ﷺ والصحابة، فكان التفسير يتزايد تبعاً لتزايد هذا الغموض. إلى أن تم تفسير آيات القرآن جميعها.

٢ ـ قلة الاختلاف بينهم في فهم معانيه، وسنعرض لهذا الموضوع بتوسع فيما بعد.

٣ ـ كانوا كثيراً ما يكتفون بالمعنى الإجمالي، ولا يلزمون أنفسهم بتفهم معانيه تفصيلاً.

٤ ـ الاقتصار على توضيح المعنى اللغوي الذي فهموه بأخصر لفظ، مثل قولهم في تفسير قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣] أي غير متعرض لمعصية، فإن زادوا على ذلك فما عرفوه من أسباب النزول.

٥ ـ قلّة الاستنباط العلمي للأحكام الفقهية من الآيات القرآنية وعدم وجود المذاهب الدينية.

٦ ـ لم يدوّن التفسير في هذا العصر؛ لأن التدوين لم يكن إلا في القرن الثاني، نعم أثبت بعض الصحابة بعض التفسير في مصاحفهم فظنها بعض المتأخرين من وجوه القرآن التي نزل بها من عند الله .[والقصد هنا من قوله: «لم يدوّن التفسير». أنه لم يأخذ في تدوينه الطابع الرسمي، وأما بالجهود الفردية فكان موجودا، فعَله عدد من الصحابة ﷺ].

٧ ـ اتخذ التفسير في هذه المرحلة شكل الحديث، بل كان جزءاً منه. وكانت هذه التفسيرات تروى منثورة لآيات متفرقة، فحديث صلاة بجانب حديث جهاد، بجانب حديث ميراث، بجانب حديث في تفسير آية،... وهكذا.

وليس لمعترض أن يعترض علينا بتفسير ابن عباس، فإنه لا تصح نسبته إليه، وقد مرّ الكلام فيه عند حديثنا عن أشهر المفسرين من الصحابة.

الباب الثاني

المرحلة الثانية للتفسير
أو
التفسير في عصر التابعين

الفصل الأول

أ ـ ابتداء هذه المرحلة:

تنتهي المرحلة الأولى للتفسير بانصرام عهد الصحابة، وتبدأ المرحلة الثانية للتفسير من عصر التابعين الذين تتلمذوا للصحابة فتلقوا غالب معلوماتهم عنهم.

ب ـ مصادر التفسير في هذا العصر:

وقد اعتمد هؤلاء المفسرون في فهمهم لكتاب الله تعالى على:

١ ـ ما جاء في القرآن نفسه.

٢ ـ ما رووه عن الصحابة عن رسول الله ﷺ.

٣ ـ ما رووه عن الصحابة من تفسيرهم.

٤ ـ ما أخذوه من أهل الكتاب مما جاء في كتبهم[١].

٥ ـ الاجتهاد والنظر في كتاب الله تعالى.

ج ـ مدارس التفسير في عصر التابعين:

فتح الله على المسلمين كثيراً من بلاد العالم في حياة رسول الله ﷺ، وفي عهود الخلفاء من بعده، ولم يستقروا جميعاً في بلد واحد من بلاد المسلمين، بل توزعوا على جميع البلاد التي دخلها الإسلام، وكان منهم الولاة، ومنهم الوزراء، ومنهم القضاة، ومنهم المعلمون، ومنهم غير ذلك.

---

١ ـ سبق تعليقي على هذا المصدر عند الحديث عن مصادر التفسير في المرحلة الأولى.

فقامت في هذه الأمصار المختلفة مدارس علمية، أساتذتها الصحابة، وتلاميذها التابعون. واشتهر بعض هذه المدارس بالتفسير، وتتلمذ فيها كثير من التابعين لمشاهير المفسرين من الصحابة، فقامت مدرسة للتفسير بمكة، وأخرى بالمدينة وثالثة بالعراق، وهذه المدارس الثلاث، هي أشهر مدارس التفسير في الأمصار في هذا العهد.

وأرى أن أتكلم عن كل مدرسة من هذه المدارس الثلاث:

أولا: مدرسة التفسير بمكة

قيامها على ابن عباس:

قامت مدرسة التفسير بمكة على عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، فكان يجلس لأصحابه من التابعين، يفسر لهم كتاب الله تعالى. وقد اشتهر من تلامذته: سعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة مولى ابن عباس، وطاووس بن كيسان اليماني، وعطاء بن أبي رباح. وهؤلاء كلهم كانوا من الموالي. ونسوق الحديث عن كل واحد منهم، ليتضح لنا مكانته في التفسير:

١ ـ سعيد بن جُبَير

ترجمته ومكانته في التفسير:

هو أبو محمد، أو أبو عبد الله، سعيد بن جبير بن هشام الأسدي مولاهم. كان حبشي الأصل أسود اللون أبيض الخصال.

كان رحمه الله من كبار التابعين ومتقدميهم في التفسير والحديث والفقه، أخذ القراءة عن ابن عباس عَرْضاً، وسمع منه التفسير، وأكثر روايته عنه[١]، وقد جمع سعيد القراءات الثابتة عن الصحابة وكان يقرأ بها[٢].

ولقد جمع سعيد علم أصحابه من التابعين، فقد قال خصيف: كان من أعلم التابعين بالطلاق سعيد بن المسيب، وبالحج عطاء، وبالحلال والحرام طاوس، وبالتفسير أبو الحجاج مجاهد بن جبر، وأجمعهم لذلك كله سعيد بن جبير[٣].

هذا وقد وثق علماء الجرح والتعديل سعيد بن جبير. وقد قتله الحجاج في شعبان سنة ٩٥هـ، وهو ابن ٤٩ سنة[٤].

---

١) وفيات الأعيان: ابن خلكان، الأميرية، ١٢٩٩هـ: ١/ ٣٦٤.

٢) وفيات الأعيان: ابن خلكان: ١/ ٣٦٥.

٣) وفيات الأعيان: ابن خلكان: ١/ ٣٦٥.

٤) تهذيب التهذيب: ابن حجر العسقلاني، طبع الهند ١٣٢٥هـ: ٤/ ١٣ ـ ١٤ .

٢ ـ مجاهد بن جَبْر

ترجمته: هو مجاهد بن جبر، المكي، المقرئ، المفسر، أبو الحجاج المخزومي، مولى السائب بن أبي السائب. كان أحد الأعلام الأثبات. ولد سنة ٢١هـ في خلافة عمر بن الخطاب. وكانت وفاته بمكة وهو ساجد، سنة ١٠٤ هـ على الأشهر، وعمره ٨٣ سنة.

مكانته في التفسير:

كان مجاهد أقل أصحاب ابن عباس رواية عنه في التفسير[١]، وكان أوثقهم، لهذا اعتمد على تفسيره الشافعي والبخاري وغيرهما. وقد روي عن مجاهد[٢] أنه قال: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاث عرضات، أوقفه على كل آية، أسأله فيم نزلت؟ وكيف كانت؟[٣]. وقال الذهبي في الميزان، في آخر ترجمة مجاهد: أجمعت الأمة على إمامة مجاهد والاحتجاج به. وقد أخرج له أصحاب الكتب الستة.

وأُخذ على مجاهد أنه كان يسأل أهل الكتاب، وفي حال ثبوت هذا فلا نظن أنه تخطى حدود ما يجوز له من ذلك.

مجاهد والتفسير العقلي:

كان مجاهد يعطي عقله حرية واسعة في فهم بعض نصوص القرآن التي يبدو ظاهرها بعيداً، فيصرفها عن ظاهرها إلى معان أخرى يرتئيها، وتلك الخطة كانت فيما بعد مبدأً معترفاً به ومقرراً لدى المعتزلة في تفسير القرآن بالنسبة لمثل هذه النصوص.

فمثلاً نجد ابن جرير ينتقد مجاهداً أنه فسّر قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣] بقوله: «تنتظر الثواب من ربها، لا يراه من خلقه شيء»[٤]. وهذا التفسير عن مجاهد كان فيما بعد متكأً قوياً للمعتزلة فيما ذهبوا إليه من عدم رؤية الله تعالى في الآخرة.

ومهما يكن من شيء، فمجاهد ـ رحمه الله ـ إمام في التفسير غير مدافع، وليس في إعطائه لنفسه مثل هذه الحرية ما يغض من قيمته، أو يقلل من مكانته[٥].

---

١) فجر الإسلام: أحمد أمين: ٢٥١.
٢) الحاكم في المستدرك: ٢/ ٣٠٧ رقم: ٣١٠٥. وفي سنن الدارمي: ١/ ٢٧٣. رقم: ١١٢٠.
٣) تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني: ١٠/ ٤٢.
٤) تفسير الطبري: ٢٩/ ١٢٠.
٥) انظر ترجمة مجاهد في تهذيب التهذيب لابن حجر: ١٠/ ٤٢ ـ ٤٤.

٣ ـ عكرمة

ترجمته واختلاف العلماء في توثيقه:

هو أبو عبد الله عكرمة البربري المدني مولى ابن عباس، أصله من البربر بالمغرب. روى عن مولاه، وعن علي بن أبي طالب، وأبي هريرة، وغيرهم. توفي ـ رحمه الله ـ سنة ١٠٤هـ[١]. وقد اختلف العلماء في توثيقه، فكان منهم من لا يثق به ولا يروي له، وكان منهم من يوثقه ويروي له.

وإنا لنجد العلماء الذين لم يثقوا بعكرمة، يصفونه بالجرأة على العلم ويقولون: إنه كان يدعي معرفة كل شيء في القرآن، ويزيدون على ذلك فيتهمونه بالكذب على مولاه ابن عباس، وبعد هذا كله، يتهمونه بأنه كان يرى رأي الخوارج، ويزعم أن مولاه كان كذلك، وقد نقل ابن حجر في تهذيب التهذيب كل هذه التهم ونسبها لقائليها.

تفنيد هذه المطاعن ودفاع عكرمة عن نفسه:

إن ما تقدم تهم باطلة لا تقوم على أساس، فعكرمة مولى ابن عباس، كان يلازمه ويخالطه، فلا يضيره كثرة الرواية عنه .ثم إن هذا الاتهام لم يَخْف على عكرمة، بل كان يبلغه عن متهميه فيود لو أنه وُوجه به ليفنده، فقد روى حماد بن زيد عن أيوب أنه قال: قال عكرمة: رأيت هؤلاء الذين يكذّبونني، يكذّبونني من خلفي، أفلا يكذّبونني في وجهي؟ فإذا كذبوني في وجهي فقد والله كذّبوني .ثم نراه يستشهد ببعض أصحابه على صدقه فيما يروي عن مولاه، فعن عثمان بن حكيم[٢] قال: كنت جالساً مع أبي أمامة [بن] سهل بن حُنَيف[٣]، إذ جاء عكرمة فقال: يا أبا أمامة، أذكرك الله، هل سمعت ابن عباس يقول: ماحدثكم عكرمة عني فصدّقوه فإنه لم يكذب علي؟ فقال أبو أمامة: نعم[٤].

---

١) انظر تهذيب التهذيب لابن حجر: ٧/ ٢٦٣ ـ ٢٧٣.

٢ ـ تابعي: هو أبو سهل، عثمان بن حَكِيم بن عَبَّاد بن عُثْمان بن حُنَيف الأنصاري.وقيل: إنَّ عبادا هو ابن حُنَيْف. مدني الأصل، وحديثه في الكوفيين.

٣ ـ صحابي: هو أبو سعيد، وقيل: أبو سعد، وقيل: أبو عبد الله، وقيل: أبو الوليد، وقيل: أبو ثابت، سهل بن حنيف بن واهب بن العُكَيم بن ثعلبة بن مَجْدَعة بن الحارث بن عمرو، من بني مالك بن الأوس الأنصاري الأوسي. شهد بدرا وأُحُدا والمشاهد كلها، روى عنه ابنه أبو أمامة. مات بالكوفة سنة ثمان وثلاثين. راجع: التاريخ الكبير (٤/ ٩٧)، الجرح والتعديل: (٤/ ١٩٥)، الاستيعاب (٦٦٢)، أسد الغابة: (٢/ ٤٧٠)، وسير أعلام النبلاء: (٢/ ٣٢٥، ٣٢٩)، تهذيب التهذيب (٤/ ٢٥١)، الإصابة: (٢/ ٨٧).

٤ ـ سير أعلام النبلاء للذهبي: ٥/ ١٦. والطبقات الكبرى ـ محمد بن سعد بن منيع أبو عبد الله البصري الزهري: ٥/ ٢٨٨.

وأما ما رمي به من الميل للخوارج، فافتراء عليه، ولا يكاد يتفق مع سلوكه في حياته، قال ابن حجر: فأما البدعة، فإن ثبتت عليه فلا تضر حديثه؛ لأنه لم يكن داعية، مع أنها لم تثبت عليه[1].

شهادات الموثقين له:

قال العِجْلي[2] فيه: مكي تابعي ثقة، بريء مما يرميه به الناس من الحرورية. وقال البخاري: ليس أحد من أصحابنا إلا وهو يحتج بعكرمة. وقال المروزي: «أجمع عامة أهل العلم بالحديث على الاحتجاج بحديث عكرمة واتفق على ذلك رؤساء الحديث من أهل عصرنا». وهؤلاء هم أعلم الناس بالرجال وقد وثقوه.

مبلغه من العلم ومكانته في التفسير:

كان عكرمة ﵁ على مبلغ عظيم من العلم، قال ابن حبان[3]: كان من علماء زمانه بالفقه والقرآن. وكان الشعْبي[4] يقول: ما بقي أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة.

بل نجد أكثر من هذا فيما يرويه ابن حجر في تهذيب التهذيب، من أن عكرمة بيّن لابن عباس بعض ما أشكل عليه من القرآن، قال: عن عكرمة قال: «قرأ ابن عباس هذه الآية: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [الأعراف: ١٦٤]، قال ابن عباس: لم أدر أنجا القوم أم هلكوا؟ قال: فما زلت أبيّن له حتى عرف أنهم نجوا فكساني حلّة»، وهذا الخبر يدل على مبلغ ثقة ابن عباس بمولاه وتلميذه، وعلى مقدار إعجابه بعلمه[5].

٤ ـ طاووس بن كَيْسان اليماني

ترجمته ومكانته في التفسير:

هو أبو عبد الرحمن طاوس بن كَيْسان، اليماني الحمْيَري الجَنَدي[6] مولى بحير بن ريسان، وقيل مولى همدان [من أبناء فارس وقد والى أهل هذا البيت][7]. روى عن العبادلة

---

١) هدي الساري مقدمة فتح الباري لابن حجر ـ إدارة الطباعة المنيرية ١٣٤٧هـ: ٢/١٤٨.

٢ ـ هو أحمد بن عبد الله بن صالح أبو الحسن العجلي الكوفي: (١٨٢ هـ ـ ٢٦١ هـ) وكتابه المشهور: معرفة الثقات.

٣ ـ من أئمة الحديث المعروفين: واسمه: محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي ـ وفاته: ٣٥٤هـ.

٤ ـ ستأتي ترجمته في: مدرسة التفسير في العراق.

٥) انظر تهذيب التهذيب لابن حجر: ٧/٢٦٣ ـ ٢٧٣. [وسير أعلام النبلاء: ٥/١٦].

٦) الجَنَدي بفتح الجيم والنون نسبة إلى بلد باليمن كان يسكنها.

٧ ـ راجع تهذيب الكمال: ١٣/٣٥٩.

الأربعة وغيرهم، وروي عنه أنه قال: جالست خمسين من الصحابة. ولكن نجده يجلس إلى ابن عباس أكثر من جلوسه لغيره من الصحابة، ويأخذ عنه في التفسير. وقال ابن معين: إنه ثقة. وقال الذهبي: كان طاووس شيخ أهل اليمن، وكان كثير الحج فاتفق موته بمكة سنة ١٠٦هـ[1]، [وقيل: ١٠٥هـ].

٥ ـ عطاء بن أبي رباح

ترجمته ومكانته في التفسير:

هو أبو محمد عطاء بن أبي رباح، المكي القرشي مولاهم [واسم أبيه: أسلم، وقيل اسم أمه: بركة: (تهذيب التهذيب: ٧/ ١٧٩)]، ولد سنة ٢٧هـ، وتوفي سنة ١١٤هـ على أرجح الأقوال. كان ـ رحمه الله ـ أسود، أعور، أفطس، أشل [قطعت يده مع ابن الزبير: (تهذيب التهذيب)]، أعرج، ثم عَميَ.

روى عن ابن عباس، وابن عمر، وغيرهما، وحدّث عن نفسه: أنه أدرك مائتين من الصحابة، وكان ثقة، فقيهاً، عالماً، كثير الحديث، وانتهت إليه فتوى أهل مكة، وكان ابن عباس يقول لأهل مكة إذا جلسوا إليه: تجتمعون إليّ يا أهل مكة وعندكم عطاء ؟[2]. وهو عند أصحاب الكتب الستة.

ولم يكثر عطاء بن أبي رباح من الرواية عن ابن عباس كما أكثر غيره، ولعل إقلاله في التفسير يرجع إلى تحرجه من القول بالرأي، فقد قال عبد العزيز بن رُفَيع[3]: سئل عطاء عن مسألة فقال: لا أدري، فقيل له: ألا تقول فيها برأيك ؟ قال: إني أستحيي من الله أن يدان في الأرض برأيي.

ثانيا: مدرسة التفسير بالمدينة

قيامها على أبيّ بن كعب:

يعتبر أبي بحق أشهر من تتلمذ له مفسروا التابعين بالمدينة؛ وذلك لشهرته أكثر من غيره في التفسير. وأشهر رجال هذه المدرسة من التابعين ثلاثة: زيد بن أسلم، وأبو العالية، ومحمد بن كعب القرظي، وهؤلاء منهم من أخذ عن أبيّ مباشرة، ومنهم من أخذ عنه بالواسطة. وأرى أن أسوق نبذة عن تاريخ كل واحد من هؤلاء الثلاثة:

---

١) انظر تهذيب التهذيب لابن حجر: ٨/٥ ـ ١٠.

٢) انظر تهذيب التهذيب لابن حجر: ٧/ ١٩٩ ـ ٢٠٣.

٣ ـ هو: عبد العزيز بن رُفَيْع الأَسَدي المكي. سكن الكوفة. وهو من مشاهير التابعين وثقاتهم. تهذيب الكمال (٢/ ٨٣٧)، تهذيب التهذيب (٦/ ٣٣٧)، طبقات ابن سعد (٦/ ٣٦٩)، سير الأعلام (٥/ ٢٢٨).

١ ـ أبو العالية

ترجمته ومكانته في التفسير:

هو أبو العالية، رفيع بن مهران الرياحي مولاهم، أدرك الجاهلية، وأسلم بعد وفاة النبي ﷺ بسنتين. روى عن علي، وابن مسعود، وأبيّ بن كعب، وغيرهم. قال فيه اللالكائي: مجمع على ثقته. وقد أجمع عليه أصحاب الكتب الستة، وكان يحفظ القرآن ويتقنه، وقال فيه ابن أبي داود: ليس أحد بعد الصحابة أعلم بالقراءة من أبي العالية. وكانت وفاته سنة ٩٠هـ على أرجح الأقوال في ذلك[١].

٢ ـ محمد بن كعب القرظي

ترجمته ومكانته في التفسير:

هو أبو حمزة، أو أبو عبد الله، محمد بن كعب بن سليم بن أسد القرظي[٢] المدني، من حلفاء الأوس. روى عن علي، وابن مسعود، وغيرهما، وروى عن أبيّ بن كعب بالواسطة. قال فيه العجلي: مدني، تابعي، ثقة، رجل صالح، عالم بالقرآن. وهو عند أصحاب الكتب الستة. وقال ابن حبان: كان يقص في المسجد فسقط عليه وعلى أصحابه سقف فمات هو وجماعة معه تحت الهدم، سنة ١١٨هـ، وقيل غير ذلك، وهو ابن ٧٨ سنة[٣].

٣ ـ زيد بن أسلم

ترجمته ومكانته في التفسير:

هو أبو أسامة، أو أبو عبد الله، زيد بن أسلم، العدوي المدني الفقيه المفسر، [كان والده أسلم] مولى[٤] عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وكان زيد من كبار التابعين الذين عرفوا بالقول في التفسير والثقة فيما يروونه، قال فيه الإمام أحمد، وأبو زرعة، وأبو حاتم[٥]، والنسائي: ثقة. كما أنه عند أصحاب الكتب الستة.

---

١) انظر تهذيب التهذيب لابن حجر: ٣/ ٢٨٤ ـ ٢٨٥.

٢ ـ كان أبوه من سبي قريظة: تهذيب الكمال: ٢٦/ ٣٤٥.

٣ ـ تهذيب الكمال (٣/ ١٢٦٢)، تهذيب التهذيب (٩/ ٤٢٠)، تقريب التهذيب (٢/ ٢٠٣)، الكاشف (٣/ ٩٢)، تاريخ البخاري الكبير (١/ ٢١٦)، الأنساب (١٠/ ٢٩٩، ٢٧٩)، رجال الصحيحين (١٧٩)، الثقات (٥/ ٣٥١).

٤ ـ قيل في أبيه: حبشي وقيل: من سبي عين التمر، وأن أبا بكر اشتراه من عمر: تهذيب التهذيب: ١/ ٢٣٣.

٥ ـ هو أبو حاتم السجستاني، سهل بن محمد الإمام، اللغوي صاحب المصنفات أخذ العربية عن أبي عبيدة والأصمعي وقرأ القرآن على يعقوب. توفي سنة ٢٥٠ [وقيل غير ذلك]. ويقول عن نفسه: كان أبو عبيدة يكرمني على أني من خوارج سجستان. طبقات المفسرين ـ أحمد بن محمد الأدنروي: ١/ ٣٤.

وقد عرف زيد بأنه كان يفسر القرآن برأيه ولا يتحرج من ذلك. وأشهر من أخذ التفسير عن زيد بن أسلم من علماء المدينة: ابنه عبد الرحمن بن زيد، ومالك بن أنس إمام دار الهجرة. وكانت وفاته سنة ١٣٦هـ وقيل غير ذلك(١).

ثالثا: مدرسة التفسير بالعراق

قيامها على ابن مسعود:

يمتاز أهل العراق بأنهم أهل الرأي. وهذه ظاهرة تجدها بكثرة في مسائل الخلاف، ويقول العلماء: إن ابن مسعود هو الذي وضع الأساس لهذه الطريقة في الاستدلال، ثم توارثها عنه علماء العراق، ومن الطبيعي أن تؤثر هذه الطريقة في مدرسة التفسير، فيكثر تفسير القرآن بالرأي والاجتهاد.

ومن أشهر رجال مدرسة ابن مسعود: علقمة بن قيس، ومسروق، والأسود بن يزيد، ومُرّة الهمداني، وعامر الشعبي والحسن البصري، وقتادة بن دعامة السدوسي. ونتكلم عن كل واحد من هؤلاء على الترتيب:

١ ـ علقمة بن قيس

ترجمته ومكانته في التفسير:

هو علقمة بن قيس، بن عبد الله، بن مالك، النخعي الكوفي، ولد في حياة رسول الله ﷺ. روى عن عمر، وعثمان، وعلي، وابن مسعود، وغيرهم. وهو من أشهر رواة عبد الله ابن مسعود، قال أبو المثنى: إذا رأيت علقمة فلا يضرك أن لا ترى عبد الله، أشبه الناس به سمتا وهديا. قال فيه الإمام أحمد: ثقة من أهل الخير. وهو عند أصحاب الكتب الستة. قال أبو نعيم: مات سنة ٦١ أو٦٢ هـ، وعمره ٩٠ سنة(٢).

٢ ـ مسروق (٣)

ترجمته ومكانته في التفسير:

هو أبو عائشة، مسروق بن الأجدع بن مالك بن أمية الهمداني الكوفي العابد. [أسلمَ قبلَ وفاة النبيِّ ﷺ، وهو ابن أخت عمرِو بن معدي كرب](٤). روى عن الخلفاء الأربعة،

---

١) انظر تهذيب التهذيب لابن حجر: ٣/ ٣٩٥ ـ ٣٩٧.

٢) تهذيب التهذيب لابن حجر: ٧/ ٢٧٦ ـ ٢٧٨.

٣) قيل: إنه سُرق في صغره، ثم وجد فسمي بذلك.

٤ ـ راجع: تهذيب الكمال: ٣/ ١٣٢٠، تهذيب التهذيب :١٠/ ١١٠، تقريب التهذيب: ٥/ ٢٤٢.

وابن مسعود، وأبي بن كعب، وغيرهم. يمتاز بورعه وعلمه وعدالته. قال علي بن المديني [شيخ البخاري]: ما أقدّم على مسروق من أصحاب عبد الله أحدا.

أما ثقته وعدالته فأمر اعترف به علماء الجرح والتعديل، فقال ابن معين: ثقة، لا يسأل عن مثله. وقد أخرج له الستة. وكانت وفاته سنة ٦٣هـ على الأشهر(١).

٣ ـ الأسود بن يزيد

ترجمته ومكانته في التفسير:

هو أبو عبد الرحمن، الأسود بن يزيد بن قيس النخعي، كان من كبار التابعين. ومن رواة عبد الله بن مسعود وغيره. قال فيه يحيى بن معين: ثقة. وهو عند أصحاب الكتب الستة. توفي بالكوفة سنة ٧٤ أو ٧٥هـ، على الخلاف في ذلك(٢).

٤ ـ مرة الهمداني

ترجمته: هو أبو إسماعيل، مرة بن شراحيل الهمداني، الكوفي، العابد المعروف بمرة الطيب. ومرة الخير. لقب بذلك لعبادته، وشدة ورعه، وكثرة صلاحه، روى عن أبي بكر، وعمر، وعلي، وابن مسعود، وغيرهم. وثقه ابن معين والعجلي. وهو عند أصحاب الكتب الستة. وتوفي سنة ٧٦هـ(٣).

٥ ـ عامر الشَّعْبي

ترجمته ومكانته في التفسير:

هو أبو عمرو. عامر بن شراحيل الشعبي، الحميري، الكوفي، قاضي الكوفة. روى عن عمر، وعلي، وابن مسعود، ولم يسمع منهم(٤). وروى عن غيرهم قال العجلي: سمع من ٤٨ من الصحابة. قال ابن معين وأبو زرعة، وغير واحد: الشعبي ثقة. وقال ابن حبان في الثقات: كان فقيها شاعرا. وهو عند أصحاب الكتب الستة.

كان يتحرج ويتوقف عن إجابة سائليه إذا لم يكن عنده شيء عن السلف(٥)، وعن

---

١) انظر تهذيب التهذيب لابن حجر: ١٠/١٠٩ ـ ١١١.

٢) انظر تهذيب التهذيب لابن حجر: ١/٣٤٢ ـ ٣٤٣.

٣) انظر تهذيب التهذيب لابن حجر: ١٠/٨٨ ـ ٨٩.

٤) خلاصة تهذيب الكمال: صفي الدين الجزرجي، الخيرية ١٣٢٢هـ: ١٥٥.

٥) [راجع] مقدمة تفسير الطبري: ١/٣٤.

الشّعبي أنه قال: والله ما من آية إلا سألت عنها ولكنها الرواية عن الله[1].

هذا وإن الخلاف في مولد الشعبي وفي وفاته كثير، وأشهر الأقوال في ذلك أنه ولد في سنة ٢٠هـ وتوفي سنة ١٠٩هـ[2].

٦ ـ الحسن البصري

ترجمته ومكانته في التفسير:

هو أبو سعيد، الحسن بن أبي الحسن [واسم أبي الحسن] يسار البصري مولى[3] الأنصار، وأمه خيرة مولاة أم سلمة [أم المؤمنين]. قال ابن سعد: ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر ونشأ بوادي القرى، وكان فصيحا ورعا زاهدا. روى عن علي، وابن عمر، وخلق كثير من الصحابة والتابعين.

قال أنس بن مالك: سلوا الحسن، فإنه حفظ ونسينا. وقال ابن سعد: كان الحسن جامعا، عالما. رفيعا، فقيها، ثقة مأمونا، عابدا، ناسكا، كثير العلم فصيحا، جميلا، وسيما. وحديثه عند أصحاب الكتب الستة. توفي ـ رحمه الله تعالى ـ سنة ١١٠هـ. وهو ابن ٨٨ سنة[4].

٧ ـ قتادة

ترجمته ومكانته في التفسير:

هو أبو الخطاب، قتادة بن دعامة السدوسي الأكمه [أي الأعمى]، عربي الأصل. كان يسكن البصرة. روى عن أنس، وأبي الطفيل، وابن سيرين[5] وغيرهم. وكان قوي الحافظة، واسع الاطلاع في الشعر العربي، بصيرا بأيام العرب، عليما بأنسابهم، متضلعا في اللغة العربية.

---

١) مقدمة تفسير ابن جرير ١/ ٢٨.

٢) انظر تهذيب التهذيب لابن حجر: ٥/ ٦٥ ـ ٦٩.

٣ ـ من سبي ميْسان ـ بين البصرة وواسط (معجم البلدان) ـ مولى زيد بن ثابت: راجع: تهذيب الكمال: (١/ ٢٥٥)، تهذيب التهذيب: (٢/ ٢٦٣)، الكاشف: (١/ ٢٢٠)، تاريخ البخاري الكبير: (١/ ٢١٠)، ميزان الاعتدال: (١/ ٤٨٣) طبقات ابن سعد: (٩/ ٤٩)، سير الأعلام: (٤/ ٥٦٣)، الثقات: (٤/ ١٢٢).

٤) انظر تهذيب التهذيب لابن حجر: ٢/ ٢٦٣ ـ ٢٧٠.

٥ ـ هو محمد بن سيرين: هو تابعي، شيخ الإسلام أبو بكر الأنصاري البصري مولى أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ وكان أبوه من سبي جرجرايا، تملكه أنس ثم كاتبه على ألوف من المال فوفاه. قال أنس بن سيرين: «ولد أخي محمد لسنتين بقيتا من خلافة عمر». وقد عاش نيفا وثمانين سنة. راجع سير أعلام النبلاء للذهبي: ٤/ ٦٠٧.

إلا أنه نسب إليه الخوض في القدر [يعني قول القدرية في أن الإنسان يخلق أفعال نفسه]. وكثيرا ما تحرج بعض الرواة من الرواية عنه لذلك، ونجد أصحاب الصحاح يخرجون له، ويحتجون بروايته، ويكفينا هذا في تعديله وتوثيقه. وقال ابن حبان في الثقات: كان من علماء الناس بالقرآن والفقه، ومن حفاظ أهل زمانه. وكانت وفاته سنة ١١٧هـ، وعمره إذ ذاك ٥٦ سنة على المشهور[١].

١) انظر تهذيب التهذيب لابن حجر: ٨/ ٣٥١ ـ ٣٥٦.

الفصل الثاني

قيمة التفسير المأثور عن التابعين

اختلف العلماء في حجية قول التابعين، فنقل عن الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ روايتان في ذلك: رواية بالقبول، ورواية بعدم القبول. وذهب بعض العلماء: إلى أنه لا يؤخذ بتفسير التابعي[1]، واختاره ابن عقيل، وحكي عن شعبة. واستدل أصحاب هذا الرأي على ما ذهبوا إليه: بأن التابعين ليس لهم سماع من الرسول ﷺ، فيجوز عليهم الخطأ في فهم المراد وظن ما ليس بدليل دليلا، ومع ذلك فعدالة التابعين غير منصوص عليها كما نص على عدالة الصحابة. نقل عن أبي حنيفة أنه قال: ما جاء عن رسول الله ﷺ فعلى الرأس والعين، وما جاء عن الصحابة تخيرنا، وما جاء عن التابعين فهم رجال ونحن رجال.

وقد ذهب أكثر المفسرين: إلى أنه يؤخذ بقول التابعي في التفسير؛ لأن التابعين تلقوا غالب تفسيراتهم عن الصحابة.

والذي تميل إليه النفس: هو أن قول التابعي في التفسير لا يجب الأخذ به إلا إذا كان إجماعا منهم. قال ابن تيمية: قال شعبة بن الحجاج[2] وغيره: أقوال التابعين [في الفروع] ليست حجة، فكيف تكون حجة في التفسير؟ يعني أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم، وهذا صحيح، أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض ولا على من بعدهم، ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن، أو السنة، أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك[3].

---

١ ـ القصد بالقبول وعدمه، والأخذ وعدم الأخذ: أنها حجة أم لا. وبالتالي لا يقصد بعدم القبول: الردّ، وإنما يقصد بأنها ليست حجّة ملزمة.

٢ ـ هو أبو بسطام، شُعْبَة بن الحَجَّاج بن الوَرْد العَتَكي مولاهم. بصري الأصل، ومولده ومنشأه بواسط، ثم انتقل إلى البصرة. قال الإمام الشافعي: لولا شُعبة ما عُرف الحديث بالعراق. ولد سنة ثلاث وثمانين، ومات سنة ستين ومئة. راجع: تهذيب التهذيب: (٢/ ٥٨١)، خلاصة تهذيب الكمال: (١/ ٤٤٩)، الكاشف: (٢/ ١١)، الوافي بالوفيات: (١٦/ ١٥٥).

٣) انظر مقدمة ابن تيمية في أصول التفسير ٢٨ ـ ٢٩، وفواتح الرحموت [لابن نظام الدين الحنفي]: ٢/ ١٨٨، والإتقان للسيوطي: ٢/ ١٧٩.

الفصل الثالث

مميزات التفسير في عصر التابعين

يمتاز التفسير في هذه المرحلة بالمميزات الآتية:

١ ـ دخل في التفسير كثير من الإسرائيليات. وذلك لكثرة من دخل من أهل الكتاب في الإسلام، وكان لا يزال عالقا بأذهانهم من الأخبار مالا يتصل بالأحكام الشرعية، كأخبار بدء الخليقة، وأسرار الوجود، وبدء الكائنات، وكثير من القصص. ولاشك أن الرجوع إلى هذه الإسرائيليات في التفسير أمر مأخوذ على التابعين كما هو مأخوذ على من جاء بعدهم(١).

٢ ـ ظل التفسير محتفظا بطابع التلقي والرواية(٢)، إلا أنه لم يكن تلقيا ورواية كما هو الشأن في عصر النبي ﷺ وأصحابه، بل كان تلقيا ورواية يغلب عليهما طابع الاختصاص، فأهل كل مصر يعنون ـ بوجه خاص ـ بالتلقي بالرواية عن إمام مصرهم، فالمكيون عن ابن عباس، والمدنيون عن أبي، والعراقيون عن ابن مسعود.. وهكذا.

٣ ـ ظهرت في هذا العصر نواة الخلاف المذهبي، فظهرت بعض تفسيرات تحمل في طياتها هذه المذاهب، فنجد مثلا قتادة بن دعامة السدوسي ينسب إلى الخوض في القضاء والقدر ويتهم بأنه قدري.

٤ ـ كثرة الخلاف بين التابعين في التفسير عما كان بين الصحابة رضوان الله عليهم، وإن كان اختلافا قليلا بالنسبة لما وقع بعد ذلك من متأخري المفسرين.

---

١) انظر فجر الإسلام لأحمد أمين: ٢٥٢، ومنهج الفرقان: محمد أبو سلامة، مطبعة شبرا ـ ١٩٣٨م: ٢/ ٢٠.

٢) وما قيل من أن مجاهد بن جبر كتب التفسير كله عن ابن عباس، وما يأتي بعد من أن سعيد بن جبير كتب تفسير القرآن، لا يخرج بالتفسير في هذه المرحلة عن طابع التلقي والرواية؛ لأن هذا عمل فردي لا يؤثر على الطابع العام.

الفصل الرابع

الخلاف بين السلف في التفسير

كان الخلاف بين السلف في التفسير قليلا جدا، وكان اختلافهم في الأحكام أكثر من اختلافهم في التفسير. وإذا نحن تتبعنا ما نقل لنا من أقوال السلف في التفسير لخرجنا بادي الرأي من الأقوال المختلفة في المسألة الواحدة، فقول لصحابي يخالف قول صحابي آخر، وقول لتابعي يخالف قول تابعي آخر! فهل معنى هذا أن الخلاف في التفسير قد اتسعت دائرته على عهد الصحابة والتابعين؟.. لا، فدائرة الخلاف لم تتسع؛ وذلك لأن غالب ما صح عنهم من الخلاف في التفسير هو اختلاف تنوع، لا اختلاف تباين وتضاد كما ظنه بعض الناس.

ونستطيع أن نرجع هذا الخلاف إلى عدة أمور، وهي ما يأتي:

١ ـ أن يعبر كل واحد من المفسرين عن المراد بعبارة غير عبارة صاحبه تدل على معنى في المسمى غير المعنى الآخر مع اتحاد المسمى، وذلك مثل أسماء الله الحسنى، فإن أسماء الله كلها على مسمى واحد، وإن كانت لها معان مختلفة.

٢ ـ أن يذكر كل منهم من الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل وتنبيه المستمع على النوع، لا على سبيل الحد المطابق للمحدود في عمومه وخصوصه.

مثال ذلك ما نقل في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ [فاطر: ٣٢]، فبعضهم فسر السابق: بمن يصلي في أول الوقت، والمقتصد: بمن يصلي في أثنائه، والظالم: بمن يصلي بعد فواته. وبعضهم فسر السابق: بمن يؤدي الزكاة المفروضة مع الصدقة، والمقتصد: بمن يؤديها وحدها، والظالم: بمانع الزكاة. فكل من المفسرين ذكر فردا من أفراد العام على سبيل التمثيل لا الحصر، لتعريف المستمع أن الآية تتناول المذكور، ولتنبيهه به على نظيره. وهذا الاختلاف في ذكر المثال لا يؤدي إلى التباين والتناقض بين الأقوال؛ إذ من المعلوم أن الظالم لنفسه يتناول: المضيع للواجبات والمنتهك للحرمات. والمقتصد يتناول: فاعل الواجبات وتارك المحرمات. والسابق يتناول: من تقرب بالحسنات مع الواجبات.

٣ ـ أن يكون اللفظ محتملا للأمرين أو الأمور، وذلك إما لكونه مشتركا في اللغة، كلفظ: ﴿قَسْوَرَةٍ﴾ الذي يراد به الرامي، ويراد به الأسد، ولفظ: ﴿عَسْعَسَ﴾ الذي يراد به إقبال الليل، ويراد به إدباره. وإما لكونه متواطئا في الأصل لكن المراد به أحد النوعين، أو أحد الشخصين، كالضمائر في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾ [النجم: ٨ ـ ٩]. فمثل هذا قد يجوز أن يراد به كل المعاني التي قالها السلف، إن لم يكن هناك دليل يخصص بعض هذه المعاني.

٤ ـ أن يعبروا عن المعاني بألفاظ متقاربة لا مترادفة، فإن الترادف قليل في اللغة، ونادر أو معدوم في القرآن، وقلّ أن يعبر عن لفظ واحد بلفظ واحد يؤدي جميع معناه، فمثلا إذا قال قائل: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ۝٩﴾ [الطور: ٩]: المور: الحركة. فذلك تقريب للمعنى؛ لأن المور: حركة خفيفة سريعة.

٥ ـ أن يكون في الآية الواحدة قراءتان أو قراءات، فيفسر كل منهم على حسب قراءة مخصوصة فيُظن ذلك اختلافا، وليس باختلاف، مثال ذلك: ما أخرجه ابن جرير عن قتادة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ۝١٥﴾ [الحجر: ١٥]. قال: من قرأ: ﴿سُكِّرَتْ﴾ مشددة، فإنما يعني: سدّت. ومن قرأ: (سكرت) مخففة، فإنه يعني سُحرت.

هذه هي الأوجه التي بواسطتها نستطيع أن نجمع بين أقوال السلف التي تبدو متعارضة. أما ما جاء عنهم من اختلاف في التفسير ويتعذر الجمع بينه بواحد من الأمور السابقة ـ وهذا أمر نادر ـ فطريقنا فيه: أن ننظر فيمن نقل عنه الاختلاف، فإن كان عن شخص واحد واختلفت الروايتان صحة وضعفا، قدم الصحيح وترك ما عداه، وإن استويتا في الصحة وعرفنا أن أحد القولين متأخر عن الآخر، قدم المتأخر وترك ما عداه، وإن لم نعرف تقدم أحدهما على الآخر رددنا الأمر إلى ما ثبت فيه السمع. فإن لم نجد سمعا وكان للاستدلال طريق إلى تقوية أحدهما، رجحنا ما قواه الاستدلال وتركنا ما عداه. وإن تعارضت الأدلة فعلينا أن نؤمن بمراد الله تعالى ولا نتجرأ على تعيين أحد القولين. وبنحو هذا نعمل لو كان الخلاف عن شخصين أو أكثر، مع غض البصر عن مسألة التقدم والتأخر في الروايات لأنها هنا لأكثر من شخص.

ويرى الزركشي: أن الاختلاف إن كان بين الصحابة وتعذر الجمع، قُدّم قول ابن عباس على قول غيره، وعلل ذلك فقال: لأن النبي ﷺ بشره بذلك حيث قال: «اللهم علمه التأويل»[1][2].

---

١) الإتقان للسيوطي: ٢/ ١٨٣، وقد اعتمدنا في هذا البحث على مقدمة أصول التفسير لابن تيمية: ٦ ـ ١٣، والإتقان: ٢/ ١٧٦ ـ ١٨٣، مبادئ التفسير: محمد الخضري الدمياطي، النيل ١٣٢١هـ: ٦ ـ ٧.

٢ ـ سبق تخريجه.

الباب الثالث

المرحلة الثالثة للتفسير
أو
التفسير في عصور التدوين

تبدأ المرحلة الثالثة من مبدأ ظهور التدوين، وذلك في أواخر عهد بني أمية، وأول عهد العباسيين.

الخطوات التي تدرج فيها التفسير

١ - [الرواية]:

كان التفسير في عهد الصحابة والتابعين يُتناقل بطريق الرواية، فالصحابة يروون عن رسول الله ﷺ، كما يروي بعضهم عن بعض، والتابعون يروون عن الصحابة، كما يروي بعضهم عن بعض، وهذه هي الخطوة الأولى للتفسير[١].

٢ - [التدوين مع الحديث]:

ثم بعد عصر الصحابة والتابعين، خطا التفسير خطوة ثانية، وذلك حيث ابتدأ التدوين لحديث رسول الله ﷺ، فكانت أبوابه متنوعة، وكان التفسير باباً من هذه الأبواب التي اشتمل عليها الحديث، فلم يفرد له تأليف خاص يفسر القرآن سورة سورة، وآية آية، من مبدئه إلى منتهاه.

---

١) هذه الخطوات للتفسير خطوات علمية، وأما المراحل فزمنية، وإذاً فلا ضير أن يخطو التفسير خطوة علمية واحدة في مرحلتين زمنيتين: مرحلة عصر النبي ﷺ والصحابة، ومرحلة عصر التابعين. [والخطوة الأولى هذه تتحدث عما سبق عهد التدوين، ولا تعتبر من المرحلة الثالثة للتفسير. كما أن قوله: «إن التفسير كان يتناقل بطريق الرواية»، المقصود منه أن التدوين لم يكن أمرا رسميا. وأما الجهود الفردية في تدوين التفسير فكانت في زمن الرسول ﷺ فدون بعض الصحابة وكذلك بعدهم بعض التابعين كما ذكر سابقا عن مجاهد وتدوينه تفسير ابن عباس رضي الله عنهما].

٣ - [الإنفصال عن الحديث]:

في هذه الخطوة انفصل التفسير عن الحديث، فأصبح علما قائما بنفسه، ووضع التفسير لكل آية من القرآن، ورتب ذلك على حسب ترتيب المصحف. وتم ذلك على أيدي طائفة من العلماء منهم: ابن ماجة المتوفى سنة ٢٧٣هـ، وابن جرير المتوفى سنة ٣١٠هـ، وأبو بكر بن المنذر النيسابوري المتوفى سنة ٣١٨هـ. وكل هذه التفاسير مروية بالإسناد إلى رسول الله ﷺ، وإلى الصحابة والتابعين، وتابع التابعين، وليس فيها شيء من التفسير أكثر من التفسير المأثور، اللهم إلا ابن جرير الطبري فإنه ذكر الأقوال ثم وجهها، ورجح بعضها على بعض، وزاد على ذلك الإعراب إن دعت إليه الحاجة، واستنبط الأحكام التي يمكن أن تؤخذ من الآيات القرآنية.

وظل المحدثون بعد هذه الخطوة الثالثة، يسيرون على نمط الخطوة الثانية، من رواية المنقول من التفسير في باب خاص من أبواب الحديث، مقتصرين في ذلك على ما ورد عن رسول الله ﷺ، أو عن الصحابة أو عن التابعين.

وليس سهلا معرفة أول من دون تفسير كل القرآن مرتبا؛ لأنه لم يصلنا شيء من التفاسير التي كانت قبل عهد التدوين كتفسير مجاهد، أو بعيده في مبتدأ عصر التدوين. ولو أنه وصل إلينا كل ما كتب من التفسير من مبدأ عهد التدوين. لأمكننا أن نعين المفسر الأول الذي دون التفسير على هذا النمط.

٤ - [تجاوز الإسناد]:

التفسير في هذه الخطوة لم يتجاوز حدود التفسير بالمأثور، وإن كان قد تجاوز روايته بالإسناد، فصنف في التفسير خلق كثير، اختصروا الأسانيد، ونقلوا الأقوال المأثورة عن المفسرين من أسلافهم دون أن ينسبوها لقائليها، فدخل الوضع في التفسير والتبس الصحيح بالعليل، وأصبح الناظر في هذه الكتب يظن أن كل ما فيها صحيح، فنقله كثير من المتأخرين في تفاسيرهم، ونقلوا ما جاء في هذه الكتب من إسرائيليات على أنها حقائق ثابتة، وكان ذلك هو مبدأ ظهور خطر الوضع والإسرائيليات في التفسير، وسنعرض لهذا فيما بعد إن شاء الله تعالى.

٥ - [اختلاط التفسير بالفهم العقلي]:

تعتبر هذه الخطوة الأخيرة أوسع الخطا وأفسحها، امتدت من العصر العباسي إلى يومنا هذا، فبعد أن كان تدوين التفسير مقصورا على رواية ما نقل عن سلف هذه الأمة، تجاوز بهذه الخطوة الواسعة إلى تدوين تفسير اختلط فيه الفهم العقلي بالتفسير النقلي، وكان ذلك على تدرج ملحوظ في ذلك.

تدرج التفسير العقلي

بدأ ذلك أولا على هيئة محاولات فهم شخصي، وترجيح لبعض الأقوال على بعض، وكان هذا أمرا مقبولا ما دام يرجع الجانب العقلي منه إلى حدود اللغة ودلالة الكلمات. ثم ظلت محاولات هذا الفهم الشخصي تزداد وتتضخم، متأثرة بالمعارف المختلفة، والعلوم المتنوعة، والآراء المتشعبة، والعقائد المتباينة، حتى وجد مِن كُتُب التفسير ما يجمع أشياء كثيرة، لا تكاد تتصل بالتفسير إلا عن بعد عظيم.

ومع هذا الطغيان العقلي العلمي وُجد من العلماء في عصور مختلفة من فسر القرآن تفسيرا نقليا بحتا، على توسع منهم في النقل، وعدم تفرقة بين ما صح وما لم يصح، كما فعل السيوطي في كتابه الدر المنثور.

التفسير الموضوعي

وكذلك وجد من العلماء من ضيق دائرة البحث في التفسير؛ فتكلم عن ناحية واحدة من نواحيه المتشعبة المتعددة، فابن القيم ـ مثلا ـ أفرد كتابا من مؤلفاته للكلام عن أقسام القرآن سماه: «التبيان في أقسام القرآن»، وأبو عبيدة، أفرد كتابا للكلام عن مجاز القرآن. وغير هؤلاء كثير من العلماء الذين قصدوا إلى موضوع خاص في القرآن يجمعون ما تفرق منه، ويفردونه بالدرس والبحث.

توسع المتقدمين قعد بالمتأخرين عن البحث المستقل

ثم إنا نجد متقدمي المفسرين قد توسعوا في التفسير إلى حد كبير، جعل من جاء بعدهم من المفسرين لا يلقون عنتا، ولا يجدون مشقة في محاولاتهم لفهم كتاب الله، وتدوين ما دونوا من كتب في التفسير، فمنهم من أخذ كلام غيره وزاد عليه، ومنهم من اختصر، ومنهم من علق الحواشي وتتبع كلام من سبقه، تارة بالكشف عن المراد، وأخرى بالتفنيد والاعتراض، ومع ذلك فاتجاهات التفسير، وعدد طرائقه وألوانه، لم تزل على ما كانت عليه، متشعبة متكاثرة.

أما في عصرنا الحاضر، فقد غلب اللون الأدبي الاجتماعي على التفسير، ووجدت بعض محاولات علمية، في كثير منها تكلف ظاهر وغلو كبير، أما اللون المذهبي، فقد بقي سُنّة إلى يومنا هذا بمقدار ما بقي من المذاهب الإسلامية، وسوف نعرض للتفسير في عصرنا الحاضر بما فيه الكفاية إن شاء الله تعالى.

الفصل الأول

التفسير بالمأثور

ما هو التفسير المأثور؟

يشمل التفسير المأثور ما جاء في القرآن نفسه من البيان والتفصيل لبعض آياته، وما نقل عن رسول الله ﷺ، وما نقل عن الصحابة رضوان الله عليهم، وما نقل عن التابعين، من كل ما هو بيان وتوضيح لمراد الله تعالى من نصوص كتابه الكريم.

اللون الشخصي للتفسير المأثور:

من المعلوم أن الشخص الذي يفسر نصا من النصوص، يلون هذا النص بتفسيره إياه؛ لأن المتفهم لعبارة من العبارات، هو الذي يحدد معناها ومرماها وفق مستواه الفكري، وعلى سعة أفقه العقلي.

غير أن هذا الطابع الشخصي الذي يطبع به التفسير، إن ظهر لنا جليا واضحا في كتب التفسير بالرأي، فإنا لا نكاد نجده لأول وهلة على هذا النحو من الوضوح والجلاء بالنسبة لكتب التفسير بالمأثور، ولكن نستطيع أن نتبينه إذا ما قدرنا أن المتصدي لهذا التفسير النقلي إنما يجمع حول الآية من المرويات ما يشعر أنها متجهة إليه، متعلقة به، فيقصد إلى ما يتبادر لذهنه من معناها، ثم تدفعه الفكرة العامة فيها إلى أن يصل بين الآية وما يروي حولها في اطمئنان، وبهذا الاطمئنان، يتأثر نفسيا وعقليا، حينما يقبل مرويا ويعنى به، أو يرفض مرويا حين لا يرتاح إليه.

ثم إننا بعد هذا نلحظ لونا شخصيا آخر في التفسير النقلي، ذلك أن الشخص الذي يعرف قيمة الرجال، ويستطيع أن ينقد السند، ويعرف أسباب الضعف في الرواية، نرى تفسيره يطبع بهذا الطابع الشخصي الخاص، فيتحرى الصحة فيما يرويه، فلا يدخل في كتابه مرويا اعتراه الضعف أو تطرق إليه الخلل، أما الشخص الذي لا دراية له بأسباب الضعف في الرواية، يجمع كل ما ينقل له في ذلك بدون أن يفرق بين الصحيح وغيره.

وبعد.. أفلا ترى أنه حتى في رواج التفسير النقلي وتداوله تكون شخصية المتعرض للتفسير هي الملونة له، المروجة لصنف منه ؟ أظن أن نعم.

الضعف في رواية التفسير المأثور وأسبابه:

نستطيع أن نرجع أسباب الضعف إلى أمور ثلاثة:

أولها: كثرة الوضع في التفسير.

ثانيها: دخول الإسرائيليات فيه.

ثالثها: حذف الأسانيد.

وأرى أن أعرض لكل سبب من هذه الأسباب الثلاثة المجملة بالإيضاح والتفصيل:

أولا: الوضع في التفسير

أ ـ نشأة الوضع في التفسير:

نشأ الوضع في التفسير مع نشأته في الحديث، لأنهما كانا أول الأمر مزيجا لا يستقل أحدهما عن الآخر، فكما أننا نجد في الحديث: الصحيح والضعيف، ومن عرف بالوضع. نجد مثل ذلك فيما روي من التفسير.

وكان مبدأ ظهور الوضع في سنة ٤١ هـ، حين اختلف المسلمون سياسيا، وتفرقوا إلى شيعة وخوارج وجمهور، ووجد من أهل البدع والأهواء من روجوا لبدعهم، وتعصبوا لأهوائهم، ودخل في الإسلام من تبطن الكفر والتحف الإسلام بقصد الكيد له، وتضليل أهله، فوضعوا ما وضعوا من روايات باطلة، ليصلوا إلى أغراضهم السيئة، ورغباتهم الخبيثة.

ب ـ أسباب الوضع في التفسير: ومنها:

١ ـ التعصب المذهبي: فإن ما جد من افتراق الأمة إلى شيعة تطرفوا في حب علي، وخوارج انصرفوا عنه وناصبوه العداء، وجمهور المسلمين الذين وقفوا بجانب هاتين الطائفتين بدون أن يمسهم شيء من ابتداع التشيع أو الخروج؛ جعل كل طائفة من هذه الطوائف تحاول بكل جهودها أن تؤيد مذهبها بشيء من القرآن، فنسب الشيعة إلى النبي ﷺ، وإلى علي وغيره من أهل البيت رضي الله عنهم أقوالا كثيرة في التفسير تشهد لمذهبهم، كما وضع الخوارج كثيرا من التفسير الذي يشهد لمذهبهم[1]، ونسبوه إلى النبي ﷺ أو إلى أحد أصحابه، وكان قصد كل فريق الترويج لمذهبه.

---

١) وسيأتي شيء من ذلك عند الكلام عن تفسير الشيعة والخوارج. [هذا الكلام غريب، فالمعروف عن الخوارج تكفير صاحب الكبيرة، والكذب مكفر عندهم؛ ولذلك أخذ العلماء برواية الخارجي لحديث رسول الله ﷺ، ولم يعرف عنهم الوضع، وقد ذكر الذهبي دليلا على وضعهم الحديث عند حديثه عن تفسير الخوارج وقد رددت عليه في موضعه].

٢ ـ كذلك نجد اللون السياسي في هذا العصر يترك له أثرا بينا في وضع التفسير، ويلاحظ أن المروي عن علي وابن عباس رضي الله عنهما قد جاوز حد الكثرة، مما يجعلنا نميل إلى القول بأنه قد وضع عليهما في التفسير أكثر مما وضع على غيرهما؛ والسبب في ذلك أن عليا وابن عباس رضي الله عنهما من بيت النبوة، فالوضع عليهما يكسب الموضوع ثقة وقبولا. وفوق هذا فقد كان لعلي من الشيعة ما ليس لغيره، فنسبوا إليه من القول في التفسير ما يظنون أنه يعلي من قدره. وابن عباس كان من نسله الخلفاء العباسيون، فوجد من الناس من تزلف إليهم بكثرة ما يرويه لهم عن جدهم ابن عباس.

٣ ـ كذلك نجد من أسباب الوضع في التفسير ما قصده أعداء الإسلام الذين اندسوا بين أبنائه متظاهرين بالإسلام، من الكيد له ولأهله، فعمدوا إلى الدس والوضع في التفسير بعد أن عجزوا عن أن ينالوا من هذا الدين عن طريق الحرب والقوة، أو عن طريق البرهان والحجة.

ج ـ أثر الوضع في التفسير:

ـ كان من وراء هذه الكثرة التي دخلت في التفسير ودست فيه، أن ضاع كثير من هذا التراث العظيم الذي خلفه لنا أعلامنا المفسرين من السلف؛ لأن ما أحاط به من شكوك، أفقدنا الثقة به، وجعلنا نرد كل رواية تطرق إليها شيء من الضعف، وربما كانت صحيحة في ذاتها.

ـ كما أن اختلاط الصحيح من هذه الروايات بالسقم منها، جعل بعض من ينظر فيها وليس عنده القدرة على التمييز بين الصحيح والعليل، ينظر إلى جميع ما روي بعين واحدة، فيحكم على الجميع بالصحة، وربما من ذلك روايتين متناقضتين عن مفسر واحد فيتهمه بالتناقض في قوله، ويتهم المسلمين بقبول هذه الروايات المتناقضة المتضاربة.

شبهة:

يقول جولد زيهر في كتابه: المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن/ ٧٨ ـ ٨٢: «وإنه لمما يلفت النظر في هذا المحيط، هذه الظاهرة الغريبة، وهي أن التعاليم المنسوبة إلى ابن عباس تحمل طابع التصديق بشكل متساو، وهي في نفسها تظهر في تضاد شديد». ثم يسوق بعد ذلك مثالا لهذا التضاد، فيذكر روايتين عن ابن عباس في إحداهن الذبيح فيها إسحاق، وفي الأخرى إسماعيل. ثم يخلص إلى نتيجة يساوي فيها بين التفسير المأثور والتفسير بالعلم [أي بالرأي].

الرد:

الخلاف بين السلف كان من قبيل التنوع وليس التضاد، وفي حال ورود روايتين

متناقضتين سلكنا أساليب الترجيح مثل تقديم الصحيح وغيرها من الطرق. فإن استوت الصحة والروايتين عن واحد من السلف أخذنا المتأخرة. وما روي من تعارض في الذبيح عن ابن عباس فمحمول على أنه غيّر رأيه فكان يرى أن الذبيح إسحاق، ثم اعتمد على أنه إسماعيل، وهذا الرأي الأخير أثر صحيح على شرط الصحيح[1]. وأما ما روي عن الرسول ﷺ فهذا لايمكن أن يساوى بينه وبين التفسير بالعلم لأنه وحي، وكذلك كثير من تفاسير الصحابة لغلبة الظن بأنهم أخذوها عن الرسول ﷺ.

ثانيا: دخول الإسرائيليات في التفسير

١ ـ المراد بالإسرائيليات:

لفظ الإسرائيليات يعم ما تأثر به التفسير من الثقافتين اليهودية والنصرانية:

أ ـ أما اليهود: فإن ثقافتهم تعتمد أول ما تعتمد على التوراة، [وهي ما يسمى بالعهد القديم]. وكان لليهود بجانب التوراة سنن ونصائح وشروح لم تؤخذ عن موسى بطريق الكتابة، وإنما تحملوها ونقلوها بطريق المشافهة، ثم دونت وعرفت باسم التلمود.

ب ـ وأما النصارى: فكانت ثقافتهم تعتمد ـ في الغالب الأهم ـ على الإنجيل، وهو ما يسمى: العهد الجديد [وإن كانت التوراة تعتبر هي الركيزة عندهم؛ لأنهم يعتقدون أن التوراة أصل والإنجيل تتمّة]. والكتاب المقدس لدى النصارى يشمل: التوراة والإنجيل.

وكان طبيعيا أن يشرح الإنجيل بشروح مختلفة، كانت فيما بعد منبعا من منابع الثقافة النصرانية، كما وجد بجوار ذلك ما زاده النصارى من القصص، والأخبار، والتعاليم، التي زعموا أنهم تلقوها عن عيسى عليه السلام، وهذا كله كان من ينابيع هذه الثقافة النصرانية.

وإذا نحن أجلنا النظر في التوراة والإنجيل نجد أنهما قد اشتملا على كثير مما اشتمل عليه القرآن الكريم، وبخاصة ما كان له تعلق بقصص الأنبياء عليهم السلام، وذلك على اختلاف في الإجمال والتفصيل، فالقرآن يقتصر على مواضع العظة، ولا يتعرض للتفصيل على عكس التوراة.

فمثلا قصة آدم عليه السلام، ورد ذكرها في التوراة، كما وردت في القرآن في مواضع كثيرة، أطولها ما ورد في سورة البقرة، وما ورد في سورة الأعراف. وبالنظر في هذه الآيات من السورتين، نجد أن القرآن لم يتعرض لمكان الجنة، ولا لنوع لشجرة التي نهي آدم وزوجه عن الأكل منها، كما لم يتعرض للبقعة التي هبط إليها آدم وزوجه وأقاما بها بعد خروجهما من الجنة.. إلى آخر ما يتعلق بهذه القصة من تفصيل وتوضيح.

---

١ ـ قال الحاكم في مستدركه: وزعم ابن عباس أن الذبيح إسماعيل. ثم قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي: ٢/ ٤٣١.

ولكن نظرة واحدة يجليها الإنسان في التوراة يجد بعدها أنها قد تعرضت لكل ذلك وأكثر منه، فأبانت أن الجنة في عدن شرقا، وأن الشجرة التي نهيا عنها كانت في وسط الجنة، وأنها شجرة الحياة، وأن الذي خاطب حواء هو الحية، وذكرت ما انتقم الله به من الحية التي تقمصها إبليس، بأن جعلها تسعى على بطنها وتأكل التراب، وانتقم من حواء بتعبها هي ونسلها في حبلها... الخ ما ذكر فيها مما يتعلق بهذه القصة[1].

ومثلا نجد القرآن الكريم قد اشتمل على موضوعات وردت في الإنجيل فمن ذلك قصة عيسى ومريم عليهما السلام، ولكن بأسلوب موجز، يقتصر على موضع العظة ومكان العبرة، فلم يتعرض القرآن لنسب عيسى مفصلا، ولا للمكان الذي ولد فيه، ولا لذكر الشخص الذي قذفت به مريم. مع أننا لو نظرنا في الإنجيل لوجدناه قد تعرض لنسب عيسى، ولذكر الشخص الذي قذفت به مريم[2].

٢ ـ مبدأ دخول الإسرائيليات في التفسير وتطوره:

أ ـ **[في عهد الصحابة]**: كان الصحابة ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ يسألون أهل الكتاب عن أشياء لا تعدو أن تكون توضيحا للقصة وبيانا لما أجمله القرآن منها، مع توقفهم فيما يلقى إليهم، فلا يحكمون عليه بصدق أو بكذب ما دام يحتمل كلا الأمرين، امتثالا لقول الرسول ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ [البقرة: ١٣٦]»[3].

كما أنهم لم يسألوهم عن شيء مما يتعلق بالعقيدة أو يتصل بالأحكام، اللهم إلا إذا كان على جهة الاستشهاد والتقوية لما جاء به القرآن. كما كانوا لا يسألون عن الأشياء التي يشبه أن يكون السؤال عنها نوعا من اللهو والعبث؛ كالسؤال عن لون كلب أهل الكهف مثلا. ولهذا قال الدهلوي: «وكان الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ يعدون مثل ذلك قبيحا من قبيل تضييع الأوقات»[4].

ومهما يكن من شيء فإن الصحابة رضي الله عنهم لم يخرجوا عما فهموه من الإباحة في قوله ﷺ: «بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار»[5].

---

١) العهد القديم (التوراة)، الإصحاح الأول ـ سفر التكوين / ٤ ـ ٥.

٢) العهد الجديد ـ إنجيل متى ـ الإصحاح الأول/ ١: [ذكر في هذا المكان يوسف النجار فقال: وَمَتَّانُ أَنْجَبَ يَعْقُوبَ. وَيَعْقُوبُ أَنْجَبَ يُوسُفَ رَجُلَ مَرْيَمَ الَّتِي وُلِدَ مِنْهَا يَسُوعُ الَّذِي يُدْعَى الْمَسِيحَ].

٣ ـ البخاري في تفسير سورة البقرة: ٨/ ١٢٩.

٤) الفوز الكبير في أصول التفسير: ولي الله الدهلوي، إدارة الطباعة المنبرية ـ ١٣٤٦هـ: ٣٥.

٥ ـ البخاري ٦/ ٣٦١ في الأنبياء. والترمذي: ٢٦٧١ في العلم. وفي جامع الأصول: ٥٨٥٠.

كما أنهم لم يخالفوا قول رسول الله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ [البقرة: ١٣٦]»[١]. ولا تعارض بين هذين الحديثين؛ لأن الأول أباح لهم أن يحدثوا عما وقع لبني إسرائيل من الأعاجيب، لما فيها من العبرة والعظة، وهذا بشرط أن يعلموا أنه ليس مكذوبا[٢]؛ لأن الرسول ﷺ لا يعقل أن يبيح لهم رواية المكذوب.

قال الحافظ ابن حجر[٣] عند شرحه لهذا الحديث: وقال الشافعي: من المعلوم أن النبي ﷺ لا يجيز التحدث بالكذب، فالمعنى: حدثوا عن بني إسرائيل بما لا تعلمون كذبه، وأما ما تجوزونه فلا حرج عليكم في التحدث به عنهم، وهو نظير قوله: إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم: ولم يرد الإذن ولا المنع من التحدث بما يقطع بصدقه».

وأما الحديث الثاني، فيراد منه التوقف فيما يحدث به أهل الكتاب، مما يكون محتملا للصدق والكذب، لأنه ربما كان صدقا فيكذبوه، أو كذبا فيصدقونه، فيقعون بذلك في الحرج، أما ما خالف شرعنا فنحن في حل من تكذيبه، وأما ما وافقه فنحن في حل من تصديقه.

وأما حديث جابر بن عبد الله: «أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه عليه فغضب فقال: أمتهوكون[٤] فيها يا ابن الخطاب؟ والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لاتسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به، أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده، لو أن موسى عليه السلام كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعني»[٥]. فلا يعارض ما قلناه من الجواز، قال الحافظ ابن حجر[٦]: وكأن النهي وقع قبل استقرار الأحكام الإسلامية، والقواعد الدينية خشية الفتنة، ولما زال المحذور وقع الإذن في ذلك، لما في سماع الأخبار التي كانت في زمانهم من الاعتبار».

شبهة وردّ:

وأما ما ذكره جولد زيهر في كتابه: المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن / ٦٥: من أن

---

١) البخاري في باب التفسير ٨/ ١٢٠ من فتح الباري لابن حجر.

٢ ـ ليس صحيحا هذا الشرط، إذ لو علمنا أنه غير مكذوب فهذا ينبغي أن نصدقه وليس أن نتحدث به فقط، أما شرط التحدث فيكفي أن لا نعلم أنه كذب، وقول ابن حجر القادم يؤيد هذا، وسينصر رأيي هذا الذهبي نفسه بعد قليل عند حديثه عن قيمة ما يروى من الإسرائيليات.

٣) فتح الباري لابن حجر العسقلاني: ٦/ ٣٢٠.

٤) المتهوك: المتحير.

٥ ـ مسند الإمام أحمد ٣/ ٣٨٧. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: ١/ ١٧٤: رواه أحمد وأبو يعلى والبزار وفيه مجالد بن سعيد ضعفه أحمد ويحيى بن سعيد وغيرهما.

٦) فتح الباري لابن حجر: ٦/ ٣٢٠.

ابن عباس كان يرجع لرجل يسمى أبا الجلد [جيلان] بن فروة الأزدي في تفسير القرآن، وذكر أن الطبري عند تفسيره للفظ: ﴿ٱلْبَرْقُ﴾ في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ [سورة الرعد: ١٢] نسب إلى ابن عباس أنه قال: إن أبا الجلد يقول: إن معناه المطر. نقول: إن اعتماده هذا لا يكاد ينهض بهذه الدعوى؛ لأن ما رواه إسناد منقطع، كما أن هذا لا يتعلق بالعقيدة والأحكام.

وأما ما نسَب لعبد الله بن عمرو بن العاص من أنه أصاب يوم اليرموك زاملتين من كتب اليهود فكان يحدث منهما، فليس على إطلاقه، بل كان يحدث منهما في حدود ما فهمه من الإذن في قوله ﷺ: «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج». كما نص على ذلك ابن تيمية(١).

ب - **[في عهد التابعين]**: أما التابعون فقد توسعوا في الأخذ عن أهل الكتاب، ويرجع ذلك لكثرة من دخل من أهل الكتاب في الإسلام، وميل نفوس القوم لسماع التفاصيل عما يشير إليه القرآن من أحداث يهودية أو نصرانية فظهرت في هذا العهد جماعة من المفسرين حشوا التفسير بكثير من القصص المتناقض، ومن هؤلاء: مقاتل بن سليمان المتوفى سنة ١٥٠هـ الذي نسبه أبو حاتم إلى أنه استقى علومه بالقرآن من اليهود والنصارى وجعلها موافقة لما في كتبهم(٢).

ج - **[بعد عصر التابعين]**: ثم جاء بعد عصر التابعين من عظم شغفه بالإسرائيليات، وأكثر منها إلى أن جاء دور التدوين للتفسير، فوجد من المفسرين من حشوا كتبهم بهذا القصص الإسرائيلي، الذي كاد يصد الناس عن النظر فيها.

٣ ـ أثر الإسرائيليات في التفسير:

ولقد كان لهذه الإسرائيليات أثر سيئ في التفسير، ذلك لأن الأمر لم يقف على ما كان عليه في عهد الصحابة، بل زادوا على ذلك فرووا كل ما قيل لهم إن صدقا وإن كذبا، مما جعل الناظر في كتب التفسير التي هذا شأنها يكاد لا يقبل شيئا مما جاء فيها، لاعتقاده أن الكل من واد واحد، كما أن نسبة هذه الإسرائيليات التي لا يكاد يصح شيء منها إلى بعض من آمن من أهل الكتاب، جعلت بعض الناس ينظر إليهم بعين الاتهام والريبة، وسوف نعرض لهذا فيما بعد، ونرد عليه إن شاء الله تعالى.

٤ ـ قيمة ما يروى من الإسرائيليات:

تنقسم الأخبار الإسرائيلية إلى أقسام ثلاثة:

---

١) مقدمة في أصول التفسير: ٢٦.

٢) وفيات الأعيان لابن خلكان: ٢/٥٦٨.

أ ـ ما علمت صحته[1]: بأن نقل [معناه]عن النبي ﷺ نقلا صحيحا، وذلك كتعيين اسم صاحب موسى عليه السلام، بأنه الخضر، فقد جاء هذا الاسم صريحا على لسان رسول الله ﷺ[2]، أو كان له شاهد من الشرع يؤيده، وهذا القسم صحيح مقبول.

ب ـ ما علم كذبه: بأن يناقض ما عرفناه من شرعنا[3]، أو كان لا يتفق مع العقل، وهذا القسم لا يصح قبوله ولا روايته.

ج ـ ما سكت الإسلام عنه: لا هو من قبيل الأول، ولا هو من قبيل الثاني، وهذا القسم نتوقف فيه، فلا نؤمن به ولا نكذبه، وتجوز حكايته لما تقدم في الحديث: لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ [البقرة: ١٣٦][4].

٥ ـ موقف المفسر إزاء هذه الإسرائيليات:

ـ يجب على المفسر أن يكون يقظا حتى يستطيع أن يستخلص من هذا الهشيم المركوم من الإسرائيليات ما يناسب روح القرآن، ويتفق مع العقل والنقل، كما يجب عليه أن لا يرتكب النقل عن أهل الكتاب إذا كان في سنة نبينا ﷺ ما يغني عنه.

ـ أن لا يذكر في تفسيره شيئا من ذلك إلا بقدر ما يقتضيه بيان الإجمال؛ ليحصل التصديق بشهادة القرآن فيكف اللسان عن الزيادة.

ـ إذا اختلف المتقدمون في شيء من هذا القبيل وكثرت أقوالهم ونقولهم، فلا مانع من نقل المفسر لهذه الأقوال جميعا، على أن ينبه على الصحيح منها، ويبطل الباطل.

على أن من الخير للمفسر أن يعرض كل الإعراض عن هذه الإسرائيليات، وبدهي أن هذا أحكم وأسلم.

٦ ـ أقطاب الروايات الإسرائيلية:

يتصفح الإنسان كتب التفسير بالمأثور، فلا يلبث أن يلحظ أن غالب ما يرى فيها من إسرائيليات، يكاد يدور على أربعة أشخاص هم: عبد الله بن سلام، وكعب الأحبار، ووهب

---

١ ـ المقصود: ما علمت استقامته مع شريعتنا من حيث معناه، وأما صحته بمعنى أنه هكذا في التوراة فمتعسر لعدم وجود نص التوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام.

٢ ـ البخاري: ٣٠٩/٦ في الأنبياء. والترمذي: ٣١٥٠ في التفسير. وفي جامع الأصول: ٦٣٢٢. ونص الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه: قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إِنَّما سُمي الخَضِرَ؛ لأنه جلس على فَرْوَة بَيْضاءَ، فإذا هي تَهْتَزُّ من خَلْفِهِ خضراءَ».

٣ ـ مالم يكن من الأحكام الفقهية التي يجوز عليها النسخ بين الشرائع كما هو معلوم.

٤ ـ البخاري في تفسير سورة البقرة: ١٢٩/٨. وفي جامع الأصول رقم: ٧٧٠٢.

ابن منبه، وعبد الملك بن عبد العزيز بن جريج، وهؤلاء الأربعة اختلفت أنظار الناس في الحكم عليهم والثقة بهم؛ ولهذا أرى أن أتحدث عن كل فرد منهم على حدة:

١ ـ عبد الله بن سلام

ترجمته ومبلغه من العلم والعدالة:

هو أبو يوسف، عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلي الأنصاري، وهو من ولد يوسف بن يعقوب عليه السلام، [من بني قَيْنُقاع، وكان اسمه الحصين فسمَّاه النبيُّ ﷺ عبد الله].

أسلم عند قدوم النبي ﷺ المدينة، ويحدثنا البخاري عن قصة إسلامه فيقول: «فلما جاء نبي الله ﷺ، جاء عبد الله بن سلام فقال: أشهد أنك رسول الله، وأنك جئت بحق، وقد علمت يهود أني سيدهم وابن سيدهم، وأعلمهم وابن أعلمهم، فادعهم فاسألهم عني قبل أن يعلموا أني قد أسلمت؛ فإنهم إن يعلموا أني قد أسلمت قالوا في ما ليس في، فأرسل نبي الله ﷺ، فأقبلوا فدخلوا عليه، فقال لهم رسول الله ﷺ: يامعشر اليهود ويلكم، اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو، إنكم لتعلمون أني رسول الله حقا، وأني جئتكم بحق فأسلموا، قالوا: ما نعلمه، قالوا: للنبي ﷺ، قالها ثلاث مرات، قال: فأي رجل فيكم عبد الله بن سلام؟ قالوا: ذلك سيدنا وابن سيدنا، وأعلمنا وابن أعلمنا، قال: أفرأيتم إن أسلم ؟ قالوا: حاشا لله، ما كان ليسلم، قال: أفرأيتم إن أسلم ؟ قالوا: حاشا لله ما كان ليسلم، قال: أفرأيتم إن أسلم؟ قالوا: حاشا لله ما كان ليسلم، قال: يا ابن سلام، اخرج عليهم، فخرج، فقال: يامعشر اليهود، اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو، إنكم لتعلمون أنه رسول الله، وأنه جاء بحق، فقالوا: كذبت، فأخرجهم رسول الله ﷺ»[(١)].

روى عن النبي ﷺ، وروى عنه ابناه: يوسف ومحمد، وعوف بن مالك، وأبو هريرة، وغيرهم. وقد اعتمده البخاري وغيره من أهل الحديث، وشهد مع عمر رضي الله عنه فتح بيت المقدس، ومات بالمدينة سنة ٤٣هـ. وقيل غير ذلك.

٢ ـ كعْب الأحْبار

ترجمته ومبلغه من العلم:

هو أبو إسحاق، كعب بن ماتع الحمْيَري، المعروف بكعب الأحبار، وأصله من يهود اليمن، ويقال: إنه أدرك الجاهلية وأسلم في خلافة أبي بكر، وقيل: في خلافة عمر. وقال ابن حجر في الفتح: إن إسلامه في خلافة عمر أشهر، وبعد إسلامه انتقل إلى المدينة، وغزا

---

١) البخاري في باب الهجرة: ٥/٦٣. وفي جامع الأصول رقم: ٨٩٣٠.

الروم في خلافة عمر، ثم تحول في خلافة عثمان إلى الشام، وذكره ابن سعد في الطبقة الأولى من تابعي أهل الشام وقال: كان على دين يهود فأسلم وقدم المدينة، ثم خرج إلى الشام فسكن حمص حتى توفي بها سنة ٣٢هـ، في خلافة عثمان، وقد بلغ ١٤٠ سنة. روى عن النبي ﷺ مرسلا، وعن عمر، وصهيب وعائشة، وروى عنه معاوية، وأبو هريرة، وابن عباس، وغيرهم.

وكان كعب بن ماتع على مبلغ عظيم من العلم، ولهذا كان يقال له: كعب الأحبار. ولقد نقل عنه في التفسير وغيره ما يدل على علمه الواسع بالثقافة اليهودية والثقافة الإسلامية. قال ابن سعد: قالوا: ذكر أبو الدرداء كعبا فقال: إن عند ابن الحميري لعلماً كثيراً.

ثقته وعدالته:

لا نستطيع أن نطعن به كما طعن بعض الناس، فابن عباس على جلالة قدره، وأبو هريرة على مبلغ علمه، وغيرهما من الصحابة كانوا يأخذون عنه ويروون له، ونرى الإمام مسلما يخرج له في صحيحه. كما نرى أبا داود والترمذي والنسائي يخرجون له، وهذا دليل على أن كعبا كان ثقة عند هؤلاء جميعا.

اتهام الأستاذ أحمد أمين لكعب:

يتهم أحمد أمين كعب الأحبار في توثيقه وعدالته ودينه، ويستدل على ذلك بأنه حدّث عمر رضي الله عنه بخبر موته قبل قتله بثلاثة أيام اعتمادا على علم في التوراة، واستنتج من ذلك أحمد أمين أن كعبا كان متآمرا عدوا خطط لقتل عمر رضي الله عنه.

وهذه القصة وإن رواها الطبري فهي غير صحيحة ونبرّئ كعبا منها، وما يُروى عن كعب وغيره من الإسرائيليات لا يؤخذ عليهم؛ لأنهم لم يقصدوا تفسير القرآن بهذه القصص، وإنما من باب التحديث عن التوراة وما فيها، والذنب ذنب من نقل هذه الإسرائيليات وفسّر بها القرآن.

٣ - وهْبُ بن مُنَبّه

ترجمته ومبلغه من العلم والعدالة:

هو أبو عبد الله، وهْب بن منبّه بن سيج بن ذي كناز، اليماني الصنعاني، صاحب القصص، من خيار علماء التابعين. قال عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه: كان من أبناء فارس. وأصل والده: (مُنَبّه) من خراسان من أهل هراة، أخرجه كسرى منها إلى اليمن فأسلم في عهد النبي ﷺ، قال إسحاق بن إبراهيم بن عبد الرحمن الهروي. ولد سنة ٣٤هـ، في خلافة عثمان، وقال ابن سعد وجماعة: مات سنة ١١٠هـ، وقيل غير ذلك.

روى عن أبي هريرة، وأبي سعيد الخدري، وابن عباس، وغيرهم، وروى عنه ابناه: عبد الله وعبد الرحمن، وعمر بن دينار، وغيرهم، وأخرج له البخاري، ومسلم، والنسائي، والترمذي، وأبو داود.

كان وهب بن منبه واسع العلم، كثير الاطلاع على الكتب القديمة، محيطا بأخبار كثيرة وقصص يتعلق بأخبار الأول ومبدأ العالم، ومما يؤثر عنه أنه ألف كتابا في المغازي(١)، ويحدثنا ابن خلكان: أنه رأى لوهب بن منبه تصنيفا ترجمه بذكر الملوك المتوجة من حمْيَر، وأخبارهم، وقصصهم، وقبورهم، وأشعارهم في مجلد واحد، قال: وهو من الكتب المفيدة(٢). قال أحمد: وكان يتهم بشيء من القدر ـ [يعني أن الإنسان هو الذي يشاء أعماله وهو الذي يخلقها]. ثم رجع(٣).

شهادات الموثقين له:

وأنا وإن كنت لا أنكر أن صاحبنا أكثر من الإسرائيليات، وقص كثيرا من القصص إلا أني لا أتهمه بشيء من الكذب؛ لأن القوم هم الذين أفسدوا التفسير بالوضع عليه وعلى غيره ترويجا للموضوع كما سبق.

قال الذهبي: كان ثقة صادقا، كثير النقل من كتب الإسرائيليات، وقال ابن حجر: وهب بن منبه الصنعاني من التابعين، وثقه الجمهور، وشذ الفلاس فقال: كان ضعيفا، وكان شبهته في ذلك أنه كان يتهم بالقول في القدر، وقال أبو زرعة والنسائي: ثقة. وذكره ابن حبان في الثقات، والبخاري نفسه يعتمد عليه ويوثقه.

٤ ـ عبد الملك بن عبد العزيز بن جُرَيْج

ترجمته ومبلغه من العلم والعدالة:

هو أبو خالد، أو أبو الوليد، عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج الأموي مولاهم. أصله رومي نصراني، كان من علماء مكة ومحدثيهم، وهو من أول من صنف الكتب بالحجاز، وهو قطب الإسرائيليات في عهد التابعين.

روى عن أبيه [عبد العزيز وهو تابعي مشهور]، وعطاء بن أبي رباح، وغيرهم. وروى عنه ابناه: عبد العزيز، ومحمد، والأوزاعي وغيرهم، قال ابن سعد: ولد سنة ٨٠ هـ. وأما وفاته فمختلف فيها، فمنهم من قال: سنة ١٥٠هـ، ومنهم من قال: سنة ١٥٩هـ، وقيل غير ذلك.

---

١) فجر الإسلام لأحمد أمين: ١٩٤.

٢) وفيات الأعيان لابن خلكان: ٢/ ١٨٠.

٣ ـ راجع سير أعلام النبلاء للذهبي: ٤/ ٥٤٤.

وكان ابن جريج ـ كما قيل ـ هو أول من صنف الكتب بالحجاز، ويعدونه من طبقة مالك بن أنس وغيره ممن جمعوا الحديث ودونوه، قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: قلت لأَبي: من أوّل من صنّف الكتب؟ قال: ابن جريج وابن أبي عروبة(١).

أما منزلته من ناحية العدالة، فإنه لم يظفر بإجماع العلماء على توثيقه، فمنهم من وثقه، ومنهم من ضعفه، قال فيه العجلي: مكي ثقة، وقال ابن معين: ثقة في كل ما روي عنه من الكتاب. وقال الدارقطني: تجنب تدليس ابن جريج فإنه قبيح التدليس، لا يدلس إلا فيما سمعه من مجروح. وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل قال أبي: بعض هذه الأحاديث التي كان يرسلها ابن جريج أحاديث موضوعة، كان ابن جريج لا يبالي من أين يأخذها، يعني قوله: أخبرت وحدثت عن فلان(٢).

وأخيرا فعلى المفسر أن يكون على حذر فيما روى عن ابن جريج في التفسير حتى لا يروي ضعيفا، أو يعتمد على سقيم(٣).

ثالثاً: حذف الإسناد

لم يُعرف عن الصحابة أنهم كانوا يسألون عن الإسناد، لما عرفوا به جميعا من العدالة والأمانة، ثم جاء عصر التابعين، وفيه ظهر الوضع وفشا الكذب، فكانوا لا يقبلون حديثا إلا إذا جاء بسنده، وثبت لهم عدالة رواته، أما إن حذف السند، أو ذكر وكان في رواته من لا يوثق بحديثه، فإنهم كانوا لا يقبلون الحديث الذي هذا شأنه، فقد روى الإمام مسلم في مقدمة صحيحه عن ابن سيرين أنه قال: «لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا سموا لنا رجالكم»(٤).

فكان ما يروونه من التفسير المأثور عن النبي ﷺ أو عن الصحابة، لا يروونه إلا بإسناده، ثم جاء بعد عصر التابعين مَن جمع التفسير، ودوّن ما تجمّع لديه من ذلك، مع ذكر الأسانيد، كتفسير سفيان بن عيينه، ووكيع بن الجراح و غيرهما.

---

١) شذرات الذهب: عبد الحي بن العماد، مطبعة القدسي ـ ١٣٥٠هـ: ١/٢٢٦. [وابن أبي عروبة هو: سعيد بن أبي عروبة الإمام الحافظ عالم أهل البصرة وأول من صنف السنن النبوية أبو النضر بن مهران العدوي مولاهم البصري، وثقه يحيى بن معين والنسائي وجماعة. قال أحمد بن حنبل كان قتادة وسعيد يقولان بالقدر ويكتمان. مات في: ٥٦هـ. وقيل في العشر الثمانين. راجع: سير أعلام النبلاء: ٦/٤١٣].

٢) ميزان الاعتدال: الحافظ الذهبي، السعادة ـ ١٣٢٥هـ: ٢/١٥١.

٣) انظر تهذيب التهذيب لابن حجر: ٦/٤٠٢ ـ ٤٠٦.

٤) صحيح مسلم: ١/١١٢.

ثم جاء بعد هؤلاء أقوام ألفوا في التفسير، فاختصروا الأسانيد، ولم يتحروا الصحة فيما يروون، فدخل من هنا الدخيل، والتبس الصحيح بالعليل[1].

وجعل كثيرا من المفسرين ينقلون عنها ما فيها من الإسرائيليات والقصص المخترع على أنه صحيح كله، مع أن فيها ما يخالف النقل ولا يتفق مع العقل.

أشهر ما دون من كتب التفسير المأثور
وخصائص هذه الكتب

لا نريد أن نستقصي هنا جميع الكتب المدونة في التفسير؛ لأن هذا الأمر لا يتيسر لنا، بل سأتكلم عما اشتهر وكثر تداوله فحسب. والكتب التي وقع عليها اختياري ما يأتي:

١ ـ جامع البيان في تفسير القرآن: لابن جرير الطبري

٢ ـ بحر العلوم: لأبي الليث السمرقندي

٣ ـ الكشف والبيان عن تفسير القرآن: لأبي إسحاق الثعلبي

٤ ـ معالم التنزيل: لأبي محمد الحسين البغوي

٥ ـ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: لابن عطية الأندلسي

٦ ـ تفسير القرآن العظيم: لأبي الفداء الحافظ ابن كثير

٧ ـ الجواهر الحسان في تفسير القرآن: لعبد الرحمن الثعالبي

٨ ـ الدر المنثور في التفسير المأثور: لجلال الدين السيوطي

وسنتكلم عن كل واحد منها بحسب هذا الترتيب، فنقول وبالله التوفيق:

١ ـ جامع البيان في تفسير القرآن
للطبري

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

هو أبو جعفر، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبري، وهو من أهل آمل طبرستان[2]، ولد بها سنة ٢٢٤هـ، ورحل من بلده في طلب العلم وهو ابن اثنتي عشرة سنة،

---

١) الإتقان للسيوطي: ٢/ ١٩٠.

٢ ـ تقع طبرستان جنوب بحر قزوين (بحر الخزر قديما) أي في إيران وفي شمالها على التحديد. الأطلس التاريخي ـ عدنان العطار: ١٠٥.

وطوف في الأقاليم، فسمع بمصر والشام والعراق، ثم ألقى عصاه واستقر ببغداد، وبقي بها إلى أن مات سنة ٣١٠هـ.

مبلغه من العلم والعدالة:

كان ابن جرير أحد الأئمة الأعلام، قال عنه أبو العباس بن سريح: فقيه عالم، وهذه الشهادة جد صادقة؛ فإن الرجل برع في علوم كثيرة، منها: علم القراءات، والتفسير، والحديث، والفقه، والتاريخ، وقد صنف في علوم كثيرة، فمن مصنفاته: كتاب التفسير الذي نحن بصدده، وكتاب التاريخ المعروف بتاريخ الأمم والملوك، وهو من أمهات المراجع، وكتاب القراءات، والعدد والتنزيل، وغير هذا كثير من تصانيفه التي تدل على سعة علمه وغزارة فضله.

ولكن هذه الكتب قد اختفى معظمها من زمن بعيد، ولم يحظ منها بالبقاء وبالشهرة الواسعة، سوى كتاب التفسير، وكتاب التاريخ.

وقد اعتُبر الطبري أبا التفسير. كما اعتبر أبا التاريخ الإسلامي، وذلك بالنظر لما في هذين الكتابين من الناحية العلمية العالية. قالوا: وله مذهب معروف، وأصحاب ينتحلون مذهبه يقال لهم الجريرية. ولكن هذا المذهب لم يستطع البقاء إلى يومنا هذا. وقال السيوطي: «وكان أولا شافعيا، ثم انفرد بمذهب مستقل، وله أتباع ومقلدون، وله في الأصول والفروع كتب كثيرة»[١].

وذكره ابن حجر فقال: «ثقة، صادق، فيه تشيع يسير، وموالاة لا تضر»[٢].

التعريف بهذا التفسير:

يعتبر المرجع الأول عند المفسرين الذين عنوا بالتفسير النقلي، وإن كان في الوقت نفسه يعتبر مرجعا غير قليل الأهمية من مراجع التفسير العقلي، نظرا لما فيه من الاستنباط، وتوجيه الأقوال، وترجيح بعضها على بعض. وقد طبع تفسير ابن جرير في ٣٠ جزءا من الحجم الكبير.

ولو أننا تتبعنا ما قاله العلماء في تفسير ابن جرير، لوجدنا أن الباحثين قد أجمعوا الحكم على عظيم قيمته، فقد قال السيوطي عنه: «أجل التفاسير وأعظمها، فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال، وترجيح بعضها على بعض، والإعراب، والاستنباط، فهو يفوق بذلك على

---

١) طبقات المفسرين: الجلال السيوطي، طبع ليدن ـ ١٨٣٩م / ٣.

٢) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان: ٢/ ٢٣٢ ـ ٢٣٣، ولسان الميزان: ابن حجر العسقلاني، طبع الهند ١٣٣١هـ: ٥/ ١٠٠ ـ ١٠٣، وطبقات الشافعية الكبرى: تاج الدين السبكي، الحسينية، ط١. ٢/ ١٣٥ ـ ١٣٨، ومعجم الأدباء: ياقوت الحموي، مطبعة عيسى الحلبي، ١٩٣٦م: ١٨/ ٤٠ ـ ٩٤.

تفاسير الأقدمين»[١]، وقال النووي: «أجمعت الأمة على أنه لم يصنف مثل تفسير الطبري»[٢].

هذا ونستطيع أن نقول إن تفسير ابن جرير هو التفسير الذي له الأولية بين كتب التفسير، أولية زمنية، وأولية من ناحية الفن والصناعة:

ـ أما أوليته الزمنية، فلأنه أقدم كتاب في التفسير وصل إلينا.

ـ وأما أوليته من ناحية الفن والصناعة، فذلك أمر يرجع إلى ما يمتاز به الكتاب من الطريقة البديعة التي سلكها فيه مؤلفه، حتى أخرجه للناس كتابا له قيمته ومكانته.

طريقة ابن جرير في تفسيره:

إذا أراد أن يفسر الآية من القرآن يقول: «القول في تأويل قوله تعالى كذا وكذا» ثم يفسر الآية ويستشهد على ما قاله بما يرويه بسنده إلى الصحابة أو التابعين من التفسير المأثور عنهم في هذه الآية، وإذا كان في الآية قولان أو أكثر، فإنه يعرض لكل ما قيل فيها، ويستشهد على كل قول بما يرويه في ذلك عن الصحابة أو التابعين.

ثم هو لا يقتصر على مجرد الرواية، بل نجده يتعرض لتوجيه الأقوال، ويرجح بعضها على بعض، كما نجده يتعرض لناحية الإعراب إن دعت الحال إلى ذلك، كما أنه يستنبط الأحكام التي يمكن أن تؤخذ من الآية، مع توجيه الأدلة وترجيح ما يختار.

إنكاره على من يفسر بمجرد الرأي:

ثم هو يخاصم بقوة أصحاب الرأي المستقلين في التفكير، ولا يزال يشدد في ضرورة الرجوع إلى الصحابة أو التابعين. فمثلا عند ما تكلم عن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يوسف: ٤٩]. نجده يذكر ما ورد في تفسيرها عن السلف مع توجيهه الأقوال وتعرضه للقراءات بقدر ما يحتاج إليه تفسير الآية، ثم يعرج بعد ذلك على من يفسر القرآن برأيه، وبدون اعتماد منه على شيء إلا على مجرد اللغة، فيفند قوله، ويبطل رأيه، فيقول: «وكان بعض من لا علم له بأقوال السلف من أهل التأويل، ممن يفسر القرآن برأيه على مذهب كلام العرب[٣]، يوجه معنى قوله: ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ إلى: وفيه ينجون من الجدب والقحط بالغيث، ويزعم أنه من العَصَر، والعصر التي بمعنى المنجاة،.. وذلك تأويل يكفي من الشهادة على خطئه خلافه قول جميع أهل العلم من الصحابة والتابعين».

---

١) الإتقان للسيوطي: ٢/ ١٩٠.

٢) المرجع السابق.

٣) هناك فرق بين: كلام العرب. وبين: المعروف من كلام العرب. وفي التفسير يحتكم إلى المعروف من كلامهم، كما سيوضحه الطبري بعد قليل.

موقفه من الأسانيد:

ثم إن ابن جرير وإن التزم في تفسيره ذكر الروايات بأسانيدها، إلا أنه في الأعم الأغلب لا يتعقب الأسانيد بتصحيح ولا تضعيف؛ لأنه كان يرى ـ كما هو مقرر في أصول الحديث ـ أن من أسند لك فقد حمّلك البحث عن رجال السند ومعرفة مبلغهم من العدالة أو الجرح، فهو بعمله هذا قد خرج من العهدة[1] ومع ذلك فابن جرير يقف من السند أحيانا موقف الناقد البصير، فيعدل من يعدل من رجال الإسناد، ويجرح من يجرح منهم. فمثلا نجده عند تفسيره لقوله سبحانه وتعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ [الكهف: ٩٤] .يقول: «روي عن عكرمة في ذلك ـ يعني في ضم سين ﴿سَدًّا﴾ وفتحها ـ ما حدثنا به أحمد بن يوسف، قال: حدثنا القاسم، قال: حدثنا حجاج، عن هارون، عن أيوب، عن عكرمة قال: ما كان من صنعة بني آدم فهو: السَّد، يعني بفتح السين، وما كان من صنع الله فهو: السُّد، ثم يعقب على هذا السند فيقول: وأما ما ذكر عن عكرمة في ذلك، فإن الذي نقل ذلك عن أيوب هارون، وفي نقله نظر، ولا نعرف ذلك عن أيوب من رواية ثقات أصحابه».

تقديره للإجماع:

[يحتج] ابن جرير بإجماع الأمة، فمثلا عند قوله تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٠]. يقول: «فإن قال قائل: فأيّ النكاحين عنى الله؟ النكاح الذي هو جماع، أم النكاح الذي هو عقد تزويج؟ قيل: كلاهما؛ وذلك أن المرأة إذا نكحت زوجا نكاح تزويج ثم لم يطأها في ذلك النكاح ناكحها ولم يجامعها حتى يطلقها لم تحل للأول، وكذلك إن وطئها واطئ بغير نكاح لم تحل للأول، لإجماع الأمة جميعا، فإذا كان ذلك كذلك، فمعلوم أن تأويل قوله: ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾، نكاحا صحيحا، ثم يجامعها فيه، ثم يطلقها فإن قال: فإن ذكر الجماع غير موجود في كتاب الله تعالى ذكره، فما الدلالة على أن معناها ما قلت؟ قيل: الدلالة على ذلك إجماع الأمة جميعا على أن ذلك معناه.

---

١ ـ هناك عدة أسباب لذكر الرواية الضعيفة في التفسير، فإضافة إلى ما قاله الذهبي:
أ ـ قد تصح هذه الرواية عند غيره بزوال سبب الضعف.
ب ـ قد تتقوى هذه الرواية بطرق أخرى للحديث يعرفها غيره.
ج ـ يذكر العلماء الرواية الضعيفة عادة بعد الرواية الصحيحة، فالحجة عندهم بالصحيحة، وإنما ذكرت هذه للمتابعة ومزيد من الشرح.
د ـ تساعد على الاجتهاد والفهم والاستنباط لما تحويه من معلومات توضح الرواية الصحيحة.
ومع هذا فلو ذكر الطبري رأيه بالرواية لكان أفضل وخاصة بأن هناك روايات لا يمكن أن يُجبر ضعفها، بل بعضها يتعارض مع الشريعة ولا يصح بحال.

موقفه من القراءات:

يعنى ابن جرير بذكر القراءات وينزلها على المعاني المختلفة، وكثيرا ما يرد القراءات التي لا تعتمد على الأئمة الذين يعتبرون عنده وعند علماء القراءات حجة، ثم يتبع ذلك برأيه في آخر الأمر، فمثلا عند قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنبياء: ٨١]. يذكر أن عامة قراء الأمصار قرؤوا ﴿ٱلرِّيحَ﴾ بالنصب على أنها مفعول لسخرنا المحذوف، وأن عبد الرحمن الأعرج قرأ: «الريحُ». بالرفع على أنها مبتدأ ثم يقول: والقراءة التي لا أستجيز القراءة بغيرها في ذلك ما عليه قرّاء الأمصار لإجماع الحجة من القراء عليه[1].

ولقد يرجع السبب في عناية ابن جرير بالقراءات وتوجيهها إلى أنه كان من علماء القراءات المشهورين.

موقفه من الإسرائيليات:

يأتي ابن جرير في تفسيره بأخبار مأخوذة من القصص الإسرائيلي، يرويها بإسناده إلى كعب الأحبار، ووهب بن منبه، وابن جريج والسُّدّي، وغيرهم، ونراه ينقل عن محمد بن إسحاق كثيرا مما رواه عن مُسْلمة النصارى، ومن الأسانيد التي تسترعي النظر، ما نراه عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ [الكهف: ٩٤] يسوق هذا الإسناد: «حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة قال: حدثنا محمد بن إسحاق قال: حدثني بعض من يسوق أحاديث الأعاجم من أهل الكتاب ممن قد أسلم، مما توارثوا من علم ذي القرنين أن ذا القرنين كان رجلا من أهل مصر، اسمه مرزبا ابن مردبة اليوناني، من ولد يونن بن يافث بن نوح..الخ».وهكذا يكثر ابن جرير من رواية الإسرائيليات، ولعل هذا راجع إلى ما تأثر به من الروايات التاريخية التي عالجها في بحوثه التاريخية الواسعة.

وإذا كان ابن جرير يتعقب كثيرا من هذه الروايات بالنقد، فتفسيره لا يزال يحتاج إلى النقد الفاحص الشامل، على أن ابن جرير ـ كما قدمنا ـ قد ذكر لنا السند بتمامه في كل رواية يرويها، وبذلك يكون قد خرج من العهدة، وعلينا نحن أن ننظر في السند ونتفقد الروايات.

---

١ ـ ومع ذلك نجد ابن جرير يضعف بعض القراءات المتواترة من السبعة ! وعذرنا له أنها لم تتواتر عنده هو، بينما اعتبرها العلماء متواترة وهو من القراءات السبع فمثلا: في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً﴾ [البقرة: ٢٨٢] قرئت تجارة حاضرة بالرفع والنصب. يقول الطبري: إنه لا يستجيز القراءة بغير الرفع، وإن كانت قراءة النصب متواترة وهي قراءة عاصم / (النشر: ٢/ ٢٣٧). وللمزيد راجع أيضا الآية التي تلي المذكورة: البقرة: ٢٨٣.

انصرافه عما لا فائدة فيه:

لا يهتم ابن جرير بالأمور التي لا تفيد، فنراه مثلا عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [المائدة: ١١٢]، يعرض لذكر ما ورد من الروايات في نوع الطعام الذي نزلت به مائدة السماء، ثم يعقب قائلا: وأما الصواب من القول فيما كان على المائدة فأن يقال: كان عليها مأكول، وجائز أن يكون سمكا وخبزا، وجائز أن يكون ثمرا من الجنة، وغير نافع العلم به، ولا ضار الجهل به، إذا أقرّ تالي الآية بظاهر ما احتمله التنزيل.

احتكامه إلى المعروف من كلام العرب:

فمثلاً عند قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾ [هود: ٤٠] نراه يعرض لذكر الروايات عن السلف في معنى لفظ: ﴿التَّنُّورُ﴾ فيروي لنا قول من قال: إن التنور عبارة عن وجه الأرض، وقول من قال: إنه عبارة عن تنوير الصبح، وقول من قال: إنه عبارة عن أعلى الأرض وأشرفها، وقول من قال: إنه عبارة عما يختبز فيه... ثم يقول: «وأولى هذه الأقوال عندنا بتأويل قوله: ﴿التَّنُّورُ﴾، قول من قال: التنور: الذي يختبز فيه؛ لأن ذلك هو المعروف من كلام العرب، وكلام الله لا يوجه إلا إلى الأغلب الأشهر من معانيه عند العرب، إلا أن تقوم حجة على شيء منه بخلاف ذلك فيسلم لها، وذلك أنه جل ثناؤه إنما خاطبهم بما خاطبهم به لإفهامهم معنى ما خاطبهم به».

رجوعه إلى الشعر القديم:

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، يقول: والأنداد جمع ند، والند: العدل والمثل، كما قال حسان بن ثابت:

أتهجوه ولست له بند فشرُّكما لخيركما الفداء

يعني بقوله: ولست له بند: لست له بمثل ولا عدل، وكل شيء كان نظيرا لشيء وشبيها فهو له ندّ، ثم يسوق الروايات عمن قال ذلك من السلف.

اهتمامه بالمذاهب النحوية:

كذلك نجد ابن جرير يتعرض كثيرا لمذاهب النحويين من البصريين والكوفيين في النحو والصرف، ويوجه الأقوال، تارة على المذهب البصري، وأخرى على المذهب الكوفي، مستعينا بذلك على الترجيح بين الأقوال في تفسير الآية، فمثلا عند قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾ [إبراهيم: ١٨]، يقول: «اختلف أهل العربية في رافع: ﴿مَثَلُ﴾ فقال بعض نحويي البصرة: إنما هو كأنه قال: ومما نقصّ عليكم مثل الذين كفروا. وقال بعض نحويي الكوفيين:

إنما المثل للأعمال، ولكن العرب تقدم الأسماء لأنها أعرف، ثم تأتي بالخبر الذي تخبر عنه مع صاحبه، ومعنى الكلام: مثل أعمال الذين كفروا بربهم كرماد..الخ».

معالجته للأحكام الفقهية:

كذلك نجد في هذا التفسير آثارا للأحكام الفقهية، يعالج فيها ابن جرير أقوال العلماء ومذاهبهم، ويخلص من ذلك كله برأي يختاره، فمثلا عند قوله تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ⑧﴾ [النحل: ٨]، نجده يعرض لأقوال العلماء في حكم أكل لحوم الخيل والبغال والحمير، ويذكر قول كل قائل بسنده، وأخيرا يختار قول من قال: إن الآية لا تدل على حرمة شيء من ذلك، ووجّه اختياره هذا فقال: «والصواب من القول في ذلك عندنا ما قاله أهل القول الثاني ـ وهو أن الآية لا تدل على الحرمة ـ وذلك أنه لو كان في قوله تعالى: ﴿لِتَرْكَبُوهَا﴾ دلالة على أنها لا تصلح إذ كانت للركوب للأكل، لكان في قوله: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ⑤﴾ [النحل: ٥] دلالة على أنها لا تصلح إذ كانت للأكل والدفء للركوب، وفي إجماع الجميع على أن ركوب ما قال تعالى: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ جائز حلال غير حرام دليل واضح على أن أكل ما قال: ﴿لِتَرْكَبُوهَا﴾ جائز حلال غير حرام إلا بما نص على تحريمه، أو وضع على تحريمه دلالة من كتاب أو وحي إلى رسول الله ﷺ فأما بهذه الآية فلا يحرم أكل شيء، وقد وضع الدلالة على تحريم لحوم الحمر الأهلية بوحيه إلى رسول الله ﷺ، وعلى البغال بما قد بينا في كتابنا كتاب الأطعمة بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع، إذ لم يكن هذا الموضع من مواضع البيان عن تحريم ذلك، وإنما ذكرنا ما ذكرنا ليدل على أن لا وجه لقول من استدل بهذه الآية على تحريم لحم الفرس».

خوضه في مسائل الكلام:

هو في جدله الكلامي وتطبيقه ومناقشته، موافق لأهل السنة في آرائهم، ويظهر ذلك جليا في رده على القدرية [في ادعائهم أن الإنسان يخلق أفعال نفسه].

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ⑦﴾ [الفاتحة: ٧] نراه يقول: «وقد ظن بعض أهل الغباء من القدرية أن في وصف الله جل ثناؤه النصارى بالضلال بقوله: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾. وإضافة الضلال إليهم دون إضافة إضلالهم إلى نفسه، وتركه وصفهم بأنهم المضللون كالذي وصف به اليهود أنه مغضوب عليهم، دلالة على صحة ما قاله إخوانه من جهلة القدرية، جهلا منه بسعة كلام العرب وتصاريف وجوهه، ولو كان الأمر على ما ظنه الغبي الذي وصفنا شأنه، لوجب أن يكون كل موصوف بصفة أو مضاف إليه فعل لا يجوز أن يكون فيه سبب لغيره، وأن يكون كل ما كان فيه من ذلك من فعله، ولوجب أن يكون خطأ قول القائل: تحركت الشجرةُ إذا حركتها الرياح، واضطربت الأرضُ إذا حركتها الزلزلة، وما أشبه ذلك من الكلام الذي يطول بإحصائه

الكتاب... وادعائه أن في نسبة الله جل ثناؤه الضلالة إلى من نسبها إليه من النصارى تصحيحا لما ادعى المنكرون أن يكون الله جل ثناؤه في أفعال خلقه بسبب من أجلها وجدت أفعالهم، مع إبانة الله عز ذكره نصا في آي كثيرة من تنزيله: أنه المضل الهادي، فمن ذلك قوله جل ثناؤه: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية: ٢٣] فأنبأ جل ذكره أنه المضل الهادي دون غيره، ولكن القرآن نزل بلسان العرب على ما [قد]قدمنا البيان عنه في أول الكتاب، ومن شأن العرب إضافة الفعل إلى من وجد منه وإن كان [مسببه] غير [الذي وجد منه أحيانا وأحيانا إلى مسببه وإن كان] الذي وجد منه الفعل غيره، فكيف بالفعل الذي يكتسبه العبد كسبا، ويوجده الله جل ثناؤه عينا منشأة، بل ذلك أحرى أن يضاف إلى مكتسبه كسبا له بالقوة منه عليه، والاختيار منه له، وإلى الله جل ثناؤه بإيجاد عينه وإنشائها تدبيرا».

٢ ـ بحر العلوم[١]
للسمرقندي

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

هو أبو الليث، نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي الفقيه الحنفي. المعروف بإمام الهدى. تفقه على أبي جعفر الهندواني، واشتهر بكثرة التصانيف المشهورة. ومن أهم تصانيفه تفسير القرآن المسمى ببحر العلوم، والمعروف بتفسير أبي الليث السمرقندي، وهو ما نحن بصدده الآن. وكانت وفاته سنة ٣٧٣هـ، وقيل: سنة ٣٧٥ هـ[٢].

---

١ ـ قال الذهبي: مخطوط. لكنه طبع بتحقيق وتعليق الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والدكتور زكريا عبد المجيد النوتي، كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ ١٩٩٣م.

وفي رسالة دكتوراه باسم: صالح يحيى صواب، في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ كلية أصول الدين بالرياض. بعنوان: تفسير القرآن الكريم، لأبي الليث نصر بن محمد السمرقندي يقول الباحث ص٣٤: لم يسمّ أبو الليث كتابه هذا باسم خاص، وجميع من ترجم للمؤلف، أو ذكر الكتاب يقولون له: «تفسير القرآن»، كما كُتِب على نسخ الكتاب: «تفسير القرآن الكريم»، أو «تفسير القرآن العظيم»، أو «تفسير أبي الليث»، وهذا لا يعد اسما خاصا، فإن أيّ تفسير للقرآن يمكن إطلاق هذا الاسم عليه... فالراجح عدم تسمية الكتاب بهذا الاسم، ويبقى تفسيرا للقرآن، فيصح أن يقال: «تفسير القرآن»، وقد أشار إلى ذلك الزركلي في كتابه الأعلام حيث قال في الحاشية: «قلت: في بعض فهارس المكتبات: من تصنيفه: «بحر العلوم»، بضعة مجلدات في التفسير، والصواب أن «بحر العلوم» من تأليف سمرقندي آخر، اسمه «علي» من أبناء المائة التاسعة (الأعلام ٨/ ٢٨)».

٢) انظر طبقات المفسرين للداودي: ٣٢٧.

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

قال في كشف الظنون: هو كتاب مشهور لطيف مفيد، خرّج أحاديثه الشيخ زين الدين قاسم بن قطلوبغا الحنفي سنة ٨٥٤ هـ[١].

تتبعت هذا التفسير فوجدت صاحبه يفسر القرآن بالمأثور عن السلف، فيسوق الروايات عن الصحابة والتابعين ومن بعدهم في التفسير، ولكنه لا يذكر إسناده إلى من يروي عنهم، ويندر سياقه للإسناد في بعض الروايات. وقد لاحظت عليه أنه إذا ذكر الأقوال والروايات المختلفة لا يعقب عليها، ولا يرجح ،اللهم إلا في حالات نادرة أيضا، وهو يعرض للقراءات ولكن بقدر[٢]، كما أنه يحتكم إلى اللغة أحيانا ويشرح القرآن بالقرآن إن وجد من الآيات القرآنية ما يوضح معنى آية أخرى[٣] كما أنه يروي من القصص الإسرائيلي، ولكن على قلة وبدون تعقيب منه على ما يرويه، وكثيرا ما يقول: قال بعضهم كذا. وقال بعضهم كذا. ولا يعين هذا البعض. وهو يروي أحيانا عن الضعفاء ممن تُكلم فيه، ووجدته يوجه بعض إشكالات ترد على ظاهر النظم ثم يجيب عنها[٤]، كما يعرض لموهم الاختلاف والتناقض في القرآن ويزيل هذا الإيهام[٥]. وبالجملة فالكتاب قيم في ذاته، جمع فيه صاحبه بين التفسير بالرواية والتفسير بالدراية إلا أنه غلب الجانب النقلي فيه على الجانب العقلي، ولهذا عددناه ضمن كتب التفسير المأثور.

٣ ـ الكشف والبيان عن تفسير القرآن[٦] للثعلبي

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

هو أبو إسحق أحمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري. قال ياقوت: أبو إسحق الثعلبي، المقرئ، المفسر، الواعظ، الأديب، الثقة، الحافظ. صاحب التصانيف الجليلة: من التفسير الحاوي أنواع الفرائد من المعاني والإشارات، وكلمات أرباب الحقائق ووجوه الإعراب والقراءات[٧]. وله من المؤلفات غير ذلك. ونقل السمعاني عن بعض

---

١) كشف الظنون: ١/ ٢٣٤.

٢) ارجع إليه عند الآية: ١٢٤ من سورة البقرة.

٣) ارجع إليه عند سورة آل عمران: ٣٦.

٤) ارجع إليه في سورة البقرة: ٢٨.

٥) ارجع إليه في سورة البقرة: ٢٩.

٦) ـ وقد عثرت على هذا التفسير بمكتبة الأزهر فوجدته مخطوطا غير كامل ينتهي عند أواخر سورة الفرقان. [حقق جزءا منه ناصر بن محمد الصائغ في رسالة ماجستير. راجع: http://www.tafsir.net].

٧) معجم الأدباء لياقوت الحموي: ٥/ ٣٧.

العلماء أنه يقال له الثعلبي والثعالبي، وهو لقب له وليس بنسب.

ذكره عبد الغفار بن إسماعيل الفارسي في كتاب سياق تاريخ نيسابور، وأثنى عليه، وقال: هو صحيح النقل موثوق به. ولكن هناك من العلماء من يرى أنه لا يوثق به، وسنذكر ذلك عند الكلام عن تفسيره. وقد توفي الثعلبي ـ رحمه الله ـ سنة **٤٢٧** هـ.

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

ألقى مؤلف هذا التفسير ضوءا عليه في مقدمته، وأوضح فيها عن منهجه وطريقته التي سلكها فيه. فذكر أنه استخرجه من زهاء مئة كتاب، وما التقطه من التعليقات من ثلاثمئة شيخ، ثم قال: وخرّجت فيه الكلام على أربعة عشر نحوا: البسائط والمقدمات، والعدد والتنزلات، والقصص والنزولات، والوجوه والقراءات، والعلل والاحتجاجات، والعربية واللغات، والإعراب والموازنات، والتفسير والتأويلات، والمعاني، والجهات، والغوامض والمشكلات، والأحكام والفقهيات، والحكَم والإشارات، والفضائل والكرامات، والأخبار والمتعلقات، أدرجتها في أثناء الكتاب بحذف الأبواب.

ثم ذكر في أول الكتاب أسانيده إلى من يروي عنهم التفسير من علماء السلف، واكتفى بذلك عن ذكرها أثناء الكتاب.

[تعرضه للنحو والمعاني]: ومن الأمثلة على تعرضه للنحو والمعاني اللغوية تفسيره لقوله تعالى: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [البقرة: ٩٠]. نجده يتوسع في الكلام على: نعم و بئس، ويفيض في ذلك. وللتمثيل على شرحه المعاني نجده عند تفسره لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ [البقرة: ١٧٣]، يحلل لفظ: ﴿بَاغٍ﴾ ويتكلم عن أصل المادة بتوسع.

[تعرضه للأحكام الفقهية]: يتوسع في الكلام عن الأحكام الفقهية إلى درجة أنه يخرج عما يراد من الآية، انظر إليه عندما يفسر قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ [النساء: ١١] تجده يفيض في الكلام عما يفعل بتركة الميت، ثم يذكر جملة الورثة والسهام المحددة، ومن فرضه الربع، ومن فرضه الثمن... ويتكلم عن نظام الميراث عند الجاهلية.

[توسعه في رواية الإسرائيليات]: كما أنه يتوسع في ذكر الإسرائيليات بدون أن ينبه على ما فيها رغم استبعادها وغرابتها، فعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠] يروي عن السُّدّي ووهب وغيرهما كلاما طويلا في أسماء أصحاب الكهف، وعددهم، وسبب خروجهم إليه،

ويروي أن النبي ﷺ طلب من ربه رؤية أصحاب الكهف، فأجابه الله بأنه لن يراهم في دار الدنيا، وأمره بأن يبعث لهم أربعة من خيار أصحابه ليبلغوهم رسالته.. إلى آخر القصة التي لا يكاد العقل يصدقها.

ثم إن الثعلبي لم يتحرّ الصحة في كل ما ينقل من تفاسير السلف، بل نجده مغترا بالأحاديث الموضوعة في فضائل القرآن سورة سورة، فروى في نهاية كل سورة حديثا في فضلها منسوبا إلى أبي بن كعب. كما اغتر بكثير من الأحاديث الموضوعة على ألسنة الشيعة، فسوّد بها كتابه دون أن يشير إلى وضعها واختلاقها. وفي هذا ما يدل عن أن الثعلبي لم يكن له باع في معرفة صحيح الأخبار من سقيمها. ولذلك قال عنه الكتاني عند الكلام عن الواحدي المفسر: «ولم يكن له ولا لشيخه الثعلبي كبير بضاعة في الحديث، بل في تفسيرهما ـ وخصوصا الثعلبي ـ أحاديث موضوعة وقصص باطلة»[(١)].

٤ ـ معالم التنزيل
للبغوي

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

هو أبو محمد الحسن بن مسعود بن محمد المعروف بالفراء[(٢)] البغوي[(٣)]، الفقيه، الشافعي، المحدث، المفسر، الملقب بمحيي السنة وركن الدين، تفقه البغوي على القاضي حسين وسمع الحديث منه. وتوفي ـ رحمه الله ـ في شوال سنة ٥١٠هـ، بمرورزو وقد جاوز الثمانين، ودفن عند شيخه القاضي حسين بمقبرة الطالقاني.

وقد عدّ التاج السبكي البغوي من علماء الشافعية الأعلام ،وقال: كان إماما جليلا، ورعا زاهدا فقيها، محدثا مفسرا، جامعا بين العلم والعمل، سالكا سبيل السلف، وصنف في تفسير كلام الله تعالى، وأوضح المشكلات من قول النبي ﷺ، وروى الحديث واعتنى بدراسته، وصنف كتبا كثيرة، غير تفسيره هذا منها: شرح السنة في الحديث، والتهذيب في الفقه، وغير ذلك[(٤)].

---

١) الرسالة المستطرفة ـ محمد الكناني، طبع بيروت ـ ١٣٢٢هـ: ٥٩.

٢) الفراء: نسبة إلى عمل الفراء وبيعها.

٣) البغوي: نسبة إلى بلدة بخراسان بين مرو وهراة يقال لها بغ، وبغشور، وهذه النسبة شاذة على خلاف الأصل، قاله السمعاني في كتاب الأنساب.

٤) انظر طبقات المفسرين للسيوطي: ١٣، ووفيات الأعيان لابن خلكان: ١/١٤٥ ـ ١٤٦، والطبقات الكبرى لابن السبكي: ٤/٢١٤ ـ ٢١٥.

التعريف بمعالم التنزيل وطريقة مؤلفه فيه:

قال في كشف الظنون: هو كتاب متوسط، نقل فيه عن مفسري الصحابة والتابعين ومن بعدهم، واختصره الشيخ تاج الدين أبو نصري عبد الوهاب بن محمد الحسيني المتوفى سنة ٨٧٥هـ[١].

وقال ابن تيمية في فتاواه، وقد سئل: أي التفاسير أقرب إلى الكتاب والسنة: الزمخشري أم القرطبي أم البغوي؟ أم غير هؤلاء؟ فأجاب: وأما التفاسير الثلاثة المسؤول عنها، فأسلمها من البدعة والأحاديث الضعيفة البغوي، لكنه مختصر من تفسير الثعلبي [الكشف والبيان]، وحذف منه الأحاديث الموضوعة والبدع التي فيه، وحذف أشياء غير ذلك[٢].

والبغوي ينقل ماجاء عن السلف في تفسير الآية، وذلك بدون أن يذكر السند. يكتفي في ذلك بأن يقول مثلا: قال ابن عباس كذا وكذا، وقال مجاهد كذا وكذا، والسر في هذا هو أنه ذكر في مقدمة تفسيره إسناده إلى كل من يروي عنهم، وبين أن له طرقا سواها تركها اختصارا، ثم إنه إذا روى عمن ذكر أسانيده إليهم بإسناد آخر غير الذي ذكره في مقدمة تفسيره، فإنه يذكره عند الرواية كما يذكر إسناده إذا روى عن غير من ذكر أسانيده إليهم من الصحابة والتابعين، وأما ما يرويه من أحاديث فقد قال في مقدمته للتفسير: وما ذكرت من أحاديث رسول الله ﷺ في أثناء الكتاب على وفاق آية أو بيان حكم فإن الكتاب يطلب بيانه من السنة، وعليها مدار الشرع وأمور الدين، فهي من الكتب المسموعة للحفاظ وأئمة الحديث، وأعرضت عن ذكر المناكير وما لا يليق بحال التفسير[٣].

وقد لاحظت على هذا التفسير أنه يروي عن الكلبي وغيره من الضعفاء، كما لاحظت أنه يتعرض للقراءات، ولكن بدون إسراف منه في ذلك، كما أنه يتحاشى ما ولع به كثير من المفسرين من مباحث الإعراب، ونكت البلاغة، والاستطراد إلى علوم أخرى لا صلة لها بعلم التفسير، وإن كان في بعض الأحيان يتطرق إلى الصناعة النحوية ضرورة الكشف عن المعنى، ولكنه مقل لا يكثر، ووجدته يذكر أحيانا بعض الإسرائيليات ولا يعقب عليها[٤]، ووجدته يورد بعض إشكالات على ظاهر النظم ثم يجيب عنها[٥] كما وجدته ينقل الخلاف

---

١) كشف الظنون ـ ملا كاتب جلبي، دار الطباعة المصرية ١٢٧٤هـ: ٢/ ٢٨٥.

٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية: ٢/ ١٩٣.

٣) تفسير البغوي ـ المنار ١٣٤٥هـ: ١/ ٩.

٤) انظر ما ذكره في قصة هاروت وماروت، وانظر ما رواه عن الضحاك وغيره عند تفسيره لقوله تعالى في الآية: ٢٥١ من سورة البقرة: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ ١/ ٦٠٤ ـ ٦٠٩.

٥) انظر ما ذكره عند تفسيره لقوله تعالى في الآية ١١٧ من سورة البقرة: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ ١/ ٢٩٤.

عن السلف في التفسير ويذكر الروايات عنهم في ذلك، ولا يرجح رواية على رواية، ولا يضعف رواية ويصحح أخرى.

وعلى العموم فالكتاب في جملته أحسن وأسلم من كثير من كتب التفسير بالمأثور.

٥ ـ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز[١] لابن عطية

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

هو أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي المغربي الغرناطي[٢] الحافظ القاضي. ولي القضاء بمدينة المرية بالأندلس. وكان مولده سنة ٤٨١ هـ. وقد نشأ القاضي أبو محمد بن عطية في بيت علم وفضل، فأبوه أبو بكر غالب بن عطية، إمام حافظ وعالم جليل. وصفه أبو حيان في مقدمة البحر المحيط بأنه «أجل من صنف في علم التفسير، وأفضل من تعرض فيه للتنقيح والتحرير»[٣]. وقد عده ابن فرحون في الديباج المذهب من أعيان مذهب المالكية، كما عده السيوطي في بغية الوعاة من شيوخ النحو وأساطين النحاة[٤]. وتوفي بالرقة في المغرب سنة ٥٤٦ هـ، وقيل غير ذلك.

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

لخصه مؤلفه ـ كما يقول ابن خلدون في مقدمته ـ من كتب التفاسير كلها ـ أي تفاسير المنقول ـ وتحرى ما هو أقرب إلى الصحة منها، ووضع ذلك في كتاب متداول بين أهل المغرب والأندلس، حسن المنحى[٥].

وقد رجعت إلى هذا التفسير فوجدت المؤلف يذكر الآية ثم يفسرها بعبارة عذبة سهلة، ويورد من التفسير المأثور ويختار منه في غير إكثار، وينقل عن ابن جرير الطبري كثيرا، ويناقش المنقول عنه أحيانا، كما يناقش ما ينقله عن غير ابن جرير ويرد عليه. وهو كثير الاستشهاد بالشعر العربي. معنى بالشواهد الأدبية للعبارات، كما أنه يحتكم إلى اللغة العربية عندما يوجه بعض المعاني، وهو كثير الاهتمام بالصناعة النحوية، كما أنه يتعرض كثيرا للقراءات وينزل عليها المعاني المختلفة.

---

١ ـ طبع بتحقيق: عبد الله الأنصاري، الطبعة الأولى، الدوحة، ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٧م.

٢) اقتصرنا هنا على ما ذكره أبو حيان في البحر المحيط: ٩/١. وقد راجعت بعض الكتب فوجدت الاختلاف في ذكر نسبه كثيرا.

٣) البحر المحيط لأبي حيان: ٩/١.

٤) انظر ترجمة ابن عطية في: الديباج المذهب في أعيان المذهب: ١٧٤. وفي: بغية الوعاة في طبقات النحاة للسيوطي: ٢٩٥.

٥) مقدمة ابن خلدون: ٤٩١.

ونجد ابن تيمية يعقد مقارنة بين كتاب ابن عطية وكتاب الزمخشري في مقدمته في أصول التفسير فيقول: «وتفسير ابن عطية وأمثاله أتبع للسنة والجماعة، وأسلم من البدعة من تفسير الزمخشري، ولو ذكر كلام السلف الموجود في التفاسير المأثورة عنهم على وجهه لكان أحسن وأجمل؛ فإنه كثيرا ما ينقل من تفسير محمد بن جرير الطبري وهو لا يحكيه بحال، ويذكر ما يزعم أنه قول المحققين، وإنما يعني بهم طائفة من أهل الكلام الذين قرروا أصولهم بطرق من جنس ما قررت به المعتزلة أصولهم، وإن كان أقرب إلى السنة من المعتزلة»[1].

وأنا أثناء قراءتي في هذا التفسير، رأيت ابن عطية عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [يونس: ٢٦] يقول: «قالت فرقة هي الجمهور: الحسنى: الجنة. والزيادة: النظر إلى الله عز وجل. وروي في ذلك حديث عن النبي ﷺ، وروي هذا القول عن أبي بكر الصديق وغيره. ثم يقول: وقالت فرقة: الحسنى: هي الحسنة. والزيادة: هي تضعيف الحسنات إلى سبعمئة، حسب ما روي في نص الحديث، وتفسير قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَـٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦١]، وهذا قول يعضده النظر، ولولا عظم القائلين بالقول الأول لترجح هذا القول». ثم يأخذ في ذكر طرق الترجيح للقول الثاني.

وهذا يدلنا على أنه يميل إلى ما تميل إليه المعتزلة، أو على الأقل يقدر ما ذهبت إليه المعتزلة في مسألة الرؤية وإن كان يحترم مع ذلك رأي الجمهور. ولعل مثل هذا التصرف من ابن عطية هو الذي جعل ابن تيمية يحكم عليه بحكمه السابق.

٦ ـ تفسير القرآن العظيم
لابن كثير

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

هو الإمام الجليل الحافظ، عماد الدين، أبو الفداء، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البُصروي الدمشقي الشافعي. قدم دمشق وله سبع سنين مع أخيه بعد موت أبيه. سمع من الآمدي، وابن عساكر، وغيرهم، كما لازم المزي وقرأ عليه تهذيب الكمال، وصاهره على ابنته. وأخذ عن ابن تيمية، وفتن بحبه؛ ذكر ابن قاضي شهبة[2] في طبقاته: أنه كانت له

---

١) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية: ٢٣.

٢ ـ هو: القاضي تقي الدين أبي بكر بن احمد المعروف: بابن قاضي شهبة، الشافعي الدمشقي، المتوفى سنة ٨٥١. راجع: كشف الظنون ـ ملا كاتب جلبي: ١/ ٤٩٢.

خصوصية بابن تيمية، ومناضلة عنه، واتباع له في كثير من آرائه، وكان يفتي برأيه في مسألة الطلاق وامتحن بسبب ذلك وأوذي.

وكان مولده سنة ٧٩٠ هـ، أو بعدها بقليل وتوفي في شعبان سنة ٧٧٤ هـ، ودفن بمقبرة الصوفية عند شيخه ابن تيمية، وكان قد كفّ بصره في آخر عمره. رحمه الله رحمة واسعة.

مكانته العلمية:

شهد له العلماء بسعة علمه، وغزارة مادته، خصوصا في التفسير والحديث والتاريخ. قال عنه ابن حجر: «اشتغل بالحديث مطالعة في متونه ورجاله، وجمع التفسير، وشرع في كتاب كبير في الأحكام لم يكمل، وجمع التاريخ الذي سماه البداية والنهاية، وعمل طبقات الشافعية، وشرع في شرح البخاري»[١].

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

تفسير ابن كثير من أشهر ما دون في التفسير المأثور، ويعتبر في هذه الناحية الكتاب الثاني بعد كتاب ابن جرير. ولقد قرأت في هذا التفسير فوجدته يمتاز في طريقته بأنه يذكر الآية، ثم يفسرها بعبارة سهلة موجزة، وإن أمكن توضيح الآية بآية أخرى ذكرها، وهو شديد العناية بهذا النوع من التفسير الذي يسمونه تفسير القرآن بالقرآن.

ثم بعد أن يفرغ من هذا كله، يشرع في سرد الأحاديث المرفوعة التي تتعلق بالآية، ويبين ما يحتجّ به وما لا يحتج به منها، ثم يردف هذا بأقوال الصحابة والتابعين ومن يليهم من علماء السلف. ونجد ابن كثير يرجح بعض الأقوال على بعض، ويضعّف بعض الروايات، ويصحح بعضا آخر منها، ويعدّل بعض الرواة ويجرح بعضا آخر[٢]. وهذا يرجع إلى ما كان عليه من المعرفة بفنون الحديث وأحوال الرجال.

وكثيرا ما نجد ابن كثير ينقل من تفسير ابن جرير، وابن أبي حاتم، وتفسير ابن عطية، وغيرهم ممن تقدمه.

ومما يمتاز به ابن كثير أنه ينبه إلى ما في التفسير المأثور من منكرات الإسرائيليات. فمثلا عند تفسيره لقوله سبحانه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧] نراه يقصّ لنا قصة طويلة وغريبة عن طلبهم للبقرة المخصوصة، وعن وجودهم لها عند رجل من بني إسرائيل كان من أبرّ الناس بأبيه..إلخ، ويروي كل ما قيل في ذلك عن

---

١) انظر ترجمة ابن كثير في: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: ابن حجر العسقلاني، طبع الهند ١٣٤٨هـ: ١/ ٣٧٣ ـ ٣٧٤. وفي شذرات الذهب لعبد الحي بن العماد: ٦/ ٢٣١ ـ ٢٣٢. وفي طبقات المفسرين للداودي ٣٢٧.

٢) للتمثيل راجع تفسيره عند سورة البقرة: ١٨٥.

بعض علماء السلف. ثم بعد أن يفرغ من هذا كله يقول: «وهذه السياقات عن عبيدة وأبي العالية والسُّدّي وغيرهم، فيها اختلاف، والظاهر أنها مأخوذة من كتب بني إسرائيل، وهي مما يجوز نقلها ولكن لا تُصدّق ولا تكذّب؛ فلهذا لا يعتمد عليها إلا ما وافق الحق عندنا. والله أعلم.

ويدخل ابن كثير في المناقشات الفقهية، فمثلا عند تفسير قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] فإنه ذكر أربع مسائل تتعلق بهذه الآية، وذكر أقوال العلماء فيها، وأدلتهم على ما ذهبوا إليه. ولكنه مع هذا مقتصد مقلّ لا يسرف كما أسرف غيره من فقهاء المفسرين.

وبالجملة، فإن هذا التفسير من خير كتب التفسير بالمأثور، وقد قال السيوطي في ذيل تذكرة الحافظ، والزرقاني في شرح المواهب: إنه لم يؤلف على نمطه مثله(١).

٧ ـ الجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

هو أبو زيد عبد الرحمن به محمد بن مخلوف الثعالبي. الجزائري، المغربي، المالكي. قال ابن سلامة البكري: كان شيخنا الثعالبي رجلا صالحا، زاهدا عالما، عارفا، وليا من أكابر الأولياء. وبالجملة فقد اتفق الناس على صلاحه وإمامته.

وقد عرّف هو بنفسه في مواضع من كتبه، وبين أنه رحل من الجزائر لطلب العلم في آخر القرن الثامن فدخل بجاية، ثم تونس، ثم رحل إلى مصر، ثم رجع إلى تونس. ويقول هو: لم يكن بتونس يومئذ من يفوقني في علم الحديث، إذا تكلمت أنصتوا وقبلوا ما أرْويه، تواضعا منهم وإنصافا.

وقد خلّف الثعالبي كتبا كثيرة منها هذا التفسير، وكتاب: الذهب الإبريز في غرائب القرآن العزيز، وغير ذلك. وكانت وفاته سنة ٨٧٦ هـ، أو في أواخر التي قبلها، عن نحو ٩٠ سنة، ودفن بمدينة الجزائر فرحمه الله(٢).

---

١) الرسالة المستطرفة للكتاني: ١٤٦.

٢) انظر ترجمته في: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع: شمس الدين السخاوي، مطبعة القدسي ١٣٥٥هـ: ٤/١٥٢. وفي نيل الابتهاج بتطريز الديباج ـ أحمد بابا التبنكي، السعادة ١٣٢٩هـ: ١٧٣ ـ ١٧٥.

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

يقول الثعالبي في مقدمة تفسيره: فقد ضمّنته بحمد الله المهم مما اشتمل عليه تفسير ابن عطية، وزدته فوائد جمّة، من غيره من كتب الأئمة، وثقات أعلام هذه الأمة، حسبما رأيته أو رويته عن الأثبات وذلك قريب من مئة تأليف، ولم أنقل شيئا من ذلك بالمعنى خوف الوقوع في الزلل، وإنما هي عبارات وألفاظ لمن أعزوها إليه.

ثم أبان المؤلف عن رموز الكتاب فقال: «وكل ما في آخره: (انتهى)، فليس هو من كلام ابن عطية، بل ذلك مما انفردت بنقله من غيره. وجعلت علامة :(ت) لنفسي بدلا من: (قلت) ومن شاء كتبها: قلت. وأما: (ع) فلابن عطية، وما نقلته من الإعراب من الصفاقصي مختصر أبي حيان، جعلت: (ص) علامة عليه، وربما نقلت عن غيره معزوا لمن عنه نقلت. وكل ما نقلته عن أبي حيان ـ وإنما نقلي له بواسطة الصفاقصي ـ أقول: قال الصفاقصي. وجعلت علامة ما زدته على أبي حيان: (م). وما يتفق لي إن أمكن فعلامته: (قلت).

وبالجملة فحيث أطلق، فالكلام لأبي حيان.. ثم قال: وما نقلته من الأحاديث الصحاح والحسان عن غير البخاري ومسلم وأبي داود والترمذي في باب الأذكار والدعوات، فأكثره من النووي وسلاح المؤمن. وفي الترغيب والترهيب وأصول الآخرة، فمعظمه من التذكرة: للقرطبي، والعاقبة: لعبد الحق. وربما زدت زيادة كثيرة من مصابيح البغوي وغيره، كما ستقف إن شاء الله تعالى على كل ذلك معزوا لمحاله.

ثم نقل كثيرا مما جاء في مقدمة تفسير ابن عطية. ثم شرع في التفسير بعد ذلك كله.

ومما سبق يتضح جليا أن تفسير الثعالبي هذا عبارة عن مختصر لتفسير ابن عطية، ليس له بعد الجمع والترتيب إلا عمل قليل، وأثر فكري ضئيل.

وفي آخر الكتاب معجم مختصر في شرح ما وقع فيه من الألفاظ الغريبة، ألحقه به مؤلفه، وزاد فيه كلمات أخرى وردت في غيره يحتاج إلى معرفتها. وبعد هذا ذكر الثعالبي مرائيه التي رأى فيها النبي ﷺ.

وقد قرأت في هذا التفسير فوجدته يتعرض للقراءات أحيانا، ويدخل في الصناعة النحوية ناقلا عمن ذكره ومن عند نفسه، ورأيته يستشهد في بعض المواضع بالشعر العربي على المعنى الذي يذكره، ويذكر الروايات المأثورة في التفسير بدون أن يذكر سنده إلى من يروي عنه، وقد وجدت الثعالبي يذكر بعض الروايات الإسرائيلية، ولكنه يتعقب ما يذكره بما يفيد عدم صحته، أو على الأقل بما يفيد عدم القطع بصحته، فمثلا عندما تكلم عن بلقيس في سورة النمل نجده يقول: «وأكثر بعض الناس في قصصها بما رأيت اختصاره لعدم صحته، وإنما اللازم من الآية، أنها امرأة ملكة على مدائن اليمن، ذات ملك عظيم، وكانت كافرة من قوم كفار».

وجملة القول، فإن الكتاب مفيد، جامع لخلاصات كتب مفيدة، وليس فيه ما في غيره من الحشو المخل، والاستطراد الممل.

٨ ـ الدر المنثور في التفسير المأثور للسيوطي

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

هو الحافظ جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد، السيوطي، الشافعي، صاحب المؤلفات الفائقة النافعة، ولد سنة ٨٤٩ هـ، وتوفي والده وله من العمر خمس سنوات وسبعة أشهر، وأسند وصايته إلى جماعة، منهم الكمال بن الهمام، وختم القرآن وله من العمر ثمان سنين، وحفظ كثيرا من المتون، وأخذ عن شيوخ كثيرين، عدهم تلميذه الداودي فبلغ بهم واحدا وخمسين، كما عدّ مؤلفاته فبلغ بها ما يزيد على الخمسمئة مؤلف، وشهرة مؤلفاته تغني عن ذكرها. وكان السيوطي ـ رحمه الله ـ آية في سرعة التأليف حتى قال تلميذه الداودي: عاينت الشيخ وقد كتب في يوم واحد ثلاثة كراريس تأليفا وتحريرا.

وكان أعلم أهل زمانه بعلم الحديث وفنونه، رجالا، وغريبا، ومتنا وسندا، واستنباطا للأحكام. ولقد أخبر عن نفسه أنه يحفظ مئتي ألف حديث، قال: لو وجدت أكثر لحفظت. ولما بلغ الأربعين سنة تجرد للعبادة، وانقطع إلى الله تعالى، وأعرض عن الدنيا وأهلها، وترك الإفتاء والتدريس، واعتذر عن ذلك في مؤلف سماه بالتنفيس، وأقام في روضة المقياس ولم يتحول عنها إلى أن مات. وله مناقب وكرامات كثيرة. وله شعر كثير جدا، أغلبه في الفوائد العلمية، والأحكام الشرعية. وتوفي في سحر ليلة الجمعة ١٩جمادى الأولى ٩١١ هـ في منزله بروضة المقياس، فرحمه الله[١].

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

عرّف السيوطي نفسه هذا التفسير فقال في آخر الإتقان ٢/ ١٨٣: وقد جمعت كتابا مسندا فيه تفاسير النبي ﷺ، فيه بضعة عشر ألف حديث ما بين مرفوع وموقوف، وقد تم ـ ولله الحمد ـ في أربعة مجلدات، وسميته: (ترجمان القرآن). وقال في مقدمة الدر المنثور ١/ ٢: «وبعد، فلما ألفت كتاب ترجمان القرآن... فكان ما أوردته فيه من الآثار بأسانيد الكتب المخرجة منها واردات ـ (أي طرق كثيرة) ـ، رأيت قصور أكثر الهمم عن تحصيله، ورغبتهم في الاقتصار على متون الأحاديث دون الإسناد وتطويله، فلخصت منه هذا المختصر، مقتصرا فيه على متن الأثر، مصدرا بالعزو والتخريج إلى كل كتاب معتبر، وسميته بالدر المنثور، في التفسير المأثور».

---

١) انظر ترجمته في: شذرات الذهب ـ عبد الحي بن العماد: ٨/ ٥١ ـ ٥٥.

ومن هاتين العبارتين يتبين لنا أن السيوطي اختصر تفسيره: الدر المنثور، من كتابه: ترجمان القرآن، وحذف الأسانيد مخافة الملل، مع عزوه كل رواية إلى الكتاب الذي أخذها منه.

ويظهر للمطلع على تفسير الدر المنثور، أن كل ما سرد من الروايات عن السلف في التفسير لم يعقب عليها، فلا يعدّل ولا يجرح، ولا يضعف ولا يصحح، فهو كتاب جامع فقط لما يروى عن السلف في التفسير، أخذه السيوطي من البخاري، ومسلم، والنسائي، والترمذي، وأحمد، وغيرهم ممن تقدمه ودوّن التفسير.

ولا يفوتنا هنا أن ننبه إلى أن كتاب الدرّ المنثور، هو التفسير الوحيد الذي اقتصر على التفسير المأثور من بين هذه الكتب التي تكلمنا عنها، فلم يخلط بالروايات التي نقلها شيئا من عمل الرأي كما فعل غيره.

الفصل الثاني

التفسير بالرأي وما يتعلق به من مباحث

التفسير بالرأي: عبارة عن تفسير القرآن بالاجتهاد بعد معرفة المفسر لشروط التفسير.

موقف العلماء من التفسير بالرأي:

اختلف العلماء من قديم الزمان في جواز تفسير القرآن بالرأي:

١ ـ فقوم تشددوا وقالوا: لا يجوز لأحد تفسير شيء من القرآن، وإنما له أن ينتهي إلى ما روي عن النبي ﷺ، وعن الذين شهدوا التنزيل من الصحابة رضي الله عنهم، أو عن الذين أخذوا عنهم من التابعين[1].

٢ ـ وقوم رأوا أن من كان ذا أدب وسيع فموسع له أن يفسر القرآن برأيه واجتهاده.

أولاً: [مناقشة مانعي التفسير بالرأي]

١ ـ قال المانعون: المفسر بالرأي ليس على يقين بأنه أصاب ما أراد الله تعالى، والقول بالظن قول على الله بغير علم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦].

الرد: وقد رد المجيزون فقالوا: إن الظن نوع من العلم، إذ هو إدراك الطرف الراجح. والظن منهي عنه إذا أمكن الوصول إلى العلم اليقيني القطعي، بأن يوجد نص قاطع من نصوص الشرع، أو دليل عقلي موصل لذلك، أما إذا لم يوجد شيء من ذلك، فالظن كاف هنا، لاستناده إلى الدليل. قال ﷺ: «جعل الله للمصيب أجرين وللمخطئ واحداً»[2].

٢ ـ استدلوا بقوله تعالى: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ

---

١) مقدمة التفسير للراغب الأصفهاني، الملحقة بآخر تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عبد الجبار: ٤٢٢ ـ ٤٢٣.

٢ ـ اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان: محمد فؤاد عبد الباقي: ح ١١١٨.

﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٤﴾ [النحل: ٤٤]، فقد أضاف البيان إليه، فعُلم أنه ليس لغيره شيء من البيان لمعاني القرآن.

الردّ: قال المجيزون إن النبي ﷺ مات ولم يبين كل شيء، فما ورد بيانه عنه ﷺ ففيه الكفاية عن فكرة من بعده، وما لم يرد عنه ففيه حينئذ فكرة أهل العلم بعده، فيستدلون بما ورد بيانه على ما لم يرد، والله تعالى يقول في آخر الآية السابقة: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

٣ ـ استدلوا بما ورد في السنة من تحريم القول في القرآن بالرأي فمن ذلك:

أ ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: «اتقوا الحديث عني إلا ما علمتم، فمن كذب عليّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار، ومن قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار»[١].

ب ـ [عن جندب أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ»[٢].

الردّ: وأجاب المجيزون عن هذين الحديثين بأجوبة:

منها: أن النهي محمول على من قال برأيه في نحو مشكل القرآن ومتشابهه، من كل ما لا يُعلم إلا عن طريق النقل عن النبي ﷺ والصحابة عليهم رضوان الله.

ومنها: أنه أراد بالرأي: الرأي الذي يغلب على صاحبه من اتباع الهوى من غير دليل يقوم عليه، أما الذي يشهد له الدليل، فالقول به جائز، ومثال غير الجائز: الداعي إلى مجاهدة النفس مستدلا على ذلك بقوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٢٤﴾ [طه: ٢٤]. ويفسر: ﴿فِرْعَوْنَ﴾: بالنفس. ولاشك أن مثل هذا قائل في القرآن برأيه.

ومنها: من يكتفي بظاهر اللغة من غير الرجوع إلى الآثار وأصول التفسير][٣]

هذا ويمكن الإجابة عن حديث جندب ـ زيادة عما تقدم ـ بأن هذا الحديث غير صحيح.

٤ ـ استدلوا بما ورد عن السلف من الصحابة والتابعين، من الآثار التي تدل على أنهم كانوا يعظمون تفسير القرآن ويتحرجون من القول فيه بآرائهم.

فمن ذلك: ما جاء عن أبي مليكة أنه قال: سئل أبو بكر رضي الله عنه في تفسير حرف من القرآن

---

١ ـ الترمذي: ٢٩٥١ في التفسير. وأحمد: ٢٠٦٩ و ٣٠٢٥. وقال الأرناؤوط في جامع الأصول رقم: ٤٧٠: ومداره على عبد الأعلى بن عامر الثعلبي وقد تكلموا فيه.

٢ ـ الترمذي: ٢٩٥٣ في التفسير. وأبو داود: ٣٦٥٢ في العلم. قال الأرناؤوط في جامع الأصول: رقم ٤٦٩: وفي سنده سهيل بن أبي حزم لا يحتج به، ضعفه البخاري وأحمد وأبو حاتم.

٣ ـ يبدو لي أن الذهبي اقتبس هذا ـ بالمعنى ـ من جامع الأصول لابن الأثير: ٢/ ٤. فارجع إليه تجده هناك.

فقال: «أي سماء تظلني؟ وأي أرض تقلني؟ وأين أذهب؟ وكيف أصنع؟ إذا قلت في حرف من كتاب الله بغير ما أراد تبارك وتعالى»[1].

وما ورد عن سعيد بن المسيب: انه كان إذا سُئل عن الحلال والحرام تكلم، وإذا سئل عن تفسير آية من القرآن سكت كأن لم يسمع شيئا. وغير هذا كثير من الآثار الدالة على المنع من القول في التفسير بالرأي.

الردّ: وقد أجاب المجيزون: بأن من أحجم من السلف عن التفسير بالرأي، إنما كان منهم ورعا واحتياطا لأنفسهم، مخافة ألا يبلغوا ما كلفوا به من إصابة الحق في القول، وكانوا يرون أن التفسير شهادة على الله بأنه عنى باللفظ كذا وكذا، فأمسكوا عنه خشية أن لا يوافقوا مراد الله عز وجل.

ويمكن أن يقال أيضا: إن إحجامهم كان مقيدا بما لم يعرفوا وجه الصواب فيه، فهذا أبو بكرﷺ، يقول ـ وقد سئل عن الكلالة ـ «أقول فيها برأيي فإن كان صوابا فمن الله، وإن كان غير ذلك فمني ومن الشيطان: الكلالة كذا وكذا»[2].

وقد قال ابن تيمية: فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف، محمولة على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به، فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعا فلا حرج عليه، ولهذا روي عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير، ولا منافاة؛ لأنهم تكلموا فيما علموه، وسكتوا عما جهلوه، هذا هو الواجب على كل أحد، فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به، فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه، لقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧][3].

ويمكن أن يقال أيضا: إنما أحجم من أحجم؛ لأنه كان لا يتعين للإجابة، لوجود من يقوم عنه في تفسير القرآن وإجابة السائل، وإلا لكانوا كاتمين للعلم، وقد أمرهم الله ببيانه للناس.

---

١ ـ قال ابن حجر في فتح الباري: ٦/ ٢٩٦: وهذا منقطع. بينما يصححها على أن عمرﷺ هو القائل لهذه الكلام. إلا أن ابن حجر عاد وقوى الرواية الأولى أيضا بورودها من طريق أخرى في فتح الباري: ١٣/ ٢٧١.

٢ ـ سنن الدارمي: ٢/ ٤٦٢ رقم: ٢٩٧٢. وفي سنن البيهقي الكبرى: ٢/ ٢٢٣ رقم: ١٢٠٤٣.

٣) كما رجعنا في البحث إلى مقدمة تفسير القرطبي: ١/ ٣١ ـ ٣٥، والإحياء للغزالي: ٣/ ١٣٤ ـ ١٤٢، والإتقان: ٢/ ١٧٩ ـ ١٨٠، ومقدمة التفسير للراغب الأصفهاني: ٤٢٢ ـ ٤٢٥، ومقدمة ابن تيمية في أصول التفسير: ٢٩ ـ ٣٢.

ثانياً: [أدلة المجوزين للتفسير بالرأي]

١ ـ استدلوا بنصوص كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤]. وقوله: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]، ووجه الدلالة في هذه الآيات: انه تعالى حث على تدبر القرآن، كما دلت الآية الأخيرة على أن في القرآن ما يستنبطه أولو الألباب باجتهادهم، فهل يعقل أن يكون تأويل ما لم يستأثر الله بعلمه محظورا على العلماء؟ لو كان ذلك لكنا ملزمين بالاتعاظ والاعتبار بما لا نفهم، ولما فهم الكثير من كتاب الله تعالى.

٢ ـ قالوا: لو كان التفسير بالرأي غير جائز لما كان الاجتهاد جائزا، ولتعطل كثير من الأحكام، والنبي ﷺ لم يفسر كل آيات القرآن، ولم يستخرج لنا جميع ما فيه من أحكام.

٣ ـ استدلوا بما ثبت من أن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ قرؤوا القرآن واختلفوا في تفسيره على وجوه، ومعلوم أنهم لو سمعوا كل ما قالوه في تفسير القرآن من النبي ﷺ لما اختلفوا.

٤ ـ قالوا: إن النبي ﷺ دعا لابن عباس رضي الله عنهما، فقال: «اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل»[(١)]. فلو كان التأويل مقصورا على السماع والنقل كالتنزيل، لما كان هناك فائدة لتخصيص ابن عباس بهذا الدعاء.

والراغب الأصفهاني ـ بعد أن ذكر المذهبين وأدلتهما في مقدمة التفسير ـ قال: «إن المذهبين هما: الغلو والتقصير. فمن اقتصر على المنقول إليه فقد ترك كثيرا مما يحتاج إليه، ومن أجاز لكل أحد الخوض فيه فقد عرضه للتخليط، ولم يعتبر حقيقة قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]»[(٢)].

حقيقة الخلاف: لو رجعنا إلى هؤلاء المتشددين في التفسير وعرفنا سر تشددهم فيه، ثم رجعنا إلى هؤلاء المجوزين للتفسير بالرأي ووقفنا على ما شرطوه من شروط لا بد منها لمن يتكلم في التفسير برأيه، وحلّلنا أدلة الفريقين تحليلا دقيقا، لظهر لنا أن الخلاف لفظي لا حقيقي، ولبيان ذلك نقول:

الرأي قسمان:

أ ـ قسم جار على موافقة كلام العرب، مع موافقة الكتاب والسنة، ومراعاة سائر شروط التفسير، وهذا القسم جائز لا شك فيه، وعليه يحمل كلام المجيزين للتفسير بالرأي.

---

١ ـ مسند أحمد: ١/ ٢٦٤ و ٣١٤. وأما رواية البخاري فهي: (اللهم علمه الحكمة)، (اللهم علمه الكتاب)، (اللهم فقهه في الدين). ٤/ ٢١٧، ونحوه عند مسلم: ح ٢٤٧٧. وفي جامع الأصول: ٦٦٠٢.

٢) مقدمة التفسير للراغب: ٤٢٣.

ب ـ وقسم غير جار على قوانين العربية، ولا موافق الأدلة الشرعية، ولا مستوف لشرائط التفسير، وهذا هو مورد النهي ومحطّ الذم وهو الذي يرمي إليه كلام ابن مسعود إذ يقول: «ستجدون أقواما يدعونكم إلى كتاب الله وقد نبذوه وراء ظهورهم، فعليكم بالعلم، وإياكم والتبدع، وإياكم والتنطع»[1]. وكلام عمر إذ يقول: «ما أخاف على هذه الأمة من مؤمن ينهاه إيمانه، ولا من فاسق بيّن فسقه، ولكني أخاف عليها رجلا قد قرأ القرآن حتى أذلقه بلسانه، ثم تأوله على غير تأويله». وهذا هو الذي يحمل عليه كلام المانعين للتفسير بالرأي.

وبعد ذكر الخلاف السابق، يناسب أن نذكر العلوم التي يحتاج إليها المفسر:

العلوم التي يحتاج إليها المفسر

اشترط العلماء في المفسر الذي يتصدر لتفسير القرآن والاجتهاد فيه جملة أدوات تبعد عنه الزلل في التفسير أهمها:

١ ـ **علم اللغة:** بفنونها من نحو وصرف وأسلوب، وغير ذلك، قال مجاهد: «لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالما بلغات العرب».

٢ ـ **علوم البلاغة** : (المعاني، والبيان، والبديع): فعلم المعاني: يعرف به خواص تراكيب الكلام من جهة إفادتها المعنى. وعلم البيان: يعرف به خواص التراكيب من حيث اختلافها بحسب وضوح الدلالة وخفائها. وعلم البديع: يعرف به وجوه تحسين الكلام.

٣ ـ **علم القراءات:** وبه يمكن ترجيح بعض الوجوه المحتملة على بعض.

٤ ـ **علم أصول الدين:** وبه يستطيع المفسر أن يستدل على ما يجب في حقه تعالى، وما يجوز، وما يستحيل. وأن ينظر في الآيات المتعلقة بالنبوات، والمعاد، وما إلى ذلك نظرة صائبة.

٥ ـ **علم أصول الفقه:** إذ به يعرف كيف يستنبط الأحكام من الآيات ويستدل عليها.

٦ ـ **علم أسباب النزول:** لأنه يعين على فهم المراد من الآية.

٧ ـ **علم القصص:** لأن معرفة القصة تفصيلا يعين على توضيح ما أجمل منها في القرآن.

---

١ ـ سنن الدارمي: ١/٦٦ رقم: ١٤٣.

٨ ـ **علم الناسخ والمنسوخ:** لئلا يفتي بحكم منسوخ فيقع في الضلال والإضلال.

٩ ـ **الأحاديث المبينة لتفسير المجمل والمبهم:** وغير ذلك من وجوه البيان؛ ليستعين بها على توضيح ما يشكل عليه.

١٠ ـ **علم الموهبة:** وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، قال السيوطي بعد أن عد علم الموهبة من العلوم التي لابد منها للمفسر قال في البرهان: «اعلم أنه لا يحصل للناظر فيه معاني الوحي ولا تظهر له أسراره، وفي قلبه بدعة، أو كبر، أو هوى، أو حب دنيا، أو وهو مصر على ذنب، أو غير متحقق بالإيمان، أو ضعيف التحقيق، أو يعتمد على قول مفسر ليس عنده علم، أو راجع إلى معقوله، وهذه كلها حجب وموانع بعضها آكد من بعض[١]».

مصادر التفسير

١ ـ الرجوع إلى القرآن نفسه، يجمع الآيات التي في موضوع واحد، ثم يقارن بعضها ببعضها الآخر، وهذا هو ما يسمونه تفسير القرآن بالقرآن، فإن عدل عن هذا وفسر برأيه فقد أخطأ، وقال برأيه المذموم.

٢ ـ النقل عن الرسول ﷺ، مع الاحتراز عن الضعيف والموضوع فإنه كثير، فمن يترك ما يصح عن النبي ﷺ في التفسير إلى رأيه فهو قائل بالرأي المذموم.

٣ ـ الأخذ بما صح عن الصحابة في التفسير، فإن وقع على قول صحيح لصحابي في التفسير، فليس له أن يهجره ويقول برأيه؛ لأنهم أعلم بكتاب الله، ولما اختصوا به من الفهم التام والعلم الصحيح، لاسيما علماؤهم وكبراؤهم.

٤ ـ الأخذ [بالمشهور] من اللغة: لأن القرآن نزل بلسان عربي مبين، ولكن على المفسر أن يحترز من صرف الآية عن ظاهرها إلى معان خارجة محتملة، يدل عليها القليل من كلام العرب، ويكون المتبادر خلافها.

٥ ـ التفسير بالمقتضى من معنى الكلام والمقتضب من قوة الشرع، وهذا هو الذي دعا به النبي ﷺ لابن عباس حيث قال: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»[٢].

---

١) الإتقان للسيوطي: ٢/ ١٨٠ ـ ١٨٢، وقد رجعنا في هذا البحث إلى نفس الصفحات في الإتقان.

٢ ـ أحمد في المسند: ١/ ٢٦٤ و ٣١٤. وأما رواية البخاري: (اللهم علمه الحكمة)، (اللهم علمه الكتاب)، (اللهم فقهه في الدين). ٤/ ٢١٧، ونحوه عند مسلم: ح ٢٤٧٧. وفي جامع الأصول: ٦٦٠٢.

الأمور التي يجب على المفسر أن يتجنبها في تفسيره

١ ـ التجرّؤ على بيان مراد الله تعالى من كلامه مع الجهالة بالعلوم التي يجوز معها التفسير.

٢ ـ الخوض فيما استأثر الله بعلمه، وذلك كالمتشابه الذي لايعلمه إلا الله.

٣ ـ السير مع الهوى والاستحسان.

٤ ـ أن يجعل مذهبه أصلا والتفسير تابعا.

٥ ـ القطع بأن مراد الله كذا وكذا من غير دليل، وهذا منهي عنه، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوٓءِ وَالْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [البقرة: ١٦٩][١].

المنهج الذي يجب على المفسر أن ينهجه في تفسيره

١ ـ مطابقة التفسير للمفسَّر، من غير نقص لما يحتاج إليه في إيضاح المعنى، ولا زيادة لا تليق بالغرض ولا تناسب المقام.

٢ ـ مراعاة المعنى الحقيقي والمعنى المجازي، فلعل المراد المجازي، فيحمل الكلام على الحقيقة أو العكس.

٣ ـ مراعاة التأليف والغرض الذي سيق له الكلام، والمؤاخاة بين المفردات.

٤ ـ مراعاة التناسب بين الآيات، فيبين وجه المناسبة، ويربط بين السابق واللاحق من آيات القرآن، حتى يوضح أن القرآن لا تفكك فيه.

٥ ـ ملاحظة أسباب النزول وذكرها قبل الدخول في شرح الآية.

٦ ـ شرح المفردات ثم الوجوه البلاغية، وما يستفاد من الآية.

٧ ـ على المفسّر أن يتجنب ادعاء التكرار في القرآن ما أمكن. نقل السيوطي عن بعض العلماء أنه قال: «مما يدفع توهم التكرار في عطف المترادفين نحو: ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾﴾ [المدثر: ٢٨]، وأشباه ذلك، أنه يعتقد أن بمجموع المترادفين يحصل معنى لا يوجد عند انفراد أحدهما، فإن التركيب يحدث معنى زائدا، وإذا كانت كثرة الحروف تفيد زيادة المعنى، فكذلك كثرة الألفاظ»[٢].

٨ ـ وعلى المفسر أيضا أن يتجنب كل ما يعتبر من قبيل الحشو في التفسير كالخوض فيما لا دخل له في المعنى المراد.

---

١) انظر ما نقل عن ابن النقيب في الإتفان للسيوطي: ٢/ ١٨٣.

٢) الإتقان للسيوطي: ٢/ ١٨٥ ـ ١٨٦.

٩ ـ وكذلك على المفسر أن يتجنب ذكر كل ما لا يصح من روايات.

١٠ ـ على المفسر أن يكون عليما بقانون الترجيح، إذا لزم الأمر[١]. ولأهمية هذا القانون نزيده إيضاحا فنقول:

قانون الترجيح في الرأي

أجمع كلمة قيلت في بيان هذا القانون، هي للزركشي رحمه الله تعالى: «كل لفظ احتمل معنيين فصاعدا فهو الذي لا يجوز لغير العلماء الاجتهاد فيه، وعليهم اعتماد الشواهد والدلائل دون مجرد الرأي، فإن كان أحد المعنيين أظهر، وجب الحمل عليه، إلا أن يقوم الدليل على أن المراد هو الخفي.

وإن استويا في الظهور، والاستعمال فيهما حقيقة، لكن في أحدهما حقيقة لغوية أو عرفية، وفي الآخر شرعية، فالحمل على الشرعية أولى، إلا أن يدل دليل على إرادة اللغوية، كما في [كلمة ﴿وَصَلِّ﴾ في قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [التوبة: ١٠٣] [فالمقصود هنا المعنى اللغوي]. ولو كان في أحدهما عرفية، والآخر لغوية، فالحمل على العرفية أولى، وإن اتفقا في ذلك أيضا، فإن تنافى اجتماعهما ولم يمكن إرادتهما باللفظ الواحد، كالقرء: للحيض والطهر، اجتهد في المراد منهما بالأمارات الدالة عليه، فما ظنه فهو مراد الله تعالى في حقه، وإن لم يتنافيا وجب الحمل عليهما على المحققين، ويكون ذلك أبلغ في الإعجاز والفصاحة، إلا إن دل دليل على إرادة أحدهما»[٢].

منشأ الخطأ في التفسير بالرأي

يقع الخطأ كثيرا في التفسير من بعض المتصدّرين للتفسير بالرأي، الذين عدلوا عن مذاهب الصحابة والتابعين، وفسروا بمجرد الرأي والهوى. كتفاسير المعتزلة والشيعة، فإنها مليئة بأخطاء لا تغتفر، حملهم على ارتكابها الانتصار لمذهبهم والدفاع عن عقيدتهم.

ويرجع الخطأ في التفسير بالرأي غالبا، إلى جهتين حدثتا بعد تفسير الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان:

---

١) يراجع الإتقان: ٢/ ١٨٥ ـ ١٨٦، ومناهل العرفان للزرقاني١/ ٤٤٥ ـ ٤٤٦، ومنهج الفرقان ـ محمد أبو سلامة: ٢/ ٤١.

٢) الإتقان للسيوطي: ٢/ ١٨٢. [نقله السيوطي بتصرف من البرهان في علوم القرآن: محمد بن بهادر ابن عبد الله الزركشي أبو عبد الله: دار المعرفة ـ بيروت ـ ١٣٩١هـ ـ تحقيق ـ محمد أبو الفضل إبراهيم: ٢/ ١٦٧].

أولا: أن يعتقد المفسر معنى من المعاني، ثم يريد أن يحمل ألفاظ القرآن على ذلك المعنى الذي يعتقده. ولهذا صور أربع:

١ ـ أن يكون المعنى الذي يريد المفسر نفيه أو إثباته صوابا، فمراعاة لهذا المعنى يحمل عليه لفظ القرآن، مع أنه لا يدل عليه ولا يراد منه، وهو مع ذلك لا ينفي المعنى الظاهر المراد، وعلى هذا يكون الخطأ واقعا في الدليل لا في المدلول، وهذه الصورة تنطبق على كثير من تفاسير الصوفية، والوعاظ، وذلك مثل ما ذكره أبو عبد الرحمن السلمي في تفسيره حقائق التفسير[1]، عندما فسّر قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾﴾ [النساء: ٦٦]. فقال: ﴿اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ بمخالفة هواها ﴿أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم﴾، أي أخرجوا حب الدنيا من قلوبكم.

٢ ـ أن يكون المعنى الذي يريد المفسر نفيه أو إثباته صوابا فمراعاة لهذا المعنى يسلب لفظ القرآن ما يدل عليه ويراد به، ويحمله على ما يريده هو، وعلى هذا يكون الخطأ واقعا في ا لدليل لا في المدلول أيضا، وهذه الصورة تنطبق على تفاسير بعض المتصوفة الذين يفسرون القرآن بمعان إشارية صحيحة في حد ذاتها، ومع ذلك فإنهم يقولون: إن المعاني الظاهرة غير مرادة، وتفسير هؤلاء أقرب ما يكون إلى تفسير الباطنية، ومن ذلك ما فسر به سهل التُسْتري قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة: ٣٥] حيث يقول: لم يرد الله معنى الأكل في الحقيقة، وإنما أراد مساكنة الهمة لشيء هو غيره[2].

٣ ـ أن يكون المعنى الذي يريد المفسر نفيه أو إثباته خطأ، فمراعاة لهذا المعنى يحمل عليه لفظ القرآن، مع أنه لا يدل عليه ولا يراد منه، وهو مع ذلك لا ينفي الظاهر المراد، وعلى هذا يكون الخطأ واقعا في الدليل والمدلول معا، وهذه الصورة تنطبق على ما ذكره بعض المتصوفة من المعاني الباطلة، وذلك كالتفسير المبني على القول بوحدة الوجود، كما جاء في التفسير المنسوب لابن عربي عندما عرض لقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾﴾ [المزمل: ٨] قال: واذكر اسم ربك الذي هو أنت، أي اعرف نفسك ولا تنسها فينسك الله[3].

٤ ـ أن يكون المعنى الذي يريد المفسر نفيه أو إثباته خطأ، فمراعاة لهذا المعنى يسلب

---

١ ـ ستأتي ترجمته عن حديثنا عن التفسير الإشاري عند الصوفية.

٢) تفسير التُسْتَري: ١٦.

٣) التفسير المنسوب لابن عربي: ٣٥٢/٢. [وهو في الحقيقة تفسير عبد الرزاق القاشاني، وسيأتي تفصيل هذا الموضوع تحت عنوان: التفسير المنسوب لابن عربي].

لفظ القرآن ما يدل عليه ويراد به، ويحمله على ذلك الخطأ دون الظاهر المراد، وعلى هذا يكون الخطأ في الدليل والمدلول معا، وهذه الصورة تنطبق على تفاسير أهل البدع، والمذاهب والباطلة، فتارة يلوون لفظ القرآن عن ظاهره المراد إلى معنى ليس في اللفظ أي دلالة عليه، كتفسير بعض غلاة الشيعة الجبت والطاغوت: بأبي بكر وعمر.

ثانيا: أن يفسر القرآن بمجرد ما يسوغ أن يريده بكلامه من كان من الناطقين بلغة العرب، وذلك بدون نظر إلى المتكلم بالقرآن، والمنزل عليه، والمخاطب به. ولهذا الخطأ صورتان:

١ ـ أن يكون اللفظ محتملا للمعنى الذي ذكره المفسر لغة، ولكنه غير مراد، وذلك كاللفظ الذي يطلق في اللغة على معنيين أو أكثر، والمراد منه واحد بعينه، فيأتي المفسر فيحمله على معنى آخر من معانيه غير المعنى المراد، وذلك كلفظ: ﴿أُمَّةٍ﴾ فإنه يطلق على معان، منها: الجماعة، والطريقة المسلوكة في الدين، والرجل الجامع لصفات الخير. فحمله على غير معنى الطريقة المسلوكة في الدين في قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الزخرف: ٢٢] غير صحيح وإن احتمله اللفظ لغة.

٢ ـ أن يكون اللفظ موضوعا لمعنى بعينه، ولكنه غير مراد في الآية، وإنما المراد معنى آخر غير ما وضع له اللفظ بقرينة السياق مثلا، فيخطئ المفسر في تعيين المعنى المراد؛ لأنه اكتفى بظاهر اللغة، وذلك كتفسير لفظ: ﴿مُبْصِرَةً﴾ في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩] يجعل مبصرة: من الإبصار بالعين، على أنها حال من الناقة، وهذا خلاف المراد، إذ المراد: آية واضحة[١].

التعارض بين التفسير المأثور والتفسير بالرأي

أقصد [التناقض] بين التفسير العقلي [المحمود]، والتفسير المأثور؛ بحيث لا يمكن الجمع بينهما. وعندها يقدم التفسير المأثور عن النبي ﷺ، إن ثبت من طريق صحيح، وكذا يقدم ما صح عن الصحابة؛ لأن ما يصح نسبته إلى الصحابة في التفسير، النفس إليه أميل، لاحتمال سماعه من الرسول ﷺ، ولما امتازوا به من الفهم الصحيح والعمل الصالح، ولما اختصوا به من مشاهدة التنزيل.

---

١) انظر في هذا البحث مقدمة ابن تيمية في أصول التفسير: ٢٠ ـ ٢٤.

الفصل الثالث

أهم كتب التفسير بالرأي الجائز

إن الكتب التي وقع عليها اختياري، يتجه كل منها إلى اتجاه معين، وتغلب عليه ناحية خاصة من نواحي التفسير وألوانه، فمنها ما تغلب عليه الصناعة النحوية، ومنها ما تغلب عليه النزعة الفلسفية والكلامية، ومنها ما تطغى فيه الناحية القصصية والإسرائيلية، ومنها غير ذلك، ولكن الجميع ينضم تحت شيء واحد هو التفسير بالرأي الجائز.

أما هذه الكتب فهي ما يأتي:

١ ـ مفاتيح الغيب: للفخر الرازي.

٢ ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل: للبيضاوي.

٣ ـ مدارك التنزيل وحقائق التأويل: للنسفي.

٤ ـ لباب التأويل في معاني التنزيل: للخازن.

٥ ـ البحر المحيط: لأبي حيان.

٦ ـ غرائب القرآن ورغائب الفرقان: للنيسابوري.

٧ ـ تفسير الجلالين: للجلال المحلى، والجلال السيوطي.

٨ ـ السراج المنير: للخطيب الشربيني.

٩ ـ إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: لأبي السعود.

١٠ ـ روح المعاني: الآلوسي.

وسأتكلم عنها على حسب هذا الترتيب فأقول وبالله التوفيق:

١ ـ مفاتيح الغيب[١]
للرازي

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير، هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي، التميمي، البكري، الطبرستاني[٢]، الرازي، الملقب بفخر الدين، والمعروف بابن الخطيب الشافعي، المولود سنة ٥٤٤هـ، كان ـ رحمه الله ـ إماما في التفسير والكلام والعلوم العقلية، وعلوم اللغة، وقد أخذ العلم عن والده ضياء الدين المعروف بخطيب الري، وعن الكمال السمعاني، وكثير من العلماء الذين عاصرهم، وكان يلحقه الوجد في حال الوعظ ويكثر البكاء.

ومن أهم مصنفاته: تفسيره الكبير، المسمى بمفاتيح الغيب، وهو ما نحن بصدده الآن، وله في علم الكلام: المطالب العالية، وله في أصول الفقه: المحصول. وغير هذا كثير.

هذا، وقد كانت وفاة الرازي ـ رحمه الله ـ سنة ٦٠٦هـ، بالري، ويقال في سبب وفاته: إنه كان بينه وبين الكرّامية[٣] خلاف كبير وجدل في أمور العقيدة، فكان ينال منهم وينالون منه سبا وتكفيرا، وأخيرا سموه فمات على أثر ذلك واستراحوا منه[٤].

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

يقع هذا التفسير في ثمان مجلدات من الحجم الكبير، وهو مطبوع ومتداول بين أهل العلم، ويقول ابن قاضي شهبة: إنه ـ أي الفخر الرازي ـ لم يتمه[٥]، كما يقول ذلك ابن خلكان في وفيات الأعيان[٦]، إذا فمن الذي أكمل هذا التفسير؟ وإلى أي موضع من القرآن وصل الفخر الرازي في تفسيره؟

---

١ ـ هو المطبوع باسم: التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي.

٢ ـ تقع طبرستان جنوب بحر قزوين (بحر الخزر قديما) أي في إيران وفي شمالها على وجه التحديد. الأطلس التاريخي ـ عدنان العطار: ١٠٥.

٣ ـ الكرامية: أصحاب محمد بن كرّام، الفرقة ١٢ من المرجئة، يزعمون أن الإيمان: هو الإقرار والتصديق باللسان دون القلب، وبالتالي زعموا أن المنافقين مؤمنون على الحقيقة، والكفر: هو الجحود والإنكار باللسان. راجع مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري: ١٤١.

٤) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان: ٢/ ٢٦٥ ـ ٢٦٨، وشذرات الذهب ـ عبد الحي بن العماد: ٥/ ٢١ .[لم أجد أي توثيق لهذه الدعوة وهي: قتل الكرامية للرازي].

٥) شذرات الذهب ـ عبد الحي بن العماد: ٥/ ٢١.

٦) ٢/ ٢٦٧.

هذه مشكلة لم نوفق إلى حلها حلا حاسما، لتضارب أقوال العلماء في هذا الموضوع:

١ ـ فابن حجر العسقلاني في كتابه: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، يقول: «الذي أكمل تفسير فخر الدين الرازي، هو أحمد بن محمد بن أبي الحزم مكي نجم الدين المخزومي القمولي، مات سنة ٧٢٧هـ، وهو مصري»[١].

٢ ـ وصاحب كشف الظنون يقول: «وصنف الشيخ نجم الدين أحمد بن محمد القمولي تكملة له وتوفي سنة ٧٢٧هـ، وقاضي القضاة شهاب الدين ابن خليل الخويي[٢] الدمشقي، كمل ما نقص منه أيضا، وتوفي سنة ٦٣٩هـ»[٣].

وأما إلى أي موضع وصل الفخر في تفسيره؟ فهذه كالأولى أيضا؛ وذلك لأننا وجدنا على هامش كشف الظنون: «الذي رأيته بخط السيد مرتضى نقلا عن شرح الشفا للشهاب، أنه وصل فيه إلى سورة الأنبياء»[٤].

وقد وجدت في أثناء قراءتي في هذا التفسير عند قوله تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الواقعة: ٢٤] هذه العبارة: «المسألة الأولى أصولية ذكرها الإمام فخر الدين رحمه الله في مواضع كثيرة، ونحن نذكر بعضها»[٥]. وهذه العبارة تدل على أن الإمام فخر الدين، لم يصل في تفسيره إلى هذه السورة.

كما وجدت عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾ [المائدة: ٦]، أنه تعرض لاشتراط النية في الوضوء، ثم قال: «وقد حققنا الكلام في هذا الدليل في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥] فليرجع إليه»[٦]، وهذه العبارة تشعر بأن الفخر الرازي وصل إلى سورة البينة.

والذي أستطيع أن أقوله كحل لهذا الاضطراب: هو أن الإمام فخر الدين، كتب تفسيره هذا إلى سورة الأنبياء، فأتى بعده شهاب الدين الخويي، فشرع في تكملة هذا التفسير ولكنه لم يتمه، فأتى بعده نجم الدين القمولي، فأكمل ما بقي منه، كما يجوز أن يكون الخويي أكمله إلى النهاية، والقمولي كتب تكملة أخرى غير التي كتبها الخويي، وهذا هو الظاهر من عبارة صاحب كشف الظنون.

وأما إحالة الفخر على ما كتبه في سورة البينة، فهذا ليس بصريح في أنه وصل إليها في تفسيره، إذ لعله كتب تفسيرا مستقلا لسورة البينة، أو لهذه الآية وحدها، فهو يشير إلى ما

---

١) الدرر الكامنة: ١/ ٣٠٤.

٢) يقال له: الخويي. ويقال: الخوبي، نسبة إلى أسماء أماكن في أذربيجان.

٣) كشف الظنون ـ ملا كاتب جلبي: ٢/ ٢٩٩.

٤) كشف الظنون ـ ملا كاتب جلبي: ٢/ ٢٩٩ (هامش).

٥) مفاتيح الغيب: ٨/ ٦٨.

٦) مفاتيح الغيب: ٣/ ٥٣٩.

كتب فيها ويحيل عليه. أقول هذا، وأعتقد أنه ليس حلا حاسما لهذا الاضطراب، وإنما هو توفيق يقوم على الظن، والظن يخطئ ويصيب[1].

ثم إن القارئ في هذا التفسير، لا يكاد يلحظ فيه تفاوتا في المنهج والمسلك، بل يجري الكتاب من أوله إلى آخره على طريقة واحدة، تجعل الناظر فيه لا يستطيع أن يميز بين الأصل والتكملة.

هذا، وإن تفسير الفخر الرازي ليحظى بشهرة واسعة بين العلماء؛ وذلك لأنه يمتاز عن غيره من كتب التفسير، بالأبحاث الفياضة الواسعة، في نواح شتى من العلم، ولهذا يصفه ابن خلكان فيقول: «إنه ـ أي الفخر الرازي ـ جمع فيه كل غريب وغريبة»[2].

اهتمام الرازي بالمناسبات بين الآيات والسّور:

يذكر المناسبات بين الآيات بعضها مع بعض، وبين السور بعضها مع بعض، وهو لا يكتفي بذكر مناسبة واحدة بل كثيرا ما يذكر أكثر من مناسبة.

اهتمامه بالعلوم الرياضية والفلسفية:

كما أنه يكثر من الاستطراد إلى العلوم الرياضية والطبيعية، وغيرها من العلوم الحادثة في الملة، كالهيئة الفلكية وغيرها، كما أنه يعرض كثيرا لأقوال الفلاسفة بالرد والتفنيد، وإن كان يصوغ أدلته في مباحث الإلهيات على نمط استدلالاتهم العقلية، ولكن بما يتفق ومذهب أهل السنة.

موقفه من المعتزلة:

ثم إنه سني يرى ما يراه أهل السنة، لا يدع فرصة تمر دون أن يعرض لمذهب المعتزلة بذكر أقوالهم والرد عليهم، رداً لا يراه البعض كافيا ولا شافيا.

فهذا هو الحافظ ابن حجر يقول عنه في لسان الميزان: «ورأيت في الإكسير في علم

---

١ ـ هناك أمر لم يُنتبه له وهو أن الرازي لم يفسر القرآن الكريم حسب تسلسل السور كما هي في المصحف، وهذا يظهر من خلال التواريخ التي ذكرها في نهاية بعض السور التي فسرها. كما أن الدكتور محسن عبد الحميد يرى رأيا نشاطره فيه وهو أن الرازي أتم تفسيره باستثناء بعض التعليقات التي كتبها أحد تلامذته على هامش تفسير سورة الواقعة وقد أدخل بعض النساخ هذه التعليقات في المتن. كما أيد الدكتور رأيه بما وجده من إحالات للرازي في القسم المتفق أنه فسره ـ وهو ما قبل سورة الأنبياء ـ يحيل فيها إلى القسم المشكوك فيه، مما يؤكد أنه فسر الكتاب كاملا، ومن هذه الإحالات قول الرازي: قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا﴾ [الحجر: ١٦] فقد استقصينا الكلام في سورة الملك في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك: ٥] فلا نعيد هاهنا إلا القدر الذي لا بد منه. ثم قال: واعلم أن في هذا الموضع أبحاثاً دقيقة ذكرناها في سورة الملك وسورة الجن. راجع: الرازي مفسراً ـ د. محسن عبد الحميد: ٥٦ وما بعدها.

٢) وفيات الأعيان ـ لابن خلكان: ٢/ ٢٦٧.

التفسير للنجم الطوفي ما ملخصه: ما رأيت في التفاسير أجمع لغالب علم التفسير من القرطبي، ومن تفسير الإمام فخر الدين، إلا أنه كثير العيوب، فحدثني شرف الدين النصيبي عن شيخه سراج الدين السرمياحي المغربي، أنه صنف كتاب المأخذ في مجلدين، بين فيهما ما في تفسير الفخر من الزيف والبهرج، وكان ينقم عليه كثيرا، ويقول: يورد شبه المخالفين في المذهب والدين على غاية ما يكون من التحقيق، ثم يورد مذهب أهل السنة والحق على غاية من الوهاء، قال الطوفي: ولعمري، إن هذا دأبه في كتبه الكلامية والحكمة، حتى اتهمه بعض الناس، ولكنه خلاف ظاهر حاله، لأنه لو كان اختار قولا أو مذهبا ما كان عنده من يخاف منه حتى يستر عنه، ولعل سببه أنه كان يستفرغ أقوالا في تقرير دليل الخصم، فإذا انتهى إلى تقرير دليل نفسه لا يبقى عنده شيء من القوى، ولا شك أن القوى النفسانية تابعة للقوى البدنية»[١].

موقفه من علوم الفقه والأصول والنحو والبلاغة:

لا يكاد يمر بآية من آيات الأحكام إلا ويذكر مذاهب الفقهاء فيها، مع ترويجه لمذهب الشافعي ـ الذي يقلده ـ بالأدلة والبراهين .كذلك نجده يستطرد لذكر المسائل الأصولية، والمسائل النحوية، والبلاغية، وإن كان لا يتوسع في ذلك توسعه في مسائل العلوم الكونية والرياضية.

٢ ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

هو قاضي القضاة، ناصر الدين أبو الخير، عبد الله بن عمر بن محمد بن علي، البيضاوي الشافعي، وهو من بلاد فارس، قال عنه ابن قاضي شهبة في طبقاته: «صاحب المصنفات، وعالم أذربيجان، وشيخ تلك الناحية، ولي قضاء شيراز، وتوفي بمدينة تبريز، قال السبكي والأسنوي: سنة٦٩١هـ، وقال ابن كثير وغيره: سنة ٦٨٥هـ، ومن أهم مصنفاته: كتاب المنهاج وشرحه في أصول الفقه، وكتاب الطوالع في أصول الدين، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل في التفسير، وهو ما نحن بصدده الآن، وهذه الكتب الثلاثة من أشهر الكتب وأكثرها تداولا بين أهل العلم[٢].

---

١) لسان الميزان ـ ابن حجر العسقلاني: ٤/ ٤٢٧ ـ ٤٢٨.

٢) انظر ترجمة البيضاوي في شذرات الذهب ـ عبد الحي بن العماد: ٥/ ٣٩٢ ـ ٣٩٣، وفي طبقات المفسرين للداودي ١٠٢ ـ ١٠٣، وفي طبقات الشافعية ـ تاج الدين السبكي: ٥/ ٥٩.

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

تفسير متوسط الحجم مطبوع عدة طبعات، جمع فيه صاحبه بين التفسير والتأويل، على مقتضى قواعد اللغة العربية، وقرر فيه الأدلة على أصول أهل السنة.

وقد اختصر البيضاوي تفسيره من الكشاف للزمخشري، ولكنه ترك ما فيه من اعتزالات، وإن كان أحيانا يذهب إلى ما ذهب إليه صاحب الكشاف ومن ذلك أنه عندما فسر قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وجدناه يقول: «إلا قياما كقيام المصروع، وهو وارد على ما يزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرعه... ثم يفسر المس بالجنون ويقول: وهذا أيضا من زعمانهم أن الجني يمس الرجل فيختلط عقله». ولاشك أن هذا موافق لما ذهب إليه الزمخشري من أن الجن لا تسلط لها على الإنسان إلا بالوسوسة والإغراء.

كما أننا نجد البيضاوي قد وقع فيما وقع فيه صاحب الكشاف، من ذكره في نهاية كل سورة حديثا في فضلها، وقد عرفنا قيمة هذه الأحاديث، وقلنا: إنها [في الغالب] موضوعة باتفاق أهل الحديث.

وكذلك استمد البيضاوي تفسيره من التفسير الكبير المسمى بمفاتيح الغيب للفخر الرازي، ومن تفسير الراغب الأصفهاني، وضم لذلك بعض الآثار الواردة عن الصحابة والتابعين ،كما أنه أعمل فيه عقله، فضمنه استنباطات دقيقة. وهو يهتم أحيانا بذكر القراءات، ولكنه لا يلتزم المتواتر منها فيذكر الشاذ، كما أنه يعرض للصناعة النحوية، ولكن بدون توسع واستفاضة، كما أنه يتعرض عند آيات الأحكام لبعض المسائل الفقهية بدون توسع منه في ذلك، وإن كان يظهر لنا أنه يميل غالبا لتأييد مذهبه وترويجه، فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، يقول: قروء: جمع قرء، وهو يطلق للحيض كقوله عليه الصلاة والسلام: «دعي الصلاة أيام أقرائك»[1]. وللطهر الفاصل بين الحيضتين، وأصله الانتقال من الطهر إلى الحيض، وهو المراد في الآية؛ لأنه الدال على براءة الرحم لا الحيض كما قاله الحنفية.

كذلك نجد البيضاوي كثيرا ما يقرر مذهب أهل السنة: فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ [البقرة: ٢ ـ ٣]، نراه يعرض لبيان معنى الإيمان والنفاق عند أهل السنة والمعتزلة والخوارج، بتوسع ظاهر، وترجيح منه لمذهب أهل السنة.

---

١ ـ صحيح مسلم: ٣٣٤ في الحيض. وأبو داود: ٢٨٨ و ٢٨٩ في الطهارة. والترمذي: ١٢٩ في الطهارة. والنسائي: ١/ ١٨١ ـ ١٨٢ في الحيض. وفي جامع الأصول رقم: ٥٤٠٩.

والبيضاوي مقل جدا من ذكر الروايات الإسرائيلية، وهو يصدر الرواية بقوله: روي أو قيل، إشعارا بضعفها[1].

ثم إن البيضاوي إذا عرض للآيات الكونية، فإنه يخوض في مباحث الكون والطبيعة، ولعل هذه الظاهرة سرت إليه من طريق التفسير الكبير للفخر الرازي، الذي استمد منه كما قلنا، فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾ [الصافات: ١٠]، نراه يعرض لحقيقة الشهاب فيقول: «الشهاب ما يرى كأن كوكبا انقض، ثم يرد على من يخالف ذلك فيقول: وما قيل إنه بخار يصعد إلى الأثير فيشتعل فتخمين، إن صح لم يناف ذلك» إلى آخر كلامه في هذا الموضوع.

قال البيضاوي نفسه في مقدمة تفسيره هذا بعد الديباجة: «ولطالما أحدث نفسي بأن أصنف في هذا الفن - يعني التفسير - كتابا يحتوي على صفوة ما بلغني من علماء الصحابة، وعلماء التابعين ومن دونهم من السلف الصالحين، وينطوي على نكات بارعة... ويعرب عن وجوه القراءات المشهورة المعزية إلى الأئمة الثمانية المشهورين، والشواذ المروية عن القرّاء المعتبرين... حتى سنح لي بعد الاستخارة ما صمم به عزمي على الشروع فيما أردته، والإتيان بما قصدته، ناوياً أن أسميه بأنوار التنزيل وأسرار التأويل»[2]. كما أشار في آخر الكتاب إلى أنه لخص من غيره ممن سبقه أيضا[3].

ويقول صاحب كشف الظنون: والذي ذكره من وجوه التفسير ثانيا أو ثالثا أو رابعا بلفظ: قيل. فهو ضعيف ضعف المرجوح أو ضعف المردود.

ثم إن هذا الكتاب رزق من عند الله سبحانه وتعالى بحسن القبول عند جمهور الأفاضل والفحول، فعكفوا عليه بالدرس والتحشية[4]، ثم عدّ من هذه الحواشي ما يزيد عدده على الأربعين.

٣ - مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

هو أبو البركات، عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي[5] الحنفي، أحد الزهاد

---

١) راجع التفسير عند سورة النمل: ٢٢.
٢) ٦/١.
٣) ٢٠٤/٥.
٤) كشف الظنون - ملا كاتب جلبي: ١٢٧/١ - ١٢٨.
٥) نسبة إلى: نسف. من بلاد ما وراء النهر.

المتأخرين. كان إماما، رأسا في الفقه والأصول والحديث ومعانيه، بصيرا بكتاب الله تعالى، وهو صاحب التصانيف المفيدة. فمن مؤلفاته أيضا: متن الوافي في الفروع، وكنز الدقائق في الفقه أيضا، وغير ذلك.

وكانت وفاة النسفي سنة: ٧٠١ هـ، ودفن ببلدة أيذج[١]. فرحمه الله[٢].

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

هذا التفسير متوسط الحجم مطبوع، اختصره النسفي من تفسير البيضاوي ومن الكشاف للزمخشري، غير أنه ترك ما في الكشاف من الاعتزالات. وجرى فيه على مذهب أهل السنة والجماعة. لم يقع فيما وقع فيه صاحب الكشاف من ذكره للأحاديث الموضوعة في فضائل السور.

قال مؤلفه في مقدمته: قد سألني من تتعين إجابته، كتابا وسطا في التأويلات، جامعا لوجوه الإعراب والقراءات، متضمنا لدقائق علمَي البديع والإشارات، حاليا بأقاويل أهل السنة والجماعة، خاليا عن أباطيل أهل البدع والضلالة ،ليس بالطويل الممل، ولا بالقصير المخل، وكنت أقدم فيه رجلا وأؤخر أخرى؛ استقصارا لقوة البشر عن درك هذا الوطر، حتى شرعت فيه بتوفيق الله والعوائق كثيرة، وأتممته في مدة يسيرة، وسميته بمدارك التنزيل وحقائق التأويل.

خوضه في المسائل النحوية:

لا يستطرد كثيرا. فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ٢١٧]. يقول: «والمسجد الحرام عطف على سبيل الله، أي وصد عن سبيل الله وعن المسجد الحرام، وزعم الفراء أنه معطوف على الهاء في: به. أي كفر به والمسجد الحرام، ولا يجوز عند البصريين العطف على الضمير المجرور إلا بإعادة الجار، فلا تقول: مررت به وزيد. ولكن تقول: وبزيد. ولو كان معطوفا على الهاء هنا لقيل: وكفر به وبالمسجد الحرام».

موقفه من القراءات وخوضه في مسائل الفقه:

يلتزم بالقراءات السبع المتواترة مع نسبة كل قراءة إلى قارئها. كما أنه يعرض للمذاهب الفقهية، ويوجه الأقوال ولكن بدون توسع. فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾

---

١) أيذج كأحمد: بلد بكردستان. القاموس المحيط.

٢) انظر ترجمته في الدرر الكامنة ـ ابن حجر العسقلاني: ٢/٢٤٧. وفي الفوائد البهية في تراجم الحنفية ـ محمد اللكنوي ـ السعادة ـ ١٣٢٤هـ: ١٠٢ .

[البقرة: ٢٢٢] يقول: «ثم عند أبي حنيفة وأبي يوسف ـ رحمهما الله ـ يجتنب ما اشتمل عليه الإزار. ومحمد ـ رحمه الله ـ لا يوجب اعتزال الفرج، وقالت عائشةرضي الله عنها يجتنب شعار الدم وله ما سوى ذلك، ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ﴾ مجامعين، أو ولا تقربوا مجامعتهن ﴿حَتَّىٰ يَطَّهَّرْنَ﴾ بالتشديد، كوفي غير حفص، أي يغتسلن، وأصله يتطهرن فأدغم التاء في الطاء لقرب مخرجيهما. غيرهم ﴿يَطْهُرْنَ﴾ أي ينقطع دمهن، والقراءتان كآيتين، فعملنا بهما. وقلنا: له أن يقربها في أكثر الحيض بعد انقطاع الدم وإن لم تغتسل؛ عملاً بقراءة التخفيف، وفي أقل منه لا يقربها حتى تغتسل أو يمضي عليها وقت الصلاة؛ عملاً بقراءة التشديد، والحمل على هذا أولى من العكس؛ لأنه حينئذ يجب ترك العمل بإحداهما لما عرف. وعند الشافعي ـ رحمه الله ـ لا يقربها حتى تطهر وتتطهر، دليله قوله تعالى: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ﴾ فجامعوهن، فجمع بينهما»(١).

وهو ينتصر لمذهبه الحنفي في كثير من الأحيان. وأن أردت الوقوف على ذلك فارجع إليه عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وكذلك في سورة البقرة: ٢٣٧. والطلاق: ٦.

موقفه من الإسرائيليات:

مُقلّ جداً في ذكره للإسرائيليات، وما يذكره من ذلك يمر عليه بدون أن يتعقبه أحياناً، وأحياناً يتعقبه ولا يرتضيه.

فمثلاً نجده عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النمل: ١٦] يقول: روي أنه صاح طاوس فقال [سليمان]: يقول كما تدين تدان. وصاح هدهد فقال: يقول: استغفروا الله يا مذنبون. وصاح خطاف فقال: يقول: قدموا خيراً تجدوه... بدون أن يتعقب ما ذكره من ذلك كله.

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾ [صٓ: ٣٤] نراه يذكر من الروايات ما يتنافى مع عصمة سليمانعليه السلام، ثم يقول: «وأما ما يروى من حديث الخاتم والشيطان، وعبادة الوثن في بيت سليمانعليه السلام، فمن أباطيل اليهود».

ففي هذه الآية الأخيرة، النسفي لا يتساهل هنا كما تساهل فيما مثلنا به قبل ذلك، ولعله يرى أن كل ما يمس العقيدة من هذا القصص يجب التنبيه على عدم صحته، وما لا يمس العقيدة فلا مانع من روايته بدون تعقيب عليه، مادام يحتمل الصدق والكذب في ذاته، ولا يتنافى مع العقل أو يتصادم مع الشرع.

---

١) ١/ ٨٧. وراجع في هذا الموضوع ما ذكره في تفسيره لسورة البقرة: ٢٢٨.

٤ ـ لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

هو علاء الدين، أبو الحسن، علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر بن خليل الشيحي[١]. البغدادي. الشافعي. الصوفي. اشتهر بالخازن لأنه كان خازن كتب خانقاة السميساطية بدمشق. ولد ببغداد سنة ٦٧٨ هـ، وسمع بها من ابن الدواليبي، وقدم دمشق فسمع من القاسم ابن مظفر. قال ابن قاضي شهبة: «كان من أهل العلم، جمع وألف، وحدث ببعض مصنفاته» ومن ذلك: شرح عمدة الأحكام. وكان رحمه الله صوفياً حسن السمت بشوش الوجه، كثير التودد للناس. توفي سنة ٧٤١ هـ بمدينة حلب، فرحمه الله رحمة واسعة[٢].

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

يقول المؤلف: «أحببت أن أنتخب من غرر فوائد تفسير البغوي ودرر فوائده، مختصراً جامعاً لمعاني التفسير. حاوياً لخلاصة منقولة. متضمناً لنكته وأصوله، مع فوائد نقلتها، وفرائد لخصتها من كتب التفسير المصنفة، في سائر علومه المؤلفة، ولم أجعل لنفسي تصرفاً سوى النقل والانتخاب، مجتنباً حد التطويل والإسهاب، وحذفت منه الأسانيد لأنه أقرب إلى تحصيل المراد فما أوردت فيه من الأحاديث النبوية والأخبار المصطفوية، عزوته إلى مخرجه، وبينت اسم ناقله وجعلت عوض كل اسم حرفاً يعرف به: البخاري (خ) ومسلم (م) والمتفق عليه (ق). وما كان من كتب السنن، كسنن أبي داود، والترمذي، والنسائي فإني أذكر اسمه بغير علامة. وما لم أجده في هذه الكتب ووجدت البغوي قد أخرجه بسند له أنفرد به. قلت: روى البغوي بسنده، وما رواه البغوي بإسناد الثعلبي قلت: روى البغوي بإسناد الثعلبي. وما كان فيه من أحاديث زائدة وألفاظ متغيرة فأعتمده؛ فإني اجتهدت في تصحيح ما أخرجته من الكتب المعتبرة عند العلماء كالجمع بين الصحيحين للحميدي، وكتاب جامع الأصول لابن الأثير الجزري، ثم أني عوضت عن حذف الإسناد شرح غريب الحديث وما يتعلق به، وسقته بأبلغ ما قدرت عليه من الإيجاز وحسن الترتيب»، ثم قدم الخازن لتفسيره ببعض مباحث علوم القرآن، ثم ابتدأ بعد ذلك في التفسير.

توسعه في ذكر الإسرائيليات:

يتوسع في ذكر القصص الإسرائيلي وكثيراً ما ينقل ما جاء من ذلك عن بعض التفاسير

---

١) الشيحي: بالحاء المهملة، نسبة إلى بلد اسمها شيحة من أعمال حلب.

٢) انظر ترجمته في الدرر الكامنة ـ ابن حجر العسقلاني: ٣ / ٩٧ ـ ٩٨. وفي طبقات المفسرين للداوودي: ١٧٨. وفي شذرات الذهب ـ عبد الحي بن العماد: ٦ / ١٣١.

التي تعنى بهذه الناحية. كتفسير الثعلبي وغيره، وهو في الغالب لا يعقب على ما يذكر من القصص الإسرائيلي، إلا نادراً.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢١ ـ ٢٤] نراه يسوق قصصاً أشبه ما يكون بالخرافة مثل قصة المرأة التي وقع بصره [أي داود عليه السلام] عليها فأعجبه جمالها فاحتال على زوجها حتى قتل رجاء أن تسلم له هذه المرأة التي فتن بها وشغف بحبها، وغير ذلك من الروايات العجيبة الغريبة، ولكنه يأتي بعد كل هذا فيقول: (فصل في تنزيه داود عليه الصلاة والسلام عما لا يليق به وينسب إليه) ويفند في هذا الفصل كل ما ذكره مما يتنافى مع عصمة نبي الله داود عليه السلام.

ولكنا نرى الخازن يمر بقصص كثيرة لا يعقب عليها، مع أن بعضها غاية في الغرابة، وبعضها مما يخل بمقام النبوة(١).

عنايته بالأخبار التاريخية:

كذلك نلاحظ على هذا التفسير أنه يفيض في ذكر الغزوات التي كانت على عهد النبي ﷺ وأشار إليها القرآن.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾ [الأحزاب: ٩] نراه بعد أن يفرغ من التفسير يقول: «ذكر غزوة الخندق وهي غزوة الأحزاب». ثم يذكر وقائع الغزوة وما جرى فيها باستفاضة وتوسع.

عنايته بالناحية الفقهية:

يعنى جداً بالناحية الفقهية، فإذا تكلم عن آية من آيات الأحكام، استطرد إلى مذاهب الفقهاء وأدلتهم، وأقحم في التفسير فروعاً فقهية كثيرة، قد لا تهم المفسر بوصف كونه مفسراً في قليل ولا كثير.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨] نراه يعرض لمذهب الحنفية ومذهب الشافعية فيما تنقضي به عدة الحائض... ثم يقول: «فصل

---

١) للتمثيل راجع التفسير عند سورة الكهف: ١٠.

في أحكام العدة، وفيه مسائل» فيذكر أربع مسائل، يتكلم في المسألة الأولى منها عن عدة الحوامل، وفي الثانية عن عدة المتوفى عنها زوجها، وفي الثالثة عن عدة المطلقة المدخول بها، وفي الرابعة عن عدة الإماء.

عنايته بالمواعظ:

كثيراً ما يتعرض للمواعظ والرقاق، ويسوق أحاديث الترغيب والترهيب، ولعل نزعة الخازن الصوفية هي التي أثرت فيه فجعلته يعنى بهذه الناحية ويستطرد إليها عند المناسبات.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [السجدة: ١٦] نراه يقول بعد الانتهاء من التفسير: «فصل في فضل قيام الليل والحث عليه» ثم يسوق في ذلك أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ كلها تدور على البخاري ومسلم والترمذي.

وهكذا نجد هذا التفسير يطرق موضوعات كثيرة في نواحي العلم المختلفة. ولكن شهرته القصصية، وسمعته الإسرائيلية، أساءت إليه كثيراً.

٥ ـ البحر المحيط
لأبي حيان

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

هو أثير الدين، أبو عبد الله، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان، الأندلسي، الغرناطي، الحياني، الشهير بأبي حيان، المولود سنة ٦٥٤هـ.

كان ـ رحمه الله ـ ملماً بالقراءات صحيحها وشاذها، وسمع الكثير من العلماء ببلاد الأندلس وأفريقية، ثم قدم مصر ولازم بها الشيخ بهاء الدين بن النحاس. وقال الصفدي: لم أره قط إلا يسمع، أو يشتغل، أو يكتب، أو ينظر في كتاب، ولم أره على غير ذلك.

كذلك عرف أبو حيان، بكثرة نظمه للأشعار والموشحات، أما النحو والصرف فهو الإمام المطلق فيهما، وبجانب هذا كله كان لأبي حيان اليد الطولى في التفسير، والحديث، وتراجم الرجال، ومعرفة طبقاتهم، خصوصاً المغاربة.

وأما مؤلفاته فكثيرة، ومن أهمها: تفسير البحر المحيط الذي نحن بصدده الآن، وغريب القرآن في مجلد واحد، وغير ذلك. وقد قيل: إن أبا حيان كان ظاهري المذهب، ثم رجع عنه وتبع الشافعي على مذهبه، وكان متمسكاً بطريقة السلف. أما وفاته فكانت بمصر سنة ٧٤٥ هـ، فرحمه الله[١].

١) انظر الدرر الكامنة ـ لابن حجر العسقلاني: ٤ / ٣٠٢ ـ ٣١٠.

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

يقع هذا التفسير في ثمانية مجلدات كبار، وهو مطبوع ومتداول بين أهل العلم. ومعتبر عندهم المرجع الأول والأهم لمن يريد أن يقف على وجوه الإعراب لألفاظ القرآن الكريم؛ غير أنه ـ والحق يقال ـ قد أكثر من مسائل النحو في كتابه، حتى أصبح الكتاب أقرب ما يكون إلى كتب النحو منه إلى كتب التفسير.

يتكلم أبو حيان على المعاني اللغوية للمفردات، ويذكر أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، والقراءات الواردة مع توجيهها، كما أنه لا يغفل الناحية البلاغية في القرآن، ولا يهمل الأحكام الفقهية عندما يمر بآيات الأحكام، مع ذكره لما جاء عن السلف ومن تقدمه من الخلف في ذلك، كل هذا على طريقة وضعها لنفسه، ونبهنا عليها في مقدمته التي اقتبسنا منها ما يأتي: «وترتيبي في هذا الكتاب، أني أبتدئ أولاً بالكلام على مفردات الآية التي أفسرها لفظة لفظة، فيما يحتاج إليه من اللغة والأحكام النحوية التي لتلك اللفظة قبل التركيب، ثم أشرع في تفسير الآية ذاكراً سبب نزولها إذا كان لها سبب، ونسخها، ومناسبتها، وارتباطها بما قبلها، حاشداً فيها القراءات، شاذها ومستعملها. ذاكراً توجيه ذلك في علم العربية، ناقلاً أقاويل السلف والخلف في فهم معانيها، مبدياً ما فيها من غوامض الإعراب، ودقائق الآداب، من بديع وبيان، ناقلاً أقاويل الفقهاء الأربعة وغيرهم في الأحكام ثم أختتم في جملة من الآيات التي فسرتها إفراداً وتركيباً بما ذكروا فيها من علم البيان والبديع ملخصاً، مع شرح لمضمون تلك الآيات على ما أختاره من تلك المعاني، وربما ألممت بشيء من كلام الصوفية بما فيه بعض مناسبة لمدلول اللفظ، وتجنبت كثيراً من أقاويلهم ومعانيهم التي يحملونها الألفاظ[١]، وتركت أقوال الملحدين الباطنية[٢]، المخرجين الألفاظ العربية عن مدلولاتها في اللغة، إلى هذيان افتروه على الله، وعلى علي كرم الله وجهه، وعلى ذريته، ويسمونه علم التأويل»[٣].

هذا، وإن أبا حيان ـ رحمه الله تعالى ـ ينقل في تفسيره كثيراً من تفسير الزمخشري، وتفسير ابن عطية، خصوصاً ما كان من مسائل النحو ووجوه الإعراب كما أنه يتعقبهما كثيراً بالرد والتفنيد لما قالاه في مسائل النحو على الخصوص.

هذا، وإن أبا حيان يعتمد في أكثر نقول كتابه هذا ـ كما يقول: «على كتاب التحرير التحبير لأقوال أئمة التفسير. من جمع شيخه، الصالح، القدوة، الأديب، جمال الدين أبي

---

١) انظر ما تعقب به تفسير القشيري للآية: (١١٤) من سورة البقرة.
٢) عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٢٧) من سورة المائدة: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾.
٣) ١ / ٤ ـ ٥.

عبد الله، محمد بن سليمان بن حسن بن حسين المقدسي، المعروف بابن النقيب. رحمه الله. إذ هو أكبر كتاب صنف في علم التفسير، إذ يبلغ في العدد مائة سفر أو يكاد»(١).

٦ ـ غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

هو الإمام نظام الدين بن الحسن بن محمد بن الحسين، الخراساني النيسابوري، المعروف بالنظام الأعرج. أصله من مدينة قُم، وكان منشؤه وموطنه بديار نيسابور. كان رحمه الله من أساطين العلم بنيسابور، ملماً بالعلوم العقلية، جامعاً لفنون اللغة العربية، له القدم الراسخ في صناعة الإنشاء، والمعرفة الوافرة بعلم التأويل والتفسير.

وهو معدود في عداد كبار الحفاظ والمقرئين، وكان على مبلغ عظيم من الزهد والتصوف، ويظهر ذلك واضحاً جلياً في تفسيره الذي أودع فيه مواجيده الروحية وفيوضاته الربانية، ولقد خلف رحمه الله للناس كتباً مفيدة نافعة، فمن ذلك شرحه على متن الشافية في فن الصرف للإمام ابن الحاجب، وهو معروف بشرح النظام، وغير ذلك.

أما تاريخ وفاته، فلم نعثر عليه إلا في قول صاحب روضات الجنات: «إنه كان من علماء رأس المائة التاسعة، وتاريخ إنهاء مجلدات تفسيره المذكور، صادفت حدود ما بعد الثمانمائة والخمسين من الهجرة(٢) قال: ويوجد أيضاً بالبال نسبة التشيع إليه في بعض مصنفات الأصحاب»(٣).

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

اختصر النيسابوري تفسيره هذا من التفسير الكبير للفخر الرازي وضم إلى ذلك بعض ما

---

١) البحر المحيط: ابن حيان: ١ / ١١، ومع اعتماد أبي حيان على هذا التفسير نجده يصفه بكثرة التكرير، وقلة التحرير ١ / ١١، كما نجده لا يرضى عما أولع به مؤلفه من كثرة النقول عن غلاة الصوفية فيضرب عنها صفحاً ٨ / ١٩١.

٢) ويوجد بآخر النسخة التي بأيدينا من تفسير النيسابوري: «وجد بآخر بعض النسخ ما نصه: علقه مؤلفه، الحسن بن محمد بن الحسين، المشتهر بنظام الأعرج النيسابوري ببلاد الهند في دار مملكتها بدولة آباد في أوائل صفر ٧٣٠ سبعمائة وثلاثين من هجرة سيد الأولين والآخرين، صلاة الله وسلامه عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، كما جاء في ترجمة النيسابوري بآخر النسخة أيضاً أنه فرغ من شرحه للتذكرة النصيرية في غرة ربيع الأول سنة ٧١١ هـ إحدى عشر وسبعمائة. وفي كشف الظنون عند الكلام عن تفسير النيسابوري أنه توفي سنة ٧٢٨ هـ.

٣) انظر ترجمة النيسابوري في آخر تفسيره، وفي روضات الجنات ـ محمد باقر الموسوي: ٢٢٥، ٢٢٦.

جاء في الكشاف وغيره من التفاسير، وما فتح الله به عليه من الفهم لمحكم كتابه، وضمنه ما ثبت لديه من تفاسير سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين.

موقفه من الزمخشري والفخر الرازي:

وهو إذ يختصر كلام الفخر الرازي، أو يقتبس من تفسير الكشاف أو غيره، لا يقف عند النص، بل نجده متصرفاً فيه، فإن وجد فساداً نبه عليه وأصلحه، وإن رأى نقصاً تداركه فأتمه وأكمله. وكثيراً ما نجده ينقل عن الكشاف فيقول: قال في الكشاف كذا وكذا، أو قال جار الله كذا وكذا، وقد ينقل ما ذكره صاحب الكشاف وما اعترض به عليه الفخر الرازي ثم ينصب نفسه حكماً بين الإمامين، ويبدي رأيه على حسب ما يظهر له[1].

نهجه في التفسير:

سلك في تفسيره مسلكاً قد يكون منفرداً به من بين المفسرين؛ ذلك أنه يذكر الآيات القرآنية أولاً، ثم يذكر القراءات، مع التزامه ألا يذكر إلا ما كان منها منسوباً إلى الأئمة العشرة، ثم بعد ذلك يذكر الوقوف، ثم بعد ذلك يشرع في التفسير، مبتدئاً بذكر المناسبة وربط اللاحق بالسابق مع عناية كبيرة بذلك سرت إليه من التفسير الكبير للفخر الرازي، ثم بعد ذلك يبين معاني الآيات بأسلوب بديع، يشتمل على إبراز المقدمات، وإظهار المضمرات، وتأويل المتشابهات، وتصريح الكنايات، وتحقيق المجاز والاستعارات، وتفصيل المذاهب الفقهية، مع توجيه أدلة كل مذهب.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المائدة: ٣٨] نجده يقول: واعلم أن الكلام في السرقة، يتعلق بأطراف المسروق، ونفس السرقة، والسارق.. ثم يمضي فيتكلم عن هذه النواحي الثلاث من الناحية الفقهية، بتفصيل واسع وتوجيه للأدلة. وقد ذكر النيسابوري منهجه هذا في مقدمة التفسير. ومما قاله في آخر تفسيره عن مراجعه:

- أما الأحاديث: فإما من الكتب المشهورة، كجامع الأصول، والمصابيح وغيرها، وإما من كتاب الكشاف، والتفسير الكبير ونحوهما، إلا الأحاديث الموردة في الكشاف في فضائل السور، فإنا قد أسقطناها؛ لأن النقد زَيّفها إلا ما شذ منها.
- وأما أسباب النزول: فمن كتاب جامع الأصول، والتفسيرين، أو من تفسير الواحدي.
- وأما اللغة، فمن صحاح الجوهري، ومن التفسيرين كما نقلا.
- وأما المعاني والبيان وسائر المسائل الأدبية: فمن التفسيرين، والمفتاح، وسائر الكتب العربية.

---

١) راجع التفسير عند سورة الزمر: ٦٧.

ـ وأما الأحكام الشرعية: فمنها، ومن الكتب المعتبرة في الفقه، ولاسيما شرح الوجيز للإمام الرافعي.

ـ وأما في الفروع: فذكرت استدلال كل طائفة بالآية على مذهبه، من غير تعصب.

ثم مضى فقال: لقد وفقت لإتمام هذا الكتاب في مدة خلافة علي عليه السلام، وإني لم أملْ في هذا الإملاء إلا إلى مذهب أهل السنة والجماعة.

والكتاب مطبوع ومتداول بين أهل العلم.

خوضه في المسائل الكلامية:

يخوض في المسائل الكلامية، فيذكر مذهب أهل السنة ومذهب غيرهم، مع ذكره لأدلة كل مذهب، وانتصاره لمذهب أهل السنة.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: ٢٥] نجده يقول: وفي الآية دليل على أن الله تعالى هو الذي يصرف عن الإيمان، ويحول بين المرء وبين قلبه، وقالت المعتزلة: لا يمكن إجراؤها على ظاهرها، وإلا كان حجة للكفار؛ ولأنه يكون تكليفاً للعاجز، ولم يتوجه ذمهم في قولهم: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾، فلا بد من التأويل، وذلك من وجوه.. ثم ساق خمسة أوجه للمعتزلة، وبعد أن فرغ منها تعقبها بالرد عليها، تفنيدا لمذهب المعتزلة، وتصحيحاً لمذهب أهل السنة[1].

خوضه في المسائل الكونية والفلسفية:

النيسابوري متأثر بالرازي إذا مرّ على آية من الآيات الكونية فإنه لا يمر عليها بدون أن يخوض بأسرار الكون وكلام الطبيعيين والفلاسفة.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ ﴾ [البقرة: ١٨٩] نراه يذكر سبب نزول الآية، ثم يبين الحكمة التي أرادها الله من وراء جوابه لهم على غير مقصودهم ـ [أي إن الجواب لم يكن عن نفس الأهلة، وإنما عن فائدتها في المواقيت] ـ وهنا يتعرض للسبب الذي من أجله يبدو الهلال دقيقاً ثم يزيد شيئاً فشيئاً حتى يصير بدراً، ثم يأخذ في النقصان إلى أن يعود كما بدأ.

النزعة الصوفية في تفسير النيسابوري:

النيسابوري رحمه الله كان صوفياً كبيراً، فنراه لذلك يستطرد أثناء التفسير إلى كثير من المواعظ المبكيات ،كما نراه في تأويله الإشاري يمثل الفلسفة التصوفية بأعلى أنواعها.

---

١) جـ٧ ص ١٢٩.

ليس في تفسير النيسابوري ما يدل على تشيعه:

وعلى كثرة ما قرأت في هذا التفسير لم أقع على نص منه يدل على تشيع مؤلفه، وكل ما وقعت عليه، أنه قال في خاتمة تفسيره: «وإني أرجو فضل الله العظيم، وأتوسل إليه بوجهه الكريم، ثم بنبيه القرشي الأبطحي ووليه المعظم العلي». وهذه الجملة الأخيرة: (ووليه المعظم العلي) وإن كانت اعترافاً منه بولاية علي عليه السلام، ليست دليلاً قاطعاً على تشيعه، بل نجد النيسابوري على العكس من ذلك يعترف في نفس خاتمة تفسيره بأنه لم يمل في تفسيره إلا إلى مذهب أهل السنة والجماعة وإذا رجعت إلى تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٤ ـ ٥٥]، لوجدته يرد على الشيعة استدلالهم بهاتين الآيتين على ولاية علي عليه السلام وأنه الخليفة بعد رسول الله ﷺ وإن كان ما ذكره تلخيصاً لما قال الفخر الرازي في تفسيره.

٧ ـ تفسير الجلالين
لجلال الدين المحلى وجلال الدين السيوطي

التعريف بمؤلفي هذا التفسير:

ألف هذا التفسير الإمامان الجليلان، جلال الدين المحلى، وجلال الدين السيوطي. أما جلال الدين السيوطي، فقد سبق التعريف به عند الكلام عن تفسيره المسمى بالدرّ المنثور.

وأما جلال الدين المحلى، فهو جلال الدين، محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم المحلى الشافعي، تفتازاني العرب. قال: في حسن المحاضرة «ولد بمصر سنة ٧٩١هـ، واشتغل وبرع في الفنون فقهاً، وكلاماً، وأصولاً، ونحواً، ومنطقاً، وغيرها. وكان يقول عن نفسه: إن فهمه لا يقبل الخطأ، ولم يك يقدر على الحفظ».

وكان غرة عصره في سلوك طريق السلف، على مبلغ عظيم من الصلاح والورع، فكان يواجه بالحق أكابر الظلمة والحكام، وقد عرض عليه القضاء الأكبر فلم يقبله. وكان مع هذا متقشفاً في معيشته يتكسب بالتجارة، وقد ألف كتباً كثيرة تشد إليها الرحال، وهي غاية في الاختصار، فمن مؤلفاته: شرح جمع الجوامع في الأصول وغيره.

توفي ـ رحمه الله ـ في أول يوم من سنة ٨٦٤ هـ من الهجرة[1].

---

١) انظر ترجمته في: شذرات الذهب ـ عبد الحي بن العماد: ٧ / ٣٠٣ ـ ٣٠٤. وطبقات المفسرين للداودي: ٢١٩ ـ ٢٢٠.

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفَيْه فيه:

اشترك في هذا التفسير ـ كما قلنا ـ الإمامان الجليلان، جلال الدين المحلى، وجلال الدين السيوطي.

أما جلال الدين المحلى، فقد ابتدأ تفسيره من أول سورة الكهف إلى آخر سورة الناس، ثم ابتدأ بتفسير الفاتحة، وبعد أن أتمها اخترمته المنية فلم يفسر ما بعدها.

وأما جلال الدين السيوطي، فقد جاء بعد الجلال المحلى فكمل تفسيره، فابتدأ بتفسير سورة البقرة، وانتهى عند آخر سورة الإسراء، ووضع تفسير الفاتحة في آخر تفسير الجلال المحلى لتكون ملحقة به. وقلت هذا لأن السيوطي ـ في مقدمة هذا التفسير وقبل الكلام على سورة البقرة ـ يقول بعد الديباجة: «هذا ما اشتدت إليه حاجة الراغبين في تكملة تفسير القرآن الكريم، الذي ألفه الإمام العلامة المحقق، جلال الدين، محمد بن أحمد، المحلى الشافعي ـ رحمه الله ـ، وتتميم ما فاته وهو ـ (يريد ما فات الجلال المحلى وقام هو بتفسيره) ـ من أول سورة البقرة إلى آخر سورة الإسراء... وقال في آخر الإسراء: إنه ألف ما ألفه خلال ٤٠ يوما».

وقال صاحب كشف الظنون: «ولم يتكلم الشيخان على البسملة، فتكلم عليها بأقل مما ينبغي من الكلام بعض العلماء من زبيد وكتب ذلك حاشية بالهامش.

وعلى الجملة، فالسيوطي قد نهج في تفسيره منهج المحلى «من ذكر ما يفهم من كلام الله تعالى، والاعتماد على أرجح الأقوال، وإعراب ما يحتاج إليه، وتنبيهٍ على القراءات المختلفة المشهورة، على وجه لطيف، وتعبير وجيز، وترك التطويل بذكر أقوال غير مرضية، وأعاريب محلها كتب العربية[1]. ولم يخالف منهج المحلى إلا في مواضع قليلة لا تبلغ العشرة كما قيل.

فمن هذه المواضع أن المحلى في سورة صٓ: فسر الروح بأنها جسم يحيا به الإنسان بنفوذه فيه. والسيوطي تابعه على هذا التفسير في سورة الحجر ثم خالفه عليه لقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ٨٥] فهي صريحة أو كالصريحة في أن الروح من علم الله تعالى، فالإمساك عن تعريفها أولى.

وقد طبع مراراً كثيرة، وظفر بكثير من تعاليق العلماء وحواشيهم عليه، ومن أهم هذه الحواشي: حاشية الجمل، وحاشية الصاوي، وهما متداولتان بين أهل العلم.

---

١) مقدمة السيوطي لتفسير الجلالين.

٨ ـ السراج المنير
في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير
للخطيب الشربيني

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

هو الإمام العلامة شمس الدين، محمد بن أحمد الشربيني، القاهري الشافعي الخطيب. تلقى العلم عن كثير من مشايخ عصره؛ فمنهم الشيخ أحمد البرلسي، والنور المحلى، وغيرهم.

وقد أجمع أهل مصر على وصفه بالعلم والعمل، والعبادة. وكان من عادته أن يعتكف من أول رمضان فلا يخرج من الجامع إلا بعد صلاة العيد. توفي سنة ٩٧٧ هـ. ومن أهم مؤلفاته: شرحه لكتاب المنهاج وكتاب التنبيه[١].

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

ذكر مؤلف هذا الكتاب في مقدمته: أن أئمة السلف ألفوا في التفسير كتباً، وأنه خطر له أن يتقي أثرهم، وذكر أنه اقتصر فيه على أرجح الأقوال، وإعراب ما يحتاج إليه. وذكر أن ما يذكره فيه من القراءات فهو من السبع المشهورات.

وقال في خاتمة الكتاب: فدونك تفسيراً جمع من التفاسير معظمها، ومن القراءات متواترها، ومن الأقاويل أظهرها، ومن الأحاديث صحيحها وحسنها، محرر الدلائل في هذا الفن، مظهراً لدقائق استعملنا الفكر فيها إذا الليل جن.

وقد قرأت في هذا التفسير فوجدته تفسيراً سهل المأخذ، ممتع العبارة، ليس بالطويل الممل ولا بالقصير المخل، نقل فيه صاحبه بعض تفسيرات مأثورة عن السلف، كما أنه يذكر أحياناً أقوال من سبقه من المفسرين كالزمخشري والبيضاوي، والبغوي، وأكثر اعتماده على الرازي، ويكثر من النقول عنه، وقد يوجه ما يذكره من هذه الأقوال ويرتضيها. وقد يناقشها ويرد عليها[٢]. والكتاب مطبوع ومتداول.

موقفه من القراءات والأعاريب والحديث:

وقد وفّى فيه صاحبه بما وعد فلم يذكر من القراءات إلا ما تواتر منها. ولم يقحم نفسه

---

١) انظر ترجمته في شذرات الذهب ـ عبد الحي بن العماد: ٨ / ٣٨٤.

٢) انظر ما نقله عن البيضاوي متابعاً فيه الزمخشري، وما ذكره من رد أبي حيان عليه، عند تفسيره للآية: ١٨٠ من سورة البقرة.

فيما لا يعني المفسر من ذكر الأعاريب التي لا تمت إلى التفسير بسبب، كما أنه وفى بما التزمه من أنه لا يذكر فيه إلا حديثاً صحيحاً أو حسناً، ولهذا نراه يتعقب الزمخشري والبيضاوي فيما ذكراه من الأحاديث الموضوعة في فضائل القرآن سورة سورة، كما ينبه على الأحاديث الضعيفة إن روى شيئاً منها في تفسيره.

فمثلاً في آخر سورة الأعراف يقول: والحديث الذي ذكره البيضاوي تبعاً للزمخشري وهو: من قرأ سورة الأعراف جعل الله يوم القيامة بينه وبين إبليس سداً، وكان آدم شفيعاً له يوم القيامة، حديث موضوع.

اهتمامه بالنكت التفسيرية وبالمناسبات بين الآيات:

ومما نلحظه في هذا التفسير، أنه يورد بعض النكت التفسيرية، وبعض الإشكالات والإجابة عنها. تارة بقوله: تنبيه، وتارة بقوله: فإن قيل كذا أجيب بكذا .كما أنه شديد العناية بذكر المناسبات بين آيات القرآن.

موقفه من المسائل الفقهية:

يستطرد إلى ذكر الأحكام الفقهية. ومذاهب العلماء وأدلتهم. وإن كان مقلاً في هذه الناحية، فلا يتوسع ولا يكثر من ذكر الفروع.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾ [البقرة: ٢٢٥] نراه يعرض لبعض أقوال العلماء في معنى اليمين اللغو، ثم بعد الفراغ من تفسير الآية يقول: (تنبيه) ثم يذكر ما ينعقد به اليمين، وما يترتب على الحنث في اليمين المنعقدة. وهل تجب الكفارة بالحنث في اليمين الغموس أو لا تجب؟ فيذكر عن الشافعية أنهم يقولون بوجوبها، وعن بعض العلماء أنه لا كفارة فيها كأكثر الكبائر، ويعرض لحكم الحلف بغير الله كالكعبة والنبي والأب وغير ذلك.

خوضه في الإسرائيليات:

لم يخل تفسير الخطيب، من ذكر بعض القصص الإسرائيلي الغريب، وذلك بدون أن يتعقبه بالتصحيح أو التضعيف. فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [النمل: ٣٥] نراه يقص لنا عن وهب بن منبه وغيره قصة غريبة فيها بيان نوع هدية بلقيس لسليمان، وما كان من اختبارها له، وما كان من سليمان عليه السلام من إجابته على ما اختبرته به، وإظهاره لعظمة ملكه وقوة سلطانه، مما يبعث الدهشة ويثير العجب، ومع ذلك لا يعقب على ما رواه بكلمة واحدة.

ولكنه يعقب على هذه القصص عندما تمس مقام النبوة:

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ

دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ [صٓ: ٢١ ـ ٢٣] إلى آخر القصة، نراه يذكر لنا عبارة الفخر الرازي التي ذكرها في تفسيره لتفنيد الروايات الباطلة في هذه القصة، وتقرير ما هو لائق في حق نبي الله داود عليه السلام.

ونلاحظ على هذا التفسير أنه يغلب عليه الجانب القصصي بالنسبة لغيره من بقية جوانب التفسير.

٩ ـ إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

هو أبو السعود محمد بن محمد مصطفى، العمادي، الحنفي المولود في سنة ٨٩٣هـ بقرية قريبة من القسطنطينة [استانبول]، وهو من بيت عرف أهله بالعلم والفضل. قرأ كثيراً من كتب العلم على والده، وتولى التدريس في كثير من المدارس التركية، ثم قلد قضاء بروسه ثم نقل إلى قضاء استانبول، ثم إلى قضاء ولاية العسكر في ولاية روم أيلي، ثم تولى أمر الفتوى سنة ٩٥٢ هـ. كما أنه كتب بعض الحواشي على تفسير الكشاف. وعلى الجملة فقد جمع صاحبنا بين العلم والأدب: فبينما نراه مجوداً فيما كتبه وألفه من كتب العلم، نراه مبدعاً غاية الإبداع فيما أثر عنه من منثور ومنظوم.

توفي رحمه الله بمدينة القسطنطينية [استانبول]، ودفن بجوار أبي أيوب الأنصاري، وذلك في أوائل جمادي الأولى سنة ٩٨٢ هـ. فرحمه الله رحمة واسعة(١).

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

والحق أن هذا التفسير غاية في حسن الصوغ وجمال التعبير كشف فيه صاحبه عن أسرار البلاغة القرآنية، بما لم يسبقه أحد إليه، فهذا صاحب العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم يقول عنه في كتابه: «وقد أتى فيه بما لم تسمع به الأزمان، ولم تقرع به الآذان، فصدق المثل السائر كم ترك الأول للآخر».

وفي كشف الظنون عند الكلام عن هذا التفسير، ذكر ما كتب عليه من التعليقات فمن ذلك: تعليقة الشيخ أحمد الرومي [الأقحصاري] المتوفي سنة ١٠٤١ هـ، من سورة الروم إلى

---

١) يراجع العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم الموجود بهامش وفيات الأعيان لابن خلكان: ٢ / ٢٨٢ ـ ٣٠٥.

سورة الدخان. وتعليقة الشيخ رضي الدين بن يوسف القدسي، علقها إلى قريب من النصف[1].

قرأت مقدمة الكتاب لمؤلفه، فوجدته يثني كثيراً على تفسير الكشاف، وأنوار التنزيل للبيضاوي، ويذكر أنه اعتمد عليهما في تفسيره، ثم يقول: ولقد كان في سوابق الأيام، أوان اشتغالي بمطالعتهما وممارستهما، يدور في خلدي باستمرار، أن أنظم درر فوائدهما في سمط دقيق وأرتب غرر فوائدهما على ترتيب أنيق، وأضيف إليهما ما ألفيته في تضاعيف الكتب الفاخرة من جواهر الحقائق. ناوياً أن أسميه عند تمامه، بتوفيق الله وإنعامه: (إرشاد العقل السليم، إلى مزايا الكتاب الكريم)[2].

غير أنه لم يغتر بما جاء في الكشاف من الاعتزالات. ولهذا لم يذكرها إلا على جهة التحذير منها، مع جريانه على مذهب أهل السنة في تفسيره، ولكن نجده قد وقع فيما وقع فيه صاحب الكشاف، وصاحب أنوار التنزيل من أنه ذكر في آخر كل سورة حديثاً عن النبي ﷺ في فضلها، مع أن هذه الأحاديث في [غالبها] موضوعة باتفاق أهل العلم جميعاً.

عنايته ببلاغة القرآن وبالمناسبات والقراءات:

يهتم بأن يكشف عن نواحي القرآن البلاغية، وسر إعجازه في نظمه وأسلوبه، وبخاصة في باب الفصل والوصل، والإيجاز والإطناب، والتقديم والتأخير، والاعتراض والتذييل، كما أنه يهتم بإبداء المعاني الدقيقة التي تحملها التراكيب القرآنية بين طياتها، ويكاد يكون صاحبنا هو أول المفسرين المبرزين في هذه الناحية.

وكثيراً ما يهتم بإبداء وجوه المناسبات بين الآيات، كما نلحظ عليه أنه يعرض أحياناً لذكر القراءات، ولكن بقدر ما يوضح به المعنى.

إقلاله من رواية الإسرائيليات:

مقل في سرد الإسرائيليات، وإن ذكرها أحياناً فإنه يُصدّر ذكر الرواية بما يشعر إلى ضعفها فيقول: روي، أو قيل، ويكتفي بهذه الإشارة. فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٣٥﴾ [النمل: ٣٥] يقول: روي أنها بعثت خمسمائة غلام عليهم ثياب الجواري وحليهم الأساور والأطواق... إلى آخر ما ذكره من القصة العجيبة الغريبة، ومع ذلك لم يعقب عليها، ولعله اكتفى كما قلت بما يشير إليه لفظ: (رُوي) من عدم صحة ما ذكره.

---

1) كشف الظنون ـ ملا كاتب جلبي: ١ / ٦٧.
2) تفسير أبي السعود: ١ / ٣، ٤ من المقدمة.

روايته عن بعض من اشتهر بالكذب:

يروي بعض القصص عن طريق الكلبي عن أبي صالح فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: ١٥ وما بعدها] الآيات إلى آخر القصة، نجده يقول: وأصل قصتهم ما رواه الكلبي عن أبي صالح: أن عمرو بن عامر من أولاد سبأ، وبينهما اثني عشر أباً، وهو الذي يقال له: مزيقيا ابن ماء السماء، اخبرته طريفة الكاهنة بخراب سد مأرب، وتغريق سيل العرم الجنتين...» ويمضي في ذكر روايات أخرى عن رجال آخرين مع العلم أن الكلبي متهم بالكذب. ولكن نجد أبا السعود، يخلص من تبعة هذه الروايات بقوله أخيراً: (والله تعالى أعلم)، وهذا يشعر بأنه يشك في صحتها.

إقلاله من ذكر المسائل الفقهية:

يتعرض في تفسيره لبعض المسائل الفقهية باختصار فنجده يسرد المذاهب في الآية ولا يزيد على ذلك. فمثلاً عند قوله تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾ [البقرة: ٢٢٥] نجده يعرض للخلاف المذهبي في تحديد معنى اليمين اللغو فيقول: «وقد اختلف فيه، فعندنا هو أن يحلف على شيء يظنه على ما حلف ثم يظهر خلافه، فإنه لا يقصد الكذب. وعند الشافعي ـ رحمه الله ـ هو قول العرب: لا والله، وبلى والله، مما يؤكدون به كلامهم من غير إخطار الحلف بالبال»، ولا يزيد على ذلك بل يمضي فينزل الآية على قول الحنفية.

ذكره لوجوه الإعراب:

يعرض أحياناً للناحية النحوية، وينزل الآية على اختلاف الأعاريب، ويرجح واحداً منها ويدلل على رجحانه.

وعلى الجملة. فالكتاب دقيق، بعيد عن خلط التفسير بما لا يتصل به، غير مسرف فيما يضطر إليه من التكلم عن بعض النواحي العلمية، وهو مرجع مهم يعتمد عليه كثير ممن جاء بعده من المفسرين، وقد طبع هذا التفسير مراراً، وهو متوسط الحجم.

١٠ - روح المعاني
في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني
للآلوسي

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

هو أبو الثناء، شهاب الدين، السيد محمود أفندي الآلوسي[١] البغدادي. ولد في سنة ١٢١٧ هـ، في جانب الكرخ من بغداد.

كان رحمه الله شيخ العلماء في العراق، علامة في المنقول والمعقول فهامة في الفروع والأصول، محدثاً لا يجارى. ومفسراً لكتاب الله لا يبارى أخذ العلم عن فحول العلماء. منهم والده العلامة، والشيخ خالد النقشبندي، وكان كثيراً ما ينشد:

سهري لتنقيح العلوم ألذ لي ... من وصل غانية وطيب عناق

اشتغل بالتدريس والتأليف وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وكان ذا حافظة عجيبة، وفكرة غريبة، وكثيراً ما كان يقول: «ما استودعت ذهني شيئاً فخانني، ولا دعوت فكري لمعضلة إلا وأجابني». قلد أفتاء الحنفية في السنة ١٢٤٨هـ، وبقي مشتغلاً بتفسير القرآن الكريم حتى أتمه، ثم سافر إلى القسطنطينية [استانبول] في السنة ١٢٦٧هـ، فعرض تفسيره على السلطان عبد المجيد خان، فنال إعجابه ورضاه.

وكان - رحمه الله - عالماً باختلاف المذاهب، مطلعاً على الملل والنحل، سلفي الاعتقاد، شافعي المذهب: إلا أنه في كثير من المسائل يقلد الإمام الأعظم أبا حنيفة النعمان رضي الله عنه، وكان في آخر أمره يميل إلى الاجتهاد. ولقد خلف - رحمه الله - للناس ثروة علمية كبيرة ونافعة؛ فمن ذلك تفسيره لكتاب الله، والأجوبة العراقية عن الأسئلة اللاهورية، والأجوبة العراقية على الأسئلة الإيرانية، وغير ذلك. توفي رحمه الله سنة ١٢٧٠هـ ودفن في الكرخ، رحمه الله[٢].

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

ثم إن هذا التفسير - والحق يقال - قد أفرغ فيه مؤلفه وسعه، وبذل مجهوده حتى أخرجه للناس كتاباً جامعاً لآراء السلف رواية ودراية، مشتملاً على أقوال الخلف بكل أمانة وعناية،

---

١) الآلوسي: نسبة إلى قرية اسمها آلوس، وهي جزيرة في منتصف نهر الفرات بين الشام وبغداد كانت موطن أجداده.

٢) لخصنا هذه الترجمة من الترجمة الموجودة بأول النسخة الأميرية من تفسير الآلوسي.

فإذا نقل عن تفسير أبي السعود يقول ـ غالباً ـ : قال شيخ الإسلام. وإذا نقل عن تفسير البيضاوي يقول ـ غالباً ـ : قال القاضي. وإذا نقل عن تفسير الفخر الرازي يقول ـ غالباً ـ : قال الإمام. وهو إذ ينقل عن هذه التفاسير ينصب نفسه حكماً عدلاً بينها، فتراه كثيراً ما يعترض على ما ينقله عن أبي السعود، أو عن البيضاوي، أو عن أبي حيان، أو عن الرازي، أو عن غيرهم. وهو ينتصر لمذهب أبي حنيفة.

موقف الآلوسي من المخالفين لأهل السنة:

والآلوسي سلفي المذهب سني العقيدة، ولهذا نراه كثيراً ما يفند آراء المعتزلة والشيعة، وغيرهم من أصحاب المذاهب المخالفة لمذهبه. فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥] يقول بعد كلام طويل: «وإضافته ـ أي الطغيان ـ إليهم، لأنه فعلهم الصادر منهم، بقدرتهم المؤثرة بإذن الله تعالى فالاختصاص المشعرة به الإضافة. إنما هو بهذا الاعتبار، لا باعتبار المحلية والاتصاف، فإنه معلوم لا حاجة فيه إلى الإضافة، ولا باعتبار الإيجاد استقلالاً من غير توقف على إذن الفعال لما يريد، فإنه اعتبار عليه غبار، بل غبار ليس له اعتبار، فلا تهولنك جعجعة الزمخشري وقعقعته.

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [الجمعة: ١١] يقول: «وطعن الشيعة لهذه الآية الصحابة ﷺ، بأنهم آثروا دنياهم على آخرتهم، حيث انفضوا إلى اللهو والتجارة. وروي أن ذلك قد وقع مراراً منهم. وفيه أن كبار الصحابة كأبي بكر وعمر وسائر العشرة المبشرة لم ينفضوا. والقصة كانت في أوائل زمن الهجرة، ولم يكن أكثر القوم تام التحلي بحلية آداب الشريعة بعد، وكان قد أصاب أهل المدينة جوع وغلاء سعر، فخاف أولئك المنفضون اشتداد الأمر عليهم بشراء غيرهم ما يقتات به لو لم ينفضوا، ولذلك لم يتوعدهم الله على ذلك بالنار أو نحوها، بل قصارى ما فعل سبحانه أنه عاتبهم ووعظهم ونصحهم. ورواية أن ذلك وقع منهم مراراً إن أريد بها رواية البيهقي في شعب الإيمان عن مقاتل بن حيان أنه قال: بلغني ـ والله تعالى أعلم ـ أنهم فعلوا ذلك ثلاث مرات، فمثل ذلك لا يلتفت إليه ولا يعول عند المحدثين عليه. وإن أريد بها غيرها فليبين ويثبت صحته، وأنى بذلك؟ وبالجملة: الطعن بجميع الصحابة لهذه القصة التي كانت من بعضهم في أوائل أمرهم ـ وقد عقبها منهم عبادات لا تحصى ـ سفه ظاهر وجهل وافر.

الآلوسي والمسائل الكونية:

ومما نلاحظه على الآلوسي في تفسيره، أنه يستطرد إلى الكلام في الأمور الكونية. ويقر منها ما يرتضيه، ويفند مالا يرتضيه، وإن أردت مثالاً جامعاً، فأرجع إليه عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ

عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: ٣٨ ـ ٤٠].

كثرة استطراده في المسائل النحوية:

كذلك يستطرد الآلوسي إلى الكلام في الصناعة النحوية، ويتوسع في ذلك أحياناً إلى حد يكاد يخرج به عن وصف كونه مفسراً، ولا أحيلك على نقطة بعينها، فإنه لا يكاد يخلو موضع من الكتاب من ذلك.

موقفه من المسائل الفقهية:

كذلك نجده إذا تكلم عن آيات الأحكام فإنه لا يمر عليها إلا إذا استوفى مذاهب الفقهاء وأدلتهم مع عدم تعصب منه لمذهب بعينه[١]. فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾ [البقرة: ٢٣٦] يقول: وقال الإمام مالك: المحسنون المتطوعون، وبذلك استدل على استحباب المتعة وجعله قرينة صارفة للأمر إلى الندب. وعندنا[٢]: هي واجبة للمطلقات في الآية، مستحبة لسائر المطلقات. وعند الشافعي في أحد قوليه: هي واجبة لكل زوجة مطلقة إذا كان الفراق من قبل الزوج إلا التي سمي لها وطلقت قبل الدخول.

ولتقف على عدم تعصبه لمذهب بعينه راجع التفسير عند سورة البقرة: ٢٢٨.

موقفه من الإسرائيليات:

ومما نلاحظه على الآلوسي أنه شديد النقد للإسرائيليات والأخبار المكذوبة التي حشا بها كثير من المفسرين تفاسيرهم وظنوها صحيحة. فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ﴾ [المائدة: ١٢] نجده يقص علينا قصة عجيبة عن عوج بن عنق، يرويها عن البغوي، لكنه بعد الفراغ منها يقول: وقد شاع أمر عوج عند العامة، ونقلوا فيه حكايات شنيعة، وفي فتاوى العلامة ابن حجر، قال الحافظ العماد ابن كثير: قصة عوج وجميع ما يحكون عنه، هذيان لا أصل له، وهو من مختلقات أهل الكتاب، ولم يكن قط على عهد نوح عليه السلام.

---

١ ـ لا ينافي هذا ما ذُكر سابقا من انتصاره للمذهب الحنفي؛ إذ المنفي هنا التعصب وهو ذميم.

٢) هذه اللفظة: (وعندنا)، تدل بوضوح على أن الآلوسي كان حنفي المذهب، وما أكثر مثل هذا التعبير في تفسيره مما يجعلنا لا نميل إلى ما نقلناه سابقاً من أنه كان شافعياً يقلد أبا حنيفة في كثير من المسائل.

تعرضه للقراءات والمناسبات وأسباب النزول:

ثم أن الآلوسي يعرض لذكر القراءات ولكنه لا يتقيد بالمتواتر منها، كما أنه يعنى بإظهار وجه المناسبات بين السور، كما يعنى بذكر المناسبات بين الآيات، ويذكر أسباب النزول للآيات التي أنزلت على سبب، وهو كثير الاستشهاد بأشعار العرب على ما يذهب إليه من المعاني الغوية.

الآلوسي والتفسير الإشاري:

ولم يفت الآلوسي أن يتكلم عن التفسير الإشاري بعد أن يفرغ من الكلام عن كل ما يتعلق بظاهر الآيات[1]، ومن هنا عد بعض العلماء تفسيره هذا في ضمن كتب التفسير الإشاري، كما عد تفسير النيسابوري في ضمنها كذلك، ولكني رأيت أن أجعلهما في عداد كتب التفسير بالرأي المحمود، نظراً إلى أنه لم يكن مقصودهما الأهم هو التفسير الإشاري، بل كان ذلك تابعاً ـ كما يبدو ـ لغيره من التفسير الظاهر.

وجملة القول، فروح المعاني للعلامة الآلوسي ليس إلا موسوعة تفسيرية قيمة. جمعت جل ما قاله علماء التفسير الذين تقدموا عليه، مع النقد الحر، والترجيح الذي يعتمد على قوة الذهن وصفاء القريحة.

---

١) وسيأتي عند الكلام عن التفسير الإشاري توضيح لرأي الآلوسي في هذا اللون من التفسير.

الفصل الرابع

التفسير بالرأي المذموم
أو
تفسير الفرق المبتدعة

تمهيد في بيان نشأة الفرق الإسلامية:

ما أن انقضى عهد النبوة حتى أطلّت الفتنة برأسها، ونشأت الفرقة بين المسلمين، وظهرت المذاهب الدينية المتنوعة، ووجد من يحاول نصرة مذهبه والدفاع عن عقيدته بكل وسيلة وحيلة، وكان القرآن هو هدفهم الأول، كل يبحث في القرآن ليجد فيه ما يقوي رأيه ويؤيد مذهبه، وكل واجد ما يبحث عنه ولو بطريق إخضاع الآيات القرآنية لمذهبه، والميل بها مع رأيه وهواه، وتأويل ما يصادمه منها تأويلا يجعلها غير منافية لمذهبه ولا متعارضة معه، ومن هنا بدأ الخروج عن دائرة الرأي المحمود إلى دائرة المذموم !!.

كان الخلاف بين المسلمين ضمن حدود ضيقة وبسيطة، وظل الأمر على ذلك إلى زمن عثمان رضي الله عنه، وكان ما كان من خروج بعض المسلمين عليه، ومحاصرتهم لداره، وقتلهم له، فعرى المسلمين من ذلك الوقت رجة فكرية عنيفة، ثم نشبت الحرب بين علي ومعاوية رضي الله عنهما من أجل الخلافة، وكان لكل منهم شيعة وأنصار يشدون أزره، ويقوون عزمه، وتبع ذلك انشقاق جماعة عن علي - كرم الله وجهه -، بعد مسألة التحكيم في الخلاف الذي بينه وبين معاوية، في السنة ٣٧هـ، فظهرت من ذلك الوقت فرقة الشيعة، وفرقة الخوارج، وفرقة المرجئة، وفرقة أخرى، تنحاز لمعاوية، وتؤيد الأمويين على وجه العموم.

وظهر في أيام المتأخرين من الصحابة خلاف القدرية، وكان أول من جهر بهذا المذهب ووضع الحجر الأساسي لقيام هذه الفرقة: معبد الجهني[1] الذي أخذ عنه مذهبه غيلان الدمشقي ومن شاكله.

---

١ - معبد الجهني: تابعي صدوق في نفسه، ولكنه سن سنة سيئة فكان أول من تكلم في القدر، ونهى =

ثم ظهر بعد هؤلاء وفي زمن الحسن البصري بالبصرة، خلاف واصل بن عطاء[1] في القدر، وفي القول بالمنزلة بين المنزلتين[2]، ومجادلته للحسن البصري في ذلك، واعتزاله مجلسه[3]، ومن ذلك الوقت ظهرت فرقة المعتزلة.

ثم كان من أصحاب الديانات المختلفة كاليهودية، والنصرانية، والمجوسية، والصابئة.. الخ، من تزيا بزي الإسلام وأبطن الكيد له، حنينا إلى ملتهم الأولى، كعبد الله ابن سبأ اليهودي، فأوضعوا خلال المسلمين يبغونهم الفتنة، ويرجون لهم الفرقة، فأفلحوا فيما قصدوا إليه من تحزب المسلمين وتفرقهم.

وفي خلال ذلك غلا بعض الطوائف التي ولدها الخلاف، فابتدعوا أقوالا خرجت بهم عن دائرة الإسلام كالقائلين بالحلول والتناسخ من السبئية وكالباطنية الذين لا يعدون من فرق الإسلام، وإنما هم في الحقيقة على دين المجوس.

والذي اشتهر من هذه الفرق خمس: أهل السنة، والمعتزلة، والمرجئة، والشيعة، والخوارج، وما وراء ذلك من الفرق كالجبرية، والباطنية، والمشبهة، وغيرها، فمعظمها مشتق من هذه الفرق الخمس الرئيسية.

غير أننا لم نحط علما بكل هذه النظرات المذهبية في القرآن، وهناك تفسيرات وتأويلات لبعض من آيات القرآن لبعض من الفرق؛ ولكنها متفرقة مشتتة بين صحائف كتب التفسير خاصة وكتب العلم عامة. وهناك فرق أخرى لم نظفر لها بتفسير كامل ولا بشيء من التفسير، ولهذا أرى أن أتكلم عن التفسير المذهبي لا لكل الفرق بل للفرق التي ألّفت وخلّفت لنا كتبا في التفسير، ووقعت تحت أيدينا.

وسبق لنا أن تكلمنا عن التفسير بالرأي الجائز وأهم ما ألف فيه من كتب، وذلك هو تفسير أهل السنة والجماعة. والآن نشرع في الكلام عن موقف غيرهم من الفرق، بالنسبة لكتاب الله تعالى. وعن أهم ما خلفوه لنا من كتب في التفسير، والله يتولانا ويسدد خطانا إنه سميع مجيب.

= الحسن الناس عن مجالسته وقال: ضال مضل، ويقال هو معبد بن عبدالله بن عويم، قتله الحجاج صبرا لخروجه مع ابن الأشعث، وقد وثقه ابن معين/ ميزان الاعتدال للذهبي: ٦/ ٤٦٥. وراجع: سير أعلام النبلاء: ٤/ ١٨٦.

١ - هو: واصل بن عطاء البصري الغزّال، المتكلم البليغ المتشدق الذي كان يلثغ بالراء، سمع من الحسن البصري وغيره، ولد سنة ثمانين بالمدينة، كان يتوقف في عدالة أهل الجمل ويقول: إحدى الطائفتين فسقت لا بعينها، فلو شهدت عندي عائشة وعلي وطلحة على باقة بقل لم أحكم بشهادتهم: ميزان الاعتدال: ٧/ ١١٨ وراجع سير أعلام النبلاء: ٥/ ٤٦٤.

٢ - مشهور رأي واصل بأنه لا يشهد لصاحب الكبيرة بكفر ولا إيمان، وإنما هو في منزلة بينهما، وهو مخلد في النار.

٣ - لذلك سميت المعتزلة بهذا الاسم؛ لأنه اعتزل في مجلس خاص مخالفا للحسن البصري.

المعتزلة

وموقفهم من تفسير القرآن الكريم

كلمة إجمالية عن المعتزلة وأصولهم المذهبية:

نشأة المعتزلة:

نشأت هذه الفرقة في العصر الأموي، ولكنها شغلت الفكر الإسلامي في العصر العباسي ردحا طويلا من الزمان، وأصل هذه الفرقة هو واصل بن عطاء الملقب بالغزال[١]، المولود سنة٨٠ هـ، والمتوفى سنة ١٣١هـ، في خلافة هشام بن عبد الملك، وذلك أنه دخل على الحسن البصري رجل فقال: يا إمام الدين، ظهر في زماننا جماعة يكفرون صاحب الكبيرة ـ يريد وعيدية الخوارج ـ وجماعة أخرى يرجئون الكبائر، ويقولون: لا تضر مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة، فكيف تحكم لنا أن نعتقد في ذلك؟ فتفكر الحسن، وقبل أن يجيب قال واصل: أنا لا أقول: إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلق، ولا كافر مطلق، ثم قام إلى اسطوانة من اسطوانات المسجد، وأخذ يقرر على جماعة من أصحاب الحسن ما أجاب به من أن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر، ويثبت له المنزلة بين المنزلتين، فقال الحسن: اعتزل عنا واصل، فلذلك سمي هو وأصحابه معتزلة[٢].

ويلقب المعتزلة بالقدرية تارة، وبالمعطلة تارة أخرى، أما تلقيبهم بالقدرية، فلأنهم يسندون أفعال العباد إلى قدرتهم، وينكرون القدر [الإلهي] فيها، وأما تلقيبهم بالمعطلة، فلأنهم يقولون بنفي صفات المعاني فيقولون: الله عالم بذاته، قادر بذاته.. وهكذا.

فأنت ترى مما تقدم، أن الاعتزال نشأ في البصرة، ولكن سرعان ما انتشر في العراق، واعتنقه من خلفاء بني أمية يزيد بن الوليد ومروان بن محمد، وفي العصر العباسي، استفحل

---

١) لقب بذلك لأنه كان يلازم حوانيت الغزالين.

٢) شرح المواقف ـ السيد الشريف ـ السعادة ١٩٠٧م: جـ٨، ويرى بعض العلماء أن أول من قام بالاعتزال أبا هاشم عبد الله والحسن ابني محمد بن الحنفية، وعن أبي هاشم أخذ الاعتزال واصل بن عطاء، انظر مقدمة تبيين كذب المفتري ـ ابن عساكر ـ مطبعة التوفيق بدمشق ١٣٤٧هـ: ١٠ ـ ١١.

أمر المعتزلة، واحتلت فكرتهم وعقائدهم من عقول الناس وجدل العلماء مكانا عظيما.

أصول المعتزلة:

أما أصول المعتزلة فهي خمسة: التوحيد، والعدل، والوعد، والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أما التوحيد: فهو لب مذهبهم، وقد بنوا على هذا الأصل: استحالة رؤية الله سبحانه وتعالى يوم القيامة، وأن الصفات ليست شيئا غير الذات، وأن القرآن مخلوق لله تعالى.

وأما العدل: فقد بنوا عليه: أن الله تعالى لم يشأ جميع الكائنات، ولا خلقها ولا هو قادر عليها كلها، بل عندهم أن أفعال العباد لم يخلقها الله تعالى، لا خيرها ولا شرها، ولم يرد إلا ما أمر به شرعا، وما سوى ذلك فإنه يكون بغير مشيئته.

وأما الوعد والوعيد: فمضمونه، أن الله يجازي من أحسن بالإحسان، ومن أساء بالسوء، لا يغفر لمرتكب الكبيرة ما لم يتب، ولا يقبل في أهل الكبائر شفاعة، ولا يخرج أحدا منهم من النار.

وأما المنزلة بين المنزلتين: فقد سبق أن بيناها في مناظرة واصل بن عطاء للحسن البصري.

وأما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: خالفوا ما عليه الجمهور، فقالوا: إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يكون بالقلب إن كفى، وباللسان إن لم يكف القلب، وباليد إن لم يغنيا، وبالسيف إن لم تكف اليد، لقوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩]، وهم في ذلك لا يفرقون بين صاحب السلطان وغيره[١].

موقف المعتزلة من تفسير القرآن الكريم

الذي يقرأ تفسير المعتزلة، يجد أنهم بنوا تفسيرهم على أصولهم الخمسة وأسسهم من التنزيه المطلق، والعدل وحرية الإرادة، وفعل الأصلح، ونحو ذلك، ووضعوا أسسا للآيات التي ظاهرها التعارض فحكموا العقل، ليكون الفيصل بين المتشابهات.

إنكار المعتزلة لما يعارضهم من الأحاديث الصحيحة

ثم إن هذا السلطان العقلي المطلق، قد جرّ المعتزلة إلى إنكار ما صح من الأحاديث

---

١) انظر ما كتبه صاحب الكشاف عند الآية: آل عمران/ ١١٠. والتوبة / ٧٣.

التي تناقض أسسهم وقواعدهم المذهبية، كما أنه نقل التفسير من الوضوح والبساطة إلى مجموعة من القضايا العقلية، والبراهين المنطقية.

ونجد أحيانا للمعتزلة بعض التقدير للمأثور، وعدم الرغبة في الاستكثار من الخروج عليه، فهذا النظام من رؤوس مدرسة المعتزلة يذكر لنا تلميذه الجاحظ قوله الذي قاله في شأن هؤلاء المفسرين، وهذا نصه: قال الجاحظ كان أبو إسحاق يقول: لا تسترسلوا إلى كثير من المفسرين وإن نصبوا أنفسهم للعامة وأجابوا في كل مسألة، فإن كثيرا منهم يقول بغير رواية على غير أساس وكلما كان المفسر أغرب عندهم كان أحب إليهم، وليكن عندكم عكرمة، والكلبي، والسُّدّي، والضحاك، ومقاتل بن سليمان، وأبو بكر الأصم في سبيل واحدة، وكيف أثق بتفسيرهم وأسكن إلى صوابهم وقد قالوا في قوله عز وجل: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١﴾ [الفلق: ١] قالوا: الفلق: واد في جهنم. ثم قعدوا يصفونه..إلى آخر ما ذكره من تفسيراتهم الغريبة[١].

هذا وإن الزمخشري ـ وهو من عرفنا من مفسري المعتزلة ـ تجده كثيرا ما يذكر ما جاء عن الرسول ﷺ أو عن السلف من التفسير ويعتمد على ما يذكر من ذلك في تفسيره.

ادعاؤهم أن كل محاولاتهم في التفسير مرادة لله

ثم إن المعتزلة ـ بناء على رأيهم في الاجتهاد، من أن الحكم ما أدى إليه اجتهاد كل مجتهد، فإذا اجتهدوا في حادثة فالحكم عند الله تعالى في حق كل واحد مجتهده[٢] ـ رفضوا أن يكون للآية التي تحتمل أوجهاً تفسيراً واحداً لا خطأ فيه، وحكموا على جميع محاولاتهم التي حاولوها في حل المسائل الموجودة في القرآن، بأنها مرادة لله تعالى، وغاية ما قطعوا به هو عدم إمكان التفسير المخالف لمبادئهم وآرائهم.

وبديهي أن هذا الذي ذهب إليه المعتزلة، يخالف مذهب أهل السنة، فالمفسر يقول باجتهاده، والمجتهد قد يخطئ وقد يصيب، وهو مأجور في الحالتين وإن كان الأجر على تفاوت.

المبدأ اللغوي في التفسير وأهميته لدى المعتزلة

الطريقة اللغوية تعتبر عندهم المبدأ الأعلى لتفسير القرآن، وهذا المبدأ اللغوي، يظهر أثره واضحا في تفسيرهم للعبارات القرآنية التي لا تنسجم مع أصولهم. فمثلا: الآيات التي تدل على رؤية الله تعالى كقوله سبحانه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣]،

---

١) الحيوان للجاحظ: ١/١٦٨ ـ ١٧٠.
٢) التوضيح: ٢/١١٨.

يقولون: إن النظر إلى الله معناه الرجاء والتوقع للنعمة والكرامة، واستدلوا على ذلك بأن النظر إلى الشيء في اللغة العربية ليس مختصا بالرؤية المادية، واستشهدوا على ذلك بقول الشاعر:

وإذ نظرت إليك من ملك ... والبحر دونك زدتني نعما[1]

تصرف المعتزلة في القراءات المتواترة المنافية لمذهبهم

وأحيانا يحاول المعتزلة تحويل النص القرآني من أجل عقيدتهم إلى مالا يتفق وما تواتر من القراءات عن رسول الله ﷺ. فمثلا ينظر بعض المعتزلة إلى قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، فيرى أن مذهبه لا يتفق وهذا اللفظ القرآني حيث جاء المصدر مؤكدا للفعل، رافعا لاحتمال المجاز، فيبادر إلى تحويل هذا النص إلى ما يتفق ومذهبه فيقرؤه هكذا ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهَ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ بنصب لفظ الجلالة على أنه مفعول، ورفع موسى على أنه فاعل[2].

تفسيرهم للقرآن على ضوء ما أنكروه من الحقائق الدينية

وكذلك نجد المعتزلة قد وقفوا تجاه بعض الحقائق الدينية الثابتة عند جمهور أهل السنة موقف المعارضة والكفاح، فأهل السنة يقولون بحقيقة السحر، ويعترفون بما له من تأثير في المسحور، ويقولون بوجود الجن، ويعترفون بما لهم من قوة التأثير في الإنسان حتى ينشأ عن ذلك المس والصرع، ويقولون بكرامات الأولياء.... وما إلى ذلك، ولكن المعتزلة الذين ربطوا التفسير بما شرطوه من جعل العقل مقياسا للحقائق الدينية وقفوا ضد هذا كله وجعلوه من قبيل الخرافات، والتصورات المخالفة لطبيعة الأشياء، وبلغ بهم الأمر أن أنكروا أو تأولوا ما صح من الأحاديث التي تصرح بأن الرسول ﷺ قد سُحر[3].

كذلك تمرد بعض أعلام المعتزلة كالنظام على الاعتقاد بوجود الجن، وثار بعضهم كالزمخشري ضد من يقول بأن الجن لها قوة التأثير في الإنسان مع الاعتراف منه بوجودها في نفسها، فأولوا ما يصادمهم من الآيات القرآنية، وأنكروا أو تأولوا ما صح من الأحاديث النبوية.

---

١) انظر تفسير الفخر الرازي: ٦/ ٤٧١، والمذاهب الإسلامية في القرآن الكريم ـ جولد زيهر: ١٣٠.

٢) انظر الكشاف للزمخشري: ١/ ٣٩٧ ـ ٣٩٨.

٣) ينكر بعض أهل السنة أن رسول الله ﷺ قد سحر، زعما منهم أن ذلك مما يقدح في صحة نبوته، وأنكروا ما صح من الأحاديث في ذلك أو تأولوها، والحق ـ ما دامت الأحاديث قد صحت ـ أن رسول الله ﷺ سحر وأثر فيه السحر بما لا يخدش نبوته وتأثير السحر عليه لا يعدو أن يكون مرضا بدنيا.

والحق أن هذا التصرف من المعتزلة أثار عليهم خصومهم أهل السنة، واستعداهم عليهم، فرموهم بالعبارات اللاذعة، واتهموهم بتحريف النصوص عن مواضعها، تمشيا مع الهوى وميلا مع العقيدة.

حُكم الإمام أبي الحسن الأشعري على تفسير المعتزلة

يقول في مقدمة تفسيره المسمى بالمختزن: «أما بعد، فإن أهل الزيغ والتضليل تأولوا القرآن على آرائهم، وفسروه على أهوائهم: تفسيرا لم يُنزل الله به سلطانا، ولا أوضح به برهانا، ولا رووه عن رسول رب العالمين، ولا عن أهل بيته الطيبين، ولا عن السلف المتقدمين، من الصحابة والتابعين، افتراء على الله، قد ضلوا وما كانوا مهتدين.

وإنما أخذوا تفسيرهم عن أبي الهذيل بياع العلف ومتبعيه، وعن إبراهيم نظام الخرز ومقلديه، وعن الفوطي وناصريه، وعن المنسوب إلى قرية جبى ومنتحليه، وعن الأشج جعفر بن حرب ومجتبييه، وعن جعفر بن مبشر القصبي ومتعصبيه، وعن الإسكافي الجاهل ومعظميه، وعن الفروي المنسوب إلى مدينة بلخ وذويه، فإنهم قادة الضلال، من المعتزلة الجهال، الذين قلدوهم في دينهم، وجعلوهم معولهم الذي عليه يعولون، وركنهم الذي إليه يستندون[١].

حكم ابن تيمية على تفسير المعتزلة

كذلك حكم ابن تيمية على تفسيرهم فقال: إن مثل هؤلاء اعتقدوا رأيا ثم حملوا ألفاظ القرآن عليه، وليس لهم سلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولا من أئمة المسلمين، لا في رأيهم ولا في تفسيرهم، وما من تفسير من تفاسيرهم الباطلة إلا وبطلانه يظهر من وجوه كثيرة[٢].

أهم كتب التفسير الاعتزالي

صنف كثير من شيوخ المعتزلة تفاسير للقرآن الكريم، على أصول مذهبهم، ولم تكن هذه التفاسير أكثر حظا من غيرها من كتب التفسير المختلفة، حيث امتدت إلى كثير منها يد الزمان، فضاعت بتقادم العهد عليها، ولم يصل إلينا منها إلا هذه المصنفات الثلاثة: تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عبد الجبار، وأمالي الشريف المرتضى، والكشاف للزمخشري. ولنبدأ بالحديث عنها:

---

١) تبيين كذب المفتري لابن عساكر: ١٣٩.

٢) مقدمة ابن تيمية في أصول التفسير: ٢٢.

١ ـ تنزيه القرآن عن المطاعن
للقاضي عبد الجبار

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

هو قاضي القضاة[١]، أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار بن أحمد بن الخليل الهمداني الأسد [آبادي] الشافعي، شيخ المعتزلة.

استدعاه الصاحب إلى الرّي بعد سنة ٣٦٠هـ، فولي قضاءها، وبقي بها مواظبا على التدريس إلى آخر حياته، وكان الصاحب يقول فيه: هو أعلم أهل الأرض.

وقد خلف القاضي عبد الجبار مصنفات في أنواع مختلفة من العلوم، منها: كتاب الخلاف والوفاق. وفاته في ذي القعدة ٤١٥هـ[٢].

التعريف بالتفسير وطريقة مؤلفه فيه:

ذكر مؤلف هذا الكتاب في مقدمته: «أنه لا يُنتفع بكتاب الله إلا بعد الوقوف على معاني ما فيه، وبعد الفصل بين محكمه ومتشابهه، وقد أملينا في ذلك كتابا يفصل بين المحكم والمتشابه».

فالكتاب لم يقصد فيه مؤلفه أن يعرض لشرح كتاب الله آية آية، بل كان كل همه ـ كما نأخذ من عبارته السابقة، وكما يظهر لنا من مسلكه في الكتاب نفسه ـ موجها إلى الفصل بين محكم الكتاب ومتشابهه، وإلى بيان معاني هذه الآيات المتشابهة، ثم إلى بيان خطأ فريق من الناس في تأويلها، وهو يقصد بهذا الفريق ـ في الغالب ـ جماعة أهل السنة الذين لا يرون رأيه في القرآن، ولا ينظرون إليه نظرته الاعتزالية.

فمثلا في سورة (الْحَمْدُ) يقول: قالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ خبر، فإن كان حَمَد نفسه فلا فائدة لنا فيه، وإن أمرنا بذلك، فكان يجب أن يقول: قولوا الحمد لله، وجوابنا عن ذلك: أن المراد به الأمر بالشكر والتعليم لكي نشكره، لكنه وإن حذف الأمر فقد دل عليه بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ لأنه لا يليق بالله تعالى، وإنما يليق بالعباد، فإذا كان معناه قولوا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فكذلك قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

---

١) تلقبه المعتزلة بهذا، ولا يعنون به عند الإطلاق غيره.

٢) يراجع طبقات المفسرين للسيوطي: ١٦. وشذرات الذهب ـ عبد الحي بن العماد: ٣/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣.

بعض مواقفه من المشكلات العقدية الاعتزالية

١ ـ الهداية والضلال:

فمثلاً يقول في سورة البقرة ص٩ ـ ١٠ ما نصه: (مسألة) قالوا: فقد قال تعالى ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾ [البقرة: ٧] فإن قيل: قد منعهم من الإيمان، ومذهبكم بخلافه، وكيف تأويل الآية؟ وجوابنا أن للعلماء في ذلك جوابين:

أ ـ أنه شبه حالهم بحال الممنوع الذي على بصره غشاوة من حيث أزاح كل عللهم فلم يقبلوا، كما قد تعين للواحد الحق فتوضحه فإذا لم يقبل صح أن تقول: إنه حمار قد طبع الله على قلبه، وربما تقول: إنه ميت، وقد قال تعالى للرسول: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ۝٨٠﴾ [النمل: ٨٠] وكانوا أحياء، فلما لم يقبلوا شبههم بالموتى، ويبين ذلك أنه تعالى ذمهم، ولو كان هو المانع لهم لما ذمهم، وأنه ذكر في جملة ذلك الغشاوة على سمعهم وبصرهم، وذلك لو كان ثابتا لم يؤثر في كونهم عقلاء مكلفين.

ب ـ أن الختم علامة يفعلها تعالى في قلبهم، لتعرف الملائكة كفرهم وأنهم لا يؤمنون فتجتمع على ذمهم، ويكون ذلك لطفا لهم، ولطفا لمن يعرف ذلك من الكفار أو يظنه، فيكون أقرب إلى أن تقلع عن الكفر، وهذا جواب الحسن رحمه الله، ولهذا قال تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾ [البقرة: ٧].

٢ ـ مس الشيطان:

كذلك نراه يفسر الآيات التي تدل على أن الشيطان له قدرة على أن يؤثر في الإنسان بما يوافق مذهبه، فيقول: وربما قيل: إن قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥] كيف يصح ذلك وعندكم أن الشيطان لا يقدر على مثل ذلك؟ وجوابنا: أن المس الشيطاني إنما هو بالوسوسة كما قال تعالى في قصة أيوب: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ۝٤١﴾ [ص: ٤١]، كما يقال فيمن يفكر في شيء يغمه: قد مسه التعب، وبين ذلك قوله في صفة الشيطان: ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ [إبراهيم: ٢٢]، ولو كان يقدر على أن يخبط لصرف همته إلى العلماء والزهاد وأهل العقول، لا إلى من يعتريه الضعف، وإذا وسوس ضعف قلب من يخصه بالوسوسة فتغلب عليه المرة فيتخبط، كما يتفق ذلك في كثير من الإنس إذا فعلوا ذلك لغيرهم.

٣ ـ رؤية الله:

ولما كان المعتزلة لا يجوزون وقوع رؤية الله في الآخرة، فإن صاحبنا قد تخلص من

كل آية تجوز وقوع الرؤية. فمثلا في سورة القيامة يقول: وربما قيل في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣] إنه أقوى دليل على أن الله تعالى يرى في الآخرة، وجوابنا: بأن النظر إلى الله تعالى لا يصح؛ لأن ذلك لا يصح إلا في الأجسام، والله ليس بجسم، فيجب أن يتأول على ما يصح النظر إليه وهو الثواب، كقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [يوسف: ٨٢] فإنا تأولناه على أهل القرية لصحة المسألة منهم.

٤ ـ أفعال العباد:

كذلك يتأثر القاضي عبد الجبار بعقيدته الاعتزالية القائلة بأن الله تعالى لا يخلق أفعال العباد، فيقول في سورة الأنفال: وربما قيل في قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ [الأنفال: ١٧]، كيف يصح ذلك مع القول بأن الله تعالى لا يخلق أفعال العباد؟ وجوابنا: أنه ﷺ (كان يرمي يوم بدر، والله تعالى بلغ برميته المقاتل، فلذلك أضافه تعالى إلى نفسه كما أضاف الرمية أولا إليه بقوله: ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ والكلام متفق بحمد الله.

٥ ـ المنزلة بين المنزلتين:

ولما كان القاضي عبد الجبار يقول ـ كغيره من المعتزلة ـ بالمنزلة بين المنزلتين، فإنا نراه يتأثر بهذه العقيدة، ففي سورة الأنفال عند قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٤]، نجده يقول: وكل ذلك يدل على أن الإيمان قول وعمل، ويدخل فيه كل هذه الطاعات، وأن المؤمن لا يكون مؤمنا إلا أن يقوم بحق العبادات، ومتى وقعت منه كبيرة خرج عن أن يكون مؤمنا.

٦ ـ تذرعه بالمجاز والتشبيه فيما يستبعد ظاهره:

كذلك نرى القاضي عبد الجبار يرفض القول بظاهر الآيات المخالفة لمذهبه متذرعا بالمجاز.

فمثلا في سورة الرعد يقول: ومتى قيل: فما معنى قوله تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾ [الرعد: ١٣]، وكيف يصلح التسبيح من الرعد؟ وجوابنا: أن المراد دلالة الرعد، وتلك الأصوات الهائلة على قدرته وعلى تنزيهه.

وعلى الجملة فالكتاب ـ رغم ما فيه من هذه النزعات الاعتزالية ـ قد كشف لنا عن كثير

من الشبهات التي ترد على ظاهر النظم الكريم، وأوضح لنا عن كثير من جمال التركيب القرآني الذي ينطوي على البلاغة والإعجاز، مما يشهد لمؤلفه بقوة وغزارة العلم، وهو مطبوع في مجلد واحد كبير ومتداول بين أهل العلم.

٢ ـ أمالي الشريف المرتضى أو غُرر الفوائد ودُرر القلائد

التعريف بمؤلف هذا الكتاب:

هو أبو القاسم، علي بن الطاهر أبي أحمد الحسين بن موسى بن محمد بن إبراهيم بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق، وهو أخو الشريف الرضى، وشيخ الشيعة ورئيسهم بالعراق، وكان مع تشيعه معتزلياً مبالغاً في اعتزاله، وعرف بالإمامة في الكلام والأدب، والشعر، أخذ عن الشيخ المفيد. وروى الحديث عن سهل الديباجي الكذاب، وله تصانيف كثيرة على مذهب الشيعة ومقالة في أصول الدين. وكانت ولادته سنة ٣٥٥هـ، وتوفي سنة ٤٣٦ هـ ببغداد، رحمه الله[(١)].

التعريف بهذا الكتاب وطريقة مؤلفه فيه:

يشتمل الكتاب على محاضرات أو أمالي أملاها الشريف المرتضى في ثمانين مجلساً، تشتمل على بحوث في التفسير والحديث، والأدب، وهو لا يحيط بتفسير القرآن كله، بل ببعض من آياته التي يدور أغلبها حول العقيدة. يقف المؤلف من الآيات التي تعارضه موقفا يلتزم فيه مخالفة ظاهر القرآن، ويفضل فيه التفاسير الملتوية لبعض الألفاظ على ما يتبادر منها إرضاءً لعقيدته ومذهبه.

فمثلاً **في رؤية الله في الآخرة** يقول في المجلس الثالث: اعلم بأن أصحابنا قد اعتمدوا في إبطال ما ظنه أصحاب الرؤية في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣] على وجوه معروفة.

وههنا وجه غريب في الآية، حكي عن بعض المتأخرين، لا يفتقر معتمده إلى العدول عن الظاهر، أو إلى تقدير محذوف، وهو أن يحمل قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا﴾ إلى أنه أراد: نعمة ربها؛ لأن الآلاء النعم، وفي واحدها أربع لغات، ألاً: مثل قفاً، وألى: مثل رَمى، وإِلى:

---

١) انظر ترجمته في وفيات الأعيان لابن خلكان: ٢ / ١٤ ـ ١٧.

مثل مِعى، وإلى: مثل حنى. وأراد تعالى: (إلى) ربها، فأسقط التنوين للإضافة. وعلى هذا المنهج المتعصب يسير في كل آية تخالف مذهبه الاعتزالي.

الطريقة اللغوية في تفسيره للقرآن:

تعتبر الطريقة اللغوية الأصل المهم من قواعد التفسير عند المعتزلة، ولهذا نجده لا يعتبر من التفاسير اللغوية إلا ما كان له شاهد من اللغة أو الشعر العربي القديم. أما التفسير المطلق، الذي لا يعتمد على شاهد من ذلك، فإنه يرفضه ولا يرضاه.

فمثلاً في المجلس ٢٣ يقول: إن سأل سائل عن قوله تعالى: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦]. ما المراد بالنفس في هذه الآية؟

قلنا: النفس في اللغة لها معان مختلفة. ووجوه في التصرف متباينة: فالنفس: نفس الإنسان وغيره من الحيوان، وهي التي إذا فقدها خرج عن كونه حياً. والنفس: ذات الشيء الذي يخبر عنه، كقولهم: فعل ذلك فلان نفسه، إذا تولى فعله. والنفس: الأنفة، من قولهم ليس لفلان نفس، أي لا أنفة له، والنفس: الإرادة، من قولهم: نفس فلان في كذا، أي إرادته. والنفس: العين التي تصيب الإنسان يقال: أصابت فلاناً نفس: أي عين، ثم ساق كثيراً من الأشعار وبعض الآثار لإثبات المعاني التي ذكرها ثم قال: والنفس أيضاً من الدباغ بمقدار الدبغة، تقول: اعطني نفساً من دباغ، أي قدر ما أدبغ به مرة. والنفس: الغيب، يقول القائل: إني لا أعلم نفس فلان أي غيبه. وعلى هذا تأويل قوله تعالى: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾ أي تعلم غيبي وما عندي ولا أعلم غيبك[1].

[أثر تشيعه على الأمالي:]

لا نكاد نجد أثراً ظاهراً للتشيع فيما فسره الشريف المرتضى من الآيات في أماليه، رغم أنه من شيوخ الشيعة وعلمائهم، غير أنا نجد منه محاولة جدية، يريد من ورائها أن يثبت أن أصول المعتزلة مأخوذة من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ومن كلام غيره من أئمة الشيعة وغيرهم، وذلك حيث يقول في المجلس العاشر جـ١ ص ١٠٣ ـ ١٠٤: اعلم أن أصول التوحيد والعدل مأخوذة من كلام أمير المؤمنين علي رضي الله عنه وخطبه وأنها تتضمن من ذلك مالا مزيد عليه ولا غاية وراءه، ومن تأمل المأثور في ذلك من كلامه علم أن جميع ما أسهب به المتكلمون من بعدُ في تصنيفه وجمعه إنما هو تفصيل لتلك الجمل وشرح لتلك الأصول. وروي عن الأئمة من أبنائه عليهم السلام مالا يكاد يحاط به كثرة، ومن أحب الوقوف عليه وطلبه من مظانه أصاب منه الكثير الغزير الذي في بعضه شفاء للصدور السقيمة، ونتاج للعقول

---

١) لمزيد من الأمثلة راجع الكتاب عند المجلس: ٤٥ ـ جـ٣/ ٤٦.

العقيمة، ونحن نقدم على ما نريد ذكره شيئاً مما يروى عنهم في هذا الباب... ثم ساق أشياء كثيرة وأنا لا أكاد أصدقها بالنسبة لعلي رضي الله عنه.

٣ ـ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

هو أبو القاسم. محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي، الإمام الحنفي المعتزلي، الملقب بجار الله[١] ولد سنة ٤٦٧ هـ بزمخشر، قرية من قرى خوارزم، وقدم بغداد، ولقي الكبار وأخذ عنهم، دخل خراسان مراراً عديدة. ولقد عظم صيته وطار ذكره حتى صار إمام عصره من غير مدافعة.

ليس عجيباً أن يحظى الزمخشري بكل هذا وهو الإمام الكبير في التفسير، والحديث، والنحو، واللغة والأدب، وصاحب التصانيف البديعة في شتى العلوم. ومن أجل مصنفاته: كتابه في تفسير القرآن العزيز الذي لم يصنف قبله مثله، وهو ما نحن بصدده الآن، وأساس البلاغة في اللغة، وغير هذا كثير من مؤلفاته.

قال صاحب وفيات الأعيان: كان الزمخشري معتزلي الاعتقاد، متظاهراً باعتزاله، حتى نقل عنه: أنه كان إذا قصد صاحباً له واستأذن عليه في الدخول يقول لمن يأخذ له الإذن: قل له. أبو القاسم المعتزلي بالباب. وكانت وفاة الزمخشري رحمه الله ليلة عرفة سنة ٥٣٨ هـ[٢].

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

استطاع أن يكشف لنا عن جمال القرآن وسحر بلاغته؛ لما برع فيه من الإلمام بلغة العرب، والمعرفة بأشعارهم. وما امتاز به من الإحاطة بعلوم البلاغة، والبيان، والإعراب، والأدب.

هذا وقد أحس الزمخشري إحساساً بضرورة الإلمام بعلمي المعاني والبيان قبل كل شيء، لمن يريد أن يفسر كتاب الله عز وجل، وجهر بذلك في مقدمة الكشاف فقال: ثم إن أملأ العلوم بما يغمر القرائح، وأنهضها بما يبهر الألباب القوارح، علم التفسير، الذي لا يتم

---

١) لقب بذلك لأنه سافر إلى مكة وجاور بها زماناً حتى عرف بهذا اللقب واشتهر به، وصار كأنه عَلم عليه.

٢) انظر ترجمة الزمخشري في وفيات الأعيان لابن خلكان: ٢/ ٥٠٩ ـ ٥١٣. وشذرات الذهب لابن العماد: ٤/ ١٢١. وطبقات المفسرين للسيوطي: ٤١.

لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذي علم، إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما علم المعاني، وعلم البيان، وتمهل في ارتيادهما آونة، وتعب في التنقير عنهما أزمنة، وبعثته على تتبع مظانهما همة في معرفة لطائف حجة الله، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله بعد أن يكون آخذاً من سائر العلوم بحظ.

مقالة الشيخ حيدر الهروي في الكشاف:

«إن كتاب الكشاف؛ كتاب عليُّ القدر رفيع الشأن، لم ير مثله في تصانيف الأولين؛ ولم يرد شبيهه في تآليف الآخرين. ما قصر في قوانين التفسير وتهذيب براهينه. ولذلك تداولته أيدي النظار، فاشتهر في الأقطار، كالشمس في وسط النهار، إلا أنه لإخطائه سلوك الطرق الأدبية، أصابته عين الكلالة. فالتزم في كتابه أموراً أذهبت رونقه وماءه، وأبطلت منظره ورواءه. فتكدرت مشارعه[1] الصافية، وتضيقت موارده الضافية، وتزلزلت رتبه العالية.

منها: أنه كلما شرع في تفسير آية من الآي القرآنية مضمونها لا يساعد هواه، ومدلولها لا يطاوع مشتهاه، صرفها عن ظاهرها بتكلفات باردة، وتعسفات جامدة، وصرف الآية - بلا نكتة بلاغية لغير ضرورة - عن الظاهر، وفيه تحريف لكلام الله سبحانه وتعالى.

ومنها: أنه يطعن في أولياء الله المرتضين من عباده، ويغفل عن هذا الصنيع لفرط عناده. خاض صاحب الكشاف في هذا المقام في الطعن في أولياء الله تعالى، وكتب فيها مالا يليق بعاقل أن يكتب مثله في كتب الفحش.

ومنها: أنه يذكر أهل السنة والجماعة - وهم الفرقة الناجية - بعبارات فاحشة، فتارة يعبر عنهم بالمجبّرة، وتارة ينسبهم على سبيل التعريض إلى الكفر والإلحاد. وهذه وظيفة السفهاء الشطار، لا طريقة العلماء الأبرار»[2].

مقالة التاج السبكي:

هذا هو العلامة تاج الدين السبكي يقول في كتابه: (معيد النعم ومبيد النقم): «واعلم أن الكشاف كتاب عظيم في بابه، ومصنفه إمام في فنه. إلا أنه رجل مبتدع متجاهر ببدعته، يضع من قدر النبوة كثيراً، ويسيء أدبه على أهل السنة والجماعة، والواجب كشط ما في الكشاف من ذلك كله. ولقد كان الشيخ الإمام - يعني والده تقي الدين السبكي - يقرئه فإذا انتهى إلى كلامه في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾ [التكوير: ١٩] أعرض عنه صفحاً، وكتب ورقة حسبة سماها: (سبب الانكفاف، عن إقراء الكشاف) وقال فيها: قد رأيت كلاماً على قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ

---

١ - المشرعة: مورد الماء / المعجم الوسيط.

٢) كشف الظنون - ملا كاتب جلبي: ٢ / ١٧٦ - ١٧٧.

﴿٤٣﴾ [التوبة: ٤٣][١]، وكلامه في سورة التحريم[٢] وغير ذلك من الأماكن التي أساء أدبه فيها على خير خلق الله تعالى؛ سيدنا رسول الله ﷺ، فأعرضت عن إقراء كتابه حياء من النبي ﷺ، مع ما في كتابه من الفوائد والنكت البديعة»[٣].

ولا أطيل بذكر الكتب التي عنى فيها أصحابها بهذه النواحي، ويكفي أن أقول إن من أهم الحواشي على تفسير الكشاف، حاشية العلامة شرف الدين الحسن بن محمد الطيبي، المتوفي سنة ٧٤٣ هـ وهي تقع في ستة مجلدات كبارا. وقد سماها صاحبها: فتوح الغيب، في الكف عن قناع الريب.

اهتمام الزمخشري بالناحية البلاغية للقرآن:

يحرص الزمخشري كل الحرص على أن يبرز في حلة بديعة جمال أسلوب القرآن وكمال نظمه، وإنا لنكاد نقطع ـ إذا استعرضنا كتب التفسير وتأملنا مبلغ عنايتها باستخراج ما يحتويه القرآن من ثروة بلاغية في المعاني والبيان ـ بأنه لا يوجد تفسير أوسع مجالاً في جهوده في هذا الصدد من تفسير الزمخشري. ولقد كانت لعناية الزمخشري بهذه الناحية في تفسيره أثرها بين المفسرين، فإن كل من جاء بعده منهم ـ حتى من أهل السنة ـ استفادوا من تفسيره فوائد كثيرة، فأوردوا في تفسيرهم ما ساقه الزمخشري في كشافه. واعتمدوا ما نبه عليه الزمخشري من نكات بلاغية، تكشف عما دق من براعة نظم القرآن وحسن أسلوبه.

ثم إنا نستعرض هذه الروح البلاغية التي تسود في تفسير الزمخشري فنشهدها واضحة من أول الأمر عندما تكلم عن قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ [البقرة: ١ ـ ٢] فبعد أن ذكر كل الاحتمالات التي تجوز في محل هذه الجملة من الإعراب، نبه على أن الواجب على مفسر كلام الله تعالى أن يلتفت للمعاني ويحافظ عليها، ويجعل الألفاظ تبعاً لها، فقال: «والذي هو أرسخ عرقاً في البلاغة أن يضرب عن هذه المحال صفحاً وأن يقال إن قوله: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾﴾ جملة برأسها أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها و ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ جملة ثانية و ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ثالثة و﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ رابعة وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة، وموجب حسن النظم، حيث جيء بها متناسقة هكذا من غير حرف نسق، وذلك لمجيئها متآخية آخذاً بعضها بعنق بعض، فالثانية متحدة بالأولى معتنقة لها... وهلم جرا إلى الثالثة والرابعة. بيان ذلك. أنه نبه أولاً على أنه الكلام المتحدى به. ثم

---

١) وفيها يقول الزمخشري: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ كناية عن الجناية؛ لأن العفو رادف لها، ومعناه: أخطأت وبئس ما فعلت اهـ من الكشاف جـ٢ ص ٣٤ ط أميرية سنة ١٣١٨هـ.

٢) حيث يقول عند تفسيره للآية (١) من سورة التحريم ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ...﴾. وكان هذا زلة منه؛ لأنه ليس لأحد أن يحرم ما أحل الله...

٣) النماذج الخيرية ـ منير الدمشقي: ٣١٠.

أشير إليه بأنه الكتاب المنعوت بغاية الكمال، فكان تقريراً لجهة التحدي وشداً من أعضاده، ثم نفى عنه أن يتشبث به طرف من الريب، فكان شهادة وتسجيلاً بكماله؛ لأنه لا كمال أكمل مما للحق واليقين، ولا نقص أنقص مما للباطل والشبهة. ثم أخبر عنه بأنه ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾، فقرر بذلك كونه يقيناً لا يحوم الشك حوله، وحقاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

تذرعه بالمعاني اللغوية لنصرة مذهبه الاعتزالي:

كذلك نرى الزمخشري ـ كغيره من المعتزلة ـ إذا مر بلفظ لا يتفق مع مذهبه، يحاول بكل جهوده أن يبطل هذا المعنى الظاهر، وأن يثبت للفظ معنى آخر موجودا في اللغة. فمثلاً نراه عند قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣] يتخلص من المعنى الظاهر لكلمة ناظرة؛ لأنه لا يتفق مع مذهبه الذي لا يقول برؤية الله تعالى، ونراه يثبت له معنى آخر هو التوقع والرجاء، ويستشهد على ذلك بالشعر العربي فيقول: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ تنظر إلى ربها خاصة لا تنظر إلى غيره... فاختصاصه بنظرهم إليه لو كان منظوراً إليه محال، فوجب حمله على معنى يصح معه الاختصاص. والذي يصح معه، أن يكون من قول الناس: أنا إلى فلان ناظر ما يصنع بي، تريد معنى التوقع والرجاء.

كما أنه لا ينفك عن التنديد بأهل السنة الذين يقبلون المعاني الظاهرة ويقولون بها، وكثيراً ما ينسبهم من أجل ذلك إلى أنهم من أهل الأوهام والخرافات[١].

مبدأ الزمخشري في التفسير عندما يصادم النص القرآني مذهبه:

والمبدأ الذي يسير عليه الزمخشري هو حمل الآيات المتشابهة على الآيات المحكمة، (فالمحكمات): هي التي أحكمت عبارتها، بأن حُفظت من الاحتمال والاشتباه، (والمتشابهات): هي المشتبهات المحتملات. (وأم الكتاب): هي أصله الذي يحمل عليه المتشابه، ويُردّ إليه[٢].

وهو مبدأ سليم ولكن الذي لا نسلمه للزمخشري هو تطبيقه لهذا المبدأ على الآيات التي تصادفه، فإذا مر بآية تعارض مذهبه، وآية أخرى في موضوعها تشهد له بظاهرها، نراه يدعي الاشتباه في الأولى والإحكام في الثانية، ثم يحمل الأولى على الثانية وبهذا يرضي هواه المذهبي. وعقيدته الاعتزالية.

وقد مثل الزمخشري لحمل المتشابه على المحكم ورده إليه بقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ۖ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام: ١٠٣] وقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣] فهو يرى أن الآية الأولى محكمة، والثانية

---

١) انظر ما قاله عند [سورة آل عمران: ٣٦]: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾.

٢) الكشاف: سورة آل عمران: ٧.

متشابهة، وعليه فتجب أن تكون الآية الثانية متفقة مع الآية الأولى، ولا سبيل إلى ذلك إلا بحملها عليها، وردها إليها. إلا أن ابن المنير يردّ في الحاشية معقباً على الزمخشري، ثم يجمع بين الآيتين بما يتفق مع مذهبه السني.

انتصاره لرأي المعتزلة في أصحاب الكبائر:

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨] تجد الزمخشري يمسك بهذه الآية ويستدل بها على صحة عقيدته في أن الكافر والعاصي سواء في الخلود في النار فيقول: «والمعنى أن أشراط الساعة إذا جاءت ـ وهي آيات ملجئة مضطرة ـ ذهب أوان التكليف عندها، فلم ينفع الإيمان حينئذ نفساً غير مقدمة إيمانها من قبل ظهور الآيات، أو مقدمة الإيمان غير كاسبة في إيمانها خيراً، فلم يفرق ـ كما ترى ـ بين النفس الكافرة إذا آمنت في غير وقت الإيمان، وبين النفس التي آمنت في وقته ولم تكسب خيراً؛ ليعلم أن قوله ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ جمع بين قرينتين لا ينبغي أن تنفك إحداهما عن الأخرى، حتى يفوز صاحبهما ويسعد، وإلا فالشقوة والهلاك».

وهكذا ينتصر الزمخشري لعقيدته الاعتزالية في باقي أركانها، فانظر مثلاً انتصاره للحسن والقبح العقليين عند سورة النساء: ١٦٥. وعدم تحقيقه السحر في سورة الفلق ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾. وانتصاره لمن يقول بخلق العباد لأفعالهم في سورة آل عمران: ٨.

حملة الزمخشري على أهل السنة:

فهو لا يكاد يدع فرصة تمر بدون أن يحقرهم ويرميهم بالأوصاف المقذعة. والظاهرة العجيبة في خصومة الزمخشري، أنه يحرص كل الحرص على أن يحول الآيات القرآنية التي وردت في حق الكفار إلى ناحية مخالفيه في العقيدة من أهل السنة، بل يخرج خصومه السّنّيين من دين الله وهو الإسلام، وذلك حيث يقول عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨] «(فإن قلت): ما المراد بأولي العلم الذين عظمهم هذا التعظيم، حيث جمعهم معه ومع الملائكة في الشهادة على وحدانيته وعدله؟ (قلت): هم الذين يثبتون وحدانيته وعدله بالحجج والبراهين القاطعة، وهم علماء العدل والتوحيد ـ يريد أهل مذهبه ـ (فإن قلت) ما فائدة هذا التوكيد ـ يعني في قوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾؟ (قلت): فائدته أن قوله: لا إله إلا هو توحيد. وقوله قائماً بالقسط تعديل، فإذا أردفه قوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ فقد آذن أن الإسلام هو العدل والتوحيد، وهو الدين عند الله، وما عداه فليس عنده في شيء من الدين. وفيه أن من ذهب إلى تشبيه أو ما يؤدي إليه كإجازة الرؤية، أو ذهب إلى الجبر الذي هو محض الجور، لم يكن على دين الله الذي هو الإسلام. وهذا بين جلي كما ترى».

وعلى ذلك ينصفه أهل السنة ولا يجحدون ما كان للزمخشري من أثر محمود في التفسير.

حملة ابن المنير على الزمخشري:

ومن الذين خصصوا جهودهم للكشاف بعد قرون من ظهوره، قاضي الإسكندرية، أحمد بن محمد بن منصور المنير المالكي، فقد كتب عليه حاشية خاصة سماها: (الانتصاف)، ناقش فيها الزمخشري وجادله في بعض ما جاء في كشافه من أعاريب وغيرها، ولكنه ركز مجهوده العظيم في بيان ما تضمنه من الاعتزال. وإبطال ما فيه من تأويلات تتناسب مع مذهب الزمخشري وتتفق مع هواه.

موقف الزمخشري من المسائل الفقهية:

يتعرض بدون توسع إلى المسائل الفقهية، وهو معتدل لا يتعصب لمذهبه الحنفي. ففي قوله تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ [البقرة: ٢٣٧] قال: والذي بيده عقدة النكاح: الولي، يعني إلا أن تعفو المطلقات عن أزواجهن فلا يطالبنهم بنصف المهر، وتقول المرأة ما رآني، ولا خدمته، ولا استمتع بي، فكيف آخذ منه شيئاً؟ أو يعفو الولي الذي يلي عقد نكاحهن، وهو مذهب الشافعي. وقيل هو الزوج وعفوه أن يسوق المهر كاملاً، وهو مذهب أبي حنيفة. والأول ظاهر الصحة...

موقف الزمخشري من الإسرائيليات:

مقل من ذكر الروايات الإسرائيلية، وما يذكره من ذلك إما يصدره بلفظ: (روي)، المشعر بضعف الرواية، وإما أن يفوض علمه إلى الله سبحانه، وهذا في الغالب يكون عند ذكره للروايات التي لا يلزم من التصديق بها مساس بالدين، وإما أن ينبه على درجة الرواية ومبلغها من الصحة أو الضعف ولو بطريق الإجمال، وهذا في الغالب يكون عند الروايات التي لها مساس بالدين وتعلق به.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [النمل: ٣٥] نجده يذكر هذه الرواية فيقول: روي أنها بعثت خمسمائة غلام عليهم ثياب الجواري، وحليهن الأساور والأطواق والقرطة، راكبي خيل مغشاة بالديباج محلاة اللجم والسروج بالذهب المرصع بالجواهر، وخمسمائة جارية على رماك - [أي على الإبل] - في زي الغلمان، وألف لبنة من ذهب وفضة، وتاجاً مكللاً بالدر والياقوت المرتفع والمسك والعنبر، وحقا فيه درة عذراء وجزعة معوجة الثقب، وبعثت رجلين من أشراف قومها: المنذر ابن عمرو، وآخر ذا رأي وعقل، وقالت: إن كان نبياً ميز بين الغلمان والجواري، وثقب الدرة ثقباً مستوياً، وسلك في الخرزة خيطاً. ثم قالت للمنذر: إن نظر إليك نظر غضبان فهو

ملك، فلا يهولنك... فذكر قصة طويلة خرافية، ولكنه صدرها كما رأينا بقوله: (رُوي) مشيراً إلى ضعفها. وللمزيد من الأمثلة راجع التفسير عند سورة القصص: ٣٨.

وهكذا لم يقع الزمخشري فيما وقع فيه غيره من المفسرين من الاغترار بالقصص الإسرائيلي والأخبار الملفقة المصنوعة[1]. وهذه محمدة أخرى لهذا التفسير الكبير تحمد له ويشكر عليها.

---

١) وإن كان قد اغترّ بالأحاديث الموضوعة في فضائل السور، فضمنها تفسيره.

الشيعة

وموقفهم من تفسير القرآن الكريم

كلمة إجمالية عن الشيعة وعقائدهم:

الشيعة في الأصل، هم الذين شايعوا عليا وأهل بيته ووالوهم، وقالوا: إن علياً هو الإمام بعد رسول الله ﷺ، وإن الخلافة حق له، استحقها بوصية من رسول الله ﷺ، وهي لا تخرج عنه في حياته، ولا عن أبنائه بعد وفاته، وإن خرجت عنهم فذلك يرجع إلى واحد من أمرين:

١ ـ أن يغتصب غاصب ظالم هذا الحق لنفسه.

٢ ـ أن يتخلى صاحب الحق عنه في الظاهر، تقية منه، ودرءًا للشر عن نفسه وعن أتباعه.

وهذا المذهب الشيعي، من أقدم المذاهب الإسلامية، وقد كان مبدأ ظهوره في آخر عهد عثمان رضي الله عنه[1] ثم نما واتسع على عهد علي رضي الله عنه غير أن هذا الحب والتفضيل لم يمنع أصحابه من مبايعة الخلفاء الذين سبقوا عليا رضي الله عنه؛ لعلمهم أن الأمر شورى بينهم، وأن صلاح الإسلام والمسلمين لابد له من شمل متحد وكلمة مجموعة، كما أن الأمر لم يصل بهم إلى القول بالمبدأ الذي تكاد تتفق عليه كلمة الشيعة، ويرونه قوام مذهبهم وعقيدتهم وهو «أن الإمامه ليست من مصالح العامة التي تفوض إلى نظر الأمة، ويعين القائم بها بتعيينهم، بل هي ركن الدين وقاعدة الإسلام، ولا يجوز للنبي إغفاله ولا تفويضه إلى الأمة، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم، ويكون معصوما من الكبائر والصغائر، وأن عليا رضي الله عنه، هو الذي عينه رسول الله صلوات الله وسلامه عليه»[2].

لم يكن الشيعة جميعاً متفقين في المذهب، والعقيدة، بل تفرقت بهم الأهواء فانقسموا إلى فرق كثيرة. ولست بمستوعب كل هذه الفرق، ولكني سأقتصر على فرقتين هما: الزيدية،

---

١) وقيل: عند انتخاب الخليفة الأول بعد وفاة رسول الله ﷺ.

٢) مقدمة ابن خلدون: ٢١٨.

والإمامية (الإثنا عشرية والإسماعيلية)؛ لأني لم أعثر على مؤلفات في التفسير لغير هاتين الفرقتين من فرق الشيعة.

أ ـ الزيدية

أما الزيدية، فهم أتباع زيد بن علي بن الحسين رضي الله عنهم، طمحت نفسه إلى استرداد الخلافة، فخرج على الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك، ولكن أتباعه خذلوه وتفرقوا عنه فقتل، والزيدية أقرب فرق الشيعة إلى الجماعة الإسلامية، إذ إنها لم تغل في معتقداتها، ولم يكفر الأكثرون منها أصحاب رسول الله ﷺ، ولم ترفع الأئمة إلى مرتبة الإله أو إلى درجة النبيين.

قوام مذهب الزيدية:

وقوام مذهب زيد وأتباعه إلى ما قبل طروء التغير عليه والتفرق بين أصحابه، هو ما يأتي:

١ ـ أن الإمام منصوص عليه بالوصف لا بالاسم، وهذه الأوصاف هي: كونه فاطميا، ورعا، سخيا، يخرج داعيا الناس لنفسه.

٢ ـ أنه يجوز إمامة المفضول مع وجود من هو أفضل منه بتوفر هذه الصفات فيه.

ولقد كان من مذهب الزيدية أن مرتكب الكبيرة إذا لم يتب فهو مخلد في النار، وهذا هو عين مذهب المعتزلة. ويظهر أن هذه العقيدة تسربت من المعتزلة إلى الزيدية فقالوا بها كما قالوا بكثير من مبادئهم. والسر في ذلك هو أن زيداً رحمه الله تتلمذ لواصل بن عطاء، فأخذ عنه آراءه الاعتزالية وقال بها[(١)].

غير أن الزيدية لم يدوموا على وحدتهم المذهبية زمنا طويلا، بل تفرقوا واختلفت عقائدهم.

ب ـ الإمامية [(٢)]

أما الإمامية فهم القائلون بأن النبي ﷺ نص على إمامة علي رضي الله عنه نصا ظاهراً، لا بطريق التعريض بالوصف كما يقول الزيدية، كما أنهم يحصرون الإمامة بعد علي في ولده من فاطمة رضي الله عنها.

وأصحاب هذا المذهب قد بالغوا في تشيعهم، وتعدوا حدود العقل والشرع، فكفروا

---

١) الملل والنحل للشهرستاني ـ الأدبية ١٣٢٠هـ: ٢/ ٢٠٨.

٢) الإمامية: نسبة إلى الإمام؛ لأنهم أكثروا من الاهتمام به؛ وركزوا كثيراً من تعاليمهم حوله.

الكثير من الصحابة، واعتبروا أبا بكر وعمر مغتصبين للخلافة ظالمين لعلي رضي الله عنه، فأوجبوا التبرؤ منهما، ولم يسلم من هذا التطرف إلا نفر قليل، كالعلامة الطبرسي صاحب التفسير.

وقد اتفق الإمامية على إمامة علي رضي الله عنه، ثم انتقلت الإمامة إلى ابنه الحسن بالوصية له من أبيه، ثم إلى أخيه الحسين من بعده، ثم إلى ابنه علي زين العابدين، ثم إلى ابنه محمد الباقر، ثم إلى ابنه جعفر الصادق، ثم اختلفوا بعد ذلك في سوق الإمامة، وانقسموا إلى فرق عدة أشهرها فرقتان: الإمامية الإثنا عشرية والإمامية الإسماعيلية:

١ ـ الإمامية الإثنا عشرية

أما الإمامية الإثنا عشرية، فيرون أن الإمامة بعد جعفر الصادق انتقلت إلى ابنه موسى الكاظم، ثم إلى ابنه علي الرضا، ثم إلى ابنه محمد الجواد، ثم إلى ابنه علي الهادي، ثم إلى ابنه الحسن العسكري، ثم إلى ابنه محمد المهدي المنتظر وهو الإمام الثاني عشر، ويزعمون أنه دخل سرداباً في دار أبيه بسُرّ مَنْ رأى ولم يعد بعد، وأنه سيخرج في آخر الزمان، ليملأ الدنيا عدلا وأمناً، كما ملئت ظلماً وخوفاً.

وهؤلاء قد جاوزوا الحد في تقديسهم للأئمة، فزعموا: أن الإمام له صلة روحية بالله كصلة الأنبياء. وقالوا: إن الإيمان بالإمام جزء من الإيمان بالله، وأن من مات غير معتقد بالإمام فهو ميت على الكفر، وغير ذلك من اعتقاداتهم الباطلة في الأئمة.

أشهر تعاليم الإمامية الإثني عشرية:

وأشهر تعاليم الإمامية الإثني عشرية أمور أربعة: العصمة، والمهدية، والرجعة، والتقية:

أما العصمة: فيقصدون منها أن الأئمة معصومون من الصغائر والكبائر في كل حياتهم، ولا يجوز عليهم شيء من الخطأ والنسيان.

وأما المهدية: فيقصدون منها الإمام المنتظر الذي يخرج في آخر الزمان فيملأ الأرض أمنا وعدلا، بعد أن ملئت خوفا وجوراً.

وأما الرجعة: فهي عقيدة لازمة لفكرة المهدية، ومعناها: أنه بعد ظهور المهدي المنتظر، يرجع النبي ﷺ إلى الدنيا، ويرجع علي، والحسن، والحسين، بل وكل الأئمة، كما يرجع خصومهم، كأبي بكر وعمر، فيقتص لهؤلاء الأئمة من خصومهم، ثم يموتون جميعاً، ثم يحيون يوم القيامة.

وأما التقية: فمعناها المداراة والمصانعة، وهي مبدأ أساسي عندهم، وجزء من الدين يكتمونه عن الناس، فهي نظام سري يسيرون على تعاليمه، فيدْعون في الخفاء

لإمامهم المختفي ويظهرون الطاعة لمن بيده الأمر، فإذا قويت شوكتهم أعلنوها ثورة مسلحة في وجه الدولة القائمة الظالمة.

هذه أهم تعاليم الإمامية الإثني عشرية، وهم يستدلون على كل ما يقولون ويعتقدون بأدلة كثيرة، غير أنها لا تسلم لهم، ولا تثبت مدّعاهم.

٢ ـ الإمامية الإسماعيلية

وأما الإمامية الإسماعيلية، فيرون أن الإمامة بعد جعفر الصادق انتقلت إلى ابنه إسماعيل، بالنص من أبيه على ذلك، ثم انتقلت الإمامة من إسماعيل إلى ابنه محمد المكتوم، وهو أول الأئمة المستورين، وبعده تتابع أئمة مستورون إلى أن ظهر بالدعوة الإمام عبد الله المهدي رأس الفاطميين.

ثم إن هؤلاء الإمامية الإسماعيلية لقبوا بسبعة ألقاب هي:

١ ـ **الإسماعيلية**: لإثباتهم الإمامة لإسماعيل بن جعفر الصادق كما قلناه.

٢ ـ **الباطنية**: لقولهم بالإمام الباطن أي المستور، أو لقولهم بأن للقرآن ظاهرا وباطنا، والمراد منه باطنه دون ظاهره.

٣ ـ **القرامطة**: لأن أولهم الذي دعا الناس إلى مذهبهم رجل يقال له حمدان قرمط[١].

٤ ـ **الحرمية**: لإباحتهم المحرمات والمحارم.

٥ ـ **السبعية**: لأنهم زعموا أن النطقاء بالشرائع سبعة: آدم، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد، ومحمد المهدي المنتظر سابع النطقاء، وبين كل اثنين من النطقاء سبعة أئمة يتممون شريعته، لا بد في كل عصر من سبعة بهم يقتدى.

٦ ـ **البابكية أو الخرمية**: لإتباع طائفة منهم بابك الخرمي[٢] الذي خرج بأذربيجان.

---

١) قرمط: قرية من قرى واسط ـ [سميت واسط لأنها بين بصرى والكوفة: راجع معجم البلدان] ـ، أو نسبة لقرمطة في خطوه ـ وقيل في خطه. وقرمطة الخطا تتابعها.

٢ ـ بابك الخرمي: زنديق، ظهر بعد المئتين بأذربيجان زمن المأمون، وكان يُضرب بفرط شجاعته الأمثال، فأخذ عدة مدائن، وهزم الجيوش إلى أن أسر بحيلة وقتل: سير أعلام النبلاء: ١٣/ ٤٦٩ و ١٠/ ٢٨٤.

أتباع المختار بن أبي عبيد الثقفي، يقال له كيسان

٧ ـ **المحمرة**: للبسهم الحمرة أيام بابك، أو لتسميتهم المخالفين لهم حميراً[١].

وقبل أن أخلص من هذه العجالة أسوق لك كلمة أنقلها بنصها عن أبي المظفر الإسفراييني في كتابه: (التبصير في الدين) قال رحمه الله: «واعلم أن الزيدية والإمامية منهم، يكفر بعضهم بعضاً، والعداوة بينهم قائمة دائمة، والكيسانية يُعدّون في الإمامية، واعلم أن جميع من ذكرناهم من فرق الإمامية متفقون على تكفير الصحابة، ويدعون أن القرآن قد غير عما كان، ووقع فيه الزيادة والنقصان من قبل الصحابة، ويزعمون أنه قد كان فيه النص على إمامة علي فأسقطه الصحابة منه، ويزعمون أنه لا اعتماد على القرآن الآن ولا على شيء من الأخبار المروية عن المصطفى ﷺ، ويزعمون أنه لا اعتماد على الشريعة التي في أيدي المسلمين، وينتظرون إماماً يسمونه: (المهدي)، يخرج ويعلمهم الشريعة، وليسوا على شيء من الدين وليس مقصودهم من هذا الكلام تحقيق الكلام في الإمامة، ولكن مقصودهم إسقاط كلفة تكليف الشريعة عن أنفسهم حتى يتوسعوا في استحلال المحرمات الشرعية، ويعتذروا عند العوام بما يعدونه من تحريف الشريعة وتغير القرآن من عند الصحابة، ولا مزيد على هذا النوع من الكفر، إذ لا بقاء فيه على شيء من الدين»[٢].

موقف الشيعة من تفسير القرآن الكريم

كان طبيعيا ـ وكل حزب من هذه الأحزاب يدعي الإسلام، ويعترف بالقرآن ولو في الجملة ـ أن يبحث كل عن مستند يستند إليه من القرآن. وما وجده مخالفا لمذهبه حاول بكل ما يستطيع أن يجعله موافقا لا مخالفا، وإن أدى هذا كله إلى خروج اللفظ القرآني عن معناه الذي وضع له، وسيق من أجله. وإليك طرفا من تأويلات هؤلاء الغلاة:

من تأويلات السبئية [٣]:

فمثلاً نجد بعض السبئية يزعم أن علياً في السحاب، وعلى هذا يفسرون الرعد بأنه صوت علي، والبرق بأنه لمعان سوطه أو تبسمه، ولهذا كان الواحد منهم إذا سمع صوت الرعد يقول: عليك السلام يا أمير المؤمنين.

كذلك نجد زعيم السبئية يزعم أن محمداً ﷺ سيرجع إلى الحياة الدنيا، وتأول على

---

١) المواقف ـ السيد الشريف: ٨/ ٣٨٨ ـ ٣٨٩.

٢) التبصير في الدين ـ أبو المظفر الإسفراييني: ٢٤، ٢٥ .وقد تقدم أن هذا التطرف قد شذ عنه نفر قليل من الإمامية.

٣) السبئية: هم أتباع عبد الله بن سبأ اليهودي الذي تظاهر بالإسلام وغلا في حب علي حتى جعله نبيا؛ ثم بالغ في الغلو حتى جعله إلٰها. وزعم أنه لم يقتل ولكنه رفع إلى السماء.

ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥][1].

من تأويلات البيانية:

كذلك نجد بيان بن سمعان التميمي زعيم البيانية [2] يزعم أنه هو المذكور في القرآن بقوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ١٣٨﴾ [آل عمران: ١٣٨] ويقول: أنا البيان، وأنا الهدى والموعظة.

من تأويلات المغيرية:

كذلك نجد المغيرة بن سعيد العجلي زعيم المغيرية[3] يقول: إن الله تعالى لما أراد أن يخلق العالم تكلم بالاسم الأعظم، فطار ذلك الاسم ووقع تاجا على رأسه، وتأول على ذلك قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ١﴾ [الأعلى: ١]. وزعم أن الاسم الأعلى إنما هو ذلك التاج[4]. وتأول في عمر قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٦﴾ [الحشر: ١٦]. والشيطان عنده: عمر[5].

من تأويلات المنصورية:

وكذلك نجد أبا منصور العجلي زعيم المنصورية[6] والمعروف بالكسف، يزعم أنه عُرج به إلى السماء، وأن الله تعالى مسح بيده على رأسه وقال له: يابني بلغ عني، ثم أنزله إلى الأرض، وزعم أنه الكسْف الساقط من السماء المذكور في قوله تعالى﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ٤٤﴾ [الطور: ٤٤][7].

---

١) الفرق بين الفرق للبغدادي ـ المعارف ١٣٢٨هـ: ٢٢٤، وتاريخ الجدل لأبي زهرة ـ العلوم ١٩٣٤م: ١٢٨.

٢) البيانية: هم أتباع بيان بن سمعان التميمي، وهم الذين زعموا أن الإمامة صارت من محمد بن الحنفية إلى ابنة أبي هاشم عبد الله بن محمد، ثم صارت من أبي هاشم إلى بيان بن سمعان بوصيته إليه. واختلف هؤلاء في بيان زعيمهم فمنهم من زعم أنه كان نبيا، وأنه نسخ شريعة محمد ﷺ. ومنهم من زعم أنه كان إلٰها. انتهى من الفَرْق بين الفرَق: ٢٢٧.

٣) المغيرية: هم أتباع المغيرة بن سعيد العجلي. وكان يظهر في بدء أمره موالاة الإمامية ثم ادعى النبوة. وادعى أنه يعرف الاسم الأعظم: وزعم أنه يحيي به الموتى ويهزم الجيوش: انتهى من الفَرْق بين الفرَق: ٢٢٩.

٤) الفرق بين الفرق ـ البغدادي: ٢٢٩.

٥) الفرق بين الفرق ـ البغدادي: ٢٣٠ ـ ٢٣١.

٦) المنصورية: هم أتباع أبي منصورة العجلي؛ الملقب بالكسف؛ الذي زعم أن الإمامة دارت في أولاد علي حتى انتهت إلى ابي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي المعروف بالباقر. وادعى هذا العجلي: أنه خليفة الباقر ثم ألحد في دعواه فزعم ما نقلناه عنه بالأصل. اهـ من الفرق بين الفرق ٢٣٤.

٧) الفرق بين الفرق للبغدادي: ٢٣٤.

من تأويلات الخطابية:

كذلك نجد من الخطابية[1] من يتأول الجنة بأنها نعيم الدنيا، والنار آلامها[2].

ووجدنا منهم من يقول: إنه لا مؤمن إلا والله تعالى يوحي إليه، وعلى هذا المعنى كانوا يتأولون قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: ١٤٥]. ويقولون: إن معناه: بوحي من الله.

من تأويلات العبيديين:

كذلك نجد أبا إسحق الشاطبي يذكر لنا عن بعض العلماء: أن عبيد الله الشيعي الملقب بالمهدي، حين ملك إفريقية واستولى عليها، كان له صاحبان من كتامة ينتصر بهما على أمره.، وكان أحدهما يسمى بنصر الله، والآخر يسمى بالفتح. فكان يقول لهما: أنتما اللذان ذكركما الله في كتابه فقال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ [النصر: ١]. قالوا: وقد كان عمل ذلك في آيات من كتاب الله تعالى. فبدل قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. بقوله: «كتامة خير أمة أخرجت للناس»[3].

فأنت ترى أن هؤلاء الغلاة الذين كفروا بما يعتقدون، يجدون في صرف اللفظ القرآني عن معناه الذي سيق له إلى معنى يتفق مع عقيدتهم، ويتناسب مع أهوائهم ونزعاتهم، وهم بعملهم هذا يحمّلون القرآن ما لا يحتمله، ويقولون على الله بغير علم ولا برهان.

كذلك نجد الإمامية الإثني عشرية يميلون بالقرآن نحو عقائدهم، ويلوونه حسب أهوائهم ومذاهبهم، وهؤلاء ليس لهم في تفسيرهم المذهبي مستند صحيح يستندون إليه، وإنما هي أوهام نشأت عن سلطان العقيدة الزائفة، وخرافات صدرت من عقول عشش فيها الباطل وأفرخ، فكان ما كان من خرافات وترهات !!. فمن ذلك الذي يعتمدون عليه ما يأتي:

١ ـ جمع القرآن الكريم وتأويله: وهو كتاب جمع فيه علي رضي الله عنه القرآن على ترتيب النزول[4].

---

١) الخطابية: أتباع أبي الخطاب الأسدي وهم خمس فرق، يقولون إن الإمامة كانت في أولاد علي إلى أن انتهت إلى محمد (الحبيب آخر الأئمة المستورين) ابن جعفر الصادق. ويقولون: إن الأئمة كانوا آلهة؛ وكان أبو الخطاب يقول في أيامه: إن أولاد الحسن والحسين كانوا أبناء الله واحباءه، وكان يقول: إن جعفراً إلَه، فلما بلغ ذلك جعفرا لعنه وطرده، وكان أبو الخطاب يدعي بعد ذلك الألوهية. انتهى من التبصير في الدين ٧٣ ـ ٧٤.

٢) المواقف ـ السيد الشريف: ٨/ ٣٨٦.

٣) الموافقات للشاطبي ـ مطبعة المكتبة التجارية، الطبعة الأخيرة: ٣/ ٣٩٢.

٤) أعيان الشيعة ـ السيد محمد الأمين الحسيني: ١/ ١٥٤.

٢ ـ كتاب أملى فيه أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ستين نوعا من أنواع علوم القرآن: وهو في أيديهم اليوم، ويبلغ ثلاث عشرة ورقة إلا ربعا بالقطع الكبيير الكامل، كلّ صفحة منها سبعة وعشرون سطرا[١].

٣ ـ الجامعة: وهو كتاب طوله سبعون ذراعا، من إملاء رسول الله ﷺ وخط علي رضي الله عنه، مكتوب على الجلد المسمى بالرق في عرض الجلد، جمعت الجلود بعضها ببعض حتى بلغ طولها سبعين ذراعا، وعدّها من مؤلفات علي باعتبار أنه كتبها ورتبها من قول رسول الله ﷺ وإملائه. قالوا: وفيها كل حلال، وكل شيء يحتاج الناس إليه حتى الأرش في الخدش[٢].

٤ ـ الجفر: وهو غير الجامعة وفيه يقول ابن خلدون: «واعلم أن كتاب الجفر كان أصله أن هارون بن سعد العجلي وهو رأس الزيدية، كان له كتاب يرويه عن جعفر الصادق، وفيه علم ما سيقع لأهل البيت على العموم، ولبعض الأشخاص منهم على الخصوص وقع ذلك لجعفر ونظائره من رجالاتهم، على طريق الكرامة والكشف الذي يقع لمثلهم من الأولياء، وكان مكتوباً عند جعفر في جلد ثور صغير، فرواه عنه هارون العجلي، وكتبه، وسماه: (الجفر) باسم الجلد الذي كتب فيه[٣]؛ لأن الجفر في اللغة هو الصغير. وصار هذا الاسم علما على هذا الكتاب عندهم، وكان فيه تفسير القرآن وما في باطنه من غرائب المعاني، مروية عن جعفر الصادق. وهذا الكتاب لم تتصل روايته، ولا عرف عينه[٤].

٥ ـ مصحف فاطمة: جاء في البصائر: «أن أبا عبد الله سأله بعض الأصحاب عن مصحف فاطمة رضي الله عنها فقال: إنكم تبحثون عما تريدون وعما لا تريدون. إن فاطمة مكثت بعد رسول الله ﷺ خمسة وسبعين يوما، وقد كان دخلها حزن شديد على أبيها، وكان جبريل يأتيها ويحسن عزاءها على أبيها، ويطيب نفسها، ويخبرها عن أبيها ومكانه، ويخبرها بما يكون بعدها في ذريتها. وكان علي رضي الله عنه يكتب ذلك، فهذا مصحف فاطمة»[٥].

هذه هي أهم الأشياء التي يستند إليها الإمامية الإثنا عشرية في تفسيرهم لكتاب الله تعالى، وهي كلها أوهام وأباطيل لا ثبوت لها إلا في عقول الشيعة.

---

١) المرجع السابق: ١/١٥٤ ـ ١٥٥.

٢) المرجع السابق: ١/١٦٦ ـ ١٦٨.

٣) المعروف من كتب اللغة أن: (الجفر): ذكر الماعز إذا بلغ أربعة أشهر، وفي القاموس: الجفر من أولاد الشاء: ما عظم واستكرش.

٤) مقدمة ابن خلدون: ٣٧٣.

٥) أعيان الشيعة ـ السيد محمد الأمين الحسيني: ١/١٨٨.

هذا ولا يفوتنا أن نقول: إن هذه الطوائف من الشيعة قد باد معظمها، وأشهر ما بقي منها إلى اليوم ثلاث فرق، هي: الإمامية الإثنا عشرية، والإمامية الإسماعيلية - (وهم المسمون بالباطنية) - والزيدية.

أما الإمامية الإثنا عشرية، فينتشرون اليوم في بلاد إيران، وبلاد العراق كما يوجد منهم جماعة بالشام، [وبعض دول الخليج وباكستان. وقد بدأت دعوتهم بالظهور حديثا بعد ثورة الخميني ١٩٧٩م ومساندتهم من قبل إيران].

وأما الإسماعيلة: فينتشرون في بلاد الهند، كما يوجدون في نواح أخرى متفرقة، وزعيمهم آغاخان الزعيم الهندي الإسماعيلي المعروف(١).

وأما الزيدية فيوجدون ببلاد اليمن.

والذي يستحق عنايتنا وبحثنا بعد ذلك. هو تلك الفرق الثلاث التي لا تزال موجودة إلى اليوم محتفظة بتعاليمها وآرائها. وسنبدأ أولا بالإمامية الإثني عشرية. ثم بالإمامية الإسماعيلية، ثم بالزيدية فنقول وبالله التوفيق:

١ - موقف الإمامية الإثني عشرية من تفسير القرآن الكريم

موقفهم من الأئمة وأثر ذلك في تفسيرهم:

وإذا نحن استعرضنا هذه المعتقدات وجدنا أن أهمها يدور حول أئمتهم، فهم يلقون على الأئمة نوعا من التقديس والتعظيم، ويرون أن الأئمة (أركان الأرض أن تميد بأهلها، وحجة الله البالغة على من فوق الأرض ومن تحت الثرى)(٢).

ولما كان الإمام عندهم فوق أن يُحكَم عليه، وفوق الناس في طينته وتصرفاته، فإنا نراهم يعتقدون بأن له صلة روحية بالله تعالى كتلك الصلة التي للأنبياء والرسل، وأنه مشرّع ومنفذ، وأن الله قد فوض النبي والإمام في الدين.

وحيث إن الله تعالى خلق النبي وكل إمام بعده على أحسن أدب وأرشد عقل، فلا يختار النبي ولا الإمام إلا مافيه صلاح وثواب، ولا يخطر بقلب النبي ولا بقلب الإمام ما يخالف

---

١) وهو من نسل الحسن بن الصباح صاحب قلعة الموت والحسن هذا من نسل علي بن أبى طالب. إهـ. من ضحى الإسلام لأحمد أمين - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر: ١٩٣٣م: ٣/ ٢٢٥.

٢) ضحى الإسلام لأحمد أمين: ٣/ ٢١٥، نقلا عن أصول الكافي: ٩٣.

مشيئة الله وما يناقض مصلحة الأمة، فيفوض الله تعيين بعض الأمور إلى رأي النبي ورأي الإمام، مثل الزيادة في عدد ركعات الفرض، ومثل تعيين النوافل من الصلاة والصيام، وهناك نوع آخر من التفويض يثبتونه للنبي والأئمة، ذلك هو أن النبي أو الإمام له أن يحكم بظاهر الشريعة. وله أن يترك الظاهر ويحكم بما يراه وما يلهمه الله من الواقع وخالص الحق في كل واقعة، كما كان لصاحب موسى في قصة الكهف، وكما وقع لذي القرنين[١].

تأثر الإمامية الإثني عشرية بآراء المعتزلة وأثر ذلك في تفسيرهم:

لم يكن بينهم وبين المعتزلة خلاف إلا في مسائل قليلة، ويظهر أن هذا الارتباط الوثيق الذي كان بين الفريقين راجع إلى تتلمذ الكثير من شيوخ الشيعة وعلمائهم لبعض شيوخ المعتزلة، كما يظهر لنا جليا أن هذا الارتباط في التفكير شيء قديم غير جديد، فالحسن العسكري، والشريف المرتضى، وأبو علي الطبرسي، وغيرهم من قدماء الشيعة، ينظرون هذه النظرة الاعتزالية في تفاسيرهم التي بأيدينا، والتي تعرضنا لبعضها وسنعرض لبعضها الآخر قريبا، بل إننا نجد الشريف المرتضى في أماليه يحاول محاولة جدية أن يجعل عليا ﷺ معتزليا أو رأس المعتزلة على الأصح.

تأثرهم بمذاهبهم الفقهية والأصولية في تفاسيرهم:

ثم إن الشيعة لهم في الفقه وأصوله آراء خالفوا بها من سواهم. فمثلا نجدهم يذكرون أن أدلة الفقه أربعة وهي: الكتاب، والسنة، والإجماع؛ ودليل العقل.

أما الكتاب: فلهم رأي فيه سنعرض له فيما بعد. وأما السنة: فهم غير أمناء عليها، ولا ملتزمين ما صح منها، وسنعرض لها فيما بعد أيضاً.

وأما الإجماع فليس حجة بنفسه، وإنما يكون حجة إذا دخل الإمام المعصوم في المجمعين، أو كان الإجماع كاشفاً عن رأيه في المسألة، أو كان الإجماع عن دليل معتبر؛ فهو في الحقيقة داخل في الكتاب أو السنة.

وأما دليل العقل عندهم: فلا يدخل فيه القياس، ولا الاستحسان، ولا المصالح المرسلة؛ لأن ذلك كله ليس حجة عندهم[٢].

وفي الفقه لهم مخالفات يشذون بها. فمثلا تراهم يقولون بجواز نكاح المتعة، وجوزوا أن تورث الأنبياء. ولهم مخالفات في نظام الإرث، كإنكارهم للعول مثلا. ولهم مخالفات

---

١) الوشيعة في نقد عقائد الشيعة ـ موسى جاد الله ـ الشرق ـ ١٣٥٥هـ: ٨٩.

٢) انظر أعيان الشيعة ـ السيد محمد الأمين الحسيني: ١/ ٤٧٧ ـ وقد مثل لدليل العقل بالبراءة من التكليف بواجب لم يرد فيه نص. انظر: ٢٣٦ من كتاب أصول الاستنباط للسيد علي تقي الحيدري، طبع شركة النشر والطباعة العراقية سنة ١٩٥٠.

كثيرة غير ذلك في مسائل الاجتهاد: لهذا كان طبيعياً أن يتأولوا ما يعارضه من الآيات والأحاديث، بل ووجدناهم أحياناً يزيدون في القرآن ما ليس منه ويدعون أنه قراءة أهل البيت، وهذا إمعان منهم في اللجاج، وإغراق في المخالفة والشذوذ.

احتيالهم على تركيز عقائدهم وترويجها:

ويظهر لنا أن الإمامية الاثني عشرية لم يجدوا في القرآن كل ما يساعدهم على أغراضهم وميولهم، فراحوا يدعون ما يساعدهم على تأصيل مذهبهم من خلال أربع نقاط وهي:

١ - للقرآن ظاهر وباطن

يقول الإمامية: بأن للقرآن سبعة وسبعين بطناً. ولم يقتصروا على ذلك بل تمادوا وادعوا أن الله تعالى جعل ظاهر القرآن في الدعوة إلى التوحيد والنبوة والرسالة، وجعل باطنه في الدعوة إلى الإمامة والولاية وما يتعلق بهما .

حملهم الناس على التسليم بما يدعون من المعاني الباطنة للقرآن:

حاولوا أن يحملوهم عليه من ناحية العقيدة والإرهاب الديني، الذي يشبه الإرهاب الكنسي للعامة في العصور المظلمة من حمل الناس على ما يوحون به إليهم بعد أن حظروا عليهم إعمال العقل، فقالوا: إن الإنسان يجب عليه أن يؤمن بظاهر القرآن وباطنه على السواء، ولو أن إنساناً آمن بالظاهر وأنكر الباطن لكفر بذلك، كما لو أنكر الظاهر وآمن بالباطن.

قالوا: إن جميع معاني القرآن سواء منها ما يتعلق بالظاهر، وما يتعلق بالباطن، اختص بها النبي ﷺ والأئمة من بعده، ولهذا لا يجوز لإنسان أن يقول في القرآن إلا بما وصل إليه من طريقهم، غاية الأمر أنهم جوزوا لمن أخلص حبه وانقياده لله ورسوله ولأهل البيت واستمد علومه من أهل البيت حتى أنس من نفسه العلم والمعرفة، جوزوا لمثل هذا أن يستنبط من القرآن ما يتيسر له؛ لأنه بحبه لآل البيت وأخذه عنهم صار كأنه منهم.

أثر التفسير الباطني في تلاعبهم بنصوص القرآن:

ولقد كان من نتائج هذا التفسير الباطني للقرآن أن وجد القائلون به مجالا رحبا، يتسع لكل ما يشاؤه الهوى وتزينه لهم العقيدة، فقالوا مثلا: إن من لطف الله تعالى أن يشير بواسطة المعاني الباطنة لبعض الآيات إلى ما سيحدث في المستقبل من حوادث، ويعدون هذا من وجوه إعجازه، ثم يفرعون على هذه القاعدة ما يشاؤه لهم الهوى، فيقولون مثلا في قوله تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ۝١٩﴾ [الإنشقاق: ١٩] إنه إشارة إلى أن هذه الأمة ستسلك سبيل

من كان قبلها من الأمم في الغدر بالأوصياء بعد الأنبياء.

كذلك مكن لهم القول بباطن القرآن من أن يقولوا: إن اللفظ الذي يراد به العموم ظاهرا كثيرا ما يراد به الخصوص بحسب المعنى الباطن، فمثلا لفظ الكافرين الذي يراد به العموم، يقولون: هو في الباطن مخصوص بمن كفر بولاية علي.

وقد أوجبوا الإيمان بأن الإمام مفوّض من قبل الله في تفسير القرآن. وهكذا يتخلصون من كل التناقضات؛ لأنها من عند الله.

وليس لقائل أن يقول: إن رسول الله ﷺ صرح بأن للقرآن باطنا[1]؛ لأن الباطن الذي أشار إليه الحديث وقال به جمهور المفسرين، هو عبارة عن التأويل الذي يحتمله اللفظ القرآني، ويمكن أن يكون من مدلولاته. أما الباطن الذي يقول به الشيعة فشيء يتفق مع أذواقهم ومشاربهم، وليس في اللفظ القرآني الكريم ما يدل عليه ولو بالإشارة.

٢ ـ القرآن كله في أئمتهم

ثم إن الإمامية الإثني عشرية، قرروا أن الإقرار بإمامة علي ومَن بعده من الأئمة والتزام حبهم وموالاتهم، وبغض مخالفيهم وأعدائهم، أصل من أصول الإيمان. بل وزادوا على ذلك فقالوا: إن كل آيات المدح والثناء وردت في الأئمة ومن والاهم، وكل آيات الذم والتقريع وردت في مخالفيهم وأعدائهم، فقالوا: إن ما نسبه الله إلى نفسه بصيغة الجمع أو ضميره سره أنه أراد إدخال النبي ﷺ والأئمة معه، قالوا: وهو مجاز شائع معروف. بل وبالغوا فقالوا: إن الأئمة هم المقصودون بالذات أحيانا، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧] حيث رَووا عن أبي جعفر محمد الباقر أنه قال فيها: إن الله أعظم وأعزّ وأجلّ من أن يُظلم، ولكن خلَطَنا بنفسه فجعل ظلْمنا ظلمه، وولايتنا ولايته، وحيث يقول: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥] بمعنى الأئمة منا[2].

٣ ـ تحريف القرآن وتبديله

قالوا: إن القرآن الذي جمعه علي عليه السلام. وتوارثه الأئمة من بعده، هو القرآن الصحيح الذي لم يتطرق إليه تحريف ولا تبديل، أما ما عداه فمحرف ومبدل[3]، حذف منه كل ما ورد

---

١) سيأتي تخريج هذا الحديث في التفسير الإشاري فارجع إليه هناك.

٢) راجع: مقدمة مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار: ٣٩.

٣ ـ ذكر أبو الحسن الأشعري أن هذا قول فرقة منهم وليس قولا لجميعهم. راجع كتابه مقالات الإسلاميين: ٤٧.

صريحاً في فضائل آل البيت، وكل ما ورد صريحاً في مثالب أعدائهم ومخالفيهم. وأخبار التحريف متواترة عند الشيعة، ولهم في ذلك روايات كثيرة يروونها عن آل البيت، وهم منها براء.

يروي الكافي عن الصادق: أن القرآن الذي نزل به جبريل على محمد ﷺ سبعة عشر ألف آية، والتي بأيدينا منها ستة آلاف ومائتان وثلاث وستون آية، والبواقي مخزونة عند أهل البيت فيما جمعه علي[1].

والحق أن الشيعة هم الذين حرّفوا وبدّلوا؛ فكثيرا ما يزيدون في القرآن ما ليس منه، ويدّعون أنه قراءة أهل البيت! فمثلا نراهم عند قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧] يزيدون: (في شأن علي)، وهي زيادة لم ترد إلا من طريقهم، وهي طريق مطعون فيها.

٤ - موقفهم من الأحاديث النبوية وآثار الصحابة

الإمامية الإثنا عشرية لا يؤمنون بأكثر السنة النبوية؛ لأنهم يُكفّرون أكثر الصحابة، وهم نقلة السّنّة. كما أنهم لا يأخذون بالحديث إلا عن الشّيعة؛ ولذلك كانت لهم كتبهم الخاصة بهم وهي:

أ - **كتاب الكافي:** وهو أهم الكتب عند الإمامية الإثني عشرية على الإطلاق، وهو لأبي جعفر محمد بن يعقوب الكليني المتوفى سنة ٣٢٨هـ أو ٣٢٩هـ. وهو عندهم كالبخاري عند أهل السنة وهذا الكتاب يحتوي على ستة عشر ألف حديث، قسمها - كما فعل أهل السنة - إلى صحيح، وحسن، وضعيف. وهو يقع في ثلاثة مجلدات: المجلد الأول في الأصلول، والثاني والثالث في الفروع.

ب - **كتاب التهذيب:** لمحمد بن الحسن الطوسي مجلدان في الفروع.

ج - **كتاب من لا يحضره الفقيه:** لمحمد بن علي بن بابويه، وهو في الفروع .

د - **كتاب الاستبصار فيما اختلف فيه من الأخبار:** لمحمد بن الحسن الطوسي، اختصره من كتاب التهذيب.

هذه الكتب الأربعة جمعها كتاب الوافي في ثلاثة مجلدات كبيرة، وهو من مؤلفات محمد بن مرتضى، المعروف بملا محسن الكاشي.

والذي يقرأ في هذه الكتب لا يسعه أمام ما فيها من خرافات وأضاليل إلا أن يحكم بأن متونها موضوعة، وأسانيدها مفتعلة مصنوعة، فمثلا يروون عن جعفر الصادق رحمه الله أنه قال: «ما من مولود يولد إلا وإبليس من الأبالسة بحضرته، فإن علم الله أن المولود من شيعتنا

---

١) الوشيعة - موسى جاد الله: ٢٣.

حجبه من ذلك الشيطان، وإن لم يكن المولود من شيعتنا أثبت الشيطان أصبعه في دبر الغلام فكان مأبونا[١]، وفي فرج الجارية فكانت فاجرة»[٢].

ونحن أمام هذه الأحاديث والروايات، لا يسعنا إلا أن نردها رداً باتاً، وذلك للأسباب الآتية:

١ ـ إن غالب هذه الأحاديث يروونها بدون سند.

٢ ـ إن ما روي من هذه الروايات مسنداً لا بد أن يكون في سنده شيعي متعصب، وقد قال رجال الحديث: إنه لا تقبل رواية المبتدع الذي يدعو لمذهبه ويروج له.

٣ ـ إن القاعدة المتفق عليها بين المحدثين (أن كل متن يناقض المعقول، أو يخالف الأصول، أو يعارض الثابت من المنقول، فهو موضوع على الرسول) وغالب أحاديثهم لا تسلم لهم إذا عرضناها على هذه القاعدة.

أهم كتب التفسير عند الإمامية الإثني عشرية

للإمامية الإثني عشرية ثروة كبيرة من كتب التفسير، وكلها تدور حول تركيز عقيدتهم مع اختلاف بينها في الغلو والاعتدال، واختلاف في المنهج الذي سلكه مؤلف كل منها ومن هذه الكتب ما يأتي:

١ ـ **تفسير الحسن العسكري**: المتوفى سنة ٢٥٤هـ، لم يَتم. [طبعته مؤسسة الإمام المهدي في قم] في مجلد واحد، ومنه نسخة بدار الكتب المصرية.

٢ ـ **مجمع البيان**: [لأمين الدين] أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي المتوفى سنة ٥٣٨هـ. [طبع أكثر من طبعة منها نشر دار إحياء التراث العربي، في خمسة مجلدات].

٣ ـ **الصافي [في تفسير كلام الله]**: لمحمد بن مرتضي، الشهير بمولى محسن الكاشي، من علماء القرن الحادي عشر الهجري، وهو مطبوع في [مشهد / دار المرتضى للنشر / ٥ مجلدات].

٤ ـ **مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار**: للمولى عبد اللطيف الكازراني، ولم يقع لنا هذا التفسير والموجود منه مقدمته فقط، وهي مطبوعة في مجلد كبير وموجودة في دار الكتب المصرية.

---

١ ـ أي: متهما / المعجم الوسيط.

٢) الوشيعة ـ موسى جاد الله: ٤٠، نقلا عن الوافي: ١٣/ ١٤.

٥ ـ **تفسير القرآن:** للمولى السيد عبد الله بن محمد رضا العلوي، المتوفى سنة ١٢٤٢هـ، وهو مطبوع في مجلد كبير.

٦ ـ **بيان السعادة في مقامات العبادة:** لسلطان بن محمد بن حيدر [الجنابذي] الخراساني [الملقب بسلطان عليشاه]، من علماء القرن الرابع عشر الهجري، [وقد طبعته مطبعة جامعة طهران في ٤ مجلدات].

وقد رأيت أن ألخص أولا مقدمة مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار للكازراني؛ لأنها تعطينا فكرة واضحة عن التفسير من وجهة نظر هؤلاء القوم بوجه عام، ومن وجهة نظر مؤلفها بوجه خاص.

ثم أتكلم عن تفسير الحسن العسكري؛ لأنه يمثل لنا تفسير إمام من أئمتهم المعصومين، الذين عندهم علم الكتاب كله، ظاهره وباطنه. ثم عن مجمع البيان للطبرسي؛ لأنه يمثل لنا تفسير معتدلي الإمامية الإثني عشرية كما أنه يعطينا فكرة واضحة عن طريقة الجدل عندهم، ومقدار دفاعهم عن آرائهم وعقائدهم. ثم عن الصافي [للمولى] محسن الكاشاني؛ لأنه يمثل لنا التفسير عند متطرفي الإمامية الإثني عشرية. ثم عن تفسير القرآن للسيد عبد الله العلوي؛ لأنه يمثل لنا التفسير السهل الذي جمع بين الاختصار وكثرة الفائدة. ثم عن بيان السعادة في مقامات العبادة، لسلطان بن محمد [الجنابذي] الخراساني؛ لأنه يمثل لنا التفسير الصوفي الفلسفي عند الإمامية الإثني عشرية.

هذه هي أهم الكتب التي سأتكلم عنها وعن مؤلفيها، وسأعرض لها مرتبة حسب ترتيبها في الذكر، فأقول مستمدا من الله العون والتوفيق:

١ ـ مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار للمولى عبد اللطيف الكازراني

هو المولى عبد اللطيف الكازراني مولدا، النجفي مسكنا[1].

التعريف بمرآة الأنوار ومشكاة الأسرار وطريقة مؤلفه فيه:

هذا التفسير يعد في الحقيقة مرجعا مهما من مراجع التفسير عند الإمامية الإثني عشرية، ولم نظفر بالكتاب لكننا وجدنا ما هو عوض عنه إلى حد كبير، ذلك هو مقدمته التي قدم بها مؤلفه لتفسيره هذا.

وَجدتُ هذه المقدمة في دار الكتب المصرية، فقرأتها، فرأيتها تكشف لنا عن منهج

١) لم نقف له على ترجمة أكثر من ذلك.

صاحبها في تفسيره، وكيف تأثر المولى الكازراني بعقيدته، فحمل كتاب الله ما لا يحتمله بأي حال من الأحوال.

المؤلف يتكلم عن الباعث له على تأليف تفسيره وعلى منهجه فيه:

يقول المؤلف في المقدمة: ص٢،٣: «إن لكل آية من كلام الله المجيد... وكل فقرة من كتاب الله الحميد، ظهراً وبطنا؛ وتفسيراً وتأويلا، بل لكل واحدة منها ـ كما يظهر من الأخبار المستفيضة ـ سبعة بطون وسبعون بطنا، وقد دلت أحاديث متكاثرة، كادت أن تكون متواترة، على أن بطونها وتأويلها، بل كثيراً من تنزيلها وتفسيرها، في فضل شأن السادة الأطهار... أعني النبي المختار، وآله الأئمة الأبرار، بل الحق المتين... أن أكثر آيات الفضل والإنعام، والمدح والإكرام، بل كلها فيهم وفي أوليائهم نزلت، وأن جل **فقرات التوبيخ والتشنيع، والتهديد** والتفضيح، بل جملتها في مخالفيهم وأعدائهم وردت. بل التحقيق **الحقيق** ـ كما سيظهر عن قريب ـ أن تمام القرآن إنما أنزل للإرشاد إليهم، والإعلام بهم، وبيان العلوم والأحكام لهم، والأمر بإطاعتهم وترك مخالفتهم، وأن الله عز وجل جعل جملة بطن القرآن في دعوة الإمامة والولاية، كما جعل جل ظهره في دعوة التوحيد والنبوة والرسالة».

وهذه الدعاوى من المولى الكازراني لا نكاد نسلمها له، إذ إنها لا تقوم على دليل صحيح، وما ادعاه من دلالة الأخبار المستفيضة والأحاديث المتكاثرة على ما ذهب إليه، أمر لا يلتفت إليه ولا يعول عليه؛ لأن ما يعنيه من الأخبار والأحاديث لا يعدو أن يكون موضوعا لا أصل له.

ثم بيَّن لنا منهجه الذي سلكه في تأليفه لهذا التفسير، وهو يتلخص فيما يأتي:

١ ـ يختصر الأخبار فلا يذكرها بتمامها، بل يقتصر على موضع الحاجة، ويحذف الأسانيد رغبة منه في الاختصار.

٢ ـ لا يتعرض لبيان جميع ما يتعلق بظاهر الآيات، وقد جعل مدار هذا التفسير على بيان ما يتعلق بالبطون لخلو أكثر التفاسير منها أو من جلها.

٣ ـ إذا لم يعثر على نص يفسر به الآية اجتهد في تفسيرها على وفق الأخبار العامة المطلقة التي يمكن استخلاص معنى الآية منها.

٤ ـ يحرص كل الحرص على ذكر ما يعرفه من قراءة أهل البيت عند كل آية من القرآن.

ثم ذكر أنه وفق لما وفق إليه من كتابة التفسير «ببركات أول من آمن بالله بعين الإيقان، وثاني أول ماخلق الله قبل الكون والمكان، قاسم درجات الجنان ودركات النيران... إمام المشارق والمغارب، أمير المؤمنين أبي الحسنين علي بن أبي طالب». وسميته (مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار).

وبالجملة، فهذا التفسير أشبه ما يكون بالتفسير المأثور، لالتزام صاحبه فيه بيان المعني بما ورد من الأخبار عن علماء أهل البيت إما صريحاً أو استخلاصاً من عموم الأخبار، غاية الأمر أن هذه الأخبار أخبار لا يوثق بصحتها، ولا يعول على صدق نسبتها إلى من تنسب إليه من علماء آل البيت رضي الله عنهم.

بعد هذا البيان قال المولى عبد اللطيف الكازراني: (ولنذكر قبل الشروع في المقصود ثلاث مقدمات نافعة لا بد من بيانها ههنا) ونستعرض هذه المقدمات الثلاث:

١ - [بطن القرآن في الأئمة وظاهره في الدعوة إلى الإسلام]

الأصل في تنزيل آيات القرآن بتأويلها، إنما هو الإرشاد إلى ولاية النبي والأئمة صلوات الله عليهم وإعلام عن شأنهم وذل حال شانئهم، بحيث لا خير أخبر به إلا وهو فيهم وفي أتباعهم وعارفيهم، ولا سوء ذكر فيه إلا وهو صادق على أعدائهم وفي مخالفيهم.

ومما ساقه من روايات في هذا الشأن ما رواه العياشي وغيره عن جابر قال: «سألت أبا جعفر عليه السلام عن شيء من تفسير القرآن فأجابني، ثم سألته ثانية فأجابني بجواب آخر، فقلت: جُعلت فداك كيف أجبت في هذه المسألة بجواب غير هذا قبل اليوم؟ فقال لي، يا جابر، إن للقرآن بطنا، وللبطن بطناً وظهراً، يا جابر، وليس شيء أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن.. إن الآية ليكون أولها في شيء وآخرها في شيء، وهو كلام متصل يتصرف على وجوه».

وما رواه الكليني بإسناده إلى أبي بصير قال: «قال الصادق عليه السلام؛ يا أبا محمد، ما من آية تقود إلى الجنة ويذكر أهلها بخير إلا وهي فينا وفي شيعتنا، وما من آية نزلت يذكر أهلها بشر وتسوق إلى النار إلا وهي في عدونا ومن خالفنا».

ثم بيَّن في ص٨ وجوه تناسب الظواهر [للآيات] مع البطون، وجهات تشابه أهل التأويل مع أهل التنزيل فقال: «اعلم أن مادلت عليه الأخبار الماضية، وما تدل عليه الأخبار التي ستأتي من المعاني الباطنة والتأويلات، ليست جملتها مما استعمل فيها اللفظ على سبيل الحقيقة، بل أكثرها ومعظمها على طريق التجوز، ونهج الاستعارة، وسبيل الكناية ومن قبيل المجازات اللغوية والعقلية، إذ أبواب التجوز في كلام العرب واسعة وموارده في عبارات الفصحاء سائغة، فلا استبعاد إن أراد الله عز وجل بحسب الاستعمال الذي يدل عليه ظاهر اللفظ معنى. وبحسب التجوز الذي تدل عليه القرائن ويجتمع مع الظاهر بنوع من التناسب معنى آخر... عن نصر بن قابوس قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قوله عز وجل: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الواقعة: ٣٠ - ٣٣] قال: يانصر، إنه ليس حيث يذهب الناس؛ إنما هو العالم وما يخرج منه.

ثم قال المولى: قال شيخنا العلامة ـ رحمه الله ـ : لعل المعنى ليس حيث يذهب الناس من انحصار جنة المؤمنين في الجنة الصورية الأخروية، بل لهم في الدنيا أيضاً ببركة أئمتهم عليهم السلام جنات روحانية، من ظل حمايتهم ولطفهم الممدود في الدنيا والآخرة. وماء مسكوب من علومهم الممتعة التي بها تحيا النفوس والأرواح، وفواكه كثيرة من أنواع معارفهم التي لا تنقطع عن شيعتهم ولا يمنعون منها، وفرش مرفوعة مما يتلذذون به من حكمهم وآدابهم بل لا يتلذذ المقربون في الآخرة أيضاً في الجنان الصورية إلا بتلك الملاذ المعنوية التي كانوا يتنعمون بها في الدنيا كما تشهد به الأخبار ـ انتهى كلامه أعلى الله مقامه.

ثم علل ما ورد من تأويل معرفة الله، وعبادته ومخالفته، وأسفه، وظلمه، ورضاه، وسخطه، وأمثالها بمعرفة الإمام، وإطاعته ومخالفته، وأسفه وظلمه ورضاه، وسخطه.

ثم أوجب على الإنسان أن يؤمن بظاهر القرآن وباطنه، وذكر في ذلك روايات منها ما روي عن الهيثم التميمي، قال: «قال أبو عبد الله عليه السلام: ياهيثم، إن قوماً آمنوا بالظاهر وكفروا بالباطن فلم ينفعهم ذلك شيئاً، وجاء قوم من بعدهم فآمنوا بالباطن وكفروا بالظاهر فلم ينفعهم ذلك شيئاً لا إيمان بظاهر إلا بباطن، ولا بباطن إلا بظاهر» ص ٩.

ثم أورد نبذا من تصريحات علماء الشيعة الإمامية من عظم شأن الأئمة وولايتهم وكفر منكريهم. كما أورد نبذا من الأخبار في خصوص فرض ولاية أهل البيت وحبهم وطاعتهم، وأن ذلك مناط صحة الإيمان، وشرط قبول الأعمال والخروج عن حد الكفر والشرك.

وأن الولاية عرضت مع التوحيد على الخلق جميعا، وأخذ عليهم الميثاق، وبعث بها الأنبياء، وأنزلت في الكتب، وكلف بها جميع الأمم، وأورد فيه ما يدل على أنها سبب إيجاد الخلق أيضاً. بل ذهب أبعد من ذلك فذكر أخبارا في أن النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام أول المخلوقين، وأفضلهم وأكملهم، وأكرمهم، بحيث كانت الملائكه والأنبياء تتوسل بهم وبولايتهم، وتفخر الملائكة بخدمتهم، وتعلموا التسبيح والتمجيد منهم، وأنهم وولايتهم العلة في الإيجاد والأصل في الطاعة والمعرفة.

٢ ـ [وقوع التحريف في القرآن]

تكلم في بيان ما يوضح وقوع بعض تغيير في القرآن فقال: «اعلم أن الحق الذي لا محيص عنه بحسب الأخبار الواردة المتواترة الآتية وغيرها، أن هذا القرآن الذي في أيدينا قد وقع فيه بعد رسول الله صلى الله عليه وآله شيء من التغييرات، وأسقط الذين جمعوه بعده كثيراً من الكلمات والآيات، وأن القرآن المحفوظ عما ذكر، الموافق لما أنزله الله تعالى، ما جمعه علي عليه السلام وحفظه إلى أن وصل إلى ابنه الحسن عليه السلام... وهكذا إلى أن ينتهي إلى القائم عليه السلام، وهو اليوم عنده صلوات الله عليه. ولهذا ـ كما قد ورد صريحاً حديث سنذكره ـ لما أن الله عز وجل قد سبق في علمه الكامل صدور تلك الأفعال الشنيعة من المفسدين في

الدين، وأنهم بحيث كلما اطلعوا على تصريح بما يضرهم ويزيد في شأن علي عليه السلام وذريته الطاهرين، حاولوا إسقاط ذلك رأساً أو تغييره محرفين، وكان في مشيئته الكاملة ومن ألطافه الشاملة محافظة أوامر الإمامة والولاية، ومحارسة مظاهر فضائل النبي صلى الله عليه وآله والأئمة، بحيث تسلم عن تغيير أهل التضييع والتحريف ويبقى لأهل مفادها مع بقاء التكليف، لم يكتف بما كان مصرحاً به منها في كتابه الشريف، بل جعل جل بيانها بحسب البطون وعلى نهج التأويل. ثم شرع في بيان خلاصة أقوال علمائهم في تغيير القرآن وعدمه وتزييف استدلال من أنكر التغيير.

٣ - [تأويلات الأئمة]

وقد عقدها لبيان ما يوضح نُبذا من **التأويلات المأثورة عن الأئمة السادات. قال: "يستبان بها ما** بيَّنته من صحة ورود بطن القرآن **فيما يتعلق بالولاية** والإمامة، **وأن في هذا** الأمر تأويل ما ورد تنزيله فيما يتعلق بالتوحيد والنبوة... ويدل على هذا أحاديث كثيرة. **منها** ماسيأتي في تأويل الكافرين بمن كفر بالولاية، والمنافقين بمن نافق فيها، والمشركين بمن أشرك مع الإمام من ليس بإمام، وأشباه ذلك. ص ٣٦.

- ثم بيَّن أن الضمير في القرآن قد يكون بحسب التأويل راجعاً إلى شيء ليس بمذكور صريحاً، بل مقصود بحسب الباطن واستدل بأخبار منها: ما رواه الكليني عن المفضل قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: ١٥]. قال: قالوا أو بدل علياً. ص ٣٨.

- ثم بيَّن أن ما يظهر من الأخبار من أن إيراد أكثر الأشياء التي نسبها الله عز وجل إلى نفسه على صيغة الجمع وضميره كقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الزخرف: ٥٥]. وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥ - ٢٦]. وأمثالها من الكلمات القرآنية فإن السر فيه إدخال النبي ﷺ والأئمة فيها، بل إنهم هم المقصودون في كثير منها. وعد هذا من قبيل المجازات الشائعة في كلام الملوك والأعاظم... قال: وفي الكافي وغيره عن زرارة عن أبي جعفر قال: سألته عن قول الله عز وجل: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧]. فقال: إن الله أعظم وأعز وأجل من أن يُظلم، ولكن خلطنا بنفسه، فجعل ظلمنا ظلمه، وولايتنا ولايته حيث يقول: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥]. يعني الأئمة منا. ص ٣٩.

- ثم بيَّن ما يظهر من الأخبار من إطلاق لفظ الجلالة والإله والرب بحسب بطن القرآن وتأويله على الإمام في مواضع عديدة، بل هكذا حال بعض الضمائر الراجعة بحسب التنزيل إليه سبحانه، وأن تأويل ما نسبه الله إلى نفسه بإضافته إلى هذه الألفاظ من العبادة، والإطاعة

والمعرفة، والرضى، والسخط، والمخالفة، والفقر، والغنى، إلى غير ذلك هو ما يتعلق بالإمام كمتابعته، وإقامته، وإطاعته، ورضاه، وسخطة، وسبه، وأذاه، ومخالفته، وغناه، وفقره، ونحو ذلك. وعد ذلك من قبيل المجازات العقلية والتجوز في الإسناد. قال: لكن يظهر من بعض ما سنذكره من الأخبار أن في ذلك ما هو من قبيل المجاز اللغوي أو التشبيه بالمعنى العرفي. فذكر من ذلك ما رواه الطبرسي في الاحتجاج عن علي رضي الله عنه أنه قال في حديث له طويل: إن قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾﴾ [الزخرف: ٨٤]. وقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤]. وقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧]. فإنما أراد بذلك استيلاء أمنائه بالقدرة التي ركبها فيهم على جميع خلقه، وأن فعلهم فعله.. الخبر. عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٦١]. قال: أي أئمام هدى مع إمام ضلال في قرن واحد؟ وما رواه القمي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩]. أن الصادق عليه السلام قال: أي رب الأرض، يعني إمام الأرض. ص ٤١.

ثم ذكر تأويلات متفرقة مثل:

(الإصر): قال هو في سورة البقرة، وآل عمران، والأعراف، وفي أساس البلاغة: الإصر: الثقل. وفي القاموس: الإصر بالكسر: الذنب، وسياتي في الذنب تأويله. وقد روى الكليني أيضا عن الباقر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. أنه قال: «الإصر: الذنوب التي كانوا فيها قبل معرفة فضل الإمام، فلما عرفوا فضل الإمام وضع عنهم الإصر. ص ٥٠.

﴿ٱلْبَٰطِلَ﴾: قال: الباطل ضد الحق وقد ورد تأويله بأعداء الأئمة، وبدولة الباطل؛ وبما كان عليه بنو أمية وأشباههم من غاصبي الخلافة. أهـ ،ص ٧٠.

﴿ٱلْقِبْلَةَ﴾: قال في القاموس: القبلة التي يصلى نحوها، والجهة، والكعبة، وكل ما يستقبل ـ يقال: ما له قبلة ولا دبرة بكسرهما أي وجهة. هذا وقد مر في الصلاة ما يدل على تأويل القبلة بالأئمة عليهم السلام، وأنهم المراد بها بحسب بطن القرآن، واستقبالها كناية عن التمسك بهم واتباعهم ونحو هذا. وفي تفسير العياشي عن الصادق عليه السلام «نحن قبلة الله ونحن كعبة الله» وسيأتي بعض المؤيّد في (الكعبة) والله الهادي. ص١٨٣.

ثم ذكر الخاتمة، وجعلها مشتملة على فصلين

الفصل الأول: في بيان نبذ مما ورد من تأويلات الحروف المقطعة التي في أوائل بعض السور فقال: «اعلم أن أصل تركيب مقطعات أوائل السور ـ من غير ملاحظة ما تكرر منها ـ أربع عشرة، بعدد المعصومين الأربعة عشر: النبي وفاطمة والأئمة الإثني

عشر. والسور هي هذه: الم. المص الر. المر. كهيعص .طه. طسم. طس. يس. ص. حم. حمعسق. ق. ن. ثم قال: وفي معاني الأخبار بإسناده إلى أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «الم، حروف من حروف اسم الله الأعظم المقطع في القرآن، الذي يؤلفه النبي والإمام عليه السلام، فإذا دعا به أجيب». ص۲۳۱.

الفصل الثاني: في ذكر بعض الفوائد:

الفائدة الأولى: بيّن أن دأبه في هذا التفسير على شيئين:

١ ـ تأويل ما ورد بحسب التنزيل بالنسبة إلى الأمم السابقة وما صدر منهم بالنسبة **إلى** إطاعة **أنبيائه وعصيانهم**، بأن المراد الإطاعة **وعدمها فيما بلغوا إليهم** وأمروهم **به من الإقرار بولاية النبي والأئمة**، والاعتراف بحقهم، **والتمسك بهم، مع التبري** من أعدائهم. بعد **الإقرار بالله ورسله. وتصديقهم** فيما بلغوا جميعاً، **لا سيما الولاية.**

٢ ـ تطبيق كثير مما ورد بالنسبة إلى تلك الأمم وإلى **إطاعتهم** وإلى **معصيتهم، وما** ورد عليهم من الشر والنقم والخير والنعم وغير ذلك، على طوائف هذه الأمة فيما صدر منهم بالنسبة إلى إطاعة النبي والأئمة في أمر الولاية وعدمها، وما ورد ويرد عليهم من الشر والخير لذلك، وذلك بتمثيل الأخيار بالأخيار، والأشرار بالأشرار، وتبيان وجه الشبه في تنظيم أفعالهم بأفعالهم، كتنظير أصحاب السبت بقتلة ذرية النبي، كبني أمية، وبني العباس مثلاً، وأصحاب الكهف بأبي طالب ونظرائه مثلا، وأصحاب العجل بأهل السقيفة، وغير ذلك. ص ٢٣٥.

الفائدة الثانية: بيَّن أن المراد في الباطن بجميع ما حرم الله في القرآن أئمة الجور، وبما أحل أئمة الحق. ص **٢٣٦.**

الفائدة الثالثة: بيَّن أنه اقتصر في نقل الأخبار على موضع الحاجة منها وما يدل على المراد، مخافة التطويل. ص **٢٣٦.**

الفائدة الرابعة: بيَّن أن كل ما ذكره في تفسيره من التأويلات فهو غير خال من المستند المستفاد من الأئمة عليهم السلام. ص **٢٣٦.**

الفائدة الخامسة: بيَّن أن الرجعة من ضروريات مذهب الشيعي، وادعى تواتر الأحاديث المثبتة لها في الجملة وإن كانت مختلفة في تفصيلها. ص **٢٣٧ ـ ٢٣٩.**

ثم قال: ونشرع بعد هذا في أصل التفسير إن شاء الله تعالى وبحوله وقوته وتوفيقه...

٢ ـ تفسير الحسن العسكري

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

هو أبو محمد الحسن بن علي الهادي محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى الكاظم ابن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب. الإمام الحادي عشر عند الإمامية الإثني عشرية والمعروف بالحسن العسكري(١). وهو والد المهدي المنتظر.

ولد سنة ٢٣١هـ، وقيل سنة ٢٣٢هـ بالمدينة على الراجح، وتوفي بسُرّ من رأى سنة ٢٦٠ هـ، ودفن بها بجانب أبيه(٢).

التعريف بهذا التفسير:

عثرنا على هذا التفسير في دار الكتب المصرية فوجدناه منسوباً إلى الإمام أبي محمد الحسن العسكري، ومروياً عنه برواية يعقوب ويوسف بن محمد بن زياد، وأبي الحسن علي ابن محمد بن محمد بن سيار، وهما من الشيعة الإمامية، وقد تلقيا هذا التفسير وكتباه عن الحسن العسكري في سبع سنين.

وقد ذكر أنه أملى عليهما شيئاً من الأخبار في فضل القرآن وحملته ثم قال: «قال رسول الله ﷺ: «أتدرون من المتمسك الذي بتمسكه ينال هذا الشرف العظيم؟ هو الذي أخذ القرآن وتأويله عنا أهل البيت، وعن وسائطنا السفراء عنا إلى شيعتنا، لا عن آراء المجادلين وقياس القايسين...» ثم ذكر الحسن العسكري تفسير أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم منسوباً إلى علي رضي الله عنه، وفيه يقول علي: «ألا أنبئكم ببعض أخبارنا؟ قالوا: بلى يا أمير المؤمنين. قال: إن رسول الله لما بنى مسجده بالمدينة وأشرع فيه بابه وأشرع المهاجرون والأنصار أبوابهم، أراد الله إبانة محمد وآله الأفضلين بالفضيلة، فنزل جبريل عن الله تعالى: بأن سدوا الأبواب عن مسجد رسول الله قبل أن ينزل بكم العذاب، فأول من بعث إليه رسول الله يأمره بسد بابه العباس بن عبد المطلب، فقال: سمعاً وطاعة لله ولرسوله ـ وكان الرسول معاذ بن جبل ـ ثم مر العباس بفاطمة فرآها قاعدة على بابها وقد أقعدت الحسن والحسين، فقال لها: ما بالك قاعدة انظروا إليها كأنها لبوءة بين يديها

---

١) العسكري: نسبة إلى العسكر، وهي سُرّ من رأى؛ لأن المعتصم لما بناها وانتقل إليها بعسكره قيل لها العسكر. وإنما نسب المذكور إليها لأن المتوكل أشخص أباه عليا إليها وأقام بها مدة طويلة، فنسب ووالده هذا إليها.

٢) وفيات الأعيان لابن خلكان: ١ / ٢٣٩ ـ ٢٤٠، وله ترجمة مستفيضة في أعيان الشيعة ـ السيد محمد الأمين الحسيني: ٤ / ٢٨٨ ـ ٣٢٥.

جرواها، أتظن أن الرسول يخرج عمه ويدخل ابن عمه فمر بهم رسول الله ﷺ فقال لها: ما بالك قاعدة؟ قالت: انتظر أمر رسول الله بسد الأبواب، فقال لها: إن الله تعالى أمرهم بسد الأبواب واستثنى منهم رسول لله، وإنما أنتم نفس رسول الله. ثم إن عمر بن الخطاب جاء فقال: أحب النظر إليك يا رسول الله إذا مررت إلى مصلاك، فأذن لي في فرجة أنظر إليك منها، فقال: قد أبى الله عز وجل ذلك، قال: فمقدار ما أضع عليه وجهي، قال: قد أبى الله ذلك، قال: فمقدار ما أضع عليه إحدى عيني، قال: أبى الله ذلك، ولو قلت: قدر طرف الإبرة، لما آذن لك، والذي نفس محمد بيده ما أنا أخرجتكم ولا أدخلتكم ولكن الله أدخلهم وأخرجكم. ثم قال: لا ينبغي لأحد مؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيت في هذا المسجد جنباً إلا محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين والمنتجبون[1] من آلهم الطيبين من أولادهم. قال: فأما المؤمنون فقد رضوا وسلموا، وأما المنافقون فاغتاظوا لذلك وأنفوا...».

هذا والكتاب مطبوع في مجلد صغير **يقع في ٢٨٦ صفحة. وهو** غير شامل **للقرآن كله، فبعد الآية ١١٤ من سورة** البقرة انقطع ثم **استأنف في نفس السورة** من الآية **(١٥٨) إلى (١٧٩) ثم من (١٩٨) حتى** (٢١٠) ثم من **(٢٨٢) إلى (٢٨٣).**

وأرى أن أسوق لك بعض النماذج لتقف بنفسك على مسلكه في التفسير، وتأثره بمذهب الإمامية، ولنرى بعد ذلك هل يمكن أن يكون هذا التفسير حقيقة لهذا الإمام الصالح، أو نسب إليه زوراً وبهتاناً.

ولاية علي:

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨﴾ [البقرة: ٨] يقول: «قال العالم موسى بن جعفر: إن رسول الله لما أوقف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في يوم الغدير موقفه المشهور المعروف... ثم قال: ألا فمن كنت مولاه وأولى به فهذا علي مولاه وأولى به، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، ثم قال: قم يا أبا بكر فبايع له بإمرة المؤمنين، فقام وبايع له، ثم قال: قم يا عمر فبايع له بإمرة المؤمنين، فقام فبايع له، ثم قال بعد ذلك لتمام التسعة رؤساء المهاجرين والأنصار فبايعوا كلهم... ثم إن قوماً من متمرديهم وجبابرتهم تواطؤوا بينهم... لدفع الأمر عن مستحقه مؤثرون، فأخبر الله عز وجل محمداً عنهم فقال: يا محمد ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ الذي أمرك بنصب علي إماماً وسايساً لأمتك ومدبراً، ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ بذلك، ولكنهم يتواطؤون على إهلاكك وإهلاكه، يوطّنون أنفسهم على التمرد على علي إن كانت بك كائنة».

---

١) المنتجبون: أي المختارون.

روايات مكذوبة في فضل أهل البيت:

عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾ [البقرة: ٢١٠] يقول: «قال علي بن الحسين: طلب هؤلاء الكفار الآيات ولم يقنعوا بما أتاهم به منها بما فيه الكفاية والبلاغ، حتى قيل لهم: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢١٠] أي إذا لم يقتنعوا بالحجج الواضحة الدامغة، فهل ينظرون إلا أن يأتيهم الله؟ وذلك محال؛ لأن الإتيان على الله لا يجوز، كذلك النواصب اقترحوا على رسول الله في نصب أمير المؤمنين علي إماماً، واقترحوا... حتى اقترحوا المحال وذلك أن رسول الله لما نص على علي بالفضيلة والإمامة. وسكن إلى ذلك قلوب المؤمنين وعاند فيه أصناف الجاحدين من المعاندين، وشك في ذلك ضعفاء من الشاكين، واحتال في السلم من الفريقين من النبي وخيار أصحابه ومن أصناف أعدائه جماعة المنافقين، وفاض في صدورهم العداوة والبغضاء، والحسد والشحناء، حتى قال قائل المنافقين: لقد أسرف في مدح نفسه، ثم أسرف في مدح أخيه علي، وما ذاك من عند رب العالمين، ولكنه في ذلك من المتقولين، يريد أن يثبت لنفسه الرياسة علينا حيا ولعلي بعد موته، قال الله تعالى: يا محمد، قل لهم وأي شيء أنكرتم من ذلك؟ هو عظيم كريم حكيم. ارتضى عباداً من عباده، قد اختصهم بكرامات، لما علم من حسن طاعتهم ولانقيادهم لأمره، ففوض إليهم أمور عباده، وجعل إليهم سياسة خلقه بالتدبير الحكيم الذي وفقهم له: أفلا ترون لملوك الأرض إذا ارتضى أحدهم خدمة بعض عبيده، ووثق بحسن اصطناعه بما يندب له من أمور مالكه، جعل ما وراء بابه إليه واعتمد في سياسة جيوشه ورعاياه عليه؟ كذلك محمد في التدبير الذي رفعه له ربه، وعلي من بعده الذي جعله وصيه وخليفته في أهله، وقاضي دينه ومنجز عداته، والمؤازر لأوليائه والمناصب لأعدائه فلم يقنعوا ولم يسلموا، وقالوا: ليس الذي تسنده إلى ابن أبي طالب أمراً صغيراً إنما هو دماء الخلق، ونساؤهم، وأولادهم، وأموالهم، وحقوقهم، وأنصباؤهم، دنياهم وأخراهم، فلتأتنا بآية تليق بجلالة هذه الولاية، فقال رسول الله ﷺ: أما كفاكم نور على المشرق في الظلمات الذي رأيتموه ليلة خروجه من عند رسول الله؟ أما كفاكم أن عليا جاز والحيطان بين يديه ففتحت له وطرقت ثم عادت والتأمت؟ أما كفاكم يوم غدير خم أن عليا لما أقامه رسول الله رأيتم أبواب السماء مفتحة والملائكة فيها مطلعين تناديكم: هذا ولي الله فاتبعوه وإلا حل بكم عذاب الله فاحذروه؟ أما كفاكم رؤيتكم علي بن أبي طالب وهو يمشي والجبال تسير من بين يديه لئلا يحتاج إلى انحراف عنها، فلما جاز رجعت الجبال إلى أماكنها؟ ثم قال اللهم زدهم آيات فإنها عليك سهلات يسيرات لتزيد حجتك عليهم تأكيداً. قال: فرجع القوم إلى بيوتهم فأرادوا دخولها فاعتقلتهم الأرض ومنعتهم ونادتهم: حرام عليكم دخولها حتى تؤمنوا بولاية علي، فقالوا. آمنا..ودخلوا... ثم ذهبوا ينزعون ثيابهم ليلبسوا غيرها فثقلت عليهم ولم يقلوها، ونادتهم: حرم عليكم سهولة نزعنا

حتى يقروا بولاية علي، فأقروا.. ونزعوها..ثم ذهبوا يلبسون ثياب الليل فثقلت عليهم ونادتهم: حرام عليكم لبسنا حتى تعترفوا بولاية علي، فاعترفوا، ثم ذهبوا يأكلون فثقلت عليهم اللقم وما لم يثقل منها استحجر في أفواههم وناداهم: حرام عليكم أكلنا حتى تعترفوا بولاية علي، فاعترفوا... ثم ذهبوا يبولون ويتغوطون فتعذبوا وتعذر عليهم ونادتهم بطونهم ومذاكيرهم حرام عليكم السلامة منا حتى تعترفوا بولاية علي بن أبي طالب، فاعترفوا.. ثم ضجر بعضهم وقال: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]. قال الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣]»[١].

توسل الأنبياء والأمم السابقة بمحمد ﷺ وبأهل البيت:

وقد جاء في هذا التفسير من الأخبار ما يدل على أن الأنبياء والأمم السابقين كانوا إذا حزبهم أمر وأهمهم توسلوا بمحمد ﷺ وأهل بيته رضوان الله تعالى عليهم.

فمثلاً عند قوله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة: ٣٨] نراه يقول: (فلما زلّت من آدم الخطيئة واعتذر إلى ربه عز وجل قال: يارب، تب عليّ واقبل معذرتي، وأعدني إلى مرتبتي، وارفع لديك درجتي فما أشد تبين بعض الخطيئة وذلها بأعضائي وسائر بدني، قال الله تعالى: يا آدم أما تذكر أمري إياك بأن تدعوني بمحمد وآله الطيبين عند شدائدك ودواهيك، وفي النوازل تنزل بك؟ قال آدم: يارب بلى، قال الله عز وجل له: فتوسل بمحمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين خصوصاً، فادعني أجبك إلى ملتمسك وأزدك فوق مرادك، فقال آدم: يارب وقد بلغ عندك من محلهم أنك بالتوسل بهم تقبل توبتي، وتغفر خطيئتي، وأنا الذي أسجدت له ملائكتك، وأبحته جنتك، وزوجته حواء أمتك وأخدمته كرام ملائكتك؟ قال الله: يا آدم.. إنما أمرت الملائكة بتعظيمك بالسجود إذا كنت وعاء لهذه الأنوار، ولو كنت سألتني بهم قبل خطيئتك أن أعصمك منها وأن أفطنك لدواعي عدوك إبليس حتى تحذر منها لكنت قد جعلت ذلك، ولكن المعلوم في سابق علمي يجري موافقاً لعملي، فالآن بهم فادعني لأجبك، فعند ذلك قال آدم: اللهم بجاه محمد وآله الطيبين، بجاه محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين والطيبين من آلهم لما تفضلت بقبول توبتي، وغفران زلتي، وإعادتي من كراماتك إلى مرتبتي. فقال الله عز وجل: قد قبلت توبتك وأقبلت برضواني عليك، ورزقت آلائي ونعمائي عليك، وأعدتك إلى مرتبتك في كراماتي، ووفرت نصيبك من رحماتي، فذلك قوله عز وجل: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة: ٣٧].

---

١) ص٢٦٥ - ٢٦٧.

وعند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [البقرة: ٥٠] نجده يذكر توسل موسى عليه السلام وقومه بمحمد وآله وولاية علي أن يفتح لهم طريقاً في البحر، ففعل سبحانه.

التقية:

عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة: ١٦٣] يقول: الرحيم بعباده المؤمنين من شيعة آل محمد، وسّع لهم في التقية، يجاهرون بإظهار موالاة أولياء الله ومعاداة أعدائه إذا قدروا، ويسرونها إذا عجزوا.

تأثره بمذهب المعتزلة:

وإنا لنجد في هذا التفسير تأثراً بمذهب المعتزلة ومعتقداتهم، فمثلاً عند قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [البقرة:٧] نجد المؤلف لا يرتضي نسبة الختم إلى الله على ظاهره، ونراه يتأول هذا الختم بما يتفق ورأي المعتزلة فيقول: «أي وسَمَها بسمة يعرفها من يشاء من ملائكته إذا نظروا إليها بأنهم الذين لا يؤمنون، وعلى سمعهم كذلك بسمات، وعلى أبصارهم غشاوة، وذلك أنهم لما أعرضوا عن النظر فيما كلفوه، وقصروا فيما أريد منهم، جهلوا ما لزمهم من الإيمان به، فصاروا كمن على عينه غطاء لا يبصر ما أمامه، فإن الله عز وجل يتعالى عن العبث والفساد، وعن مطالبة العباد بما قد منعهم بالقهر منه، فلا يأمرهم بمغالبته ولا بالمسير إلى ما قد صدهم بالعجز.

تأثره في تفسيره بآراء الشيعة في الفروع الفقهية:

فمثلاً عند قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [البقرة:٤٣] نراه يروي حديثاً طويلاً عن رسول الله ﷺ يؤخذ منه صراحة أن فرض الرجْلين في الوضوء مسحهما لا غسلهما، وأن غسلهما لا يجوز إلا للتقية، وهذا الحديث هو: أن رسول الله ﷺ قال: إن العبد إذا توضأ فغسل وجهه تناثرت ذنوب وجهه، وإذا غسل يديه إلى المرفقين تناثرت عنه ذنوب يديه، وإذا مسح رأسه تناثرت ذنوب رأسه، وإذا غسلهما تقية تناثرت ذنوب رجليه.

وهكذا نجد هذا التفسير يسير مع الهوى الشيعي، سيراً فيه كثير من التطرف والغلو والخروج عن دائرة المعقول المقبول. وإذا كان هذا التفسير من عمل الحسن العسكري، الإمام المعصوم، الذي عنده علم القرآن كله، فتلك أكبر شهادة على أنه لا عصمة له ولا علم عنده، وكيف يصدر هذا التلاعب بنصوص القرآن من إمام له قيمته ومكانته.

وإذا كان ما يذكره صاحب أعيان الشيعة من عمله وصلاحه أمراً حقيقياً، فالظن بهذا الكتاب أن يكون منسوباً إلى هذا الإمام زوراً وبهتاناً، وهذا ما أرجحه وأختاره؛ لأني لم أعثر على نقل صحيح يدل على غلو الرجل وتطرفه في التشيع كما فعل غيره.

٣ ـ مجمع البيان لعلوم القرآن للطبرسي

ترجمة المؤلف ومكانته العلمية:

مؤلف هذا التفسير في نظر أصحابه هو أبو علي، الفضل بن الحسين بن الفضل الطبرسي المشهدي[١]، الفاضل العالم، المفسر، الفقيه، المحدث، الجليل، الثقة، الكامل، النبيل، وهو من بيت عُرف أهله بالعلم، له تصانيف منها: مجمع البيان في تفسير القرآن، وإعلام الورى بأعلام الهدى، وغير ذلك.

وقال عنه صاحب مجالس المؤمنين ما معناه: «إنه عمدة المفسرين، أمين الدين... قال بأن المعاصي كلها كبائر، وإنما يكون اتصافها بالصغيرة بالنسبة لما هو أكبر. وكانت وفاته ليلة النحر سنة [٥٣٨] هـ[٢].

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

وصف الطبرسي تفسيره في مقدمته فقال: «وابتدأت في تأليف كتاب هو غاية التلخيص والتهذيب، وحسن النظم والترتيب، يجمع أنواع هذا العلم وفنونه، ويحوي فصوصه وعيونه، من علم قراءاته وإعرابه ولغاته، وغوامضه ومشكلاته، ومعانيه وجهاته، ونزوله وأخباره، وقصصه وآثاره، وحدوده وأحكامه، وحلاله وحرامه، والكلام على مطاعن المبطلين فيه، وذكرنا ما يتفرد به أصحابنا ﷺ من الاستدلال بمواضع كثيرة منه على صحة ما يعتقدونه من الأصول والفروع، والمعقول والمسموع، على وجه الاعتدال والاختصار، فوق الإيجاز دون الإكثار».

ثم وضح منهجه فقال: «وقدمت في مطلع كل سورة ذكر مكيها ومدنيها، ثم ذكر الاختلاف في عدد آياتها، ثم ذكرت تلاوتها، ثم أقدم في كل آية الاختلاف في القراءات، ثم أذكر العلل والاحتجاجات، ثم أذكر العربية واللغات، ثم أذكر الإعراب والمشكلات، ثم أذكر الأسباب والنزولات، ثم أذكر المعاني والأحكام والتأويلات، والقصص والجهات، ثم أذكر انتظام الآيات».

ثم أستطرد إلى ذكر مقدمات تعلق ببعض علوم القرآن وعن زيادة القرآن ونقصانه. وهنا يقول: فأما الزيادة فيه: فمجمع على بطلانه، وأما النقصان منه: فقد روى جماعة من أصحابنا وقوم من حشوية العامة أن في القرآن تغييراً ونقصاناً، والصحيح من مذهب أصحابنا

---

١) الطبرسي: نسبة إلى طبرستان: والمشهدي: نسبة للمشهدي الرضوي المدفون فيه.

٢) انظر روضات الجنات ـ محمد باقر الموسوي: ٥١٣ ـ ٥١٤ .

خلافه، وهو الذي نصره المرتضى قدس الله روحه[1].

والحق أن تفسير الطبرسي ـ بصرف النظر عما فيه من نزعات تشيعية وآراء اعتزالية ـ كتاب عظيم في بابه، يدل على تبحر صاحبه في فنون مختلفة من العلم والمعرفة.

وهو ينقل أقوال من تقدمه من المفسرين معزوة لأصحابها، ويرجح ويوجه ما يختار منها. وإذا كان لنا بعض المآخذ عليه فهو تشيعه لمذهبه وانتصاره له، وحمله لكتاب الله على ما يتفق وعقيدته، وتنزيله لآيات الأحكام على ما يتناسب مع الاجتهادات التي خالف فيها هو ومن على شاكلته، وروايته لكثير من الأحاديث الموضوعة، غير أنه ـ والحق يقال ـ ليس مغالياً في تشيعه، ولا متطرفاً في عقيدته، كما هو شأن كثير غيره من علماء الإمامية الإثني عشرية.

إمامة علي رضي الله عنه:

يحاول بكل جهوده أن يثبت إمامته وولايته من القرآن، فنراه عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥]. يقول بعد سياقه لسند طويل: بينما عبد الله بن عباس جالس على شفير زمزم يقول قال رسول الله ﷺ، إذ أقبل رجل متعمم بعمامة، فجعل ابن عباس لا يقول: قال رسول الله ﷺ إلا قال الرجل: قال رسول الله، فقال ابن عباس: سألتك بالله من أنت؟ فكشف العمة عن وجهه وقال: يا أيها الناس من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا جندب بن جنادة البدري أبو ذر الغفاري، سمعت رسول الله ﷺ بهاتين وإلا صُمّتا، ورأيته بهاتين وإلا عَميتا يقول: علي قائد البررة، وقاتل الكفرة، ومنصور من نصره، ومخذول من خذله. أما إني صليت مع رسول الله ﷺ يوماً من الأيام صلاة الظهر، فسأل سائل في المسجد فلم يعطه أحد شيئاً، فرفع السائل يده إلى السماء فقال: اللهم إني سألت في مسجد رسول الله فلم يعطني أحد شيئاً، وكان علي راكعاً فأومأ بخنصره اليمنى إليه ـ وكان يتختم بها ـ فأقبل السائل حتى أخذ الخاتم[2] من خنصره، وذلك بعين رسول الله ﷺ، فلما فرغ النبي من صلاته رفع رأسه إلى السماء فقال: اللهم إن أخي موسى سألك فقال: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾﴾ [طه: ٢٥ ـ ٣٢] فأنزلت عليه قرآناً ناطقاً: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ

---

١) ٦/١.

٢ ـ وجود سائل في المسجد وتصدّق علي بخاتمه وهو في الصلاة، ونزول الآية: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ...﴾، ضمن هذه الحدود تجده في جامع الأصول رقم: ٦٥١٥: وقال الأرناؤوط في الحاشية: رواه بنحوه ابن مردويه من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، وإسناده ضعيف. وراجع أيضا إنكار ابن كثير والرازي لهذه الرواية في تفسيرهما عند الآية المذكورة.

بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [القصص: ٣٥]. اللهم وأنا محمد نبيك وصفيك، اللهم فاشرح لي صدري، ويسر لي أمري، واجعل لي وزيراً من أهلي، علياً اشدد به ظهري، قال أبو ذر: فوالله ما استتم رسول الله ﷺ الكلمة حتى نزل عليه جبريل من عند ربه فقال: يا محمد، اقرأ. قال: وما أقرأ؟ قال: اقرأ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [المائدة: ٥٥] وروى هذا الخبر أبو إسحق الثعلبي في تفسره بهذا الإسناد بعينه. ثم يحاول الطبرسي من خلال الآية والحديث واللغة وأقوال المفسرين... أن يثبت الولاية لعلي.

ولا شك أن هذه محاولة فاشلة، فإن حديث تصدق علي بخاتمة في الصلاة ـ وهو محور الكلام ـ حديث موضوع لا أصل له، وقد تكفل الشيخ ابن تيمية بالرد على هذه الدعوى في كتابه: منهاج السنة: ٣/٤ ـ ٩.

عصمة الأئمة:

ولما كان الطبرسي يدين بعصمة الأئمة فإنا نراه عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣] يحاول محاولة جدّية أن يقصر أهل البيت على النبي ﷺ وعلي وفاطمة والحسن والحسين، ليصل من وراء ذلك إلى أن الأئمة معصومون من جميع القبائح كالأنبياء سواء بسواء، فلهذا يقول بعدما سرد من الروايات ما يشهد له بالقصر الذي يريده: (والروايات في هذا كثيرة من طريق العامة والخاصة، لو تصدينا لإيرادها لطال الكلام، وفيما أوردناه كفاية).

فأنت ترى أن الطبرسي يحاول من وراء هذا الجدل العنيف أن يثبت عصمة الأئمة، عقيدة فاسدة يؤمن بها هو ومن على شاكلته من الإمامية الإثني عشرية، ولا شك أن هذا تحكم في كلام الله تعالى دفعه إليه الهوى، وحمله عليه تأثير المذهب.

الرجعة والمهدي:

ولما كان الطبرسي يقول بالرجعة، فإنا نراه عندما فسر قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [البقرة: ٥٦] يقول: واستدل قوم من أصحابنا بهذه الآية على جواز الرجعة. وقول من قال: إن الرجعة لا تجوز إلا في زمن النبي لتكون معجزة له ودلالة على نبوته باطل؛ لأن عندنا بل عند أكثر الأئمة يجوز إظهار المعجزات على أيدي الأئمة والأولياء، والأدلة على ذلك مذكورة في كتب الأصول.

والطبرسي يدين بالمهدي، ويعتقد أنه اختفى وسيرجع في آخر الزمان، فنجده عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾ [البقرة: ٣] يذكر الأقوال الواردة في المعنى المراد بالغيب، وينقل في جملة ما ينقل من الأقوال: أن ابن مسعود وجماعة من الصحابة فسروا الغيب بما غاب عن العباد عمله. ثم

يقول: وهذا أولى لعمومه، ويدخل فيه ما رواه أصحابنا من زمان غيبة المهدي ووقت خروجه.

التقية:

ولما كان الطبرسي يقول بمبدأ التقية، فإنا نجده يستطرد إلى الكلام فيها ويؤيد مذهبه عندما فسر قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ [آل عمران: ٢٨] فيقول: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾: إلا أن يكون الكفار غالبين والمؤمنين مغلوبين فيخافهم المؤمن إن لم يظهر موافقتهم ولم يحسن العشرة معهم، فعند ذلك يجوز له إظهار مودتهم بلسانه، ومداراتهم تقية منهم ودفعاً عن نفسه من غير أن يعتقد ذلك. وفي هذه الآية دلالة على أن التقية جائزة في الدين عند الخوف على النفس، وقال أصحابنا: إنها جائزة في الأحوال كلها عند الضرورة، وربما وجبت فيها لضرب من اللطف والاستصلاح وليس تجوز من الأفعال في قتل المؤمن، ولا فيما يعلم أو يغلب على الظن أنه استفاد في الدين.

تأثّر الطبرسي بفقه الشيعة في تفسيره:

فمثلاً نجد الإمامية الإثني عشرية يقولون بجواز نكاح المتعة، ولا يعترفون بنسخه كغيرهم من المسلمين، فلهذا حاول الطبرسي ـ وهو واحد منهم ـ أن يأخذ هذا المذهب، فعندما فسر قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [النساء: ٢٤] قيل: المراد بالاستمتاع هنا درك البغية والمباشرة وقضاء الوطر من اللذة.. عن الحسن ومجاهد وابن زيد. فمعناه على هذا: فما استمتعتم وتلذذتم من النساء بالنكاح فآتوهن مهورهن. وقيل: المراد نكاح المتعة، وهو النكاح المنعقد بمهر معين إلى أجل معلوم.. عن ابن عباس والسُّدّى وابن سعيد وجماعة من التابعين، وهو مذهب أصحابنا الإمامية، وهو الواضح؛ لأن أصل الاستمتاع والتمتع وإن كان في الأصل واقعاً على الانتفاع والالتذاذ فقد صار بعرف الشرع مخصوصاً بهذا العقد، لاسيما إذا أضيف إلى النساء، فعلى هذا يكون معناه: فمتى عقدتم عليهن هذا العقد المسمى متعة فآتوهن أجورهن...

وكذلك يقول الطبرسي ـ كغيره من علماء مذهبه ـ بأن المسْح هو فرض الرجلين في الوضوء، فلهذا نراه يدافع عن مذهبه وينصره عندما فسر قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: ٦].

ميراث الأنبياء عليهم السلام:

والطبرسي يقول كغيره من علماء مذهبه بأن الأنبياء عليهم السلام يورثون كما يورث

سائر الناس، فمثلاً عندما فسر قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَاءِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾ [مريم: ٥ ـ ٦] يقول: (اختلف في معناه، فقيل: معناه يرثني مالي ويرث من آل يعقوب النبوة...عن أبي صالح. وقيل معناه: يرث نبوتي ونبوة آل يعقوب.. عن الحسن ومجاهد. واستدل أصحابنا بالآية على أن الأنبياء يورثون المال، وأن المراد بالإرث المذكور فيها: المال، دون العلم والنبوة، بأن قالوا: إن لفظ الميراث في اللغة والشريعة لا يطلق إلا على ما ينقل من الموروث إلى الوارث كالأموال...

الإجماع:

ولما كان الطبري كعلماء مذهبه لا يعتبرون حجية الإجماع مهما كان نوعه إلا إذا كان كاشفاً عن رأي الإمام أو كان الإمام داخلاً في جملة المجمعين، فمثلاً عندما فسر قوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩] فإنا نراه يرد على من استدل بها على حجية الإجماع، حيث يكون عند عدم التنازع، ولا يقبله إلا بوجود الإمام بين المجمعين.

تأثُّر الطبرسي بمذهب المعتزلة في تفسيره:

كثيراً ما يوافق المعتزلة في بعض آرائهم الكلامية، ويرتضي مذهبهم، وأحياناً نراه لا يرتضي ما يقوله المعتزلة ولا يسلمه لهم بل يقف موقف المنازع لهم، والمعارض لأدلتهم[1].

ففي **رؤية الله** يقول الطبرسي بما يقول به المعتزلة من عدم جواز رؤية الله ووقوعها في الآخرة، ولهذا نراه يفسر قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣] فيقول: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ اختلف فيه على وجهين:

أحدهما: أن معناه نظرة العين.

والثاني: أنه الانتظار، واختلف من حمله على نظر العين على قولين:

١ ـ أن المراد إلى ثواب ربها ناظرة، أي هي ناظرة إلى نعيم الجنة...

٢ ـ أن النظر بمعنى الرؤية، والمعنى تنظر إلى الله معاينة، روي ذلك عن الكلبي ومقاتل وعطاء وغيرهم. وهذا لا يجوز؛ لأن كل منظور إليه بالعين مشار إليه بالحدقة واللحاظ، والله يتعالى عن أن يشار إليه بالعين، كما يجل سبحانه عن أن يشار إليه بالأصبع.

السحر:

وكذلك ينكر حقيقة السحر، ويخالف جمهور أهل السنة في ذلك، وينكر حديث

---

١) ١/٤٠١.

البخاري في سحر رسول الله ﷺ، ولهذا نراه في آخر تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ [البقرة: ١٠٢] يعتبر السحر مجرد خدع وتمثيل وتمويه.

لكنه لا يوافق المعتزلة دائماً، **فمذهب الطبرسي في الشفاعة** ـ مثلاً ـ يخالف مذهب المعتزلة، ولهذا نراه عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [البقرة: ٤٨] يقول: قال المفسرون: حكم هذه الآية مختص باليهود؛ لأنهم قالوا: نحن أولاد الأنبياء وآباؤنا يشفعون لنا، فأيأسهم الله عن ذلك فخرج الكلام مخرج العموم والمراد به الخصوص، ويدل على ذلك أن الأمة اجتمعت على أن للنبي شفاعة مقبولة وإن اختلفوا في كيفيتها، فعندنا هي مختصة بدفع المضار وإسقاط العقاب عن مستحقيه من مذنبي المؤمنين.

وقالت المعتزلة: هي في زيادة المنافع للمطيعين والتائبين دون العاصين. وهي ثابتة عندنا للنبي، ولأصحابه المنتخبين، وللأئمة من أهل بيته الطاهرين، ولصالحي المؤمنين وينجّي بشفاعتهم كثيراً من الخاطئين، ويؤيده الخبر الذي تلقته الأمة بالقبول وهي قوله: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»[1].

روايته للأحاديث الموضوعة:

لم يكن صادقاً في وصفه لكتابه هذا بأنه محجة للمحدث؛ ذلك لأنا تتبعناه فوجدناه غير موفق فيما يروي من الأحاديث في تفسيره، فقد أكثر من ذكر الموضوعات، خصوصاً ما وضعه الشيعة ونسبوه إلى النبي ﷺ أو إلى أهل البيت مما يشهد لمعتقداتهم ويدل على تشيعهم.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧] نجد أنه يذكر من الروايات ما هو موضوع على ألسنة الشيعة، ثم يمر عليها بدون تعقيب منه، ثم يقول: «لما نزلت الآية قال رسول الله ﷺ: أنا المنذر وعلي الهادي من بعدي، يا علي.. بك يهتدي المهتدون». وإذا نحن تتبعنا ما يرويه من الأحاديث في فضل السور لوجدناه قد وقع فيما وقع فيه كثير من المفسرين من الاغترار بما جاء من الأحاديث في فضائل السور مسنداً إلى أبَي وغيره، ومرفوعاً إلى رسول الله ﷺ، وهي أحاديث موضوعة [في الغالب] باتفاق أهل العلم.

موقفه من الإسرائيليات:

وكثيراً ما يروي الطبرسي في تفسيره الروايات الإسرائيلية معزوة إلى قائليها ونلاحظ عليه أنه يذكرها بدون أن يعقب عليها، اللهم إلا إذا كانت مما يتنافى مع العقيدة، فإنه ينبه

---

١ ـ الترمذي: ٢٤٣٧ في صفة القيامة. وأبو داود: ٤٧٣٩ في السنة. وابن ماجة: ٤٣١٠ كلهم في الشفاعة. وقال الأرناؤوط في جامع الأصول: /٨٠١٢: وهو حديث صحيح.

على كذب الرواية، فمثلاً عند قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ [صٓ: ٢١ ـ ٢٢] نجده يقول: وأما ما ذكر في القصة أن داود كان كثير الصلاة فقال: يارب فضلت عليّ إبراهيم فاتخذته خليلا، وفضلت عليّ موسى فكلمته تكليما. فقال يا داود: إنا ابتليناهم بما لم نبتلك بمثله فإن شئت ابتليت، فقال: نعم يارب فابتلني، فبينما هو في محرابه ذات يوم وقعت حمامة، فأراد أن يأخذها فطارت إلى كوة المحراب، فذهب ليأخذها فاطلع من الكوة فإذا امرأة أوريا بن حيان تغتسل فهواها وهَمّ بتزوجها، فبعث بأوريا إلى بعض سراياه وأمر بتقديمه أمام التابوت الذي فيه السكينة ففعل ذلك وقتل، فلما انقضت عدتها تزوجها وبنى بها فولد له منها سليمان، فبينا هو ذات يوم في محرابه يقرأ إذ دخل عليه رجلان ففزع منهما، فقالا: لا تخف ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [صٓ: ٢٢] إلى قوله: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ﴾ فنظر أحد الرجلين إلى صاحبه ثم ضحك، فتنبه داود على أنهما ملكان بعثهما الله إليه في صورة خصمين ليبكتاه على خطيئته، فتاب وبكى حتى نبت الزرع من كثرة دموعه. فمما لا شبهة في فساده، فإن ذلك مما يقدح في العدالة فكيف يجوز أن يكون أنبياء الله تعالى الذين هم أمناؤه على وحيه وسفراؤه بينه وبين خلقه، بصفة من لا تقبل شهادته، وعلى حالة تنفّر عن الاستماع إليه والقبول منه؟ جل أنبياء الله عن ذلك.

التفسير الرمزي:

والطبرسي مع أنه في كتابه هذا يفسر القرآن تفسيراً يتمشى مع الظاهر المتبادر إلى الذهن، إلا أنا نلاحظ عليه أحياناً أنه يذكر المعاني الباطنية، أو بعبارة أخرى يذكر التفسير الرمزي الذي يقول به الشيعة، وكثيراً ما يؤيدها بأدلة من عنده.

مثال ذلك ما نقله من كتاب التوحيد لأبي جعفر بن بابويه رحمه الله بالإسناد عن عيسى ابن راشد عن أبي جعفر الباقر قوله: ﴿كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ﴾ [النور:٣٥] قال: نور العلم في صدر النبي ﷺ ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ﴾ الزجاجة صدر علي، صار علم النبي إلى صدر علي، علم النبي عليا ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ﴾ نور العلم ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ لا يهودية ولا نصرانية ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ﴾ قال: يكاد العالم من آل محمد يتكلم بالعلم قبل أن يسأل ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ﴾ أي إمام مؤيد ينور العلم والحكمة في إثر إمام من آل محمد ﷺ، ذلك من النبي آدم عليه السلام إلى أن تقوم الساعة، فهؤلاء الأوصياء الذين جعلهم خلفاء في أرضه، وحججه على خلقه، لا تخل الأرض في كل عصر من واحد منهم... تحقيق هذه الجملة يقتضي أن الشجرة المباركة المذكورة في الآية هي دوحة التقى والرضوان وعترة الهدى والإيمان، شجرة أصلها النبوة، وفروعها الإمامة، وأغصانها التنزيل، وأوراقها التأويل، وخدمها جبريل وميكائل.

اعتداله في تشيّعه:

والطبرسي معتدل في تشيعه، ولقد قرأنا في تفسيره فلم نلمس عليه تعصباً كبيراً، ولم نأخذ عليه أنه كفر أحداً من الصحابة أو طعن فيهم بما يذهب بعدالتهم ودينهم.

كما أنه لم يَغْل في شأن علي بما يجعله في مرتبة الإله أو مصاف الأنبياء وإن كان يقول بالعصمة. ولقد وجدناه يروي عن رسول الله ﷺ حديثاً في شأن من والى علياً ومن عاداه، وهو يصرف النظر عن درجته من الصحة مما يدل على أن الرجل وقف موقفاً وسطاً أو فوق الوسط إلى حد ما من حبه لعلي رضي الله عنه، هذا الحديث هو ما رواه في سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ۝٥٧﴾ [الزخرف: ٥٧] حيث قال: ما رواه سادة أهل البيت عن علي عليهم أفضل الصلوات أنه قال: جئت إلى رسول الله يوماً فوجدته في ملأ من قريش فنظر إليّ ثم قال: يا علي إنما مثلك في هذه الأمة كمثل عيسى ابن مريم، أحبه قوم فأفرطوا في حبه فهلكوا، وأبغضه قوم وأفرطوا في بغضه فهلكوا، واقتصد فيه قوم فنجوا، فعظم ذلك عليهم فضحكوا وقالوا: يشبهه بالأنبياء والرسل فنزلت الآية.

٤ ـ الصافي في تفسير القرآن الكريم
للملا محسن الكاشي

التعريف بصاحب هذا التفسير:

هو محمد بن الشاه مرتضى بن الشاه محمود، المعروف بملا محسن الكاشي وبالفيض الكاشي، وأحد غلاة الإمامية الإثني عشرية. قال [محمد باقر الموسوي] في روضات الجنات في ترجمته: وأمره في الفضل والفهم والنبالة في الفروع والأصول، والإحالة بمراتب المعقول والمنقول، وكثرة التأليف والتصنيف... وعمره كما استفيد لنا من تتبع تصانيفه الوافرة تجاوز حدود الثمانين. ووفاته بعد الألف من الهجرة الطاهرة بنيف يلحق تمام التسعين.

وقد ذكره صاحب أمل الآمل[1] فقال: «وله كتب: منها كتاب الوافي في جمع الكتب الأربعة مع شرح أحاديثها المشكلة، وهو حسن إلا أن فيه ميلا إلى بعض طريقة الصوفية، وكتاب سفينة النجاة في طريق العمل «وقال صاحب لؤلؤة البحرين[2]: وهذا الشيخ فاضل، محدث، إخباري، صلب، كثير الطعن على المجتهدين، ولا سيما في رسالة: سفينة النجاة، حتى إنه يفهم منها نسبة جملة من العلماء إلى الكفر فضلاً عن الفسق... وهو تفريط وغلو بحت، مع أن له أدلة من المقالات التي جرى فيها على مذهب الصوفية والفلاسفة مما يكاد

---

١ ـ أمل الآمل ـ محمد بن الحسن الحر العاملي ـ دار الكتاب الإسلامي ـ قم ـ إيران.

٢ ـ لؤلؤة البحرين في الإجازات وتراجم رجال الحديث ـ يوسف البحراني ـ الأضواء ـ بيروت.

يوجب الكفر والعياذ بالله، مثل ما يدل في كلامه بوحدة الوجود، وقد وقفت له على رسالة قبيحة صريحة في القول بذلك، قد جرى فيها على عقائد ابن عربي الزنديق، وأكثر فيها من النقل عنه وإن عبر عنه ببعض العارفين، ثم قال: وقد تتلمذ في الحديث على السيد ماجد البحراني، وفي الحكمة والأصول على صدر الدين محمد بن إبراهيم الشيرازي، كان صهره على ابنته، ولذا ترى أن كتبه في الأصول كلها على قواعد الصوفية والفلاسفة...

وحكى السيد السعيد السيد نعمة الله الجزائري التُسْتَري قال: كان أستاذنا المحقق المولى محمد محسن الكاشني صاحب مؤلفات وفيرة مما يقرب ما مائتي كتاب ورسالة، وكان نشوؤه في بلد قُم.

هذه ترجمة المؤلف وفيها ما يشهد للرجل بعلو كعبه بين أصحابه في العلم، كما أن الأقوال التي قيلت عن عقيدته تكاد تكون مجمعة على أنها عقيدة زائفة فاسدة، وإن كان صاحب روضات الجنات يحاول تبرئته من هذه التهمة ويقول إنها فرية بلا مرية... أما أنا فلم ألاحظ في تفسيره أثراً للقول بوحدة الوجود، ولا ما يشهد بأنه يرى عدم خلود الكفار في عذاب النار.

ولم أر على تفسيره ذلك اللون الصوفي الفلسفي، ولعل الكتاب من أواخر مؤلفاته وبعد رجوعه عما نُسب إليه واتهم به[1].

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

الصافي في تفسير القرآن الكريم، كتاب فسر فيه صاحبه القرآن الكريم على وفق مبادئ الإمامية الإثني عشرية. وهو تفسير وسط يقع في جزئين كبيرين، شرح الآيات القرآنية شرحاً مختصراً جداً ولا يطيل إلا إذا وجد في الآية ما يمكن أن يأخذ منه شاهداً على مبدأ من مبادئه، أو دليلاً على عقيدة من عقائده، أو دفعاً يدفع به رأياً من آراء مخالفيه. كذلك يطيل عند ما يعرض لشرح قصة من قصص القرآن، أو غزوة من غزوات الرسول ﷺ. والكتاب يعتمد أولاً وقبل كل شيء على ما ورد من التفسير عن الأئمة وعلماء أهل البيت شأنه في هذا شأن كل كتب التفسير عند الإمامية الإثني عشرية، الذين يعتقدون أن أهل البيت هم أدرى الناس بأسرار القرآن وأعلمهم بمعانيه. والكتاب في جملته يدل على مقدار تعصب صاحبه لمذهبه وغلوه في تشيعه، فهو يطعن في صحابة رسول الله ﷺ، ويرميهم بالنفاق والكفر... إلى غير ذلك مما ستقف عليه فيما بعد إن شاء الله تعالى.

هذا وقد قدم ملا محسن الكاشي لتفسيره باثنتي عشرة مقدمة، ولكن حسبي وحسب القارئ أن أذكر أهم الآراء التي يقول بها المؤلف ويشرحها لنا في هذه المقدمات.

---

١) انظر ترجمته في روضات الجنات ـ محمد باقر الموسوي: ٥٤٢ ـ ٥٤٩.

آل البيت هم تراجمة القرآن: لأنهم جمعوا علمه كله دون من عداهم:

يرى المؤلف أن آل البيت هم تراجمة القرآن دون من عداهم، فيقول في تفسيره: وإن العترة تراجمة القرآن فمن الكشاف عن وجوه عرايس أسراه ودقائقه وهم خوطبوا به؟ ومن عسى يبلغ علمهم بمعالم التنزيل والتأويل، وفي بيوتهم كان ينزل جبريل؟

ثم يمضي صاحبنا بعد ذلك فيؤيد قوله هذا بأحاديث يرويها عن أهل البيت كلها ـ فيما نعتقد وكما يظهر في أسلوبها ـ من وضع الشيعة وأخلاقهم.

من يجوز له أن يفسر القرآن برأيه:

إن في معاني القرآن لأرباب الفهم متسعاً بالغاً ومجالاً رحباً، ولكن نرى المؤلف يحدد لنا أولي الفهم بحدود، ويقيدهم بقيود لها صلة قوية بمذهبه الشيعي، وذلك حيث يقول في المقدمة: «فالصواب أن يقال: إن من أخلص الانقياد لله ولرسوله ولأهل البيت عليهم السلام، وأخذ علمه منهم، وتتبع آثارهم، واطلع على جملة من أسرارهم، بحيث حصل له الرسوخ في العلم، والطمأنينة في المعرفة... فله أن يستفيد من القرآن بعض غرائبه، ويستنبط منه نبذا من عجائبه».

الطعن في تفسير الصحابة:

يقرر المؤلف هذا بكل صراحة في مقدمة التفسير حيث يقول: «لأن في القرآن ناسخاً ومنسوخاً، ومحكماً ومتشابها... وظاهراً وباطناً، وحداً ومطلعاً. ولا يعلم تمييز ذلك كله إلا من نزل في بيته، وذلك هو النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته، فكل مالا يخرج من بيتهم فلا تعويل عليه، ولهذا ورد عن النبي ﷺ: «من فسر القرآن برأيه فأصاب الحق فقد أخطأ»[1]... وذلك أنه لما جرى في الصحابة ما جرى، وضل بهم عامة الورى، أعرض الناس عن الثقلين[2]، وتاهوا في بيداء ضلالاتهم عن النجدين إلا شرذمة من المؤمنين فمكث العامة بذلك سنين... فعمدوا إلى طائفة يزعمون أنهم من العلماء، فكانوا يفسرون لهم بالآراء، ويروون تفسيره عمن يحسبونه من كبرائهم، مثل أبي هريرة وأنس وابن عمر ونظرائهم، وكانوا يعدون أمير المؤمنين من جملتهم، ويجعلونه كواحد من الناس... ولم يعلموا أن أكثرهم كانوا يبطنون النفاق، ويجترئون على الله ويفترون على رسول الله ﷺ في عزة وشقاق». ثم عاب التفاسير الموجودة إلى أن قال: وبالحري أن يسمى هذا التفسير بالصافي، لصفائه عن كدورات آراء العامة والممل والمحير والمتنافي.

---

١ ـ سبق نحوه: الترمذي: ٢٩٥٣ في التفسير. وأبو داود: ٣٦٥٢ في العلم. قال الأرناؤوط: وفي سنده سهيل بن أبي حزم لا يحتج به، ضعفه البخاري وأحمد وأبو حاتم. راجع جامع الأصول: ٤٦٩.

٢) أراد بالثقلين: كتاب الله والعترة، كما أفصح عن ذلك في أول المقدمة ص٢.

جُلّ القرآن نازل في شأن آل البيت وأوليائهم وأعدائهم:

ويعتقد صاحبنا أن معظم القرآن إنما نزل في شأن آل البيت وأوليائهم وأعدائهم، فما كان من آية مدح فهي في آل البيت وأشياعهم، وما كان من آية ذم أو وعيد أو تهديد فهي في مخالفيهم، ثم يقوي رأيه بما يرويه عن علماء أهل البيت، حيث قال: وذلك مثل لما رواه الكافي عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٥] قال: هي الولاية لأمير المؤمنين رضي الله عنه. وفي تفسير العياشي عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: يا أبا محمد...إذا سمعت الله ذكر قوماً من هذه الأمة بخير فنحن هم، وإذا سمعت الله ذكر قوماً بسوء ممن مضى فهم عدونا.

رأيه في تحريف القرآن وتبديله:

يدين ملا محسن بأن علياً رضي الله عنه هو أول من جمع القرآن، وأن القرآن الذي جمعه هو القرآن الكامل الذي لم يتطرق إليه تحريف ولا تبديل، ويروي لنا في مقدمة التفسير أحاديث عن آل البيت كمستند له في رأيه هذا، فمن ذلك: ما روي عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه: أنه لما توفي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جمع علي عليه السلام القرآن وجاء به إلى المهاجرين والأنصار وعرضه عليهم، ولما قد أوصاه بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فلما فتحه أبو بكر خرج في أول صفحة فتحها فضائح القوم، فوثب عمر وقال: يا علي اردده فلا حاجة لنا فيه، فأخذه علي رضي الله عنه وانصرف، ثم حضر زيد بن ثابت ـ وكان قارئاً للقرآن ـ فقال له عمر: إن علياً جاءنا بالقرآن وفيه فضائح المهاجرين والأنصار، وقد أردنا أن تؤلف لنا القرآن وتسقط منه ما كان فيه فضيحة وهتك للمهاجرين والأنصار، فأجابه زيد إلى ذلك، ثم قال: فإن أنا فرغت من القرآن على ما سألتم وأظهر علي القرآن الذي ألفه أليس قد بطل كل ما عملتم؟ ثم قال عمر: فما الحيلة؟ قال زيد: أنتم أعلم بالحيلة، فقال عمر: ما الحيلة دون أن نقتله ونستريح منه، فدبر في قتله على يد خالد بن الوليد فلم يقدر على ذلك... فلما استخلف عمر سأل علياً رضي الله عنه أن يدفع إليه القرآن فيحرقوه فيما بينهم فقال: يا أبا الحسن، إن كنت جئت به إلى أبي بكر فأت به إلينا حتى نجتمع عليه، فقال علي عليه السلام: هيهات ليس إلى ذلك سبيل، إنما جئت به لأبي بكر لتقوم به الحجة عليكم ولا تقولوا يوم القيامة: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف :١٧٢] أو تقولوا: ما جئتنا به. إن القرآن الذي عندي لا يمسه إلا المطهرون والأوصياء من ولدي، قال عمر: فهل وقت لإظهاره معلوم؟ قال علي عليه السلام: نعم. إذا قام القائم من ولدي فيظهره ويحمل الناس عليه فتجري السنة به.

ولكنا نجد صاحبنا بعد ما ساق هذه الروايات وكثيراً غيرها يقف منها موقف المستشكل فيقول: «ويرد على هذا كله إشكال، وهو أنه على هذا التقدير لم يبق لنا اعتماد على شيء من القرآن، إذ على هذا يحتمل كل آية منه أن يكون محرفاً ومغيراً، أو يكون على خلاف ما أنزل

الله، فلم يبق لنا في القرآن حجة أصلاً، فتنتفي فائدة الأمر باتباعه والوصية بالتمسك به إلى غير ذلك، وأيضاً قال الله عز وجل: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤١ ـ ٤٢] وقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩] ومع أن خبر التحريف مخالف لكتاب الله مكذب له، فيجب رده والحكم بفساده أو تأويله».

طريقة المؤلف في تفسيره:

بيَّن المؤلف في المقدمة طريقته واصطلاحاته التي جرى عليها في كتابه فقال: «كل ما يحتاج من الآيات إلى بيان وتفسير لفهم المقصود من معانيه. أو إلى تأويل لمكان تشابه فيه، أو إلى معرفة سبب نزوله المتوقف عليه فهمه وتعاطيه، أو إلى تعرف نسخ أو تخصيص أو صفة أخرى فيه، وبالجملة ما يزيد على شرح اللفظ والمفهوم مما يفتقر إلى السماع عن المعصوم، فإن وجدنا شاهداً من محكمات القرآن يدل عليه أتينا به فإن القرآن يفسر بعضه بعضا، وقد أمرنا من جهة أئمة الحق عليهم السلام أن نرد متشابهات القرآن إلى محكماته، وإلا فإن ظفرنا فيه بحديث معتبر عن أهل البيت ـ عليهم السلام ـ في الكتب المعتبرة من طرق أصحابنا رضوان الله عليهم أوردناه. وإلا أوردنا ما روينا عنهم عليهم السلام من طرق العامة...وما ورد فيه أخبار كثيرة فإن لم يكن فيها كثير اختلاف اقتصرنا منها على ما اشتمل على مجامعها...وإن كانت مختلفات نقلنا أصحها وأحسنها وأعمها فائدة، ثم أشرنا إلى موضع الاختلاف ما استطعنا. وما لا يحتاج إلا إلى شرح اللفظ والمفهوم... مما لا يفتقر إلى السماع من المعصوم، أردنا فيه ما ذكره المفسرون الظاهريون، من كان تفسيره أحسن... ثم ذكر أنه اقتبس من تفسير الحسن العسكري وغيره، وذكر اصطلاحاته في العزو إلى الكتب التي استقى منها، وفي نسبة الأقوال إلى قائليها ولا نطيل بذكرها.

هذه هي أهم الآراء التي يقول بها الملا محسن، والتي استخلصناها من مقدمته للتفسير. ولقد قرأت في هذا الكتاب، فلمست فيه روح التحيز المزري، والتعصب الممقوت. وإليك ما قال:

القرآن وأهل البيت:

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: ٣٤] يقول: «وذلك لما كان في صلبه ـ [أي صلب آدم] ـ من أنوار نبينا وأهل بيته المعصومين، وكانوا قد فضلوا على الملائكة باحتمالهم الأذى في جنب الله، فكان السجود لهم تعظيماً وإكراماً، ولله سبحانه عبودية، ولآدم طاعة».

فأنت ترى أن المؤلف يجدّ في إخضاع آيات القرآن لمذهبه. وتنزيلها على وفق هواه وعقيدته، وهذا خروج بكتاب الله عن معانيه الظاهرة المرادة منه!!.

طعن المؤلف على الصحابة:

يطعن على أبي بكر، وعمر، وعثمان، وغيرهم من صحابة رسول الله ﷺ، ويرميهم بما لا يليق بمؤمن فضلاً عن صحابي جاهد مع رسول الله ﷺ وبذل في سبيل نصرته دمه وماله، كما يطعن في بني أمية ويرميهم بكل نقيصة، وهو في حملته هذه مدفوع بدافع الخصومة المذهبية والنزعة الشيعية.

طعنه على عثمان رضي الله عنه:

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٤ ـ ٨٥] نجده يروي عن القمي: «أنها نزلت في أبي ذر ـ رحمة الله عليه ـ وفيما فعل به عثمان بن عفان وكان سبب ذلك: أنه لما أمر عثمان بنفي أبي ذر ـ رحمة الله عليه ـ إلى الربذة، دخل عليه أبو ذر وكان عليلاً وهو متكئ على عصاه... ثم يذكر قصة طويلة وحواراً ينم عن عداوة بين أبي ذر وعثمان، ثم يذكر حديثاً عن رسول الله يقول فيه الرسول لأبي ذر: وقد أنزل الله فيك وفي عثمان خصمك آية. فقلت: وما هي يا رسول الله؟ فقال: قول الله... وتلا الآية.

طعنه على أبي بكر وعمر وعائشة وحفصة رضي الله عنهم:

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التحريم: ١] إلى قوله: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [التحريم: ٣] نراه ينقل عن القمي في سبب نزول هذه الآية: «أن رسول الله ﷺ كان في بعض بيوت نسائه، وكانت مارية القبطية تكون معه تخدمه، وكانت ذات يوم في بيت حفصة، فذهبت حفصة في حاجة لها، فتناول رسول الله مارية. فعلمت حفصة بذلك فغضبت، وأقبلت على رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله ،في يومي؟ وفي داري وعلى فراشي؟ فاستحى رسول الله منها فقال: كفى، فقد حرمت مارية على نفسي، ولا أطؤها بعد هذا أبداً، وأنا أفضي إليك سراً إن أخبرت به فعليك لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، فقالت: نعم، ما هو؟ فقال: إن أبا بكر يلي الخلافة بعدي، ثم بعده أبوك، فقالت: ﴿مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ﴾ [التحريم: ٣]، قال: ﴿نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾، فأخبرت حفصة به عائشة من يومها ذلك، وأخبرت عائشة أبا بكر فجاء أبو بكر إلى عمر فقال له: إن عائشة أخبرتني عن حفصة بشيء ولا أثق بقولها فاسأل أنت حفصة، فجاء عمر إلى حفصة فقال لها: ما هذا الذي أخبرت عنك عائشة، فأنكرت ذلك وقالت: ما قلت لها من ذلك شيئاً، فقال لها عمر: إن هذا حق فأخبرينا حتى

نتقدم فيه، فقالت: نعم، قد قاله رسول الله ﷺ، فاجتمعوا أربعة على أن يسمّوا رسول الله، فنزل جبريل على رسول الله بهذه السورة، قال: ﴿وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ يعني أظهره الله على ما أخبرت به، وما هموا به من قتله ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ﴾ أخبرها وقال: لم أخبرت بما أخبرتك؟ ﴿وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍۖ﴾ قال: لم يخبرهم بما يعلم مما هموا به من قتله.

ولاية عليّ:

كذلك نجد المؤلف ينظر إلى القرآن من خلال عقيدته، ونراه ينتصر لمذهبه ويتعصب له، فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥] نراه يستند إلى هذه الآية استناداً قوياً في أن علياً رضي الله عنه هو وصي النبي ﷺ وخليفته من بعده، فيقول: «في الكافي عن الصادق عن أبيه عن جده في قوله عز وجل: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣] قال: لما نزلت: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ...﴾ اجتمع نفر من أصحاب رسول الله ﷺ في مسجد المدينة فقال بعضهم: إن كفرنا بهذه الآية نكفر بسائرها، وإن آمنا فإن هذا ذُل حين يسلط علينا علي بن أبي طالب، فقالوا قد علمنا أن محمداً صادق فيما يقول، ولكنا نتولاه ولا نطيع علياً فيما أمرنا، قال: فنزلت هذه الآية: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ يعني ولاية علي عليه السلام ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ بالولاية».

أولو الأمر الذين تجب طاعتهم:

ومثلاً عند قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾ [النساء: ٥٩] نراه يحمل هذه الآية على وفق مذهبه، فيقصر أولى الأمر على الأئمة من أهل البيت خاصة، أما من عداهم فليسوا أولى الأمر، وليس على أحد أن يقوم بطاعتهم، ولهذا يقول عند تفسيره لهذه الآية: «في الكافي والعياشي عن الباقر: إيانا عنى خاصة، أمر جميع المؤمنين إلى يوم القيامة بطاعتنا».

استدلاله على الرجعة:

ولما كان المؤلف يدين بالرجعة فإنا نجده يستدل على جوازها بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٥ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٥٦﴾ [البقرة: ٥٥ ـ ٥٦] وذلك حيث يقول: أقول، قيّد البعث بالموت لأنه قد يكون عن إغماء ونوم، وفيه دلالة واضحة على جواز الرجعة التي قال بها أصحابنا نقلاً عن أئمتهم.

تأثره في تفسيره بالفروع الفقهية للإمامية:

إليك بعض الأمثلة لتعرف مقدار تأثر هذا التفسير بمذهب صاحبه الفقهي.

المتعة:

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ. . .﴾ الآية [النساء: ٢٤] نراه يتأثر بما يراه من حل نكاح المتعة حيث يقول: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [النساء: ٢٤]: مهورهن، سمى أجراً لأنه في مقابلة الاستمتاع. في الكافي عن الصادق، إنما أنزلت: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ والعياشي عن الباقر. أنه كان يقرأها كذلك... ولا تحل لغيرك حتى تنقضي عدتها، وعدتها حيضتان... وعن الباقر كان علي يقول، لولا ما سبقني به ابن الخطاب ما زنى إلا شفى (بالفاء) ـ يعني إلا قليل ـ أراد أنه لولا ما سبقني به عمر من نهيه عن المتعة وتمكن نهيه من قلوب الناس، لندبت الناس عليها، ورغبتهم فيها، فاستغنوا بها عن الزنى، فما زنى إلا قليل.

نكاح الكتابيات:

وملا محسن لا يميل إلى حرمة نكاح الكتابيات من اليهود والنصارى، ولهذا نراه عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ [المائدة: ٥] يقول: وفي الكافي، والمجمع، والعياشي، عن الباقر: أنها منسوخة بقولة: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: ١٠] وزاد في المجمع وبقوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٢١]. القمي: أحل الله نكاح أهل الكتاب بعد تحريمه في قوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢١] قال: وإنما يحل نكاح أهل الكتاب الذين يؤدون الجزية، وغيرهم لم تحل مناكحتهم. (أقول): يؤيد هذا، الحديث النبوي إن سورة المائدة آخر القرآن نزولا فأحلوا حلالها وحرموا حرامها[1].

مسح الرجلين في الوضوء:

ويرى صاحبنا أن فرض الرجلين في الوضوء مسحها لا غسلها، ولهذا نراه عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: ٦] نراه يقول: دلالة الآية على مسح الرجلين دون غسلهما أظهر من الشمس في رابعة النهار.

الغنائم:

وهو يرى في الغنائم ما يراه غيره من علماء مذهبه من أن الخمس يقسم إلى ستة سهام: سهم لله، وسهم للرسول، وسهم للإمام، وسهم ليتامى آل الرسول، وسهم لمساكينهم، وسهم

---

١ ـ وجدته موقوفا على عائشة رضي الله عنها عند أحمد: ١٨٨/٦. وصححه الحاكم: ٣١١/٢ على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

لأبناء سبيلهم. وسهم الله وسهم الرسول يرثهما الإمام، فيكون للإمام ثلاثة أسهم من ستة.

أفعال العباد:

يرى أن العبد يخلق أفعال نفسه ويوافق برأيه هذا رأي المعتزلة القائلين بخلق العباد أفعال أنفسهم. فمثلاً عند ما فسر قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الأنعام: ١٢٣] نراه يفر من نسبة هذا الجعل إلى الله تعالى فيقول: خليناهم وشأنهم ليمكروا ولم نكفهم عن المكر.

رؤية الله:

كذلك يوافق ملا محسن المعتزلة في أن رؤية الله تعالى [في الدنيا والآخرة] غير جائزة ولا واقعة، ولهذا نراه يتأول آيات الرؤية كما تأولها المعتزلة.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣] قال: ينظرون إلى وجه الله أي إلى رحمته ونعمته، وفي العيون عن الرضا قال: يعنى مشرقة تنتظر ثواب ربها.

الشفاعة:

ويخالف المؤلف المعتزلة في القول بالشفاعة فهو يرى أنها جائزة وواقعة يوم القيامة، وأن أهل البيت يشفعون للعصاة من شيعتهم، ولهذا عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [البقرة: ٤٨] نراه ينقل عن الإمام الصادق أنه قال: «هذا يوم الموت فإن الشفاعة والفداء لا يغني عنه، فأما القيامة فإنا وأهلنا نجزي عن شيعتنا كل جزاء، ليكونن على الأعراف بين الجنة والنار محمد، وعلي، وفاطمة، والحسن، والحسين، والطيبون من آلهم، فترى بعض شيعتنا في تلك العرصات، فمن كان منهم مقصراً وفي بعض شدائدها فنبعث عليهم خيار شيعتنا كسلمان والمقداد وأبي ذر، وعمار، ونظرائهم في العصر الذي يليهم، ثم في كل عصر إلى يوم القيامة، فينقضون عليهم كالبزاة والصقور، ويتناولونهم كما تتناول البزاة والصقور صيدها، فيزفونهم إلى الجنة زفا».

ثم يذكر المؤلف أن من خالفهم يكون فدية للمقصرين من آل البيت ومحبيهم ويدخل جهنم بدلا عنهم.

السحر:

كذلك يخالف المؤلف المعتزلة في القول بالسحر، فهو يعترف بحقيقته ولا ينكر أن النبي ﷺ سُحر، ولهذا نراه عند تفسيره لسورة الفلق يقول: ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾﴾ ومن شر النفوس أو النساء السواحر اللواتي يعقدن عقداً في خيوط وينفثن

عليها، والنّفث: النفخ مع ريق... ثم ذكر الحديث الذي فيه أن رسول الله ﷺ سُحر بفعل لبيد ابن الأعصم[1].

روايته للأحاديث الموضوعة:

ثم لا يفوتنا على أن هذه الأحاديث التي يرويها المؤلف في تفسيره عن رسول الله ﷺ أو عن أهل البيت كشاهد لصحة ما يقول، هي في الغالب مكذوبة موضوعة لا أصل لها، وقد مر بك الكثير من هذه الروايات، وهي ناطقة على نفسها بالوضع، فلست في حاجة إلى بيان وضعها بميزان نقد الرواة، إذ نحن في غنى عن هذا بعد ما حمل الحديث تكذيب نفسه بنفسه في ثنايا ألفاظه ومعانيه. والمصنف بعد هذا لا يفوته أن يذكر في نهاية تفسير كل سورة من الروايات عن أهل البيت ما يشهد لفضل هذه السورة، وما أعد الله لقارئها من الأجر والثواب، وفي اعتقادي أن هذه الروايات لا تعدو أن تكون مكذوبة كالروايات المنسوبة إلى أبَي وابن عباس في فضائل السور، وليس بغريب أن يذكر صاحبنا مثل هذه الروايات المكذوبة في تفسيره بعد ما سود كتابه من أوله إلى آخره بالأحاديث الموضوعة على رسول الله ﷺ وعلى آل بيته عليهم رضوان الله.

٥ ـ تفسير القرآن
للسيد عبد الله العلوي

التعريف بصاحب هذا التفسير:

هو السيد عبد الله بن محمد رضا، العلوي، الحسيني، الشهير بشبَّر. ولد بأرض النجف سنة ١١٨٨هـ، ثم ارتحل مع والده إلى الكاظمية ومكث بها إلى أن مات سنة ١٢٤٢هـ. كان في نظر أصحابه من أعيان الشيعة وفضلائهم، فقيهاً، محدثاً، مفسراً متبحراً، جامعاً لعلوم كثيرة. من مصنفاه غير هذا التفسير رسالة في حجية العقل والحسْن والقبْح العقليين وغير ذلك[2].

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

هذا التفسير يجري على مذهب الإمامية الإثني عشرية، من حمل ألفاظ القرآن الكريم على معان تتفق وأصول المذهب وتعاليمه، مع شيء من التعصب والغلو في التنويه بشأن أهل البيت والحط من قدر الصحابة الذين يعتبرهم غير موالين لعلي وذريته. والكتاب مختصر في

---

١ ـ الحديث في البخاري: ١٠/ ١٩١ ـ ١٩٧ في الطب. وفي مسلم: ٢١٨٩ في السلام، وكلاهما في باب السحر. وفي جامع الأصول رقم: ٣٠٧٧.

٢) انظر ترجمته في روضات الجنات ـ محمد باقر الموسوي: ٣٧٤، وترجمته الموجودة بأول الكتاب لتلميذه السيد محمد معصوم.

ألفاظه، موجز في عباراته، مع تضمنه للمعاني الكثيرة الدقيقة، فهو أشبه ما يكون بتفسير الجلالين من جهة إفادة المعاني الكثيرة، والنكات الخفية الدقيقة، بعبارة سهلة موجزة.

ولقد حرص المؤلف فيه على أن يكون جل اعتماده على ما ورد من التفسير عن أهل البيت، وإن كان لا يعزو كل قول إلى قائله في الغالب. وهو بعد ذلك يشرح الآيات التي لها صلة بمسائل علم الكلام شرحاً يتفق أحياناً كثيرة مع مذهب المعتزلة. ثم لا يفوت المؤلف في تفسيره هذا أن يشير إلى بعض مشكلات القرآن التي ترد على ظاهر النظم الكريم. ثم يجيب عنها. كما لا يفوته أن يكشف لنا عن كثير من النكات اللفظية والبيانية والمعنوية، مع الخوض أحياناً في المعاني اللغوية والمسائل النحوية.

والكتاب مطبوع في مجلد واحد كبير الحجم، وموجود بدار الكتب المصرية.

تعصب المؤلف لأصول مذهبه وأثر ذلك في تفسيره

هذا، وإن المؤلف بحكم عقيدته وهواه يتأثر في تفسيره بتعاليم الإمامية الإثني عشرية وأصول مذهبهم، فلا يكاد يمر بآية يلمح منها حجة لمذهبه أو دفعاً لمذهب مخالفيه إلا فسرها كما يحب ويهوى:

الإمامة [والعصمة]:

فمثلاً نراه يتأثر بعقيدته في الإمامة عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥] فيذكر أنها (نزلت في علي رضي الله عنه حين سأل سائل وهو راكع في صلاته فأومأ إليه بخنصره فأخذ خاتمه منها) ويدعي إطباق أكثر المفسرين على ذلك واستفاضة الروايات فيه من الجانبين - جانب الموافقين وجانب المخالفين - ثم يقول بعد ذلك: (وتدل - يعني الآية - على إمامته دون سواه، للحصر وعدم اتصاف غيره بهذه الصفات، وعبر عنه بصيغة الجمع تعظيماً، أو لدخول أولاده الطاهرين).

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] يقول: دل على وجود أولي الأمر في كل زمان، بحيث يجب طاعتهم لعلمهم وفضلهم، وعصمتهم، ولا ينطبق إلا على مذهب الإمامية... وعنهم عليهم السلام: إيانا عنى خاصة، أمر جميع المؤمنين إلى يوم القيامة بطاعتنا.

الرجعة وتحريف القرآن:

والمؤلف يدين بالرجعة ويتأثر بها، فمثلاً في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾ [البقرة: ٢ - ٣] نجده يفسر الغيب «بما غاب عن حواسهم من معرفة الصانع، وصفاته، والنبوة، وقيام القائم، والرجعة، والبعث، والحساب، والجنة، والنار».

كذلك نجده يعتقد بأن القرآن بُدّل وحُرّف، ولما اصطدم بقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩] نجده يتفادى هذا الاصطدام بالتأويل فيقول: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ عند أهل الذكر واحداً بعد واحد إلى القائم، أو في اللوح. وقيل الضمير للنبي ﷺ.

طعنه على الصحابة:

يطعن على الصحابة ويرميهم بالكفر أو ما يقرب منه، فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] نجده يعرض عن تعيين هذا الذي صحب النبي ﷺ في هجرته، وهو أبو بكر، ثم يصرح أو يلمح بما ينقص من قدره، فيقول: ﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾ حال أي معه واحد لا غير. (يَقُولُ لِصَاحِبِهِ) ولا مدح فيه إذ قد يصحب المؤمنُ الكافرَ كما قال: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ۝٣٧﴾ [الكهف: ٣٧] ﴿لَا تَحْزَنْ﴾ فإنه خاف على نفسه وقُبض واضطرب حتى كاد أن يدل عليهما فنهاه عن ذلك. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ عالم بنا.

تعصبه لآل البيت:

فمثلاً عن تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٣٤﴾ [البقرة: ٣٤]، نجده يدّعي أن السّجود لآدم إنما كان «لما في صلبه من نور محمد ﷺ وأهل بيته».

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آلعمران: ٧] يقول: عن الصادق عليه السلام: نحن الراسخون في العلم، ونحن نعلم تأويله.

تأثّر المؤلف في تفسيره بفروع الإمامية الفقهية

ثم أن المؤلف يجري في تفسيره لآيات الأحكام على وفق ما يأخذ به ويميل إليه اجتهادات فقهاء الإمامية:

نكاح المتعة:

فمثلاً نجده يقول بجواز نكاح المتعة وعدم نسخة. فنراه عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [النساء: ٢٤] يقول: والمراد به نكاح المتعة بإجماع أهل البيت، ويدل عليه قراءة أبي وابن عباس وابن مسعود: (فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى).

الغنائم وميراث الأنبياء:

كذلك يقول المؤلف بما يقول به علماء مذهبه في تفسير خمْس الغنائم عند قوله تعالى:

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ [الأنفال: ٤١] فيقول: «فواجب أن لله خمسه ﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [الحشر: ٧]الإمام ﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ يتامى الرسول ﴿وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ منهم ﴿وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ منهم...

ونجد شبَّراً يقول بأن الأنبياء يورثون المال كسائر الناس، ولهذا عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ﴾ [النمل: ١٦] يقول: «وورث سليمان داود ماله وملكه وقيل: نبوته وعلمه، بأن قام مقامه في ذلك دون سائر بنيه وهم تسعة عشر، والأول مروي».

نكاح الكتابيات:

ولكن نرى المؤلف في مسالة نكاح الكتابيات يميل إلى القول بالحل وعدم الحرمة، ففي قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ﴾ [المائدة: ٥] يقول: ظاهرة حل نكاح كل كتابية ذمية أو حربية، دائماً، أو منقطعاً، أو ملكاً، فيخص آية ولا تنكحوا المشركات إن شملت الكتابية.

تأثّره بمذهب المعتزلة في تفسيره

والمؤلف كغيره من علماء الإمامية الإثني عشرية ينظر إلى بعض المسائل الكلامية نظرة المعتزلة إليها، كما يخالف أهل الاعتزال في بعض منها ويقول بما يقول به أهل السنة:

حرية الإرادة وخلق الأفعال:

فمثلاً نجد المؤلف يوافق المعتزلة في أن العبد حر في إرادته. خالق لأفعاله كلها، فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٧﴾ [البقرة: ٧] نراه يفر من نسبة الختم إلى الله تعالى ويقول: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ﴾ وسمها بسمة يعرفها من يشاء من ملائكته وأوليائه، إذا نظروا إليها علموا بأنهم لا يؤمنون.

رؤية الله وغفران الذّنوب:

ولقد تأثر المؤلف أيضاً في تفسيره باعتقاده بعدم رؤية الله وعدم وقوعها ولهذا لما فسر قوله تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ٢٣﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣] يقول: ناظرة إلى رحمته وإنعامه.

ويرى المؤلف أنه يجوز في حق الله تعالى أن يغفر الذنوب ـ إلا الشّرك ـ بدون توبة من العبد تفضلاً منه ورحمة، وهذا ما لا يقول به المعتزلة، فلهذا نجده يجري على هذه العقيدة في تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨]

فيقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ﴾ أي الشرك ﴿بِهِۦ﴾ بدون توبة للإجماع على غفرانها بها ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ ما سواه من الذنوب بدون توبة ﴿لِمَن يَشَآءُۚ﴾ تفضلاً، ومقتضاه الوقوف بين الخوف والرجاء.

وهكذا نجد الكتاب يجمع بين الاختصار وسهولة العبارة مع كثير من التعصب للمذهب الشيعي، والدفاع عن أصوله وفروعه.

٦ ـ بيان السعادة في مقامات العبادة لسلطان محمد الخراساني

التعريف بصاحب هذا التفسير:

هو سلطان محمد بن حيدر الجنابذي الخراساني أحد متطرفي الإمامية الإثني عشرية في القرن الرابع عشر الهجري.

قيمة هذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

سلك مؤلفه فيه مسلكاً غير مسلك سابقيه، ذلك أن المؤلف وإن كان يعتقد كغيره من علماء مذهبه أن علم القرآن عند الأئمة، إلا أنه لم يعتمد في تفسيره على هذه الناحية كل الاعتماد، بل نراه يمزج بها التفسير الصوفي الذي يقوم على الرموز والإشارات، كما يخلط بالتفسير كثيراً من البحوث الفلسفية الدقيقة. والذي يتتبع مافيه من الشطحات الصوفية لا يسعه إلا أن يحكم على الكتاب بأنه مغلق في إدراك معانيه.

والذي نلحظه في هذا التفسير بعد ذلك: أنه يدافع عن أصول مذهبه إلى درجة الغلو والعناد. أما فروع المذهب ومسائله الاجتهادية الفقهية، فيمر عليها مراً سريعاً بدون تفصيل للأدلة وبيان لوجهة النظر، كما نلحظ فيه أنه لا يقتصر على النقل من تفاسير الشيعة بل ينقل من تفاسير السنة أيضاً كالبيضاوي وغيره، وكثيراً ما ينقل بعض العبارات الفارسية لبعض العلماء كشاهد على ما يقول.

والكتاب مطبوع في جزأين، وموجود بدار الكتب المصرية، وذكر في آخره ما يدل على أن مؤلفة فرغ منه سنة ١٣١١هـ.

الإماميّة الإثنا عشريّة والمهدي المنتظر:

يدين صاحبنا بأن علياً أول العترة، ووارث علم محمد ﷺ، وبعده الأحد عشر من ولده، وأن الحادي عشر منهم غائب قائم منتظر لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطول الله

ذلك حتى يخرج ويملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت ظلماً وجوراً، وأن هؤلاء الإثني عشر أئمته وشفعاؤه يوم القيامة[١].

القرآن والعترة:

ويعتقد المؤلف أن القرآن دليل العترة، وأن العترة مبينون للقرآن، ويقول: إن القرآن إمام صامت، والعترة إمام ناطق[٢].

علم القرآن جميعه عند محمد ﷺ والأوصياء:

ويعتقد المؤلف أن علم القرآن عند النبي ﷺ والأئمة، أما من عداهم فعلمهم بمعاني القرآن قاصر لا يبلغ المبلغ الذي خص به النبي والأئمة[٣].

يقول المؤلف: الفصل العاشر: إن علم القرآن بتمام مراتبه منحصر في محمد ﷺ وأوصيائه الإثني عشر وليس لغيرهم إلا بقدر مقامه، قد مضى أن بطون القرآن وحقائقه كثيرة متعددة، وأن بطنه الأعلى وحقيقته العليا هو محمدية محمد، وعلوية علي، وهو مقام المشيئة التي هي فوق الإمكان، وكل نبي ووصي كان لا يتجاوز مقامه الإمكان سوى محمد ﷺ وأوصيائه.

تحريف القرآن وتبديله:

والمؤلف يذكر لنا رأيه بوضوح في تحريف القرآن وتبديله فيقول: أعلم أنه قد استفاضت الأخبار عن الأئمة الأطهار بوقوع الزيادة والنقيصة والتحريف والتغيير فيه بحيث لا يكاد يقع شك في صدور بعضها منهم... وكما كانت الدواعي متوفرة في حفظه كذلك كانت متوفرة من المنافقين في تغييره[٤].

نزول القرآن في شأن الأئمة وأشياعهم وأعدائهم:

ويرى المؤلف أن القرآن نزل بتمامه في الأئمة الإثني عشر، ويوجه ذلك فيقول: لما كان جميع الشرائع الإلهية والكتب السماوية لتصحيح الطريق الإنسانية، وتوجيه الخلق إلى الولاية، وكان أصل المتحققين بالطريق الإنسانية والولاية والمتحقق بالولاية المطلقة محمداً ﷺ وعلياً وأولادهما، صح أن يقال: جملة الشرائع الإلهية وجميع الكتب السماوية نزلت فيهم وفي توجيه الخلق إليهم...

---

١) ١/ ٢.
٢) ١/ ٢.
٣) ١/ ١٠.
٤) ١/ ١٢.

جميع القرآن نزل فيهم ولما كان القرآن مفصلاً يكون بعض آياته فيهم وفي محبيهم، وبعضها في أعدائهم ومخالفيهم، وبعضها سننا وأمثالاً، وبعضها فرائض وأحكاماً[١].

[نزعته] الصوفية:

قلنا: إن هذا التفسير يغلب عليه الطابع الصوفي لكثرة ما فيه من التأويلات الإرشادية، والشطحات الصوفية. فمثلاً عند قوله تعالى: ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥] يقول: «وقد بقي بين الصوفية أن يكون التعليم والتلقين بتعاضد نفسين متوافقتين، يسمى أحد الشخصين هادياً والآخر دليلاً، والشيخ الهادي له الهداية وتولي أمور السالك فيما ينفعه ويجذبه، والشيخ الدليل ينصره لمدافعة الأعداء، ويخرجه عن الجهل والردى بدلالة طريق التوسل إلى شيخ الهدى، وفي الآية إشارة إلى أن السالك ينبغي له أن يطلب دائماً حضوره عند شيخه بحسب مقام نورانيته ومقام صدره، وهو معنى انتظار ظهور الشيخ في عالم الصغير، وأما ظهور الشيخ بحسب بشريته على بشرية السالك، فلا يصدق عليه أنه من لدن الله، وإذا ظهر الشيخ بحسب النورانية كان ولياً من لدن الله ونصيراً من لدنه».

[ميله] إلى التفسير الفلسفي:

كذلك نجد المؤلف في كثير من الأحيان يخلط البحوث الفلسفية بتفسيره للآيات القرآنية، فمثلاً في أول سورة الإسراء نراه يحقق أن المعراج كان بجسده وروحه ﷺ، ويرد على الفلاسفة الذين ينكرون ذلك، ويقدم لبحثه هذا بمقدمة كلها نظريات فلسفية مخلوطة ببعض خرافات منسوبة إلى الإمام علي عليه السلام، وذلك حيث يقول: العالم ليس منحصراً في هذا العالم المحسوس المعبر عنه بعالم الطبع بسماواته وأرضيه، بل فوقه البرزخ، وهو عالم بين عالم الطبع وعالم المثال، وله الحكومة على عالم الطبع والتصرف فيه أي تصرف شاء، من الإحياء، والإماتة، وإيجاد المعدوم، وإعدام الموجود، وستر المحسوس، وإظهار غير المحسوس بصورة المحسوس. ومنه طي الأرض، والسير على الماء والهواء، والدخول في النار سالماً، وقلب الماهيات. ومنه طي الزمان، كما ورد في الأخبار أنه قال المعصوم لمنافق: اخسأ، فصار كلباً. وقال لآخر: أنت امرأة بين الرجال، فصار امرأة. وأنكر آخر قلب الماهيات عند المعصوم، فسار إلى نهر ليغتسل فدخل الماء وارتمس[٢] فخرج ورأى نفسه امرأة على ساحل بحر قرب قرية منكورة، فدخلت القرية وتزوجت وعاشت مدة وولدت لها أولاد... ثم خرجت لتغتسل في البحر فدخلت الماء وارتمست فخرجت على ساحل النهر المعهود وهو رجل وإذا بثيابه موضوعة كما وضعها. فلبسها ودخل بيته وأهله غير شاعرين

---

١) ١/ ١٣.

٢) ارتمس: من الارتماس، وهو الانغماس.

بغيبته لقصر الزمان. وأمثال ذلك رويت عن التابعين لهم على الصدق، وهذا من قبيل بسط الزمان إن كان وقوعه في عالم المالك... إذا تقرر ذلك نقول: إنه عرج ببدنه الطبيعي وعليه عباءة ونعلاه إلى بيت المقدس، ومنه إلى السموات، ومنها إلى الملكوت، ومنها إلى الجبروت ومنها إلى العرش الذي هو فوق الإمكان.

آل البيت والأمم السّابقة:

يذكر لنا من الأخبار ما يدل على أن محمداً ﷺ وآل بيته كانوا معروفين عند الأمم السابقة، وكان لهم أشياع وأتباع، وهذه الروايات لا نعتقد إلا أنها من قبيل الخرافات، ومن هذه الروايات ـ مثلاً ـ ما ذكره المؤلف في قصة قتيل بني إسرائيل المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [البقرة: ٦٧] إلى آخر القصة من أن موسى جمع أماثل القبيلة التي وجد القتيل فيها، وألزمهم أن يحلف خمسون منهم بالله القوي الشديد إله بني إسرائيل بفضل محمد وآله الطيبين على البرايا أجمعين ما قتلناه ولا علمنا له قاتلا.

قَصَص القرآن:

يقرر أن القصص القرآني وما ورد في شروحه من الروايات على اختلافها وتضاربها، ليس المقصود منه ظاهره الذي يتبادر إلى الذهن، بل هي من قبيل المرموزات التي رمزوا بها لأشياء يعلمونها ويريدونها، فعند ما تكلم على قصة آدم في أول البقرة [آية: ٣١ وما بعدها] يقول: اعلم أن قصة خلق آدم وحواء من الطين ومن ضلعه الأيسر وأمر الملائكة بالسجود لآدم، وإباء إبليس عن السجدة، وإسكان آدم وحواء الجنة، ونهيهما عن أكل شجرة من أشجارها، ووسوسة إبليس لهما، وأكلهما من الشجرة المنهية، وهبوطهما، من المرموزات المذكورة في كتب الأمم السالفة وتواريخهم كما ذكرنا سابقاً، فالمراد بآدم في العالم الصغير: اللطيفة العاقلة الآدمية، الخليفة على الملائكة الأرضيين، وعلى الجنة والشياطين المطرودين عن وجه أرض النفس والطبع، المسجودة للملائكة، المخلوقة من الطين، الساكنة في جنة النفس الإنسانية، وهي أعلا من مقام النفس الحيوانية، المخلوق من ضلع جنبها الأيسر الذي يلي النفس الحيوانية زوجتها المسماة بحواء، لكدورة لونها بقربها من النفس الحيوانية. والمراد بالشجرة المنهية: مرتبة النفس الإنسانية التي هي جامعة لمقام الحيوانية والمرتبة الآدمية. والمراد بالحية واختفاء إبليس بين لحييها: القوة الواهمة، فإنها لكونها مظهراً لإبليس، تسمى بإبليس في العالم الصغير، ووسوسته تزيينها ما لا حقيقية له للجنب الأيسر من آدم المعبر عنه بحواء. وهبوط آدم وحواء عبارة عن تنزيلهما إلى مقام الحيوانية. وهبوط الحية وذريتهما، عبارة عن تنزيلهما عن مقام التبعية لآدم.

الإمامة:

يقرر في تفسيره إمامة علي عليه السلام، وخلافته للنبي ﷺ بدون فصل، فمثلاً عند قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ [المائدة: ٦٧] نجده يدعي ـ كغيره من الإمامية ـ أن القراءة الصحيحة كانت: (بلّغ ما أنزل إليك من ربك في عليّ)، ويحمل التبليغ المأمور به على ذلك فحسب، ويمنع إرادة العموم، وغرضه من ذلك كله إثبات إمامة علي رضي الله عنه بنص القرآن الكريم[1].

الرّجعة:

والمؤلف يتأثر بعقيدة الرجعة، فلهذا نراه عندما فسر قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [البقرة: ٥٦] نجده يستدل بهذا البعث على جواز الرجعة فيقول: وهذه الآية تدل على جواز الرجعة كما ورد الإخبار عنها، وصارت كالضروري في هذه الأمة.

تحريف القرآن:

ولما كان المؤلف ممن يقولون بوقوع التحريف والتبديل في القرآن، فإنا نجده عندما يصطدم بقولة تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩] يحاول أن يتخلص من هذا النص الذي يجبهه فيقول: ولا ينافي حفظه تعالى للذكر بحسب حقيقة التحريف في صورة تدوينه، فإن التحريف إن وقع وقع في الصورة المماثلة له كما قال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٩] وكما قال: ﴿يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٨].

موقف المؤلف من الصحابة:

لم نلاحظ على المؤلف في تفسيره هذا ما يدل صراحة على أنه يكفر أحداً من الصحابة، كما لاحظنا على ملا محسن في تفسيره، غاية الأمر أننا نأخذ عليه أنه أحياناً يقف من الآيات التي وردت في شأن بعض الصحابة وما لهم من الفضل موقفاً يراد منه سلب هذا الفضل عنه أو تقليل أهميته، وأحياناً ينسب إلى بعض الصحابة ما يكاد يكون تصريحاً منه بفسقهم أو كفرهم.

فمثلاً نجد المؤلف عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التحريم: ١] إلى آخر القصة. نراه يذكر سبب نزولها فيقول: قال

---

(١) وراجع ما كتبه عند قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ﴾ [النساء: ٥٩].

القمي وغيره: سبب نزول الآيات أن رسول الله ﷺ كان في بيت عائشة أو في بيت حفصة، فتناول رسول الله ﷺ مارية، فعلمت حفصة بذلك فغضبت، وأقبلت على رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله في يومي؟ وفي دراي؟ وعلى فراشي؟ فاستحى رسول الله ﷺ فقال: كفى، فقد حرمت مارية على نفسي، وأنا أفضي إليك سراً إن أنت أخبرت به فعليك لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، فقالت: نعم... ما هو؟ فقال: إن أبا بكر يلي الخلافة بعدي، ثم بعده أبوك، فقالت: من أنبأك هذا؟ قال: نبأني العليم الخبير، فأخبرت حفصة به عائشة من يومها ذلك، وأخبرت عائشة أبا بكر، فجاء أبو بكر إلى عمر فقال له: إن عائشة أخبرتني بشيء عن حفصة ولا أثق بقولها، فاسأل أنت حفصة، فجاء إلى حفصة فقال: ما هذا الذي أخبرت عنك عائشة؟ فأنكرت ذلك وقالت: ما قلت لها من ذلك شيئاً، فقال لها عمر: إن هذا حق فأخبرينا حتى نتقدم فيه، فقالت: نعم، قاله رسول ﷺ فاجتمعوا أربعة على أن يَسُمّوا رسول الله ﷺ، فنزل جبريل على رسول الله ﷺ بهذه السورة، ﴿وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ [التحريم: ٣] يعني أظهره الله على ما أخبرت به وما همّوا من قتله و﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ﴾ أي خبّرها وقال: لم أخبرت بما أخبرت؟ ﴿وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾ يعني لم يخبرهم بما يعْلمه مما هموا به من قتله.

الناحية الفقهية في هذا التفسير

متأثّر بما لفقهاء الشيعة من الاجتهادات التي يخالفون فيها مَن عداهم، غير أن المؤلف يطوي الكلام طياً، فلا يتعرض لتفصيل المسائل الجزئية، ولا للدفاع عن مذهبه ورد مذهب مخالفيه، كما يفعل الطبرسي، مثلاً:

نكاح الكتابيات:

فمثلاً عندما فسر قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥] يقول: قد اختلفت الأخبار والأقوال في نكاح النساء من أهل الكتاب، وكذا في أن هذه الآية منسوخة بآية حرمة نكاح المشركات، وحرمة الأخذ بعصم الكوافر، أو ناسخة، وقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: إن سورة المائدة آخر القرآن نزولا، فأحلوا حلالها وحرموا حرامها[1]، ينفي كونها منسوخة.

المتعة:

وعندما فسر قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [النساء: ٢٤]

١ - وجدته موقوفا على عائشة رضي الله عنها عند أحمد: ١٨٨/٦. وصححه الحاكم: ٣١١/٢ على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

نجده يقول: وفي لفظ الاستمتاع، وذكر الأجور، وذكر الأجل - على قراءة: (إلى أجل) - دلالة واضحة على تحليل المتعة... ولا تحل لغيرك حتى تنقضي عدتها... وعدتها حيضتان.

ميراث الأنبياء:

والمؤلف يقول كغيره من علماء مذهبه بأن الأنبياء يورثون كما يورث سائر الناس، فنجده عندما فسر قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَاءِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥﴾ [مريم: ٥] يقول: «﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ﴾ [مريم: ٥] في الإرث الصوري من التضييع والنزاع والخلاف، أو في الإرث المعنوي من الاختلاف وتضييع العباد، وهذا إشعار بأن دعاءه خال من مداخلة الهوى مقدمة للإجابة». هذا هو كل ما قاله في هذه الناحية من الآية فأنت ترى أنه لم يقطع أن الآية في الإرث الصوري دون المعنوي، بل جوز صدقها على كل منهما، ولم يدافع عن مذهبه هذا الدفاع العنيف الذي كان من الطبرسي عندما أراد أن يقصر الإرث في الآية على الإرث الصوري.

الغنائم:

ويرى المؤلف كغيره من علماء مذهبه أن الغنائم لا تختص بما أخذ من الكفار بطريق القهر والغلبة، بل تعم ذلك وكل ما استفاده الإنسان من أي وجه كان، كما يرى أن الخُمس يقسم بين ذوي القربى وهو الإمام، ويتامى آل البيت، ومساكينهم، وأبناء سبيلهم، وذلك تعويض لهم من الله عن الصدقات التي هي أوساخ الناس.

فيقول عند قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١] ما نصه: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ﴾ اسم الغنيمة قد غلب على ما كان يؤخذ من الكفار بالقهر والغلبة حين القتال، وإلا فهي اسم لكل ما استفاد الإنسان من أي وجه كان وأي شيء كان، فعن الصادق هي والله الإفادة يوماً بيوم ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ وقد فسر ذوي القربى: الإمام من آل محمد، فإنه ذو القربى حقيقة، وفسر الثلاثة الأخيرة: بمن كان من قرابات الرسول ﷺ، جعل ذلك لهم بدلاً عن الزكاة التي هي أوساخ الناس تشريفاً لهم.

موقف المؤلف في المسائل الكلاميّة

يوافق المعتزلة في بعض المسائل الكلامية ويخالفهم في بعض آخر منها فيقول بما يقول به أهل السنة، فمثلاً:

رؤية الله:

ينكر جوازها ووقوعها موافقا في ذلك المعتزلة، فمثلاً عن تفسيره لقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣] يقول: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ أي إلى ربها المضاف لظهور الولاية وصاحبها في ذلك اليوم، أو إلى ربها المطلق لظهور آثاره، أي إلى آثاره ناظره، أو إلى ثواب ربها.

السحر:

فهو يقول به ويعترف بحقيقته موافقا لأهل السنة، فعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢] يقول: والسحر: اسم لقول أو فعل أو نقش في صفحة يؤثر في عالم الطبع تأثيراً خارجاً عن الأسباب والمعتاد، وذلك التأثير يكون بسبب مزج القوى الروحانية مع القوى الطبيعية، أو بتسخير القوى الروحانية بحيث تتصرف على إرادة المسخّر السّاحر، وهذا أمر واقع في نفس الأمر ليس محض تخييل كما قيل...

وفي الآية: ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾﴾ [الفلق: ٤] نجده يعترف أيضاً بالسحر ويروي أن الرسول ﷺ سُحر بيد لبيد بن الأعصم.

هذا..ولا يفوتنا أن ننبه على أن المؤلف كثيراً ما يهتم في بعض المواضع بالمسائل النحوية، فتراه يذكر الأعاريب التي في الآية، كما يهتم في بعض النواحي بالقراءات وإن كان يعتمد في كثير من الأحيان ما نسب إلى أهل البيت من قراءات لا أصل لها، كما نراه يذكر بعض النكات التي ترجع إلى نظم القرآن وأسلوبه.

وبالجملة، فهذا التفسير يكشف لنا عن مقدار تعصب صاحبه لمذهبه، وتأثره بعقيدته الشيعية، ونزعته الصوفية الفلسفية في فهمه لكتاب الله تعالى.

والكتاب مطبوع في جزأين كبيرين، وموجود بدار الكتب المصرية.

الإمامية الإسماعيلية (الباطنية) وموقفهم من تفسير القرآن الكريم

كلمة إجمالية عن الإسماعيلية وعقائدهم وأغراضهم:

قلنا: إن الإسماعيلية من الشيعة الإمامية تنتسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، وقلنا: إنهم يلقَّبون بالباطنية أيضا لقولهم بباطن القرآن دون ظاهره، أو لقولهم بالإمام الباطن المستور.

والحق أن هذه الطائفة لا يمكن أن تكون داخلة في عداد طوائف المسلمين. وإنما هي في الأصل جماعة من المجوس رأوا شوكة الإسلام قوية لا تقهر، فاشتعلت بين جوانحهم نار الحقد على الإسلام والمسلمين، ورأوا أنه لا سبيل لهم إلى الغلب على المسلمين بقوة

الحديد والنار، فسلكوا طريق الاحتيال ليطفئوا نور الله بأفواهم، وخفي على هؤلاء الملاحدة أن الله متم نوره ولو كره الكافرون.

مؤسّسو هذه الطائفة: في الدولة العباسية ١٤٨هـ

ظهرت بوادر هذه الفتنة زمن المأمون، وبيد جماعة جمع بينهم سجن العراق، هم: عبد الله بن ميمون القداح، وكان مولى جعفر بن محمد الصادق. ومحمد بن الحسين المعروف بذيذان، وجماعة كانوا يدعون: (الجهاربجة)[1].

اجتمع هؤلا ء النفر، فوضعوا مذهب الباطنية وأسسوا قواعده، فلما خلصوا من السجن ظهرت دعوتهم، ثم استفحل أمرها، واستطار خطرها إلى كثير من بلاد المسلمين. وما زالت لها بقية إلى يومنا هذا بين كثير ممن يدعون الإسلام[2].

احتيالهم للوصول إلى أغراضهم:

اندسوا بين المسلمين باسم الحَدَب[3] على الإسلام، وتلفعوا بالتشيع والموالاة لأهل البيت، وتظاهروا بالورع الكاذب، وجعلوا ذلك كله ستاراً لما يريدون أن يبذروه بين المسلمين من بذور الفساد والاضطراب في العقيدة والسياسة.

ومن المحزن أن يدعي هؤلاء الملاحدة الانتماء إلى أهل بيت النبوة، ويصلون أنسابهم بأنسابهم عن طريق آباء وأئمة مستورين، فيلقى هذا الادعاء رواجا وقبولا من أناس ضعفاء أغمار، غرهم التباكي على آل البيت والتحزن عليهم فتحركت أحقاد دفينة، وثارت فتن دامية بين المسلمين كان لها أثرها وخطرها.

أسس هؤلاء الباطنية الجمعيات السرية لنشر مذهبهم وهدم مذهب المسلمين، فجعلوا هدفهم الأول: الاحتيال على الطَّغام[4] بتأويل الشرائع إلى ما يعود إلى قواعدهم من الإباحة والإلحاد، وتدرجوا في وصولهم إلى غرضهم هذا بجعلهم الدعوة على مراتب هي:

مراتب الدّعوة عند الباطنيّة

١ ـ **الذّوق:** وهو تفرس حال المدعو، هل هو قابل للدعوة أو لا؟ ولذلك منعوا من

---

١) أي العلماء الأربعة.

٢) انظر الفرق بين الفرق ـ أبو منصور البغدادي: ٢٦٦. والتبصير في الدين ـ أبو المظفر الإسفراييني: ٨٣.

٣) الحدب: الشفقة. (اللسان).

٤ ـ صغار العقول: (اللسان).

إلقاء البذر في السبخة. أي دعوى من ليس قابلا لها، ومنعوا التكلم في بيت فيه سراج أي في موضع فيه فقيه أو متعلم.

٢ ـ **التأنيس:** باستمالة كل أحد من المدعوين بما يميل إليه بهواه وطبعه، من زهد، وخلاعة، وغيرهما. فإن كان يميل إلى زهد زينه في عينه وقبح نقيضه، وإن كان يميل إلى الخلاعة زينها وقبح نقيضها، ومن رآه الداعي مائلا إلى أبي بكر وعمر مدحهما عنده وقال: لهما حظ في تأويل الشريعة. ولهذا استصحب النبي أبا بكر إلى الغار، ثم إلى المدينة، وأفضى إليه في الغار تأويل الشريعة...

٣ ـ **التشكيك في أصول الدين وأركان الشريعة:** كأن يقول للمدعو: مامعنى الحروف المقطعة في أوائل السور؟ ولمَ تقضي الحائض الصوم دون الصلاة؟ ولم يجب الغسل من المني دون البول؟ ولم اختلفت الصلوات في عدد ركعاتها فكان بعضها ركعتين، وبعضها ثلاثاً، وبعضها أربعاً؟ وحيث يشككون بمثل هذا فلا يجيبون ليتعلق قلب من يشككونه بالرجوع إليهم والأخذ عنهم.

٤ ـ **الرابط:** وهو أمران: **أحدهما**: أخذ الميثاق على الشخص بأن لايفشي لهم سرا، ويستدلون على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾ [النحل: ٩١]. **وثانيهما**: حوالته على الإمام في حل ما أشكل عليه من الأمور التي ألقيت إليه؛ فإنها لا تعلم إلا من قبل الإمام.

٥ ـ **التدليس:** وهو دعوى موافقة أكابر الدين والدنيا ليزداد الإقبال على مذهبهم.

٦ ـ **التأسيس:** وهو تمهيد مقدمات يراعون فيها حال المدعو لتقع تعاليمهم منه موقع القبول من نفسه.

٧ ـ **الخلع:** وهو الطمأنينة إلى إسقاط الأعمال البدنية.

٨ ـ **السلخ:** وهو سلخ المدعو من العقائد الإسلامية، ثم بعد ذلك يأخذون في تأويل الشريعة على ما تشاء أهواؤهم[١].

فأنت ترى أن الباطنية توسلوا بكل هذه الحيل إلى تشكيك المسلمين في عقائدهم، وكأنهم رأوا أن القرآن مادام موجودا بين المسلمين ومحفوظا عندهم يرجعون إليه في أمور الدين، فليس من السهل صرف الناس عنه إلا بواسطة صرف ألفاظه وآياته عن مدلولاتها الظاهرة، فأخذوا يجدون في تأويل نصوص القرآن كما يحبون.

---

١ ـ راجع المواقف ـ السيد الشريف: ٨/ ٣٨٩ ـ ٣٩٠. والفرق بين الفرق ـ للبغدادي: ٢٨٢ وما بعدها.

وحرصاً منهم على أن تكون دعواهم في تأويل القرآن مقبولة قالوا: «إن الأئمة هم الذين أودعهم الله سره المكنون، ودينه المخزون، وكشف لهم بواطن هذه الظواهر، وأسرار هذه الأمثلة. وإن الرشد والنجاة من الضلال بالرجوع إلى القرآن وأهل البيت؛ ولذلك قال ﷺ ـ لما قيل: ومن أين يعرف الحق بعدك؟ ـ (ألم أترك فيكم القرآن وعترتي؟)[1]. وأراد به أعقابه، فهم الذين يطلعون على معاني القرآن»[2].

ولكن احتيال الباطنية بتأويل القرآن على هدم الشريعة لم يلق رواجا عند عقلاء المسلمين، وعلمائهم الذين نصبوا أنفسهم لحماية القرآن من أباطيل المضللين.

إنتاج الباطنية في تفسير القرآن الكريم:

لم نقف لهم على كتب مستقلة في تفسير كتاب الله تعالى، ولم نسمع أن واحدا منهم كتب تفسيراً جامعاً للقرآن كله، ولعل السر في ذلك: أنهم لم يستطيعوا أن يتمشوا بعقائدهم مع القرآن آية آية، ولو أنهم حاولوا ذلك لاصطدموا بعقبات وصعاب لا يقدرون على التخلص منها.

وكل الذي وجدناه لهم في تفسير القرآن أو تأويله على الأصح: إنما هو نصوص متفرقه في بطون الكتب، تدل على جرأتهم على كتاب الله. وأرى أن أقسم موقف الباطنية من القرآن الكريم إلى قسمين:

١ ـ موقف الباطنية المتقدمين من القرآن الكريم.

٢ ـ موقف الباطنية المتأخرين منه أيضا.

ونريد بالمتقدمين: الذين أسسوا مذهب الباطنية ومن قاربهم في الزمن، وبالمتأخرين: البابية والبهائية. وسنوضح عند الكلام عن البابية والبهائية السبب الذي من أجله عددناهم من قبيل الباطنية.

١ ـ موقف متقدّمي الباطنيّة من تفسير القرآن الكريم

كتب عبيد الله بن الحسن القيرواني إلى سليمان بن الحسن بن سعيد الجناني رسالة طويلة جاء فيها: «وإني أوصيك بتشكيك الناس في القرآن والتوراة والزبور والإنجيل،

---

١ ـ نص الحديث: « إني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي». أخرجه الترمذي: ٣٧٩٠ ـ المناقب/ ٧٧ وقال: حسن غريب. وقال الأرناؤوط: إسناده ضعيف، لكن له شاهد ولذلك حسنه الترمذي / جامع الأصول رقم ٦٥ و ٦٦.

٢) فضائح الباطنية ـ أبو حامد الغزالي ـ طبع ليدن ١٩١٦م: ٦.

وتدعوهم إلى إبطال الشرائع، وإلى إبطال المعاد والنشور من القبور، وإبطال الملائكة في السماء، وإبطال الجن في الأرض، وأوصيك أن تدعوهم إلى القول بأنه قد كان قبل آدم بشر كثير، فإن ذلك عون لك على القول بقدم العالم»[1].

رأى هذا الزعيم الباطني أن التشكيك في القرآن خير معوان لهم على تركيز عقائدهم، ورأى رأيه أهل الباطن جميعاً فقالوا: «القرآن ظاهر وباطن، والمراد منه باطنه دون ظاهره المعلوم من اللغة، ونسبة الباطن إلى الظاهر كنسبة اللب إلى القشر، والمتمسك بظاهره معذب بالشقشقة في الكتاب، وباطنه مؤد إلى ترك العمل بظاهره، وتمسكوا في ذلك بقوله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣]»[2].

ولست أدري ماصلة هذه الآية بتلك القاعدة والآية واردة في شأن من شؤون الآخرة ينساق إلى فهمه كل من يمر بالآية بدون كلفة ولا عناء.

من تأويلات الباطنية القدامى:

على هذه القاعدة السابقة جرى القوم في شرحهم لكتاب الله تعالى، فكان من تأويلاتهم ما يأتي:

(الوضوء): عبارة عن موالاة الإمام. و (التيمم): هو الأخذ من المأذون عند غيبة الإمام الذي هو الحجة. و (الصلاة): عبارة عن الناطق الذي هو الرسول بدليل قوله تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ﴾ [العنكبوت ٤٥]. و(الغسل): تجديد العهد ممن أفشى سرا من أسرارهم من غير قصد، وإفشاء السر عندهم على هذا النحو هو معنى: (الاحتلام). (والزكاة): عبارة عن تزكية النفس بمعرفة ما هم عليه من الدين. و(الكعبة): النبي. و(الباب): علي. و(الصفا): هو النبي. و(المروة): علي. و(الميقات): الإيناس. و(التلبية): إجابة الدعوة. (والطواف بالبيت سبعا): موالاة الأئمة السبعة. و(الجنة): راحة الأبدان من التكاليف. و(النار): مشقتها بمزاولة التكاليف[3].

كذلك تجد الباطنية يرفضون المعجزات، ولا يعترفون بها للرسل، وينكرون نزول ملائكة من السماء بالوحي من الله، بل وزادوا على ذلك فأنكروا أن يكون في السماء ملَك وفي الأرض شيطان، وأنكروا آدم والدجال، ويأجوج ومأجوج، ولكنهم وجدوا أنفسهم أمام آيات من القرآن تكذب دعواهم هذه، فتخلصوا منها بمبدئهم الذي ساروا عليه في تفسيرهم وهو إنكار الظاهر والأخذ بالباطن، وأولوا هذه الآيات بما يتفق ومذهبهم، فتأولوا

---

١) الفرق بين الفرق ـ للبغدادي: ١٨٠، وبمثل هذه العبارة يستدل أبو منصور البغدادي على أنهم: دهريون.

٢) المواقف ـ السيد الشريف: ٨/ ٣٨٨.

٣) المواقف ـ السيد الشريف: ٨/ ٣٩٠.

(الملائكة) :على دعاتهم الذين يدعون إلى بدعتهم. وتأولوا (الشياطين) :على مخالفيهم. وتأولوا كل ما جاء في القرآن من معجزات الأنبياء عليهم السلام، فقالوا: (الطوفان): معناه طوفان العلم. و (عصا موسى): حجته التي تلقفت ما كانوا يأفكون من الشبه لا الخشب. (وانفلاق البحر): افتراق علم موسى فيهم عن أقسام. و (عيسى): له أب من حيث الظاهر، وإنما أراد بالأب المنفي: الإمام، إذ لم يكن له إمام، بل استفاد العلم من الله بغير واسطة، وزعموا ـ لعنهم الله ـ أن أباه يوسف النجار[1].

بل بالغوا فقالوا: «إن الأنبياء قوم أحبوا الزعامة، فساسوا العامة بالنواميس والحيل، طلبا للزعامة بدعوى النبوة والإمامة»[2].

وإن مما زعمته الباطنية: أن من عرف معنى العبادة سقط عنه فرضها وتأولوا في ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ٩٩]. وحملوا اليقين على معرفة التأويل.

كذلك استحل الباطنية نكاح البنات والأخوات وجميع المحارم، بحجة أن الأخ أحق بأخته، والأب أولى بابنته... وهكذا: ولست أدري على أي وجه تأولوا آية النساء[3] التي حرمت ذلك، ومنعته منعاً باتا.

ويقول القيرواني في رسالته التي أرسلها إلى سليمان بن الحسن: «وينبغي أن تحيط علماً بمخاريق الأنبياء ومناقضاتهم في أقوالهم، كعيسى بن مريم، قال لليهود: لا أرفع شريعة موسى؛ ثم رفعها بتحريم الأحد بدلا من السبت... ولا تكن كصاحب الأمة المنكوسة حين سألوه عن الروح فقال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ٨٥]». لما لم يحضره جواب المسألة، ثم قال في آخر هذه الرسالة: «وما العجب من شيء كالعجب من رجل يدعي العقل، ثم يكون له أخت أو بنت حسناء وليس له زوجة في حسنها، فيحرمها على نفسه وينكحها من أجنبي، ولو عقل الجاهل لعلم أنه أحق بأخته، وبنته من الأجنبي، وما وجه ذلك إلا أن صاحبهم حرم عليهم الطيبات وخوفهم بغائب لا يعقل، وهو الإله الذي يزعمونه، وأخبرهم بكون مالا يرونه أبداً من البعث من القبور، والحساب، والجنة، والنار...وهل الجنة إلا هذه الدنيا ونعيمها؟ وهل النار وعذابها إلا ما فيه أصحاب الشرائع من التعب والنصب في الصلاة والصيام والجهاد والحج»[4].

---

١) فضائح الباطنية لأبي حامد الغزالي: ١٣.

٢) الفرق بين الفرق للبغدادي: ٢٧٩.

٣ ـ يشير إلى الآية: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّـٰتُكُمْ وَخَـٰلَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ...﴾ [النساء: ٢٣].

٤) الفرق بين الفرق للبغدادي: ٢٨١ ـ ٢٨٢.

كذلك نجد الباطنية يحرصون على نفي وجود الإله الحق، والنبي المرسل محمد ﷺ؛ ليتوصلوا بذلك إلى رفع التكاليف، فنراهم يقولون للمبتدئ: «إن الله خلق الناس واختار منهم محمداً ﷺ، فيستحسن المبتدئ هذا الكلام، ثم يقول له: أتدري من محمد؟ فيقول نعم... محمد رسول الله، خرج من مكة، وادعى النبوة، وأظهر الرسالة، وعرض المعجزة. فيقول: ليس هذا الذي تقول إلا كقول هؤلاء الحمير ـ يعنون به المؤمنين من أهل الإسلام ـ إنما محمد أنت، فيستعيذ السامع ويقول: لست أنا محمداً، فيقول له: الله تعالى وصفه في هذا القرآن فقال: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]. وهؤلاء الحمير يقولون: من مكة... فيقول له الغر الغمر: على أي معنى تقول أنا محمد؟ فيقول، خلقك وصورك خلقة محمد، فالرأس بمنزلة الميم، واليدان بمنزلة الحاء، والسرة بمنزلة الميم والرجلان بمنزلة الدال»(١).

ولأجل أن يوهمه أيضا بأنه لا إله موجود على الحقيقة، وما جاء في القرآن من ذلك فظواهر غير مرادة، نجده يقول للمبتدئ: إن المراد بإثبات الذات يرجع إلى نفسك، ويؤولون عليه قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣﴾ [قريش: ٣]. ويقولون: الرب هو الروح والبيت هو البدن.

وبين أيدينا كتاب أسرار الباطنية، وهو يكشف لنا عن نواياهم، ويفضح أسرارهم وخباياهم. وهو لمحمد بن مالك اليماني أحد علماء القرن الخامس الهجري، ولا أريد أن أطيل على القارئ بذكر ما فيه من مخازي القوم ولكن أكتفي بذكر نبذة من الكتاب. ضمنها المصنف ماشهده بنفسه من ضلالهم وإضلالهم، وذلك حين اندس بينهم متظاهراً بدخوله في زمرتهم، ليقف بنفسه على ما بلغه عنهم من أباطيل وأضاليل:

مقالة محمد بن مالك اليماني في الباطنيّة:

يقول محمد بن مالك اليماني: «أول ما أشهد به وأشرحه، وأبينه للمسلمين وأوضحه، أن له ـ يريد علي بن محمد الصليحي زعيم باطنية اليمن في وقته ـ نوابا يسميهم الدعاة المأذونين، وآخرين يلقبهم المكلبين، تشبيها لهم بكلاب الصيد؛ لأنهم ينصبون للناس الحبائل، ويحضونهم على شرائع الإسلام، من الصلاة والزكاة والصيام، كالذي ينثر الحب للطير ليقع في شركه، فيقيم أكثر من سنة يمعنون به، ويخدعونه بروايات عن النبي ﷺ محرفة، ويتلون عليه القرآن على غير وجهه، ويحرفون الكلم عن مواضعه، فإذا رأوا منه القبول والانقياد بما يأمرونه، قالوا حينئذ: اكشف عن السرائر ولا ترض لنفسك ولا تقنع بما قنع به العوام من الظواهر، وتدبر القرآن ورموزه، واعرف معاني الصلاة

---

١) التبصير في الدين ـ أبو المظفر الإسفراييني: ٨٧ ـ ٨٨.

والطهارة، وما روي عن النبي ﷺ بالرموز والإشارة، دون التصريح في ذلك والعبارة، فإنما جميع ما عليه الناس أمثال مضروبة، لممثولات محجوبة. فيقول: عم أسأل؟ فيقول: قال الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣ وفي مواضع أخرى من القرآن]. فالزكاة مفروضة في كل عام مرة، وكذلك الصلاة، من صلاها مرة في السنة فقد أقام الصلاة بغير تكرار، وأيضا فالصلاة والزكاة لهما باطن؛ لأن الصلاة: صلاتان، والزكاة: زكاتان، والصوم: صومان، والحج: حجان، وما خلق الله سبحانه من ظاهر إلا وله باطن، يدل على ذلـــك: ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾ [الأنعام: ١٢٠]. و (الصلاة) و (الزكاة) سبعة[1] أحرف دليل على محمد وعلي صلى الله عليهما؛ لأنها سبعة أحرف، فالمعنى بالصلاة والزكاة ولاية محمد وعلي، فمن تولاهما فقد أقام الصلاة وآتى الزكاة... فإذا قبل منهم ذلك المغرور هذا قالوا له: قرب قربانا يكون لك سلما ونجوى، ونسأل لك مولانا يحط عنك الصلاة، ويضع عنك هذا الإصر، فيدفع اثني عشر ديناراً، فيقول ذلك الداعي: يامولانا، إن عبدك فلانا قد عرف الصلاة ومعانيها، فاطرح عنه الصلاة وضع عنه هذا الإصر، وهذا نجواه اثنا عشر ديناراً، فيقول: اشهدوا أني قد وضعت عنه الصلاة ويقرأ له: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. فعند ذلك يقبل إليه أهل هذه الدعوة ويهنئونه ويقولون: الحمد لله الذي وضع عنك ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾﴾ [الانشراح: ٢ ـ ٣]... وبمثل هذا يسقطون عنه الصوم والغسل ويبيحون الخمر والميسر. ثم يقول له: أتحب أن تدخل الجنة في الحياة الدنيا؟ فيقول: وكيف لي ذلك؟ فيتلو عليه: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾ [الليل: ١٣]. ويتلو عليه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأعراف: ٣٢]. والزينة ههنا: ما خفي على الناس من أسرار النساء التي لا يطلع عليها إلا المخصوصون بذلك، وذلك قوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]. والزينة مستورة غير مشهورة، ثم يتلو عليه: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾﴾ [الواقعة: ٢٢ ـ ٢٣] .فمن لم ينل الجنة في الدنيا لم ينلها في الآخرة، فحينئذ يزداد هذا المخدوع انهماكا، ويقول لذلك الداعي الملعون. تلطف في حالي، وبلغني إلى ما شوقتني إليه، فيقول: ادفع النجوى اثني عشر ديناراً تكون لك قرباناً وسلماً، فيمضي به فيقول: يامولانا... إن عبدك فلانا قد صحت سريرته، وصفت خبرته وهو يريد أن تدخله الجنة، وتبلغه حد الأحكام، وتزوجه الحور العين، فيقول له: قد وثقته وأمنته؟ فيقول: يامولانا قد وثقته وأمنته وخبرته فوجدته على الحق صابرا، ولأنعمك شاكراً، فيقول: علمنا صعب مستصعب لا يحمله إلا نبي مرسل، أو ملك مقرب، أو عبد امتحن الله قلبه بالإيمان،

---

١) لعله عدهما سبعة بحذف إحدى الألفين لتكرارها في الكلمتين.

فإذا صح عندك حاله فاذهب به إلى زوجتك فاجمع بينه وبينها، فيقول: سمعا وطاعة لله ولمولانا، فيمضي به إلى بيته، فيبيت مع زوجته، حتى إذا كان الصباح قرع عليهما الباب وقال: قوما قبل أن يعلم نبأنا هذا الخلق المنكوس، فيشكر ذلك المخدوع ويدعو له، فيقول له: ليس هذا من فضلي، هذا من فضل مولانا. فإذا خرج من عنده تسامع به أهل هذه الدعوة الملعونة، فلا يبقى منهم أحد إلا بات مع زوجته كما فعل ذلك الداعي الملعون، ثم يقول له: لا بد لك أن تشهد هذا المشهد الأعظم عند مولانا، فادفع قربانك، فيدفع اثني عشر ديناراً ويصل به ويقول: يامولانا، إن عبدك فلانا يريد أن يشهد المشهد الأعظم، وهذا قربانه، حتى إذا جن الليل، ودارت الكؤوس وحميت الرؤوس، وطابت النفوس، أحضر جميع أهل هذه الدعوى الملعونة حريمهم، فيدخلن عليهم من كل باب، وأطفؤوا السراج والشموع، وأخذ كل واحد منهم ما وقع عليه في يده، ثم يأمر المقتدي زوجته أن تفعل كفعل الداعي الملعون وجميع المستجيبين، فيشكره ذلك المخدوع على ما فعل له، فيقول له: ليس هذا من فضلي، هذا من فضل مولانا أمير المؤمنين فاشكروه ولا تكفروه على ما أطلق من وثاقكم، ووضع عنكم أوزاركم، وحط عنكم آصاركم، ووضع عنكم أثقالكم، وأحل لكم بعض الذي حرم عليكم جهالكم: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٣٥﴾ [فصلت: ٣٥].

وأظن أن سؤالا يدور بخلد القارئ هو: كيف نجزم بنسبة هذه التأويلات كلها إلى الباطنية مع وجود التناقض والاختلاف بين بعض المعاني التي نقلت عنهم للفظ الواحد؟ أليس هذا دليلا على عدم صحة كل ما ينسب إليهم؟.. والحق أن السؤال وارد، ولكنه مدفوع بما ذكره الغزالي من أن سر هذا الاضطراب راجع إلى أنهم كانوا لا يخاطبون الخلق بمسلك واحد، بل غرضهم الاستتباع والاحتيال، فلذلك تختلف كلمتهم، ويتفاوت نقل المذهب عنهم[(١)].

٢ ـ موقف متأخّري الباطنيّة من تفسير القرآن الكريم

تمهيد: في بيان انتشار الباطنيّة في البلاد الآن وتعدّد ألقابهم:

قلنا إن الباطنية يُعرفون بأسماء عدة، وقلنا إنه لا تزال منهم بقية إلى يومنا هذا في كثير من بلاد المسلمين، والآن أزيدك على ما تقدم أن الباطنية يوجدون بالهند، ويعرفون بالبهرة أو الإسماعيلية، وزعيمهم آغاخان الزعيم الإسماعيلي المعروف. ويوجدون في بلاد الأكراد ويعرفون بـ (العلوية) حيث يقولون: علي هو الله. ويوجدون في تركيا ويعرفون بـ (البكداشية)، وفي مصر جماعة من البكداشية من أصل ألباني يقيمون في الجبل المعروف بالمغاوري[(٢)].

---

١) فضائح الباطنية لأبي حامد الغزالي: [٣٨].

٢) لما قامت الثورة المصرية سنة ١٩٥٢ طردت جماعة البكداشية من مصر؛ وذلك لما ظهر من فساد حالهم وسوء فعالهم.

ويوجدون في بلاد العجم ويعرفون بـ (البابية). ويوجدون في فلسطين ويعرفون بـ (البهائية)، ومنهم جماعات في بلاد متفرقة[1]، وتوجد بالهند فرقة أخرى من الباطنية هي القاديانية، وهي أحدث فرقهم عهداً، وأقربها ظهوراً.

هذه الفرق التي تنتشر بين المسلمين إلى اليوم لا بد أن يكون لكل منها رأي في التأويل الباطني للقرآن الكريم، يتفق مع مبدئها ومشربها، ولا بد أن يكون لعلمائها تأويلات قرآنية يميلون بها نحو مذاهبهم وعقائدهم. غير أننا لم نقف على شيء من ذلك، اللهم إلا شيئاً يسيراً للبابية والبهائية. لهذا قصرنا كلامنا على هذه الطائفة[2] وموقفها من كتاب الله تعالى؛ لأن ما وصلنا عنها ـ وإن قل ـ فهو يعطينا فكرة ولو إلى حد ما عن موقفها من تفسير القرآن الكريم.

واعتمادنا في كل ما نكتب: على بعض الكتب التي وصلتنا عنهم، وعلى ما نُشر في المجلات العلمية من البحوث التي تدور حولهم، فنقول وبالله التوفيق.

البابية والبهائية

كلمة إجمالية عن نشأة البابيّة والبهائيّة:

البابية: نسبة إلى الباب. وهو لقب ميرزا علي محمد، الذي ابتدع هذه النحلة، وإليه تنسب هذه الطائفة؛ باعتباره المؤسس الأول لها.

والبهائية: نسبة إلى بهاء الله، وهو لقب ميرزا حسين علي، الزعيم الثاني للبابية، وإليه تنسب هذه الطائفة؛ باعتباره المؤسس الثاني لها.

وأصل نشأة هذه الطائفة: أن ميرزا علي محمد، الملقب بالباب، والمولود في سنة ١٢٣٥هـ، توفي عنه والده ميرزا محمد رضا قبل فطامه، فربي في حجر خاله ميرزا سيد علي، ونشأ معه في مدينة شيراز بجنوب إيران، واشتغل معه بالتجارة، ولما بلغ سنه الخامسة والعشرين ادعى أنه الباب ـ والباب عند الشيعة معناه نائب المهدي المنتظر ـ وكان ادعاؤه هذا في سنة ١٢٦٠هـ، وما لبث أن وصلت هذه الدعوة إلى طائفة من الجاهلين فصدقوا بها، وتتابعوا عليها، وكان عدد من صدقه في أول الأمر ثمانية عشر رجلا، فسماهم بكلمة: (حي)؛ لأن عدد حرفيها بحساب الجمل ثمانية عشر، ثم أمر أتباعه هؤلاء بالانتشار في إيران

---

١) ومن محاسن ثورة ٢٣ يوليو سنة ٥٢، طرد البهائيين من مصر، والاستيلاء على مركزهم العام، وتحويله إلى جمعية المحافظة على القرآن الكريم، وقد تم ذلك في حفل عام سنة ١٩٦١م.

٢) البابية والبهائية في واقع الأمر طائفة واحدة، نُسبت إلى الباب؛ زعيمها الأول، فقيل لها: بابية، ثم نسبت إلى البهاء زعيمها الثاني، فقيل لها: بهائية كما هو موضح بعد.

وبلاد العراق؛ يبشرون به وبدعوته، وأوصاهم بكتمان اسمه حتى يظهره هو بنفسه. ولما حج وفرغ من أعمال الحج أعلن دعوته في المجمع الكبير فاشتهر اسمه، وذاعت دعوته، فثارت عليه طوائف المسلمين، وقاموا في سبيل دعوته يحاربونها بكل الوسائل.

وقد عقد بعض الولاة بين العلماء وبين الباب مناظرات أظهرت ما في دعوته من غواية وضلال، فكفّره بعض العلماء، ورماه بعض آخر منهم بالجنون، فاعتقله الوالي في سجن شيراز، ثم في سجن أصفهان، ثم في أذربيجان. وفي عهد السلطان ناصر الدين شاه اشتدت الخصومة بين البابيين ومخالفيهم، وقامت بينهم حرب طاحنة كان من نتائجها أن أمر الصدر الأعظم بقتل الباب، فعلق في ميدان مدينة تبريز، وقتل رميا بالرصاص وذلك في سنة ١٢٦٥هـ.

وبعد قتله اختلف أتباعه على أنفسهم في شأن من ينوب عنه، وظهرت من بعض أتباعه دعاوى مختلفه، من قبيل النبوة، والوصاية، والولاية وأمثالها. وظلوا على هذا الأمر إلى أن حاول بعضهم اغتيال ناصر الدين شاه سنة ١٢٦٨هـ انتقاما لزعيمهم الباب، ولما خاب سعيهم وفشلوا في هذه المؤامرة، أخذت الحكومة تضطهد زعماء البابيين، وتسوقهم إلى التحقيق، فقتل من قتل، ونفي من نفي، وكان من بين زعمائهم في هذا الوقت ـ وقت الاضطهاد ـ ميرزا حسين علي الملقب فيما بعد بـ (بهاء الله).

(بهاء الله):

ولد بهاء الله سنة ١٢٣٣هـ. وكان ابنه ميرزا عباس من كبار وزراء الدولة في وقته، فلما قام الباب واشتهر أمره صدقه بهاء الله، فاشتد به أزر البابيين وكثرت جماعتهم، ولما حدثت حادثة سنة ١٢٦٨هـ، وهي محاولة اغتيال ناصر الدين شاه، قبض على بهاء الله وسجن نحو أربعة أشهر، ثم أفرج عنه وأبعد إلى العراق، فدخل بغداد سنة ١٢٦٩هـ، ومكث بها اثني عشر عاما، يدعو الناس إلى نفسه، ويزعم أنه هو الموعود به الذي أخبر عنه الباب، وكان يشير إليه بلفظ: (من يظهره الله) وهناك تجمع حوله بعض أتباعه الذين لحقوا به من البابيين، وتسموا حينئذ بالبهائيين، ووقعت بينهم وبين شيعة العراق فتنة كادت تفضي إلى قيام حرب أهلية بين الفريقين، فقررت الحكومة العثمانية في ذلك الوقت إرسال بهاء الله إلى الاستانة، فأرسل إليها ومكث بها نحوا من أربعة أشهر، ثم نفي إلى أدرنة[1] ومكث بها نحوا من خمس سنوات، ثم نفي منها إلى عكة من بلاد الشام سنة ١٢٨٥هـ، وبقي بها إلى أن مات سنة ١٣٠٩هـ، فتولى رئاسة الطائفة ابنه عباس المولود سنة ١٨٤٤م والمتوفى سنة ١٩٢١م

---

١) وقع بين أتباع البهاء وأتباع أخيه يحيى الملقب بصبح أزل ـ وكان ممن رفض دعوى أخيه، وأتباعه يعرفون بالأزلية ـ فتنة في أدرنه، فأمرت الحكومة العثمانية بإبعاد الفريقين من أدرنة فنفت البهاء وأتباعه إلى عكا، ونفت يحيى وأتباعه إلى قبرص.

والملقب، (عبد البهاء) فأخذ يدعو إلى هذا المذهب، ويتصرف فيه كيف يشاء، فلم يرض هذا الصنيع أتباع البهاء فانشقوا عليه، والتف فريق منهم حول أخيه الميرزا علي، وألفوا كتبا في الطعن على عبد البهاء يتهمونه فيها بالمروق من دين البهاء[١].

الصّلة بين عقائد البابيّة وعقائد الباطنيّة القدامى:

بالرغم من أن هذه الفرقة لم تظهر إلا قريبا، فإنا نجدها ليست بالفرقة المحدثة في عقائدها وتعاليمها، بل هي في الحقيقة وليدة من ولائد الباطنية، تغذت من ديانات قديمة، وآراء فلسفية، ونزعات سياسية. ثم درجت تحذو حذو الباطنية الأول، وتهذي في كتاب الله، فتأولته بمثل ما تأولوه: لتصرف عنه قلوبا تعلقت به ونفوساً اطمأنت إليه.

تقوم دعوة قدماء الباطنية على إبطال الشريعة الإسلامية، وينفذون إلى عقول العامة بإظهارهم الحب والتشيع، بل والانتساب إلى آل البيت، وإليك مايوضح ذلك:

١ ـ في الباطنية من يدعي النبوة لنفسه أو يدعيها لغيره، وميرزا علي الملقب بالباب يدعي أنه رسول للناس من قبل الله تعالى، وله كتاب اسمه: (البيان) ادعى أنه منزل عليه من عند الله تعالى. وقد جاء في رسالة بعث بها الباب إلى العلامة الألوسي صاحب التفسير المعروف، يدعوه فيها إلى الإيمان به، «إنني أنا عبد الله، قد بعثني بالهدى من عنده» وسمى في هذه الرسالة مذهبه دين الله فقال: «ومن لم يدخل في دين الله، مثله كمثل الذين لم يدخلوا في الإسلام»[٢].

ولا نعلم ماذا أجاب به الآلوسي على هذه الرسالة، وإن كنا نعلم أنه كفرهم في تفسيره لقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وكذلك ادعى زعيمهم الثاني الملقب ببهاء الله: أنه رسول من عند الله. جاء لتأسيس الإسلام على الأرض، وبين أيدينا كتاب بهاء الله. ويطلق عليه اسم (الكتاب)، قرأنا فيه فوجدناه يقول:

«لعمر الله إن البهاء ما نطق عن الهوى، قد أنطقه الذي أنطق الأشياء بذكره وثنائه. لا إله إلا هو الفرد الواحد المقتدر المختار... لعمري ما أظهرت نفسي، بل الله أظهرني كيف أراد... وعلمني علم ما كان... وأمرني بالنداء بين الأرض والسماء»[٣].

---

١) لخصنا هذا البحث التاريخي من مقال لأبي الفضائل الإيراني، منشور بمجلة المقتطف الجزء التاسع، السنة العشرين. ومن مقال السيد محمد الخضر حسين، منشور بمجلة نور الإسلام (مجلة الأزهر فيما بعد) ع٥ من السنة الأولى.

٢) رسالة الإصلاح ـ محمد الخضر حسين: ٣/٩٨.

٣) الكتاب: لبهاء الدين: ٧ ـ ٩.

ويرى الباب أن شريعته ناسخة للشريعة الإسلامية، فابتدع لأتباعه أحكاما خالف بها ما جاءت به الشريعة الإسلامية، فجعل الصوم تسعة عشر يوماً تنتهي بعيدهم النيروز(١).

٢ ـ من الباطنية من يدعي حلول الإله في بعض الأشخاص، كالقرامطة الذين يدعون حلول الإله في إمامهم محمد بن إسماعيل. ونجد مثل هذه الدعوى متجلية في بعض مقالات البابية، فهذا بهاء الله يقول في الكتاب: «لنا مع الله حالات نحن فيها هو، وهو نحن، ونحن نحن»(٢). وهذا عباس الملقب بعبد البهاء يقول: «وقد أخبرنا بهاء الله بأن مجيء رب الجنود والأب الأزلي، ومخلص العالم الذي لا بد منه في آخر الزمان ـ كما أنذر جميع الأنبياء ـ عبارة عن تجليه في الهيكل البشرى، كما تجلى في هيكل عيسى الناصري(٣).

٣ ـ يدعي الباطنية رجوع الإمام المعصوم بعد استتاره، ويحصرون مدارك الحق في أقواله. والبهائية يقولون هذا القول ويثبتونه في كتبهم.

يقول بهاء الله في الكتاب: «يسند القائم ظهره إلى الحرم، ويمد يده المباركة، فترى بيضاء من غير سوء. ويقول: هذه يد الله، ويمين الله، وعين الله وبأمر الله. أنا الذي لا يقع عليه اسم ولا صفة، ظاهري إمامة، وباطني غيب لايدرك»(٤).

من كل ما تقدم يظهر لنا بوضوح: أن البابية والبهائية ليسوا أصحاب نحلة جديدة في تعاليمها ومعتقداتها، وإنما هم قوم من أهل الباطن يريدون الكيد للإسلام باسم الإصلاح الديني، وسيظهر لك من تأويلاتهم للقرآن ـ علاوة على ماسبق ـ أنهم ينهجون نهج الباطنية الأول، ويترسمون خطاهم في تحريفهم لكتاب الله، والعبث بآياته !!.

موقف البابية والبهائية من تفسير القرآن الكريم

لم تَحلْ عقائد البابية والبهائية بينهم وبين الاعتراف بالقرآن الكريم، والرجوع إليه ليأخذوا منه الشواهد على مذاهبهم الفاسدة؛ تمويها على العامة، وتغريرا بعقول الأغمار الجهلة.

أبو الفضائل الإيراني يعيب تفاسير أهل السّنة:

فهذا داعيتهم أبو الفضائل الإيراني، نجده في رسالة أرسلها لصديق له، يعيب على

١) [راجع] رسائل الإصلاح ـ محمد الخضر حسين ـ مطبعة القدسي ١٣٥٨هـ: ٣/ ٩٩.
٢) الكتاب: بهاء الدين: ٣٣.
٣) رسائل الإصلاح ـ محمد الخضر حسين: ٢/ ١٠٠.
٤) الكتاب: لبهاء الدين: ٨٣.

تفاسير أهل السنة فيقول: «ولقد يدهش الإنسان ويتحير يا حبيبي من تعاليمهم الباطلة، وتفاسيرهم المضحكة. فإن أحباءنا الأمريكيين الذين تشرفوا بالوفود على الأرض المقدسة في هذه الأيام الأخيرة، قابلناهم في بيروت، وسافرنا معهم إلى الأرض الفيحاء مدينة حيفا، أخبرونا بما يتحير منه الأريب، ويدهش منه اللبيب ،كيف تقدمت كلمة الله في تلك الأقطار البعيدة الشاسعة مع هذه التفاسير الباطلة الضائعة، من النفوس الجاهلة الخادعة؟ أليس ذلك من عظيم قدرة الله وشديد قوته؟ وسطوع آياته وظهور بيناته؟»[١].

إنتاج البابية والبهائية في التفسير، ومثل من تأويلاتهم الفاسدة:

لم نسمع ولم نقرأ أنهم ألفوا تفسيراً متناولا للقرآن آية آية، وإنما قرأنا أن رئيسهم الأول فسر سورة البقرة، وسورة يوسف، وسورة الكوثر، ولكن لم يصل إلى أيدينا شيء من ذلك، وكل ما وصل إلينا هو نُبذ من تفسيره، وتفسير بعض أشياعه ودعاته، قرأناها في كتبهم أنفسهم، وفي الكتب والمقالات التي كتبت عنهم، وهذه النبذ مع قلتها تصور لنا مقدار تهجمهم[٢] على تحريف القرآن الكريم، والميل بنصوصه إلى ما يرضي أهواءهم، ويشبع أطماعهم. وإليك بعض هذه التأويلات:

من تأويلات الباب:

فسر الباب سورة يوسف، فمشى فيها على طريقة التأويل الذي لا يقره الشرع ولا يقبله العقل، فمثلا عند قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [يوسف: ٤]. يقول: «وقد قصد الرحمن من ذكر يوسف نفس الرسول، وثمرة البتول، حسين بن علي بن أبي طالب مشهوداً... إذا قال حسين لأبيه يوماً: إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم بالإحاطة على الحق لله القديم سجاداً...وإن الله قد أراد بالشمس فاطمة، وبالقمر محمداً، وبالنجوم أئمة الحق في أم الكتاب معروفا، فهم الذين يبكون على يوسف بإذن الله سجداً وقياما»[٣].

من تأويلات بهاء الله:

ويرى بهاء الله أن ماورد في القرآن من الصراط، والزكاة، والصيام، والحج، والكعبة، والبلد الحرام، وما إلى ذلك، كله لا يراد به ظاهره وإنما يراد به الأئمة. وفي هذا يقول في الكتاب: «قال أبو جعفر الطوسي: قلت لأبي عبد الله: أنتم الصراط في كتاب الله، وأنتم الزكاة، وأنتم الحج؟ قال: يافلان.. نحن الصراط في كتاب الله عز وجل، ونحن الزكاة،

---

١) رسائل أبي الفضائل ـ أبو الفضائل الإيراني ـ السعادة ـ ١٩٢٠م: ٦٦.

٢ ـ من الهجوم، ويقصد الجرأة.

٣) مفتاح باب الأبواب ـ ميرزا محمد مهدي خان ـ المنار ـ ١٣٢١هـ: ٣٠٩.

ونحن الصيام، ونحن الحج، ونحن الشهر الحرام، ونحن البلد الحرام، ونحن كعبة الله، ونحن قبلة الله، ونحن وجه الله»[1].

وفي كتاب: (بهاء الله والعصر الجديد) ما يدل على أن البهائيين لا يعترفون بالبعث، ولا بالجنة والنار؛ حيث يفسرون يوم الجزاء ويوم القيامة بمجيء ميرزا حسين الملقب ببهاء الله[2]. «ويجيب البهاء عمن سأل: أين الجنة والنار؟ فيقول: الأولى: لقائي، والأخرى: نفسك يا أيها المشرك المرتاب»[3].

من تأويلات عبد البهاء عباس:

كذلك نجد عبد البهاء، يتكلم عن النبوة والوحي بما يوافق كلام قدماء الباطنية الذين قلدوا الفلاسفة فيقول: «الأنبياء مرايا تنبئ عن الفيض الإلهي، والتجلي الروحاني. وانطبعت فيها أشعة ساطعة من شمس الحقيقة، وارتسمت فيها الصور العالية ممثلة لها تجليات أسماء الله الحسنى. ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣، ٤]، فهم معادن الرحمة، ومهابط الوحي، ومشارق الأنوار، ومصادر الإرسال. ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧]»[4].

ونجد قرة العيون: إحدى أتباع الباب، تدعي أنها الصوْر الذي يُنفخ فيه يوم القيامة، وتقول: «إن الصور الذي ينتظرون في اليوم الأخير هو أنا»[5].

وبين أيدينا: رسائل أبي الفضائل محمد بن رضا الجرفادقاني، المعروف بفضل الله الإيراني، أحد دعاة البابية المتعصبين، وكتاب: الحجج البهية له أيضا، وفيهما تفسير لبعض الآيات القرآنية، بما يتفق ومذهبه الباطل.

فمن ذلك مثلا أنه يفسر: ﴿ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣] الذي ورد في القرآن بأنه: الحقيقة المقدسة، ثم يعرفها فيقول: «هي غيب في ذاتها، مجردة بحقيقتها عن الجسم أو الجسمانيات، فلا توصف بأوصاف الماديات، ولا تذكر بخصائصها. ولا يطلق عليها الخروج والدخول، ولا توصف بالتحيز والحلول، وإنما هي حقيقة تنجلي في مظاهر أمر الله تعالى، عرشها قلوب الأصفياء، ومرآة تجليها صدور الأوليات، وإنما مثل طلوعها وإشراقها في النفوس القدسية كمثل انطباع الشمس في المرايا، فلا يقال: إن الشمس حلت في المرآة، ولا إنها دخلت فيها، بل ولا يقال: إنها عرضت عليها، بل يقال: إن الشمس تجلت في المرآة،

---

١) الكتاب: لبهاء الدين: ٨٣.

٢) رسائل الإصلاح - محمد الخضر حسين: ٣/١٠٣.

٣) الكتاب - بهاء الله - السعادة - ١٩٣٠م: ٩٧.

٤) خطابات ومحادثات عبد البهاء - عبد البهاء عباس - جمع ع ج س - السعادة ١٩٢٠.

٥) المبادئ البهائية - معرّب عن مجلة كوكب الغرب الأمريكية - رعمسيس - ١٩٢١م: ٢١.

وظهرت منها وأشرقت، وانطبعت بها»[1]. وهذا بعينه مذهب قدماء الباطنية والفلاسفة.

ومن ذلك أيضا أنه فسر قوله تعالى: ﴿ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [الأعراف: ١٤٢ ـ ١٤٣] تفسيرا باطنيا فقال: «المراد بالليل ـ كما سمعته مني مرارا ـ هو عبارة عن أيام غيبة شمس الحقيقة، واليوم على حسب ما نزل في التوراة المقدس يحسب كل يوم واحد بسنة واحدة، وكان موسى عليه السلام لما فارق أرض مصر، وفرّ من فرعون وملئه إلى مدين، كان ابن ثلاثين، وأقام في مدين عشر سنوات يشتغل فيها يرعى أغنام شعيب النبي عليه السلام... فالمراد بأربعين ليلة هو أربعون سنة»[2].

وكذلك نجد أبا الفضائل يفسر قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [المدثر: ٣١]. بما لا يقره شرع، أو يرضى به عقل فيقول: «إن لفظ الملك: واحد الملائكة، والملائكة: في اللغة العربية توافق لفظا ومعنى ما في اللغة العبرانية... وهو يفيد معنى المالكية والاستيلاء على شيء... والأئمة الهداة، لخلعهم ثياب البشرية وتخلقهم بالأخلاق الروحانية الملكوتية، فملكوا زمام الهداية، وصاروا ملوك ممالك الولاية...وهذا هو معنى الولاية المطلقة التى جاءت في الأخبار: ولذا سُمي سيد الأبرار وأمير الأبرار، بقسيم الجنة والنار. كذلك أطلق هذا اللفظ في الكلمات النبوية على رؤساء الأشرار، وأئمة الضلال، حيث إنهم قادة الفجار يقودونهم إلى النار ولذا أطلق عليهم لفظ الملائكة، كما أنه أطلق عليهم لفظ الأئمة في قوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ [القصص: ٤١]... ثم استدل أبو الفضائل بعبارات من الكتب القديمة على جواز إطلاق الملائكة على أئمة الجور والضلال. ثم تكلم عن سر تخصيص العدد بتسعة عشر، فذكر أن الديانات أبواب لدخول جنة الله ورضوانه؛ كما أنها أبواب للدخول في جهنم بسخط الله حين تغييرها مثلا. ثم استطرد وادعى «أن أبواب الجنة كانت عند ظهور النقطة الأولى تسعة عشر، وهي ثمانية عشر حروف الـ (حي) والنقطة الفردانية[3] وبهم صعد المخلصون إلى الذروة العليا، ودخلوا الجنة... ثم عارض الدجال الرب سبحانه فعين تسعة عشر إنسانا من رؤساء أصحابه ودهاة أحبابه؛ لإضلال أهل الإيمان، ومعارضة جمال الرحمن» ثم قال: «فالمراد بملائكة النار في الآية المباركة هو: هذه الرجال من أصحاب الدجال وأئمة الضلال»[4].

---

١) رسائل أبي الفضائل ـ محمد بن رضا الجرفادقاني: ٣٩.

٢ ـ رسائل أبي الفضائل ـ محمد بن رضا الجرفادقاني: ٩٦ ـ ١٠٣.

٣) يريد الباب نفسه والثمانية عشر الذين استجابوا له أولا.

٤) رسائل أبي الفضائل ـ محمد بن رضا الجرفادقاني: ١٠٤ ـ ١٠٩.

كذلك نجد أبا الفضائل يقول بالرجعة، ويريد بها: رجوع الحقيقة المقدسة التي هي الوحي، على معنى أن الوحي بعد انقطاعه بموت محمد ﷺ يرجع فينزل مرة ثانية على زعيمهم الباب ثم البهاء، ويفسر القيامة: بأنها قيام مظهر الحقيقة المقدسة. والساعة: بساعة طلوعها وإشراقها بعد الغيبة ويقول: «وأما الرجعة والقيامة بالمعنى الذي تعتقد وتنتظره الأمم فهي أمر غير معقول؛ إذ هو مخالف للنواميس الطبيعية، ومباين للسنن الإلهية»(١).

وكذلك يساوي بين القرآن وكلام البشر فيقول: «ولا يعرف ولا يمتاز كلام الله عن كلام البشر بفصاحته، وبلاغته، ورصف كلماته، وتسجيع عباراته، وترصيع جمله، ولطيف استعاراته، كما يدعيه قوم»(٢). كما أنه ينكر نبوات الرسل فيقول: «لانسبة بين القدرة على إتيان المعجزات والعجائب، وبين ادعاء النبوة والرسالة؛ فإن الرسالة والنبوة ليست إلا بعث إنسان من قبل الله تعالى لهداية الخلق، فما هو ارتباط هذا المعنى بالقدرة على شق البحار، وجفاف الأنهار، وإنطاق الأحجار والأشجار مثلاً»(٣).

وإذا كان لنا كلمة بعد ذلك فهي أن البابية والبهائية وأسلافهم من الباطنية، لم يكونوا أول من ابتدأ التأويل لنصوص الشريعة على هذه الصورة التي تأتي على بنيان الدين من قواعده، وإنما هو صنيع قلدوا فيه طائفة من فلاسفة اليهود الذين سبقوهم، فهذا هو (فيلون) الفيلسوف اليهودي المولود ما بين عشرين وثلاثين سنة قبل الميلاد، نجده ألف كتابا في تأويل التوراة، ذاهبا إلى أن كثيراً مما فيها رموز إلى أشياء غير ظاهرة. ويقول الكاتبون في تاريخ الفلسفة: إن هذا التأويل الرمزي كان موجودا ومعروفا عند أدباء اليهود بالإسكندرية قبل زمن (فيلون) ويذكرون أمثلة من تأويلهم: أنهم فسروا آدم بالعقل، والجنة برياسة النفس، وإبراهيم بالفضيلة الناتجة من العلم، وإسحق عندهم هو الفضيلة الغريزية، ويعقوب الفضيلة الحاصلة من التمرين. إلى أمثال هذا من التأويل الذي لا يحوم عليه إلا الجاحدون المراؤون، ولا يقبله منهم إلا قوم هم عن مواقع الحكمة ودلائل الحق غافلون»(٤).

---

١) الحجج البهية ـ محمد بن رضا الجرفادقاني: ٣٠ ـ ٣١.
٢) الحجج البهية ـ محمد بن رضا الجرفادقاني: ٣٧.
٣) الحجج البهية ـ محمد بن رضا الجرفادقاني: ٧٠.
٤) رسائل الإصلاح ـ محمد الخضر حسين: ٣/٩٧ ـ ٩٨.

الزيدية

وموقفهم من تفسير القرآن الكريم

تمهيد:

لم يقع بين الزيدية من الشيعة، وبين جمهور أهل السنة خلاف كبير مثل ما وقع من الخلاف بين الإمامية وجمهور أهل السنة، والذي يقرأ كتب الزيدية يجد أنهم أقرب فرق الشيعة إلى مذهب أهل السنة.

يرى الزيدية: أن علياً أفضل من سائر الصحابة، وأولى بالخلافة بعد رسول الله ﷺ، ويقولون: إن كل فاطمي عالم زاهد شجاع سخي خرج للإمامة صحت إمامته، ووجبت طاعته، سواء أكان من أولاد الحسن، أم أولاد الحسين، ومع ذلك فهم لا يتبرمون من الشيخين، ولا يكفرونهما، بل يجوزون إمامتهما؛ لأنه تجوز عندهم إمامة المفضول مع وجود الفاضل، كما أنهم لم يقولوا بما قالت به الإمامية من التقية، والعصمة للأئمة، واختفائهم ثم رجوعهم في آخر الزمان. وغير ذلك من خرافات الإمامية ومن على شاكلتهم.

وكل الذي نلحظه على الزيدية، أنهم يشترطون الاجتهاد في أئمتهم؛ ولهذا كثر فيهم الاجتهاد، وأنهم لايثقون برواية الأحاديث إلا إذا كانت عن طريق أهل البيت. والذي يقرأ كتاب المجموع للزيدية يرى أن كل ما فيه من الأحاديث مروية عن زيد بن علي زين العابدين، عن آبائه من الأئمة، عن رسول الله ﷺ، وليس فيه بعد ذلك حديث يروى عن صحابي آخر من غير أهل البيت رضي الله عنهم.

كما نلاحظ على الزيدية أيضا أنهم تأثروا إلى حد كبير بآراء المعتزلة ومعتقداتهم، ويرجع السر في هذا إلى أن إمامهم زيد بن علي، تتلمذ على واصل بن عطاء ـ [رأس المعتزلة] ـ، كما قلنا ذلك فيما سبق.

أهم كتب التّفسير عند الزّيديّة:

١ ـ تفسير الشوكاني[١] المسمى: فتح القدير، وهو تفسير متناول للقرآن كله، وجامع بين الرواية والدراية.

٢ ـ تفسير: الثمرات اليانعة، لشمس الدين يوسف بن أحمد: من علماء القرن التاسع الهجري، يشرح في تفسيره آيات الأحكام.

وقرأت مقدمة شرح الأزهار من كتب الزيدية في الفقه، وهي مقدمة تشتمل على تراجم الرجال المذكورة في شرح الأزهار لأحمد بن عبد الله الجنداري، فخرجت منها بما يأتي:

٣ ـ تفسير غريب القرآن للإمام زيد بن علي، جمعه بإسناده محمد بن منصور بن يزيد الكوفي، أحد أئمة الزيدية، المتوفى سنة نيف و ٢٩٠هـ[٢].

٤ ـ التهذيب، لمحسن بن محمد بن كرامة المعتزلي ثم الزيدي، المقتول سنة ٤٩٤هـ، قال: وهذا التفسير مشهور، ويمتاز من بين التفاسير بالترتيب الأنيق؛ فإنه يورد الآية كاملة، ثم يقول القراءة ويذكرها، ويميز السبع من غيرها ثم يقول اللغة ويذكرها، ثم يقول الإعراب ويذكره، ثم يقول النظم ويذكره، ثم يقول المعنى ويذكره، ويذكر أقوالا متعددة، وينسب كل قول إلى قائله من المفسرين، ثم يقول النزول ويذكر سببه، ثم يقول الأحكام ويستنبط أحكاما كثيرة من الآية[٣].

٥ ـ تفسير عطية بن محمد النجواني الزيدي، المتوفى سنة ٦٦٥هـ. قال: وقد قيل إنه تفسير جليل، جمع فيه صاحبه علوم الزيدية[٤].

وقد سألت القاضي محمد بن عبد الله العامري الزيدي عن سبب قلة انتاج الزيدية في التفسير، وقلة المطبوع منها فقال: إن السرّ في عدم طباعة هذه الكتب أمران: **أحدهما**: عدم تقدم فن الطباعة عندهم. **وثانيهما**: أن كل اعتمادهم في التفسير على كتاب الكشاف للزمخشري؛ نظراً للصلة التي بين الزيدية والمعتزلة.

وبعد، فما دامت أيدينا لم تصل إلى شيء من كتب التفسير عند الزيدية سوى كتاب: (فتح القدير) للشوكاني، و(الثمرات اليانعة) لشمس الدين يوسف بن أحمد؛ فإني سأقتصر

---

١ ـ لا يعدّ تفسير الشوكاني تفسيرا زيديا؛ فإن صاحبه وصل إلى درجة الاجتهاد، ولم يعد يقلد مذهبا. كما أننا لا نلاحظ شيئا جليا في تفسيره يجعلنا نصنفه هذا التصنيف الذي يغمط من حقه، وهذا ما ستراه عند الحديث عن تفسيره.

٢) مقدمة شرح الأزهار ـ أحمد بن عبد الله الجنداري: ٣٦.

٣) المرجع السابق ٣٢.

٤) المرجع السابق ٢٣.

على هذين الكتابين في دراستي وبحثي، وسأبدأ بتفسير الشوكاني، وإن كان لا يمثل لنا تفسير الزيدية تمثيلا وافيا شافياً. وأرجئ الكلام عن (الثمرات اليانعة) إلى أن أعرض للكلام عن تفاسير الفقهاء إن شاء الله:

فتح القدير
للشوكاني

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

هو العلّامة محمد بن علي بن عبد الله الشوكاني، ولد في سنة ١١٧٣هـ. في بلدة هجرة شوكان. ونشأ بصنعاء، وأخذ في طلب العلم والسماع من العلماء الأعلام، واشتغل كثيرا بمطالعة كتب التاريخ ومجاميع الأدب، إلى أن صار إماما «فريداً في عصره، ونادرة لدهره، وقدوة لغيره، بحراً في العلم لا يجارى، ومفسراً للقرآن لا يبارى، ومحدثا لا يشق له غبار، ومجتهدًا لا يثبت أحد معه في مضمار».

ولقد خلف رحمه الله كتباً أهمها: كتاب فتح القدير في التفسير، وهو الكتاب الذي نحن بصدد الكلام عنه، وكتاب نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار في الحديث، وغير هذا كثير.

تفقَّه رحمه الله على مذهب الزيدية، وبرع فيه، وألف وأفتى، ثم خلع ربقة التقليد، وتحلى بمنصب الاجتهاد، وألف رسالة سماها: (القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد)، تحامل عليه من أجلها جماعة من العلماء، وثارت من أجل ذلك فتنة في صنعاء اليمن بين من هو مقلد ومن هو مجتهد. وعقيدة الشوكاني عقيدة السلف، من حمل صفات الله تعالى الواردة في القرآن والسنة على ظاهرها من غير تأويل [في الغالب][1] ولا تحريف. وقد ألف رسالة في ذلك سماها: (التحف بمذهب السلف).

هذا وقد توفي الشوكاني رحمه الله سنة ١٢٥٠هـ، فرحمه الله وأرضاه [2].

---

١ - قلت: [في الغالب] لأنني وجدت الشوكاني أحيانا يؤول بعض الأحرف العقدية في القرآن، فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] يقول: «يراد به علو القدرة والمنزلة»، والسلف لايقولون هذا؛ فإن الشوكاني أراد بقوله هذا أن يبتعد عن علو الذات، والسلف يثبتون العلو لله سبحانه بالذات والصفات ولايفرقون بين ذلك بغير دليل. وكذلك رأيه في خلق القرآن عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنبياء: ٢] حيث يخالف أهل السنة ويأخذ بالتوقف. وهو التفويض السلبي، وسترى مزيدا من التعليق على هذه المسألة في الصفحات القادمة في مسألة خلق القرآن.

٢) انظر ترجمة المؤلف في أول فتح القدير، وفي أول نيل الأوطار.

التعريف بهذا التفسير:

يعتبر هذا التفسير أصلا من أصول التفسير، ومرجعاً مهما من مراجعه؛ لأنه جمع بين التفسير بالدراية، والتفسير بالرواية، وقد ذكر مؤلفه في مقدمته أنه شرع فيه في ١٢٢٣هـ. وفرغ منه في شهر رجب سنة ١٢٢٩هـ. كما ذكر أنه اعتمد في تفسيره هذا على أبي جعفر النحاس، وابن عطية الدمشقي، وابن عطية الأندلسي، والقرطبي، والزمخشري، وغيرهم.

طريقة الشّوكاني في تفسيره:

قال رحمه الله في مقدمة تفسيره: «إن غالب المفسرين تفرقوا فريقين..الفريق الأول: اقتصروا في تفاسيرهم على مجرد الرواية...والفريق الآخر: جردوا أنظارهم إلى ما تقتضيه اللغة العربية، وما تفيده العلوم الآلية، ولم يرفعوا إلى الرواية رأساً...لابد من الجمع بين الأمرين، وعدم الاقتصار على مسلك أحد الفريقين، وهذا هو المقصد الذي وطّنت نفسي عليه، مع تعرضي للترجيح بين التفاسير المتعارضة مهما أمكن واتضح لي وجهه، وأخذي من بيان المعنى العربي والإعرابي والبياني بأوفر نصيب، والحرص على إيراد ما ثبت من التفسير عن رسول الله ﷺ، أو الصحابة، أو التابعين، أو تابعيهم، أو الأئمة المعتمدين وقد أذكر ما في إسناده ضعف؛ إما لأن في المقام ما يقويه، أو لموافقته للمعنى العربي. وقد أذكر الحديث معزوا إلى راويه من غير بيان حال الإسناد؛ لأني أجده في الأصول التي نقلت عنها كذلك...وقد اشتمل هذا التفسير على جميع ما تدعو إليه الحاجة من تفسير السيوطي مما يتعلق بالتفسير...وضممت إلى ذلك فوائد لم يشتمل عليها، وجدتها في غيره من تفاسير علماء الرواية، أو من الفوائد التي لاحت لي، من تصحيح، أو تحسين، أو تضعيف، أو جمع، أو ترجيح».

وقد رجعت إلى هذا التفسير فوجدته يذكر الآيات، ثم يفسرها تفسيراً معقولا ومقبولا، ثم يذكر بعد الفراغ من ذلك: الروايات التفسيرية الواردة عن السلف، وهو ينقل كثيراً عمن ذكر من أصحاب كتب التفسير. ووجدته يذكر المناسبات بين الآيات، ويحتكم إلى اللغة كثيراً. وينقل عن أئمتها كالمبرد وأبي عبيدة والفراء، كما أنه يتعرض أحيانا للقراءات السبع، ولا يفوته أن يعرض لمذاهب العلماء الفقهية في كل مناسبة، ويذكر اختلافاتهم وأدلتهم، ويدلي بدلوه بين الدلاء؛ لأنه يرى نفسه مجتهداً لا يقل عن غيره من المجتهدين.

نقله للروايات الموضوعة والضعيفة:

يذكر كثيراً من الروايات الموضوعة، أو الضعيفة، ويمر عليها بدون أن ينبه عليها.

فمثلا نجده عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥]. يذكر من الروايات ماهو موضوع على ألسن الشيعة، ولا ينبه على أنها موضوعة، مع أنه يقرر عدم صلاحية مثل هذه الروايات للاستدلال على

إمامة علي، فنراه يذكر في ضمن ما يذكر من الروايات عن ابن عباس في الآية السابقة أنه قال: تصدق علي بخاتم وهو راكع، فقال النبي ﷺ للسائل: من أعطاك هذا الخاتم؟ قال: ذلك الراكع، فأنزل الله فيه: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾. ثم يمر على هذه الرواية الموضوعة باتفاق أهل العلم ولا ينبه على ما فيها.

ومثل هذا ما ذكره من حديث موضوع في ولاية علي عند تفسيره للآية ٦٧ من سورة المائدة.

ذمه للتقليد والمقلدين:

لا يكاد يمر بآية من القرآن تنعي على المشركين تقليدهم آباءهم إلا ويطبقها على مقلدي أئمة المذاهب الفقهية، ويرميهم بأنهم تاركون لكتاب الله، معرضون عن سنة رسوله ﷺ. ونحن وإن كنا لا نمنع من الاجتهاد من له قدرة عليه بتحصيله لأسبابه وإلمامه بشروطه إلا أنا لا ننكر أن في الناس من ليس أهلا للاجتهاد، وهؤلاء لا بد لهم من التقليد ولست في شك من أن الشوكاني كان قاسيا إلى حد كبير حيث يطبق ما ورد من الآيات في حق الكفرة على مقلدي الأئمة وأتباعهم. وإليك بعض ما قاله في تفسيره:

في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]. يقول: وفي هذه الآية ما يزجر من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد عن التقليد في دين الله، وإيثار ما يقوله الأسلاف على ما في الكتاب العزيز، والسنة المطهرة؛ فإن طاعة المتمذهب لمن يقتدى بقوله، ويستن بسنته من علماء هذه الأمة، مع مخالفته لما جاءت به النصوص، وقامت به حجج الله وبراهينه، ونطقت به كتبه وأنبياؤه، هو كاتخاذ اليهود والنصارى الأحبار والرهبان أربابا من دون الله، للقطع بأنهم لم يعبدوهم، بل أطاعوهم، وحرموا ما حرموا، وحللوا ماحللوا وهذا هو صنيع المقلدين من هذه الأمة... فدعوا - أرشدكم الله وإياي - كتباً كتبها لكم الأموات من أسلافكم، واستبدلوا بها كتاب الله خالقهم وخالقكم ،ومتعبدهم ومتعبدكم، ومعبودهم ومعبودكم.

حياة الشهداء:

يرى الشوكاني أن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، حياة حقيقية لا مجازية، وذلك حيث يقول عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩]. ومعنى الآية عند الجمهور: أنهم أحياء حياة محققة... وذهب من عدا الجمهور إلى أنها حياة مجازية. والمعنى: أنهم في حكم الله مستحقون للنعم في الجنة والصحيح الأول، ولا موجب للمصير إلى المجاز، وقد وردت السنة المطهرة بأن أرواحهم في أجواف طيور خضر، وأنهم في الجنة يرزقون ويأكلون ويتمتعون.

التوسل:

يقف من مسألة التوسل بالأنبياء، والأوليا موقف المعارض، ويفيض في الإنكار على من يفعل ذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾ [يونس: ٤٩]. يقول: «وفي هذا أعظم واعظ، وأبلغ زاجر لمن صار دينه وهجيراه المناداة لرسول الله ﷺ، والاستغاثة به عند نزول النوازل التي لا يقدر على دفعها إلا الله سبحانه... فإن هذا مقام رب العالمين... فكيف يطلب من نبي من الأنبياء، أو ملك من الملائكة، أو من صالح من الصالحين ما هو عاجز عنه غير قادر عليه ويترك الطلب لرب الأرباب، القادر على كل شيء. الخالق الرازق، المعطي المانع، وحسبك بما في هذه الآية موعظة، فإن هذا سيد ولد آدم، وخاتم الرسل يأمره الله بأن يقول لعباده: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا﴾ فكيف يملكه لغيره؟ وكيف يملكه غيره ممن رتبته دون رتبته؟... فيا عجبا لقوم يعكفون على قبور الأموات... ويطلبون منهم من الحوائج مالا يقدر عليه إلا الله عز وجل. كيف لا يتيقظون لما وقعوا فيه من الشرك، ولا يتنبهون لما حل بهم من المخالفة لمعنى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، ومدلول: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: ١].

موقفه من المتشابه:

هو سلفي العقيدة، فكل ما ورد في القرآن من ألفاظ توهم التشبيه حملها على ظاهرها، وفوض الكيف إلى الله؛ ولهذا نراه مثلا عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]. يقول: قد اختلف العلماء في معنى هذا على أربعة عشر قولا، وأحقها وأولالها بالصواب مذهب السلف الصالح: أنه استوى سبحانه عليه بلا كيف، بل على الوجه الذي يليق به مع تنزهه عما لا يجوز عليه.

موقفه من آراء المعتزلة:

وبالرغم من أن الزيدية تأثروا كثيراً بتعاليم المعتزلة، وأخذوا عنهم آراءهم وعقائدهم في غالب مسائل الكلام، فإنا نجد صاحبنا لا يميل إلى القول بمبادئهم، بل يرد عليهم.

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ۝٥٥﴾ [البقرة: ٥٥]. يقول: وإنما عوقبوا بأخذ الصاعقة لهم؛ لأنهم طلبوا ما لم يأذن الله به من رؤية الدنيا. وقد ذهب المعتزلة ومن تابعهم إلى إنكار الرؤية في الدنيا والآخرة. وذهب من عداهم إلى جوازها في الدنيا، ووقوعها في الآخرة. وقد تواترت الأحاديث الصحيحة بأن العباد يرون ربهم في الآخرة، وهي قطعية الدلالة، لا ينبغي لمنصف أن يتمسك في مقابلها بتلك القواعد الكلامية التي جاء بها قدماء المعتزلة.

موقف الشوكاني من مسألة خلق القرآن:

لم يرض الشوكاني وقف أهل السنة، ولا موقف المعتزلة من مسألة خلق القرآن، وإنما رضي أن يكون من العلماء الوقوف في هذه المسألة، فلم يجزم فيها برأي، وراح ينحي باللائمة على من يقطع بأن القرآن قديم أو مخلوق، فعندما تعرض لتفسير قوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢﴾ [الأنبياء: ٢]. يقول: ولقد أصاب أئمة السنة بامتناعهم من الإجابة إلى القول بخلق القرآن وحدوثه، وحفظ الله بهم أمة نبيه عن الابتداع، ولكنهم ـ رحمهم الله ـ جاوزوا ذلك إلى القول بقدمه[1]، ولم يقتصروا على ذلك حتى كفروا من قال بالحدوث، بل جاوزوا ذلك إلى تكفير من قال: لفظي بالقرآن مخلوق، بل جاوزوا ذلك إلى تكفير من وقف، وليتهم لم يجاوزوا حد الوقف، وإرجاع العلم إلى علام الغيوب، فإنه لم يسمع من السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى وقت قيام المحنة وظهور القول في هذه المسألة: شيء من الكلام، ولا تنقل عنهم كلمة في ذلك.

هذا هو أهم ما في تفسير الشوكاني من البحوث التي أعطى فيها لنفسه حرية واسعة. خولت له أن يسخر من عقول العامة، وأن يهزأ من تعاليم المعتزلة، وأن يندد ببعض مواقف أهل السنة. وأحسب أن الرجل قد دخله شيء من الغرور العلمي، فراح، يوجه لومه لهؤلاء وهؤلاء، وليته وقف منهم جميعاً موقف الحاكم النزيه، والناقد العف... وعلى الجملة، فالكتاب له قيمته ومكانته، وإن كان لا يعطينا الصورة الواضحة للتفسير عند الإمامية الزيدية. والكتاب مطبوع في خمسة مجلدات، ومتداول بين أهل العلم.

---

١ ـ ليس صحيحاً ما نسبه لأهل السنة من أنهم توقفوا أو قالوا بقدم القرآن، بل معروف رأيهم أن الله يتكلم بما شاء متى شاء، وهم يقولون بقدم صفة الكلام، وأما القرآن فيقولون بأنه بدا منه سبحانه وإليه يعود، وليس بقديم بذاته، لكن كلام الله قديم باعتبار الجنس كما أنهم أنكروا لفظ: (حادث)؛ لأن المعتزلة يعتبرون أن كل حادث مخلوق، ولم ينكروا لفظ حادث لأنهم يرونه بعينه قديما؛ بل مذهبهم ما قاله ابن تيمية: «إن السلف قالوا: القرآن كلام الله منزل غير مخلوق، وقالوا لم يزل متكلما إذا شاء. فبينوا أن كلام الله قديم، أي جنسه قديم لم يزل، ولم يقل أحد منهم أن نفس الكلام المعين قديم، ولا قال أحد منهم القرآن قديم، بل قالوا: إن كلام الله منزل غير مخلوق... فمن فهم قول السلف وفرق بين هذه الأقوال زالت عنه الشبهات في هذه المسائل المعضلة التي اضطرب فيها أهل الأرض». مجموع الفتاوى: ١٢/ ٥٤. وانظر: شرح حديث النزول لابن تيمية كذلك: ١٥٤. وشرح العقيدة الطحاوية ـ للعلامة ابن أبي العز الحنفي: ١٨٦ وما بعدها.

الخوارج

وموقفهم من تفسير القرآن الكريم

كلمة إجمالية عن الخوارج:

بعد مقتل عثمان ﵁، نشط أنصار علي في الدعوة له، حتى أخذوا له البيعة من المسلمين، ليكون خليفة لهم... ولكن لم تكد تتم له البيعة حتى قام ثلاثة من كبار الصحابة ينازعونه الأمر؛ لاعتقادهم أن الحق في غير جانبه. وهؤلاء الصحابة هم: معاوية بن أبي سفيان، وطلحة بن عبد الله، والزبير بن العوام.

وكان لعلي شيعة وأنصار، وكان لمعاوية ﵁ شيعة وأنصار كذلك. وكانت حروب طاحنة بين الفريقين !!. كان الغلب فيها لعلي وحزبه، إلى أن جاءت موقعة صفين، فكاد الفشل يحيق بجيش معاوية، وأوشكت الهزيمة أن تحدق به، لولا أن لجأ إلى رفع المصاحف[1] على أسنة الرماح، طلبا للهدنة، ورغبة في التحكيم بين الحزبين، ورأى علي قبول التحكيم؛ رغبة منه في حقن الدماء. واختار معاوية: عمرو بن العاص ليمثله واختار أصحاب علي: أبا موسى الأشعري، ولكن بعض شيعته رأوا أن التحكيم خطأ؛ لأن الحق ظاهر في جانب علي. ولا يعتوره شك في نظرهم، وقبول التحكيم دليل الشك من علي في أحقيته بالخلافة، وهم إنما قاموا معه في حروبه لاعتقادهم بأن الحق في جانبه، فكيف يشك هو فيه؟.

---

١ ـ في الأصل يقول الذهبي: «إن معاوية لجأ إلى حيلة رفع المصاحف»!. وبعدها يقول: «إن عَمْرا بن العاص خدع أبا موسى الأشعري». وإني لأعجب كيف تنطلي هذه الأكاذيب التي دست في تاريخ المسلمين على رجل مثل الذهبي، فإن قوله فيه طعن لا يليق بالصحابة الذين نجلهم، وأمرنا بكف ألسنتنا عنهم. وقد بيَّن المحققون كذب هذه الروايات أو الأقوال التى تسيء الظن بصحابة أجلاء، وقد بيَّن صاحب العواصم من القواصم: ١٧٢ ـ ١٧٦. وغيره من المحققين وهن هذه الأقوال وأن عمرا لم يقل غير ما قاله أبو موسى الأشعري. وانظر كذلك اتمام الوفاء في سيرة الخلفاء. محمد الخضري: ٢١٤ وما بعدها. والتحفة الإثنا عشرية: ٣١٢ ـ ٣٢٢.

لم يرض هؤلاء بفكرة التحكيم. فخرجوا على علي، ولم يقبلوا أن يرجعوا إليه إلا إذا أقر على نفسه بالكفر، لقبوله التحكيم، وإلا إذا نقض ما أبرم من الشروط بينه وبين معاوية، ولكن عليا رضي الله عنه لم يستجب لرغبتهم هذه. ووقعت بينهم وبين علي حروب طاحنة هزمهم فيها. وأخيراً دبروا له مكيدة قتله، فقتله عبد الرحمن بن ملجم.

وجاءت دولة الأمويين، فكان الخوارج شوكة في جنبها يهددونها ويحاربونها، حتى كادوا يقضون عليها. ثم جاءت الدولة العباسية، فكان بينهم وبينها حروب كذلك، ولكن لم يكونوا في قوتهم الأولى، لتفرق كلمتهم حيث بلغ عدد أحزابهم عشرين حزبا، كل حزب يفارق الآخر في المبدأ والعقيدة... ولكن يجمع الكل على مبدأين اثنين:

١ ـ إكفار علي، و [معاوية][1] والحكمين، وأصحاب الجمل، وكل من رضي بتحكيم الحكمين.

٢ ـ وجوب الخروج على السلطان الجائر.

وهناك مبدأ ثالث يقول به أكثر الخوارج، وهو: الإكفار بارتكاب الكبائر[2].

[أشهر فرق الخوارج]:

١ ـ **الأزارقة:** وهم أتباع نافع بن الأزرق، وهم يكفرون من عداهم من المسلمين، ويحرمون أكل ذبائحهم ومناكحتهم، ولا يقولون برجم الزاني المحصن، ولا يقولون بحد من يقذف المحصنين من الرجال، أما قاذف المحصنات فعليه الحد قطعا. ولا يرون جواز التقية.

٢ ـ **النجدات:** وهم أتباع نجدة بن عامر، وهم يرون أنه لا حاجة للناس إلى إمام قط، بل عليهم أن يتناصفوا فيما بينهم، فإن رأوا أن الحاجة تدعوا إلى إمام أقاموه، وإلا فلا. كما أنهم يكفرون من يقول بإمامة نافع بن الأزرق، ويكفرون من يكفر القاعدين عن الهجرة لنافع وحزبه. وهم يعظمون جريمة الكذب، ويجعلونها أكبر جُرما من شرب الخمر والزنى.

٣ ـ **الصفرية:** وهم أتباع زياد بن الأصفر، وهم يقولون بأن أصحاب الذنوب مشركون، غير أنهم لا يرون قتل أطفال مخالفيهم ونسائهم كما ترى الأزارقة ذلك. ومن الصفرية من يخالف في ذلك.

---

١ ـ في الأصل: (عثمان)، ويبدو أنه خطأ مطبعي، والمقصود: (معاوية) كما هو معروف.

٢) انظر الفرق بين الفرق ـ البغدادي: ٥٥.

٤ ـ **الإباضية**: وهم أتباع عبد الله بن إباض[(١)]، وهم أعدل فرق الخوارج، وأقربها إلى تعاليم أهل السنة، وهم يجمعون على أن مخالفيهم من المسلمين ليسوا مشركين، ولا مؤمنين، ولكنهم كفار. ويروى عنهم أنهم يريدون كفر النعمة، وأجازوا شهادة مخالفيهم من المسلمين، ومناكحتهم، والتوراث معهم.

موقف الخوارج من تفسير القرآن الكريم

ينظرون إلى القرآن من خلال مذهبهم، فمثلا نرى أن أكثر الخوارج يجمعون على أن مرتكب الكبيرة كافر، ومخلد في نار جهنم، ونقرأ في الكتب التي تكلمت عن الخوارج فنجد ابن أبي الحديد ـ وهو ممن تعرض لهم في كتابه: (شرح نهج البلاغة) ـ يسوق لنا أدلتهم التي أخذوها من القرآن، وبنو عليها رأيهم في مرتكب الكبيرة، كما نجده يناقش هذه الأدلة، ويفندها دليلا بعد دليل.

ونضرب مثالا على ما نقول، قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ۝١٧﴾ [سبأ: ١٧]. قالوا: والفاسق لا بد أن يجازى، فوجب أن يكون كفورا[(٢)].

---

١ ـ لو رجعنا إلى كتب الإباضية لرأيناهم يقولون بأن إمامهم هو: جابر بن زيد الأزدي التابعي، المولود سنة ٢٢هـ، والمتوفى سنة: ٩٣هـ. وأنهم نُسبوا إلى ابن إباض التميمي وهو: أحد رجالهم المشهورين؛ لأنه كان يتولى المفاوضات باسمهم مع الأمويين (في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان). راجع: الإباضية لعلي يحيى معمر، وهو من إباضية ليبيا.

٢ ـ وقال الشوكاني في فتح القدير: عند الآية: ذلك الجزاء بسبب كفرهم للنعمة بإعراضهم عن شكرها، أي وهل نجازي هذا الجزاء بسلب النعمة ونزول النقمة إلا الشديد الكفر المتبالغ فيه.. وظاهر الآية: انه لا يجازي إلا الكفور مع كون أهل المعاصي يجازون. وقد قال قوم: إن معنى الآية: أن لايجازى هذا الجزاء وهو الاصطلام [الاستئصال والإبادة] والإهلاك إلا من كفر. وقال مجاهد: إن المؤمن يكفر عن سيئاته، والكافر يجازى بكل عمل عمله. وقال طاووس: هو المناقشة في الحساب، وأما المؤمن فلا يناقش. وقال الحسن: أن المعنى: أي يجازي الكافر مثلا بمثل، ورجح هذا الجواب النحاس .أهـ. وواضح من هذا تحكّم الخوارج بالنص الشرعي حيث فهموه على =

مدى فهم الخوارج لنصوص القرآن:

إن الخوارج عندما ينظرون إلى القرآن لا يتعمقون في التأويل ولا يغوصون وراء المعاني الدقيقة، بل يقفون عند حرفية ألفاظه، وربما كانت الآية لا تنطبق على ما يقصدونه.

«يُروى أن واصل بن عطاء وقع هو وبعض أصحابه في يد الخوارج فقال لأصحابه: اعتزلوا ودعوني وإياهم ـ وكانوا قد أشرفوا على العطب ـ فقالوا: شأنك. فخرج إليهم فقالوا: ما أنت وأصحابك؟ قال: مشركون مستجيرون ليسمعوا كلام الله ويعرفوا حدوده، فقالوا: قد أجرناكم. قال: فعلمونا: فجعلوا يعلمونه أحكامهم، وجعل يقول: قد قبلت أنا ومن معي. قالوا فامضوا مصاحبين فإنكم إخواننا. قال: ليس ذلك لكم. قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾ [التوبة: ٦]. فأبلغونا مأمننا، فنظر بعضهم إلى بعض ثم قالوا: ذلك لكم، فساروا بأجمعهم حتى بلغوهم المأمن»[١].

ومن الخوارج من أداه تمسكه بظاهر النصوص إلى أن قال: «لو أن رجلا أكل من مال يتيم فلسين وجبت له النار، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ۝١٠﴾ [النساء: ١٠]. ولو قتل اليتيم أو بقر بطنه لم تجب له النار؛ لأن الله لم ينص على ذلك»[٢].

وغير هذا كثير نجده عنهم في بطون الكتب، وهو لا يدع مجالا للشك في أن الخوارج قوم سطحيون في فهمهم لآيات القرآن الكريم. وإدراك معانيه.

موقف الخوارج من السنة وإجماع الأمة وأثر ذلك في تفسيرهم للقرآن:

ولقد كان من أثر جمود الخوراج عند ظواهر النصوص القرآنية. أنهم لم يلتفتوا إلى ماجاء من الأحاديث النبوية ناسخاً لبعض آيات الكتاب. أو مخصصاً لبعض عموماته، أو زائداً على بعض أحكامه، ولم يلتفتوا إلى إجماع الأمة، وفي هذا كله نجد العلامة ابن قتيبة يحدثنا عن بعض أحكام احتج بها الخوارج، وهي مخالفة لإجماع الأمة، ومناقضة لما صح عن الرسول ﷺ، وقالوا: يبطلها القرآن. فيقول:

«قالوا: الحكم في الرجم يدفعه الكتاب.. قالوا: رويتم أن رسول الله ﷺ رجم،

= الاستقلال عن باقي النصوص ولذلك ضلوا بينما فهمه جمهور المسلمين فهماً آخر يتفق مع باقي النصوص المحكمة والتي ينبغي أن يرد إليها المتشابه كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ وغيرها من الأحاديث الصحيحة التي أعطت الجنة لمن قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه. وتفصيل هذا في كتب العقائد.

١ ـ الكامل للمبرد: ١٠٦/٢.

٢) تلبيس إبليس ـ ابن الجوزي ـ النهضة: ٩٥.

ورجمت الأئمة من بعده، والله تعالى يقول في الإماء: ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥]. والرجم إتلاف للنفس لا يتبعض، فكيف يكون على الإماء نصفه؟...وفي هذا دليل على أن المحصنة حدها الجلد»[١].

الإنتاج التفسيري للخوارج [الإباضية]:

ما وصل إلينا من تفسير الخوارج الأُوَل لم يزد عن بعض أفهام لهم لبعض الآيات القرآنية تضمنها جدلهم، واشتملت عليها مناظراتهم. ولكن هل هذا هو كل ما كان للخوارج من تفسير؟

هيأ الله لي ظرفاً جمعني مع رجل من الإباضية [٢] المعاصرين، يقيم في القاهرة، فوجهت إليه هذا السؤال: هل تذكر شيئاً من هذه الكتب؟ فذكر لي من الكتب ما يأتي:

١ ـ تفسير عبد الرحمن بن رستم الفارسي، من أهل القرن الثالث الهجري. وهو تفسير غير موجود في الأيدي.

٢ ـ [تفسير كتاب الله العزيز]: لهود بن محكم الهواري، من أهل القرن الثالث الهجري. وهو موجود ومتبادل بين أباضية بلاد المغرب، ويقع في أربعة مجلدات.

٣ ـ تفسير أبي يعقوب، يوسف بن إبراهيم الورجلاني، من أهل القرن السادس الهجري. غير موجود، ويذكرون أنه من خيرة تفاسير الخوارج.

٤ ـ داعي العمل ليوم الأمل[٣]: للشيخ محمد بن يوسف إطفيش، من أهل القرن العشرين. غير كامل، وهو من سورة الرحمن لآخر القرآن.

٥ ـ هميان الزاد إلى دار المعاد. له أيضاً. مطبوع في ١٣ مجلداً.

٦ ـ تيسير التفسير. له أيضاً، وهو مطبوع في سبع مجلدات.

[ومما طبع بعد الدكتور محمد حسين الذهبي ـ رحمه الله ـ من إنتاج الإباضية في التفسير: كتاب الدراية وكنز الغناية ومنتهى الغاية وبلوغ الكفاية في تفسير خمسمائة آية ـ تأليف أبي الحواري محمد بن الحواري العماني الإباضي، عاش في نهاية القرن الثالث وبداية الرابع الهجريين، والكتاب في آيات الأحكام، تحقيق: د. محمد محمد زناتي عبد الرحمن. طبع في مجلدين صغيرين ـ ط١ ـ ١٤١١هـ / ١٩٩١م ـ مطابع النهضة ـ سلطنة عمان.

وكذلك كتاب: جواهر التفسير لمفتي سلطنة عمان، سماحة الشيخ أحمد بن حمد الخليلي ـ وهو كتاب كبير، طبع منه للآن ثلاثة مجلدات فقط، كلها في تفسير الفاتحة وسورة البقرة ـ مكتبة الاستقامة ـ ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤ ـ سلطنة عمان].

---

١) تأويل مختلف الحديث ـ ابن قتيبة ـ كردستان ـ ١٣٢٦هـ: ٢٤١.

٢) هو الشيخ إبراهيم إطفيش، الموظف بالقسم الأدبي بدار الكتب المصرية.

٣ ـ قامت جمعية التراث الجزائري في خدمة التراث الإباضي بتصحيح التفسير وضبطه، لكنه لم يطبع بعد، والأصل في مكتبة الشيخ أحمد بن حمد الخليلي. راجع قائمة المخطوطات لمكتبته.

أسباب قلة إنتاج الخوارج في التفسير:

وأنت ترى ان هذه الكتب المذكورة، ما وجد منها وما لم يوجد، كلها للإباضية وحدهم، ولعل السر في ذلك:

١ ـ أن جميع فرق الخوارج ما عدا الإباضية بادت ولم يبق لها أثر. ما عدا الإباضية فموجودون إلى يومنا هذا، ومذهبهم منتشر في بلاد المغرب وحضرموت[١]، وعُمان، وزنجبار.

٢ ـ هذا بالإضافة إلى أن الخوارج كانوا من عرب البادية، واشتغلوا بالحرب من مبدأ نشأتهم وكانت حروبا طويلة قاسية.

٣ ـ ومن جهة أخرى فلعل خوفهم من الكذب على الله منعهم من الخوض في التفسير، وقد سئل بعضهم: لمَ لمْ تفسر القرآن؟ فقال: كلما رأيت قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٦] أحجمتُ عن التفسير.

وليس التفسير وحده هو الذي حُرم من تصنيف الخوارج وتأليفهم بل كل العلوم في ذلك سواء، وما وجد لهم من مؤلفات في علم الكلم أو الفقه، أو الأصول، أو الحديث، أو التفسير، أو غير ذلك من العلوم فكله من عمل الإباضية وحدهم.

وأرى أن أكتفي بالكلام عن هميان الزاد إلى دار المعاد وحده.

هميان الزاد إلى دار المعاد*
لمحمد بن يوسف إطفيش

التعريف بمؤلف هذا التفسير [٢]:

هو محمد بن يوسف بن عيسى بن صالح إطفيش الوهبي[٣]، الإباضي [الملقب بـ: القطب، ولد سنة: ١٢٣٧هـ][٤] وهو من وادي ميزاب بصحراء الجزائر من بلاد المغرب.

---

١ ـ حسب اطلاعي فإن الإباضية كانت في حضرموت قديما، ثم تلاشت واندثرت مع انتشار المذهب الشافعي هناك. وقد وقفت على كتاب إباضي حديث تحت عنوان: الأباضية مذهب إسلامي معتدل: علي يحيى معمر ـ مكتب الضامري للنشر والتوزيع ـ ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م ـ سلطنة عمان: وذكر المؤلف انتشار المذهب الإباضي في: سلطنة عمان وزنجبار وليبيا وتونس والجزائر، ولم يذكر شيئا عن حضرموت.

٢) اعتمدنا في هذه الترجمة على ما حدثنا به الشيخ إبراهيم اطفيش، وهو تلميذ المؤلف وابن أخيه.

٣) الوهبي: نسبة إلى عبد الله بن وهب الراسبي، الزعيم الأول للخوارج.

٤ ـ راجع: جمعية التراث: معجم أعلام الإباضية: ٢/ ٣٩٩ ـ ٤٠٦. و: تحقيق تيسير التفسير لإبراهيم طلاي: ٢/ ٤٨٣ ـ ٤٨٤.

* يقال هميان للذي يجعل فيه النفقة ويشد على الوسط.

عرف بالزهد والورع. واشتغل بالتدريس والتأليف وهو شاب لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره. وله من المؤلفات في شتى العلوم ثروة عظيمة تربو على الثلاثمائة مؤلف. فمن ذلك: نظم المغني لابن هشام في خمسة آلاف بيت، وكان ذلك في شبابه. وهميان الزاد إلى دار المعاد، وهو ما نحن بصدده. وقد توفي المؤلف سنة ١٣٣٢هـ، وله من العمر ٩٦ سنة.

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

هو المرجع المهم للتفسير عند الإباضية من الخوارج، غير أنه لا يصور لنا حالة التفسير عندهم في عصورهم الأولى: وذلك لقرب عهد مؤلفه.

ادّعى المؤلف في مقدمته أنه لا يقلد فيه أحداً، وأنه كان ينظر بفكره في الآية أولا، ثم تارة يوافق نظر جار الله الزمخشري، والقاضي البيضاوي، وهو الغالب، وتارة يخالفهما، ويوافق وجها أحسن مما أثبتاه أو مثله.

نقرأ في هذا التفسير فنجد أن صاحبه يذكر في أول كل سورة عدد آياتها، والمكي منها والمدني، ثم يذكر فضائل السورة، مستشهداً لذلك في الغالب بالأحاديث الموضوعة في فضائل السور، ثم يذكر فوائد السورة بما يشبه كلام المشعوذين الدجالين، ثم بعد ذلك كله يشرح الآيات شرحا وافيا، فيسهب في المسائل النحوية، واللغوية، والبلاغية، ويفيض في مسائل الفقه، والخلاف بين الفقهاء كما يتعرض لمسائل علم الكلام ويفيض فيها، مع تأثر كبير بمذهب المعتزلة، كما لا يفوته أن يعرض للأبحاث الأصولية والقراءات، وهو مكثر إلى حد كبير من ذكر الإسرائيليات التي لا يؤيدها الشرع ولا يصدقها العقل، كما يطيل في ذكر تفاصيل الغزوات التي كانت على عهد رسول الله ﷺ. ثم هو بعد ذلك لا يكاد يمر بآية يمكن أن يجعلها في جانبه إلا مال بها إلى مذهبه، ولا بآية تصارحه بالمخالفة إلا تلمس لها كل ما في طاقته من تأويل. وإليك بعض ما جاء في هذا التفسير.

حقيقة الإيمان:

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ [البقرة: ٢ ـ ٣] نراه يقرر: أن الإيمان يطلق على مجموع الاعتقاد، والإقرار، والعمل، ثم يقول: «فمن أخل بالاعتقاد وحده، أو به وبالعمل، فهو مشرك من حيث الإنكار، منافق أيضاً من حيث أنه أظهر ما ليس في قلبه، ومن أخل بالإقرار وحده، أو بالإقرار والعمل، فهو مشرك عند جمهورنا وجمهور قومنا. وقال القليل: إنه إذا أخل بالإقرار وحده، مسلم عند الله من أهل الجنة، وإن أخل به وبالعمل ففاسق كافر كفر نعمة... وإن أخل بالعمل فقط، فمنافق عندنا، فاسق ضال، كافر كفراً دون شرك غير مؤمن الإيمان التام... ثم قال: واختلف الخوارج، وهم الذين خرجوا عن ضلالة علي، فقالت الإباضية الوهبية، وسائر الإباضية فيمن أخل بواحد من الثلاثة: ما تقدم

من إشراكه بترك الاعتقاد، أو بترك الإقرار، وينافق بترك العمل، ويثبتون الصغيرة. وقال الباقون كذلك وإنه لا صغيرة. ومذهب المحدثين أن انضمام العمل والإقرار إلى الاعتقاد على التكميل لا على أنه ركن. ونحن نقول: انضمامهما إليه ركن، وهما جزء ماهيته.

موقفه من أصحاب الكبائر:

كذلك نجد المؤلف يحاول أن يأخذ من القرآن ما يدل على أن مرتكب الكبيرة مخلد في النار وليس بخارج منها.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨١﴾ [البقرة: ٨١] يقول: ﴿سَيِّئَةً﴾: خصلة قبيحة، وهي الذنب الكبير، سواء كان نفاقا أو إشراكاً، ومن الذنوب الكبيرة: الإصرار. فإنه نفسه كبيرة، سواء كان على الصغيرة أو الكبيرة، والدليل على أن السيئة: كبيرة قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾... وإن قلت: روى قومنا عن ابن عباس رضي الله عنهما أن السيئة هنا الشرك. وكذا قال الشيخ هود[1] ـ رحمه الله ـ إنها الشرك. قلت: ما ذكرته أولى مما ذكراه؛ فإن لفظ السيئة عام، وحمله على العموم أولى؛ إذ ذلك تفسير منهما لا حديث ﴿وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾: ربطته ذنوبه وأوجبت له دخول النار، فصار لا خلاص له منها، كمن أحاط به العدو، أو الحرق، أو حائط السجن، وذلك بأن مات غير تائب.

حملته على أهل السنة:

ونرى المؤلف كلما سنحت له الفرصة للتنديد بجمهور أهل السنة القائلين بأن صاحب الكبيرة من المؤمنين يعذب في النار ـ [إن لم يغفر الله له] ـ على قدر معصيته، ثم يدخل الجنة بعد ذلك، نَدّد بهم ولمزَهم.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤﴾ [البقرة: ٤]. يقول: وترى أقواما ينتسبون إلى الملة الحنيفية يضاهئون اليهود في قولهم: لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات.

رأيه في الشفاعة:

ويرى المؤلف: أن الشفاعة لا تقع لغير الموحدين، ولا لأصحاب الكبائر، وعند قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ﴾ [الأنعام: ١٥٩]. يقول: فالآية نص أو كالنص في أن لا شفاعة لأهل الكبائر. أي أنت بريء منهم على كل وجه وقد علمت عن عمر وأبي هريرة أن الآية في أهل البدع من هذه الأمة.

---

١ ـ يبدو أنه يقصد: هود بن محكم الهواري، من علماء الإباضية في القرن الثالث الهجري، كما مرّ معنا قبل قليل في تفاسير الإباضية.

رؤية الله تعالى:

ويرى صاحبنا: أن رؤية الله تعالى غير جائزة ولا واقعة لأحد مطلقا، ويرد على أهل السنة الذين يقولون بجوازها في الدنيا[1]، ووقوعها للمؤمنين في الأخرى.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [البقرة: ٥٥]. نراه يذكر من الروايات رواية تفيد: أن موسى سأل ربه أن ينظر إليه بالمجاهرة، ويعقب عليها فيقول: «وهذه الرواية تقتضي أن موسى يجيز الرؤية. حتى سألها ومنعها. .وليس كذلك، بل إن صح سياق هذه الرواية فقد سألوه الرؤية قبل ذلك، فنهاهم عن ذلك وحرمه، أو سكت انتظاراً للوحي في ذلك، فلما فرغ وخرج، عاودوه ذكر ذلك، فقال لهم قد سألته على لسانكم كما تحبون، لأخبركم بالجواب الذي يقمعكم لا لجواز الرؤية، فتجلى للجبل بعض آياته فصار دكا، فكفروا بطلب الرؤية، لاستلزامها اللون والتركيب، والتحيز، والحدود، والحلول، وذلك له يستلزم الحدوث، وذلك كله محال على الله، وإذا كان ذلك مستلزما عقلا لم يختلف دنيا وأخرى، فالرؤية محال دنيا وأخرى.

أفعال العباد:

وإذا كان المؤلف يتأثر بآراء المعتزلة أحيانا، فإنه يصرح بمخالفتهم في بعض المسائل، فمثلا نراه يقرر: أن أفعال العباد كلها بإرادة الله تعالى وأن العبد لا يخلق أفعال نفسه. ونراه يرد على المعتزلة ولا يرضى موقفهم من هذه المسألة، فمثلا عندما فسر قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنعام: ١٠٧] يقول: «ولو شاء الله عدم إشراكهم بالله تعالى ما أشركوا به تعالى شيئاً، فالآية دليل على أن إشراكهم بإرادة الله ومشيئته، وفيه رد على المعتزلة في قولهم: لم يرد معصية العاصي، وزعموا أن المعنى: لو شاء الله لأكرههم على عدم الإشراك. ولزم عليهم أن يكون مغلوباً على أمره إذا عصي ولم يرد المعصية، بل أراد الإيمان منهم ولم يقع. . ـ تعالى الله عن ذلك ـ والحق أن المعصية بإرادة الله ومشيئته، مع اختيار العاصي».

موقفه من المتشابه:

كذلك نجد المؤلف يقف من المتشابه موقف التأويل، ويعيب على من يقول بالظاهر.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾ [البقرة: ٢١٠]. يقول: إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام... على حذف مضاف أي أمر الله. بدليل قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ

---

١ ـ لبيان رأي أهل السنة بدقة أنقل قول شارح العقيدة الطحاوية: «إنما لم نره في الدنيا لعجز أبصارنا لا لامتناع الرؤية... فإذا كان في الدار الآخرة أكمل الله قوى الآدميين حتى أطاقوا رؤيته»: ٢١١.

﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [النحل: ٣٣]. والحاصل؛ أن مذهبنا ومذهب هؤلاء - يريد المعتزلة ومن وافقهم - تأويل الآية عن ظاهرها إلى ما يجوز وصف الله به.

موقفه من تفسير الصّوفية:

ونجد المؤلف يبدي رأيه في تفسير الصوفية بصراحة تامة؛ ويحمل على من يفسر هذا التفسير، فيقول عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ [البقرة: ٣] قيل: ويحتمل أن يراد الإنفاق من جميع ما رزقهم الله من أنواع الأموال؛ والعلم، وقوة البدن، والجاه، وفصاحة اللسان، ينفعون بذلك عيال الله سبحانه وتعالى على الوجه الجائز، وقيل: المعنى ومما خصصناهم به من أنوار معرفة الله - جل وعلا - يفيضون...وهذا القول والذي قبله أظنهما للصوفية أو لمن يتصوف، وليس تفسير الصوفية عندي مقبولا إذا خالف الظاهر، وكان تكلفا أو خالف أسلوب العربية ولا أعذر من يفسر به ولا أقبل شهادته، وأتقرب إلى الله تعالى ببغضه والبراءة منه.

موقفه من الشّيعة:

وصاحبنا لا يسلم للشيعة استدلالهم على إمامة علي بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥]. بل نراه يفند احتجاجهم بالآية فيقول: وزعم الشيعة: أن الذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة... إلى راكعون. المراد به علي بن أبي طالب، وأن جملة: ﴿وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ حال من واو: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وهي مقارنة وأنه سأل سائل وهو في ركوع الصلاة فأعطاه خاتمه في حال ركوعه[1] وأراد به الزكاة، وعبر عنه بالجمع تعظيما. وهي دعوى بلادليل عليها والأصل العموم، والأصل أن لا يطلق لفظ الجمع على المفرد. ومن دعوى الشيعة أن المراد بالولي في الآية المتولي للأمور المستحق للتصرف فيها، وأن هذه الآية دليل على إمامة علي...وهذا أيضا تكلف بلا دليل.

رأيه في التحكيم:

وترى المؤلف يتأثر في تفسيره هذا بعقيدته في مسألة التحكيم بين علي ومعاوية رضي الله عنهما، فيفر من الآيات التي تعارضه، ويمكن أن تكون مستنداً لمخالفيه.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ۝٣٥﴾ [النساء: ٣٥]. نراه يقول: ولا دليل في الآية على جواز التحكيم؛ لأن مسألة الحال إنما هي ليتحقق بالحكمين ما قد يخفى من حال الزوجين، بخلاف ما إذا ظهر بطلان إحدى الفرقتين بأن الله

---

١ - هذا الحديث لا يصح على أي حال. راجع ما قاله ابن كثير والرازي عند تفسير الآية. وكذلك راجع جامع الأصول رقم: ٦٥١٥، حيث قال الأرناؤوط: إسناده ضعيف.

قد حكم بقتالها، وأيضا المراد هنا: الإصلاح مثلا لا مجرد بيان الحق.

إشادته بالخوارج وحطّه من قدر عثمان وعلي ومن والاهما:

ثم إنه لا تكاد تأتي مناسبة لذكر الخوارج إلا رفع من شأنهم، ولا لذكر علي، أو عثمان، أو من يلوذ بهما إلا وغض من شأنهم، ورماهم بكل نقيصة.

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [التوبة: ٣٩]. يحاول الغض من شأن عثمان الذي بذل ماله في غزوة تبوك دفاعا عن رسول الله ﷺ، ونصرة لدين الله فيقول: وعن عمران ابن حصين أن نصارى العرب كتبت إلى هرقل: إن هذا الرجل الذي يدعي النبوة هلك وأصابتهم سنون فهلكت أموالهم، فبعث رجلا من عظمائهم، وجهز معه أربعين ألفاً فبلغ ذلك النبي ﷺ ولم يكن للناس قوة وكان عثمان قد جهز عيراً إلى الشام، فقال: يارسول الله، هذه مائتا بعير بأقتابها وأحلاسها، ومائتا أوقية. قال صاحب المواهب: قال عمران بن حصين: فسمعته يقول: لا يضر عثمان ما عمل بعدها ـ والعهدة على القسطلاني وعمران ـ فإن صح ذلك فمعنى ذلك: الدعاء له بالخير، لا القطع بأنه من أهل الجنة. وعن عبد الرحمن بن سمرة: جاء عثمان بن عفان بألف دينار في كمه حين جهز جيش العسرة، فنثرها في حجره ﷺ، فرأيت رسول الله ﷺ يقلبها في حجره ويقول: ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم، فإن صح هذا فذلك أيضاً دعاء. وإنما قلت ذلك لأخبار سوء وردت فيه عن رسول الله ﷺ.

وكذلك يحط من قدر علي ويعتبره باغيا، ويرفع من قدر الخوارج برفع تهمة البغي عنهم عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾﴾ [الكهف: ١٠٣ وما بعدها من سورة الكهف].

وعند تفسيره لقوله سبحانه وتعالى: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]. يقول: لكن المراد بآله: آله الذين لم يبدلوا، فخرج علي ونحوه ممن بدل، فإنه قتل من قال ﷺ: لا يدخل قاتله الجنة. يقصد عمار بن ياسر

اعتداده بنفسه وحملته على جمهور المسلمين:

إن المؤلف يفخر كثيراً في مواضع من تفسيره بنفسه وبأهل نحلته، ويرى أنه وحزبه أهل الإيمان الصادق، والدين القويم، والتفكير السليم. وأما من عداهم: فضالون مضلون، مبتدعون مخطئون، فعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾ [هود: ١١٢]. يقول: واعلم يا أخي ـ رحمك الله ـ أني استقريت هذه المذاهب المعتبرة كمذهبنا معشر الإباضية ومذهب المالكية، ومذهب الشافعية ومذهب الحنفية، ومذهب الحنبلية، بالمنقول والمعقول، فلم أر مستقيما منها في علم التوحيد والصفات سوى مذهبنا، فإنه مستقيم خال عن التشبيه والتعطيل. حججه لا تقاومها حجة.

الفصل الخامس

تفسير الصّوفيّة

تمهيد:

أصل كلمة تصوّف:

وقع الاختلاف في أصل هذه الكلمة: (تصوف)، فقيل: إنها مشتقة من الصوف؛ لأن الصوفية لبسوا الصوف تقشفاً وزهدا. وقيل: إنه من الصفاء؛ وذلك لصفاء قلب المريد. وقيل: إنه مأخوذ من الصّفة التي ينسب إليها فقراء الصحابة المعروفون بأهل الصفّة[1]. قال القشيري رحمه الله: ولا يشهد لهذا الاسم اشتقاق من جهة العربية، ولا قياس، والظاهر أنه لقب. ومن قال باشتقاقه من الصفاء أو من الصفة فبعيد من جهة القياس اللغوي. قال وكذلك من الصوف؛ لأنهم لم يختصوا به[2].

معنى التصوّف:

وأما معنى التصوف فقيل: هو إرسال النفس مع الله على ما يريده[3]. وقيل: «هو مناجاة القلب ومحادثة الروح، وفي هذه المناجاة طهرة لمن شاء أن يتطهر... وما هذا الحديث والنجوى إلا ضرب من التأمل، والنظر، والتدبر في ملكوت السموات والأرض. بيد أن الجسم والنفس متلازمان وتوأمان لا ينفصلان، ولا سبيل إلى تهذيب أحدهما بدون الآخر. فمن شاء لنفسه صفاء ورفعة فلا بد له أن يتبرأ عن الشهوات وملذات البدن. فالتصوف إذًا: فكر، وعمل، ودراسة، وسلوك»[4].

١ـ الصفّة: مكان مظلل في مسجد المدينة كان يأوي إليه فقراء المهاجرين ويرعاهم الرسول ﷺ، وهم أصحاب الصفّة. المعجم الوسيط: (صف).

٢) مقدمة ابن خلدون: ٥٢٢.

٣) دائرة المعارف للبستاني: ٦/١٣٣.

٤) دراسة في تاريخ الفلسفة للدكتور مذكور يوسف كرم: ١٤٠.

نشأة التصوّف وتطوّره:

والتصوف بهذا المعنى موجود منذ الصدر الأول للإسلام فكثير من الصحابة كانوا معْرضين عن الدنيا ومتاعها، آخذين أنفسهم بالزهد والتقشف، مبالغين في العبادة، فكان منهم من يقوم الليل ويصوم النهار، ومنهم من يشد الحجر على بطنه تربية لنفسه وتهذيباً لروحه، غير أنهم لم يُعرفوا في زمنهم باسم الصوفية، وإنما اشتهر بهذا اللقب فيما بعد من عرفوا بالزهد والتفاني في طاعة الله تعالى. وكان هذا الاشتهار في القرن الثاني الهجري، وأول من سمي بالصوفي: أبو هاشم الصوفي المتوفى سنة: ١٥٠هـ[١].

ولقد استفاد المتصوفة من الفلاسفة والمتكلمين والفقهاء ما كان له الأثر الأكبر في هذا التطور الصوفي، غير أنهم أخذوا من الفلسفة بحظ وافر، حتى أصبحنا نرى بينهم رجالا أشبه بالفلاسفة منهم بالمتصوفة، وأصبحنا نرى بعضهم يدين بمسائل فلسفية لا تتفق ومبادئ الشريعة، مما أثار عليهم جمهور أهل السنة، وجعلهم يحاربون التصوف الفلسفي، ويؤيدون التصوف الذي يدور حول الزهد، والتقشف، وتربية النفس، وإصلاحها، وما زال أهل السنة يحاربون التصوف الفلسفي حتى كادوا يقضون عليه في نهاية القرن السابع الهجري.

ومن ذلك الوقت دخل في التصوف رجال من غير أهله، تظاهروا بالورع والطاعة، ونحلوا بالزهد الكاذب والتقشف المصطنع، فأصبحنا نرى بعض الجهلاء الأميين يشرفون على الطريق، ويتولون تربية الأتباع والمريدين، ووقفت التعاليم الصوفية عند دائرة محدودة، هي دائرة الأوراد والأذكار، وإن تعدتها فلا أكثر من بعض الأبحاث الضيقة في الفقه والتفسير والحديث.

أقسام التصوف:

مما تقدم يتضح لنا أن التصوف ينقسم إلى قسمين أساسيين:

١ ـ تصوف نظري: وهو التصوف الذي يقوم على البحث والدراسة.

٢ ـ وتصوف عملي: وهو التصوف الذي يقوم على التقشف والزهد والتفاني في طاعة الله.

وكل من القسمين كان له أثره في تفسير القرآن الكريم، مما جعل التفسير الصوفي ينقسم أيضاً إلى قسمين: تفسير صوفي نظري. وتفسير صوفي فيضي أو إشاري، وسنتكلم على كل قسم منهما بما يفتح الله به ويوفق إليه:

---

١) كشف الظنون ـ ملا كاتب جلبي: ١/ ١٥٠.

أولا ـ التفسير الصّوفي النّظري

ليس من السهل أن يجد الصوفي في القرآن ما يتفق صراحة مع تعاليمه ونظرياته، فتراه من أجل هذا يتعسف في فهمه للآيات القرآنية، ويشرحها شرحا يخرج بها عن ظاهرها الذي يؤيده الشرع، وتشهد له اللغة.

إبن عربي: شيخ هذه الطريقة

ونستطيع أن نعتبر الأستاذ الأكبر محيي الدين بن عربي شيخ هذه الطريقة في التفسير، وأكثر أصحابه معالجة للقرآن على طريقة التصوف النظري، وإن كان له من التفسير الإشاري ما يجعله في عداد المفسرين الإشاريين إن لم يكن شيخهم أيضاً.

تأثّر ابن عربي بالنّظريات الفلسفيّة:

نقرأ لابن عربي في الكتب التي يُشك في نسبتها إليه، كالتفسير المشهور باسمه، وفي الكتب التي تنسب إليه على الحقيقة كالفتوحات المكية، والفصوص، فنراه يطبق كثيراً من الآيات القرآنية على نظرياته الصوفية الفلسفية.

فمثلا يفسر بعض الآيات بما يتفق والنظريات الفلسفية الكونية، فعند قوله تعالى في شأن إدريس عليه السلام: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾ [مريم:٥٧]. نجده يقول: «وأعلى الأمكنة المكان الذي تدور عليه رحى عالم الأفلاك، وهو فلك الشمس، وفيه مقام روحانية إدريس، وتحته سبعة أفلاك، وفوقه سبعة أفلاك، وهوالخامس عشر». ثم ذكر الأفلاك التي تحته، والتي فوقه ثم قال: «وأما علو المكانة فهو لنا، أعني المحمديين كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥]. في هذا العلو، وهو يتعالى عن المكان لا عن المكانة[1]».

تأثّره في تفسيره بنظريّة وحدة الوجود:

كذلك نرى ابن عربي يتأثر في تفسيره للقرآن بنظرية وحدة الوجود، التي هي أهم النظريات التي بنى عليها تصوفه، فنراه في كثير من الأحيان يشرح الآيات على وفق هذه النظرية. حتى إنه ليخرج بالآية عن مدلولها الذي أراده الله تعالى.

فمثلاً في تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ۝٣٠﴾ [الفجر: ٢٩ ـ ٣٠] يقول: «وادخلي جنتي التي هي ستري، وليست جنتي سواك، فأنت تسترني بذاتك الإنساني فلا أعرف إلا بك، كما أنك لا تكون إلا بي فمن عرفك عرفني، وأنا لا أُعرَف، فأنت لا

---

١) الفصوص لابن عربي: ١/ ٢٦.

تعرَف فإذا دخلت جنته دخلت نفسك، فتعرف نفسك معرفة أخرى، غير المعرفة التي عرفتها حين عرفت ربك بمعرفتك إياها. فتكون صاحب معرفتين: معرفة به من حيث أنت، ومعرفة به بك من حيث هو لا من حيث أنت، فأنت عبد رأيت رباً، وأنت رب لمن له فيه أنت عبد، وأنت رب وأنت عبد لمن له في الخطاب عهد»(١).

قياسه الغائب على الشّاهد:

كذلك نجد ابن عربي يفهم بعض النصوص القرآنية فهماً خيالياً منتزعاً من المشاهد المحسوس، فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى في أول سورة الرحمن: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨﴾ [الرحمن ١ ـ ٨]. يقول: فاعلم أنه ما من صنعة ولا مرتبة ولا حال ولا مقام إلا والوزن حاكم عليه علما وعملا، فللمعاني ميزان بيد العقل يسمى المنطق، يحتوي على كفتين تسمى المقدمتين، وللكلام ميزان يسمى النحو، يوزن به الألفاظ لتحقيق المعاني التي تدل عليه ألفاظ ذلك اللسان، ولكل ذي لسان ميزان وهو المقدار المعلوم، الذي قرنه الله بإنزال الأرزاق فقال: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢١﴾ [الحجر: ٢١]، ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ۝٢٧﴾ [الشورى: ٢٧]، وقد خلق جسد الإنسان على صورة الميزان، وجعل كفتيه: يمينه وشماله. وجعل لسانه: قائمة ذاته. فهو لأي جانب مال، وقرن الله السعادة باليمين، وقرن الشقاء بالشمال، وجعل الميزان الذي يوزن بالأعمال على شكل القبان؛ ولهذا وصف بالثقل والخفة ليجمع بين الميزان العددي وهو قوله تعالى: ﴿بِحُسْبَانٍ﴾، وبين ما يوزن بالرطل، وذلك لا يكون إلا في القبان، فلذلك لم يعين الكفتين، بل قال: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦﴾ [القارعة: ٦]، في حق السعداء، ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨﴾ [القارعة: ٨]، في حق الأشقياء، ولو كان ميزان الكفتين لقال: وأما من ثقلت كفة حسناته فهو كذا(٢).

إخضاعه قواعد النّحو لنظرته الصّوفيّة:

وكذلك يخضع ابن عربي التفسير الصوفي النظري إلى القواعد النحوية أحياناً، ولكنه خضوع يكيفه الصوفي على حسب ما يرضي روحه ويوافق ذوقه، فنجد ابن عربي مثلا عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج: ٣٠]. يقول: «وقوله: ﴿عِندَ رَبِّهِۦ﴾ العامل في هذا الظرف في طريقنا: قوله: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ﴾ أي من

---

١) فصوص الحكم لابن عربي: ١/ ١٩١ ـ ١٩٣.

٢ ـ الفتوحات المكية لابن عربي ـ دار الكتب العربية ١٣٢٩هـ: ٣/ ٦.

يعظمها عند ربه، أي في ذلك الموطن، فلتبحث في المواطن التي تكون فيها عند ربك ما هي؟... كالصلاة مثلا، فإن المصلي يناجي ربه، فإذا عظم حرمة الله في هذا الموطن كان خيراً له...والمواطن التي يكون العبد فيها عند ربه كثيرة فيعظم فيها حرمات الله على الشهود»(١).

التفسير الصّوفي النظري في الميزان

من هذه اللأمثلة السابقة كلها نستطيع أن نقرر في صراحة واطمئنان: أن التفسير الصوفي النظري تفسير يخرج بالقرآن ـ في الغالب ـ عن هدفه الذي يرمي إليه !!. وبهذا الصنيع يكون الصوفي قد خدم فلسفته التصوفيه ولم يعمل للقرآن شيئاً، اللهم إلا هذا التأويل الذي كله شر على الدين وإلحاد في آيات الله !.

رأينا ابن عربي يميل ببعض الآيات إلى مذهبه القائل بوحدة الوجود، ورأينا غيره كأبي يزيد البسطامي، والحلاج، وغيرهما، يسلك هذا المسلك نفسه أو قريبا منه. ووحدة الوجود ـ عندهم ـ معناها أنه ليس هناك إلا وجود واحد كل العالم مظاهر ومجال له. وكل ما عداه ظواهر وأوهام، ولا توصف بالوجود إلا بضرب من التوسع والمجاز. وهذه النظرية سرت إلى بعض المتصوفة عن طريق الفلاسفة، وعن طريق الإسماعيلية الباطنية الذين خالطوهم وأخذوا عنهم مذهبهم القائل بحلول الإله في أئمتهم وصوروه ـ أعني الصوفية ـ بصورة أخرى تتفق مع مذهب الباطنية في الحقيقة، وإن اختلفت في الاصطلاح والألفاظ !.

هذا المذهب الذي خول لمثل الحلاج أن يقول: أنا الله، ولمثل ابن عربي أن يقول: إن عجل بني إسرائيل أحد المظاهر التي اتخذها الله وحل فيها، والذي جره فيما بعد إلى القول بوحدة الأديان لا فرق بين سماوي وغير سماوي؛ إذ الكل يعبدون الإله الواحد المتجلي في صورهم وصور جميع المعبودات.

هذا المذهب الذي يذهب بالدين من أساسه، هل يكون سائغا ومقبولا أن نجعله أصلا نبني عليه أفهامنا لآيات القرآن الكريم؟ وهل يليق بابن عربي وهو [الشيخ] الأكبر، أن ينظر من خلاله إلى مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝٧﴾ [البقرة ٦ ـ ٧].

فيقول شارحا لهذا النص القرآني: «يامحمد... إن الذين كفروا: ستروا محبتهم فيّ، دعهم فسواء عليهم أأنذرتهم بوعيدك الذي أرسلتك به. أم لم تنذرهم لا يؤمنون بكلامك؛ فإنهم لا يعقلون غيري، وأنت تنذرهم بخلقي وهم ما عقلوه ولا شاهدوه، وكيف يؤمنون بك

١) الفتوحات المكية لابن عربي: ٤/ ١١٠.

وقد ختمتُ على قلوبهم فلم أجعل فيها متسعا لغيري، وعلى سمعهم فلا يسمعون كلاماً في العالم إلا مني، وعلى أبصارهم غشاوة من بهائي عند مشاهدتي، فلا يبصرون سواي، ولهم عذاب عظيم عندي، أردهم بعد هذا المشهد السني إلى إنذارك وأحجبهم عني، كما فعلت بك بعد قاب قوسين أو أدنى قربا. .أنزلتك إلى من يكذبك، ويرد ما جئت به إليه مني في وجهك، وتسمع فيّ ما يضيق له صدرك، فأين ذلك الشرح الذي شاهدته في إسرائك؟ فهكذا أمنائي على خلقي الذين أخفيتهم رضاي عنهم[1]».

هذا ولم نسمع بأن أحداً ألف في التفسير الصوفي النظري كتاباً خاصاً يتتبع القرآن آية آية، كما ألف مثل ذلك بالنسبة للتفسير الإشاري، وكل ما وجدناه من ذلك هو نصوص متفرقة اشتمل عليها التفسير المنسوب إلى ابن عربي، وكتاب الفتوحات المكية له، وكتاب الفصوص له أيضاً، كما يوجد بعض من ذلك في كثير من كتب التفسير المختلفة المشارب.

ثانياً ـ التفسير الصّوفي الفيضي أو الإشاري

التفسير الفيضي أو الإشاري: هو تأويل آيات القرآن الكريم على خلاف ما يظهر منها بمقتضى إشارات خفية تظهر لأرباب السلوك، ويمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة.

الفرق بينه وبين التفسير الصّوفي النظري:

وعلى هذا فالفرق بين التفسير الصوفي الإشاري والتفسير الصوفي النظري من وجهين:

١ ـ أن التفسير الصوفي النظري؛ ينبني على مقدمات علمية تنقدح في ذهن الصوفي أولا، ثم ينزل القرآن عليها بعد ذلك. أما التفسير الإشاري: فلا يرتكز على مقدمات علمية، بل يرتكز على رياضة روحية يأخذ بها الصوفي نفسه حتى يصل إلى درجة تنكشف له فيها من سجف[2] العبارات هذه الإشارات والمعارف القدسية.

٢ ـ أن التفسير الصوفي النظري: يرى صاحبه أنه كل ما تحتمله الآية من المعاني، وليس وراءه معنى ،وهذا بحسب طاقته طبعاً.

أما التفسير الإشاري: فلا يرى الصوفي أنه كل ما يراد من الآية، بل يرى أن المعنى الظاهر لها هو المعنى الأول.

هل للتفسير الإشاري أصل شرعي؟

لم يكن التفسير الإشاري بالأمر الجديد، بل أشار إليه القرآن، ونبه عليه الرسول ﷺ وعرفه الصحابة رضوان الله تعالى عليهم وقالوا به.

---

١) الفتوحات المكية لابن عربي: ١/ ١١٥.

٢ ـ السجف: الستر. (اللسان).

أما إشارة القرآن إليه، ففي قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ۝٨٢﴾ [النساء: ٨٢]. فهذه الآية وغيرها تشير إلى أن القرآن له ظهر وبطن، وذلك لأن الله سبحانه وتعالى حيث ينعي على الكفار أنهم لا يكادون يفقهون حديثا، ويحضهم على التدبر في آيات القرآن الكريم لا يريد بذلك أنهم لا يفهمون نفس الكلام، أو حضهم على فهم ظاهرة لأن القوم عرب، والقرآن لم يخرج عن لغتهم فهم يفهمون ظاهره ولا شك. وإنما أراد بذلك أنهم لا يفهمون عن الله مراده من الخطاب، وحضهم على أن يتدبروا في آياته حتى يقفوا على مقصود الله ومراده، وذلك هو الباطن الذي جهلوه ولم يصلوا إليه بعقولهم(١).

وقد قال ﷺ: «لكل آية ظهر وبطن، ولكل حرف حد، ولكل حد مطلع»(٢). ولكن ما هو الظهر وما هو البطن؟ اختلف العلماء في بيان ذلك، فقيل :ظاهرها: ـ أي الآية ـ لفظها، وباطنها: تأويلها. وقال أبو عبيدة: إن القصص التي قصها الله تعالى عن الأمم الماضية وما عاقبهم به ظاهرها الإخبار بهلاك الأولين، وحديث حدث به عن قوم، وباطنها وعظ الآخرين وتحذيرهم أن يفعلوا كفعلهم، فيحل بهم مثل ما حل بهم... ولكن هذا خاص بالقصص، والحديث يعم كل آية من آيات القرآن. هذا هو أشهر ما قيل في معنى الظهر والبطن.

وأما قوله في الحديث الأول: ولكل حرف حد، فمعناه على ما قيل. لكل حرف حد أي منتهى فيما أراد الله من معناه أو لكل حكم مقدار من الثواب والعقاب. والأول أظهر. وقوله: ولكل حد مطلع، معناه على ما قيل أيضاً: لكل غامض من المعاني والأحكام مطلع يتوصل به إلى معرفته ويوقف على المراد به.

وأما الصحابة فقد عرفوا كذلك التفسير الإشاري ،فقد روي عن أبي الدرداء أنه قال: لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يجعل للقرآن وجوها. وعن ابن مسعود أنه قال: «من أراد علم الأولين والآخرين فليثور القرآن»(٣).وهذا الذي قالوه لا يحصل بمجرد تفسير الظاهر.

وأما الروايات الدالة على أنهم فسروا القرآن تفسيراً إشاريا، فما رواه البخاري عن ابن

---

١) انظر الموافقات للشاطبي: ٣/ ٣٨٢ ـ ٣٨٣.

٢ ـ قال العراقي في حاشيته على إحياء علوم الدين للغزالي: ١/ ٩٩: أخرجه ابن حبان في صحيحه من حديث ابن مسعود بنحوه. ووجدته في مجمع الزوائد: ٧/ ١٥٢: قال الهيثمي: رواه البزار وأبو يعلى في الكبير، وفي رواية عنده لكل حرف منها بطن وظهر. والطبراني في الأوسط باختصار آخره ورجال أحدهما ثقات. وفي الإحكام لابن حزم: ٣/ ٢٨٠ قال: قال علي: هذه كلها مرسلات لا تقوم بها حجة أصلا ولو صحت لما كان لهم في شيء منها حجة بوجه من الوجوه لأنه لو كان كما ذكروا لكل آية ظهر وبطن لكنا لا سبيل لنا إلى علم البطن منها بظن ولا بقول قائل لكن ببيان النبي صلى الله عليه وسلم الذي أمره الله تعالى بأن يبين للناس ما نزل إليهم.

٣ ـ قال الهيثمي في مجمع الزوائد: ٧/ ١٦٥: رواه الطبراني بأسانيد ورجال أحدها رجال الصحيح.

عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال: «كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه فقال: لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه مَنْ علمتم. فدعاه ذات يوم فأدخله معهم، فما رأيت أنه دعاني يومئذ إلا ليريهم .قال :ما تقولون في قوله تعالى ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ [النصر: ١]. فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئا، فقال لي: أكذاك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا. قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له. قال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ وذلك علامة أجلك: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾ [النصر: ٣]. فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول[1].

التفاوت في إدراك المعاني الباطنة وإصابتها:

غير أن هذه المعاني المتكاثرة التي يشتمل عليها باطن القرآن لم تكن في متناول المفسرين جميعاً، كما أنهم لم يكونوا جميعا مصيبين فيما وصلوا إليه منها وأدركوه، وما أخطأوا فيه: بعضه عن جهل، وبعضه عن تعمد خبيث ونية سيئة، فالإمامية مع قولهم بالظاهر على ما به، قالوا بالباطن أيضاً، ولكنهم تعمدوا أن يفسروا الباطن على ما يتفق وعقيدتهم الفاسدة. والباطنية لم يعترفوا بظاهر القرآن واعترفوا بالباطن فقط، ولكنهم أيضا تعمدوا أن يفسروا الباطن على ما يتفق ونواياهم السيئة، وكلا الفريقين ضال مبتدع.

أما الصوفية أهل الحقيقة وأصحاب الإشارة، فقد اعترفوا بظاهر القرآن، كما اعترفوا بباطنه، ولكنهم حين فسروا المعاني الباطنة خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا. فبينما تجد لهم أفهاما مقبولة سائغة، تجد لهم بجوارها أفهاما لا يمكن أن يقبلها العقل أو يرضى بها الشرع؛ ولهذا أرى أن أستعرض بعض ما للقوم من أفهام في التفسير.

التفسير الإشاري في الميزان

إن كل ما كان من المعاني العربية التي لا ينبني فهم القرآن إلا عليها داخل تحت الظاهر، فالمسائل البيانية، والبلاغية، لا معدل لها عن ظاهر القرآن، فإذا فهم الإنسان مثلا الفرق بين ضيق في قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ﴾ [الأنعام: ١٢٥]. وبين ضائق في قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ﴾ [هود:١٢]. وعرف أن (ضيق): صفة مشبهة دالة على الثبوت والدوام في حق من يرد الله أن يضله، وأن (ضائق): اسم فاعل يدل على الحدوث والتجديد وأنه أمر عارض

---

١ ـ البخاري: ٨/ ٥٦٥ ـ ٥٦٦. والترمذي: ٣٣٥٩ كلاهما في تفسير سورة الفتح. وفي جامع الأصول: ٨٩٢.

له ﷺ. إذا فهم الإنسان مثل هذا فقد حصل له فهم ظاهر القرآن.

إذًا فلا يشترط في فهم ظاهر القرآن زيادة على الجريان على اللسان العربي، وإذًا كل معنى مستنبط من القرآن غير جار على اللسان العربي فليس من تفسير القرآن في شيء، لا مما يستفاد منه ولا مما يستفاد به. ومن ادعى فيه ذلك فهو مبطل في دعواه.

أما المعنى الباطن، فلا يكفي فيه الجريان على اللسان العربي وحده. بل لا بد فيه مع ذلك من نور يقذفه الله تعالى في قلب الإنسان يصير به نافذ البصيرة سليم التفكير، ومعنى هذا أن التفسير الباطن ليس أمراً خارجا عن مدلول اللفظ القرآني، ولهذا اشترطوا لصحة المعنى الباطن شرطين أساسين:

١ ـ أن يصح على مقتضى الظاهر المقرر في لسان العرب بحيث يجري على المقاصد العربية.

٢ ـ أن يكون له شاهد نصاً أو ظاهراً في محل آخر يشهد لصحته من غير معارض[١].

ولكن هناك أقوال لهم في التفسير الإشاري يقف أمامها العقل حائرا وعاجزا عن تلمس محمل لها تحمل عليه حتى تبدو صحيحة وتصبح مقبولة. فمن ذلك:

ما قاله سهل التُسْتَري في تفسيره للبسملة حيث قال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١﴾: الباء: بهاء الله عز وجل، والسين: سناء الله عز وجل، والميم: مجد الله عز وجل، و﴿اللَّهِ﴾ هو الاسم الأعظم الذي حوى الأسماء كلها[٢].

وما قاله أبو عبد الرحمن السلمي في تفسير: ﴿الٓمٓ ۝١﴾ فاتحة البقرة وهو قوله: ﴿الٓمٓ ۝١﴾: قيل: إن الألف ألف الوحدانية، واللام: لام اللطف، والميم: ميم الملك، معناه من وجدني على الحقيقة بإسقاط العلائق والأغراض تلطفت له، فأخرجته من رق العبودية إلى الملك الأعلى، وهو الاتصال بمالك الملك، دون الاشتغال بشيء من الملك.

هذا وأمثاله من كلام الصوفية لو قلنا إنهم أرادوا به تفسير الآيات القرآنية وبيان معانيها التي تحمل عليها لا غير لكان هو بعينه مذهب الباطنية؛ وذلك لأن المعاني التي حملوا عليها الألفاظ في الآيات السابقة لا تعرفها العرب مدلولات لهذه الألفاظ، لا بالوضع الحقيقي ولا بالوضع المجازي المناسب.

وأيضاً لم ينقل لنا عن السلف الصالح من الصحابة والتابعين تفسير للقرآن يماثل هذا التفسير أو يقاربه، ولو كان عندهم معروفاً لنقل: لأنهم أدرى بمعاني القرآن ظاهرها وباطنها باتفاق الأمة، وغير معقول أن يأتي آخر هذه الأمة بأهدى مما كان عليه أولها.

---

١) الموافقات للشاطبي: ٣/ ٣٩٤.

٢) تفسير القرآن العظيم للتستري: ٩ و ١٠و ١١و ١٢.

مقالات بعض العلماء في التفسير الإشاري

وإذا نحن رجعنا إلى أقوال العلماء التي قالوها في تفسير الصوفية وجدناها جميعاً تقوم على حسن الظن بهم، وإليك بعضاً منها:

مقالة ابن الصلاح:

قال ابن الصلاح في فتاواه ـ وقد سئل عن كلام الصّوفية، في القرآن ـ: «وجدت عن الإمام أبي الحسن الواحدي المفسر رحمه الله تعالى أنه قال: صنف أبو عبد الرحمن السلمي حقائق التفسير، فإن كان قد اعتقد أن ذلك تفسير فقد كفر. قال ابن الصلاح: وأنا أقول: الظن بمن يوثق به منهم أنه إذا قال شيئاً من أمثال ذلك أنه لم يذكره تفسيرا، ولا ذهب به مذهب الشرح للكلمة المذكورة من القرآن العظيم، فإنه لو كان كذلك كانوا قد سلكوا مسلك الباطنية، وإنما ذلك ذكر منهم لنظير ما ورد به القرآن، فإن النظير يذكر بالنظير، ومن ذلك قتال النفس في الآية المذكورة ـ يريد قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣]. فكأنه قال: أمرنا بقتال النفس ومن يلينا من الكفار، ومع ذلك فيا ليتهم لم يتساهلوا في مثل ذلك لما فيه من الإبهام والإلباس»(١).

مقالة ابن عطاء الله السكندري:

نقل السيوطي عن ابن عطاء الله السكندري أنه قال في كتابه لطائف المنن: «اعلم أن تفسير هذه الطائفة لكلام الله وكلام رسوله بالمعاني الغريبة ليس إحالة للظاهر عن ظاهره، ولكن ظاهر الآية مفهوم منه ما جلبت الآية له ودلت عليه في عرف اللسان. وثم أفهام باطنة تفهم عند الآية والحديث لمن فتح الله قلبه، وقد جاء في الحديث: «لكل آية ظهر وبطن»(٢)، فلا يصدنك عن تلقي هذه المعاني منهم أن يقول لك ذو جدل ومعارضة: هذا إحالة لكلام الله وكلام رسوله، فليس ذلك بإحالة، وإنما يكون إحالة لو قالوا: لا معنى للآية إلا هذا، وهم لم يقولوا ذلك، بل يقرون الظواهر على ظواهرها مراداً بها موضوعاتها ويفهمون عن الله تعالى ما أفهمهم(٣).

فهؤلاء العلماء حسنوا ظنهم بالقوم، ولكن لم يلبث أن تبدد حسن ظننا بالقوم على أثر تلك المقالة التى قرأناها لابن عربي في فتوحاته، وفيها يصرح بأن مقالات الصوفية في كتاب الله ليست إلا تفسيرا حقيقيا لمعاني القرآن، وشرحا لمراد الله من ألفاظه وآياته، وإليك ما قاله بالنص:

---

١) فتاوى ابن الصلاح: ٢٩.

٢ ـ سبق الكلام على هذا الحديث تحت عنوان: هل للتفسير الإشاري أصل شرعي؟.

٣) الإتقان للسيوطي: ٢/ ١٨٥. وانظر كذلك مقالة سعد الدين التفتازاني في كتابه: العقائد النسفية وشرحها ـ مطبعة مصطفى الحلبي ـ ١٣٢١هـ: ١٤٢

مقالة ابن عربي في التفسير الإشاري

قال رحمه الله: «ما خلق الله أشق ولا أشد من علماء الرسوم ـ [أي الظاهر] ـ على أهل الله المختصين بخدمته العارفين به من طريق الوهب الإلهي الذي منحهم أسراره في خلقه، وفهمهم معاني كتابه وإشارات خطابه فهم لهذه الطائفة مثل الفراعنة للرسل عليهم السلام... عدل أصحابنا إلى الإشارات. فكلامهم ﷺ شرح كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إشارات، وإن كان ذلك حقيقة وتفسيرا لمعانيه النافعة... فيسمون ما يرونه في نفوسهم إشارة ليأنس الفقيه صاحب الرسوم إلى ذلك، ولا يقولون في ذلك أنه تفسير؛ وقاية لشرهم وتشنيعهم في ذلك بالكفر عليه... ثم إن من شأن عالم الرسوم في الذب عن نفسه أنه يجهل من يقول: فهمني ربي، ويرى أنه أفضل منه، وأنه صاحب العلم إذ يقول من هو من أهل الله: إن الله ألقى في سري مراده بهذا الحكم في هذه الآية، أو يقول: رأيت رسول الله ﷺ في واقعتي فأعلمني بصحة هذا الخبر المروي عنه وبحكمه عنده. قال أبو يزيد البسطامي رضي الله عنه في هذا المقام... يخاطب علماء الرسوم: أخذتم علمكم ميتا عن ميت وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت يقول أمثالنا: حدثني قلبي عن ربي، وأنتم تقولون حدثني فلان، وأين هو؟ قالوا: مات. عن فلان، وأين هو؟ قالوا مات. وكان الشيخ أبو مدين ـ رحمه الله ـ إذا قيل له: قال فلان، عن فلان، عن فلان يقول: ما نريد نأكل قديداً. هاتوا ائتوني بلحم طري ـ يرفع همم أصحابه ـ فأولئك أكلوه لحماً طرياً، والواهب لم يمت، وهو أقرب إليكم من حبل الوريد...

فمن كان معك بهذه المثابة من القرب ـ مع دعواك العلم بذلك والإيمان به ـ لم تترك الأخذ عنه والحديث معه، وتأخذ عن غيره ولا تأخذ عنه فتكون حديث عهد بربك؟»[1].

رأينا في مقالة ابن عربي:

ونحن لا ننكر على ابن عربي أن ثم أفهاما يلقيها الله في قلوب أصفيائه وأحبابه. كما لا ننكر عليه أن تكون هذه الأفهام تفسيراً للقرآن وبيانا لمراد الله من كلامه، ولكن بشرط: أن تكون هذه الأفهام يمكن أن تدخل تحت مدلول اللفظ العربي القرآني، وأن يكون لها شاهد شرعي يؤيدها. أما أن تكون هذه الأفهام خارجة عن مدلول اللفظ القرآني، وليس لها من الشرع ما يؤيدها فذلك ما لا يمكن أن نقبله على أنه تفسير للآية وبيان لمراد الله تعالى؛ لأن القرآن عربي قبل كل شيء كما قلنا، والله سبحانه وتعالى يقول في شأنه: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣] وحاشا الله أن يلغز في آياته، أو يعمّي على عباده طريق النظر في كتابه، وهو يقول: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٧﴾ [القمر: ١٧، وفي مواضع أخرى من السورة نفسها].

---

١) الفتوحات المكية لابن عربي: ١/٢٧٩ ـ ٢٨٠.

شروط قبول التفسير الإشاري

التفسير الإشاري منه ما هو مقبول ومنه ما ليس بمقبول. والشروط التي يجب أن تتوفر فيه ليكون مقبولا هي:

١ ـ أن لا يكون التفسير الإشاري منافياً للظاهر من النظم القرآني الكريم.

٢ ـ أن يكون له شاهد شرعي يؤيده.

٣ ـ أن لا يكون له معارض شرعي أو عقلي.

٤ ـ أن نعترف بالمعنى الظاهر أولا؛ إذ لا يطمع في الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر، «ومن ادعى فهم أسرار القرآن ولم يحكم التفسير الظاهر فهو كمن ادعى البلوغ إلى صدر البيت قبل أن يجاوز الباب»[١].

إذا علمت هذا، علمت بصورة قاطعة أنه لا يمكن لعاقل أن يقبل ما نقل عن بعض المتصوفة من أنه فسر قوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥]. فقال: معناه (من ذل) من الذل، (ذي) إشارة إلى النفس، (يشف) من الشفاء، (ع) أمر من الوعي[٢].

هذا التفسير وأمثاله إلحاد في آيات الله والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ [فصلت: ٤٠]. وهذه الشروط التي يجوز بها التفسير الإشاري، وإن كان لا يجب الأخذ بهذا التفسير، إذ لا دليل عليه غير وجدان وجده المفسر في نفسه.

أهم كتب التفسير الإشاري

١ ـ [تفسير القرآن العظيم: لسهل بن عبد الله بن يونس التُسْتَري.

٢ ـ حقائق التفسير: محمد بن الحسين السلمي.

٣ ـ عرائس البيان في حقائق القرآن: روز بهان بن أبي النصر الشيرازي.

٤ ـ التأويلات النجمية: لنجم الدين داية وعلاء الدولة السمناني.

٥ ـ التفسير المنسوب: لابن عربي].

وسأتكلم عليها بهذا الترتيب.

---

١) الإتقان للسيوطي: ٢/ ١٨٤.
٢) الإتقان للسيوطي: ٢/ ١٨٤.

١ ـ تفسير القرآن العظيم للتُسْتَري

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

هو أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن عيسى بن عبد الله التُسْتَري، المولود بتُسْتَر[١] سنة ٢٠٠هـ. وقيل: سنة ٢٠١هـ. لم يكن له في الورع نظير، وكان صاحب كرامات. أقام بالبصرة زمنا طويلا، وتوفي بها سنة ٢٨٣هـ، وقيل: سنة ٢٧٣هـ فرحمه الله رحمة واسعة[٢].

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

هذا التفسير مطبوع في مجلد صغير الحجم، ولم يتعرض فيه مؤلفه لتفسير القرآن آية آية، بل تكلم عن آيات متفرقة من كل سورة ويظهر لنا أنه لم يؤلف هذا الكتاب، وإنما هي أقوال قالها في آيات متفرقة من القرآن الكريم، ثم جمعها أبو بكر محمد بن أحمد البلدي، المذكور في أول الكتاب، والذي يقول كثيرا، قال أبو بكر: سئل سهل عن معنى كذا .، فقال كذا، ثم ضمنها هذا الكتاب ونسبها إليه.

نقرأ في هذا الكتاب، فنجد مؤلفه يقدم له بمقدمة يوضح فيها معنى ظاهر القرآن وباطنه، ومعنى الحد والمطلع، فيقول: «ما من آية في القرآن إلا ولها أربعة معان: ظاهر، وباطن، وحد، ومطلع. فالظاهر: التلاوة، والباطن: الفهم، والحد: حلالها وحرامها. والمطلع: إشراق القلب على المراد بها. فقهاً من الله عز وجل. فالعلم الظاهر علم عام، والفهم لباطنه والمراد به خاص: قال تعالى: ﴿فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨] أي لا يفقهون خطابا »[٣].

كذلك نجد سهلا لم يقتصر في تفسيره على المعاني الإشارية وحدها، بل نجده يذكر أحيانا المعاني الظاهرة، ثم يعقبها بالمعاني الإشارية، وقد يقتصر أحيانا على المعنى الإشاري وحده، كما يقتصر أحيانا على المعنى الظاهري، بدون أن يعرج على باطن الآية.

وحين يعرض للمعاني الإشارية لا يكون واضحا في كل مايقوله، بل تارة بالمعاني الغريبة التي نستبعد أن تكون مرادة لله تعالى، وذلك كالمعاني التي نقلناها عنه سابقا ـ [عند حديثنا عن التفسير الإشاري في الميزان] ـ في معنى البسملة، وتارة يأتي بالمعاني الغريبة التي

---

١) تستر بضم التاء الأولى، وسكون السين المهملة؛ وفتح التاء الثانية: بلد من الأهواز.

٢) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان: ١/ ٣٨٩.

٣) ص ٣.

يمكن أن تكون من مدلول اللفظ أو مما يشير إليه اللفظ، وذلك هو الغالب في تفسيره.

كذلك نجد المؤلف ينحو في كتابه هذا منحى تزكية النفوس، وتطهير القلوب، والتحلي بالأخلاق والفضائل التي يدل عليها القرآن ولو بطريق الإشارة. وكثيرا ما يسوق من حكايات الصالحين وأخبارهم ما يكون شاهداً لما يذكره، كما أنه يتعرض في بعض الأحيان لدفع إشكالات قد ترد على ظاهر اللفظ الكريم، وإليك هذا النموذج من تفسيره:

في سورة الأعراف: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأعراف: ١٤٨]. يقول: عجل كل إنسان ما أقبل عليه فأعرض به عن الله من أهل وولد، ولا يتخلص من ذلك إلا بعد إفناء جميع حظوظه من أسبابه، كما لم يتخلص عبدة العجل من عبادته إلا بعد قتل النفوس.

فهذه المعاني مقبولة ويمكن إرجاعها بدون تكلف إلى اللفظ القرآني بدون معارضة شرعية أو عقلية. والكتاب ـ في الغالب ـ يسير على هذه الطريقة، وهي لا شوب فيها.

٢ ـ حقائق التفسير
للسّلمي

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

هو أبو عبد الرحمن، محمد بن الحسين بن موسى الأزدي السلمي، المولود سنة ٣٣٠هـ، وقيل غير ذلك. كان رحمه الله شيخ الصوفية وعالمهم بخراسان، عُرف بالعلم الغزير والسير على سنن السلف، أخذ الطريق عن أبيه، وكان على جانب عظيم من العلم بالحديث.

وأخذ عنه بعض الحفاظ: منهم الحاكم أبو عبد الله، وأبو القاسم القشيري، وغيرهما، ولقد خلّف من الكتب ما يزيد على المائة: في علوم القوم، والتاريخ، والحديث، والتفسير.

ولكن السلمي لم يسلم كغيره من الصوفية من الطعن عليه، فقد قال الخطيب: قال محمد بن يوسف النيسابوري القطان: كان السلمي غير ثقة، يضع للصوفية، ووثق الخطيب وابن السبكي، وقد كانت وفاته سنة ٤١٢ هـ، فرحمه الله رحمة واسعة[1].

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

التفسير [طبع في لبنان ـ Scientific Books H ـ في مجلدين] وقد جرى فيه المؤلف على نمط واحد، وهو التفسير الإشاري، وهو إذ يقتصر على ذلك لا يعنى أن التفسير الظاهر

---

١) رجعنا في هذه الترجمة إلى طبقات المفسرين للسيوطي: ٣١. وإلى طبقات الشافعية للسبكي: ٣/ ٦٠ ـ ٦٢.

غير مراد؛ لأنه يصرح في مقدمة تفسيره: أنه أحب أن يجمع تفسير أهل الحقيقة في كتاب مستقل كما فعل أهل الظاهر. ثم إن أبا عبد الرحمن السلمي، لم يكن له مجهود في هذا التفسير أكثر من أنه جمع مقالات أهل الحقيقة بعضها إلى بعض.

وأهم من ينقل عنه السلمي في حقائقه: جعفر محمد الصادق، وابن عطاء الله السكندري، والجنيد، والفضل بن عياض، وسهل بن عبد الله التُسْتَري، وغيرهم كثير.

وإليك بعض ما قاله في مقدمته: قال رحمة الله: لما رأيت المتوسمين بالعلوم الظواهر سبقوا في أنواع فرائد القرآن: من قراءات، وتفاسير، ومشكلات، وأحكام، وإعراب، ولغة...ولم يشتغل أحد منهم بجمع فهم خطابه على لسان الحقيقة إلا آيات متفرقة، نسبت إلى أبي العباس بن عطاء، وآيات ذكر أنها عن جعفر بن محمد على غير ترتيب، وكنت قد سمعت منهم في ذلك حروفاً استحسنتها، أحببت أن أضم ذلك إلى مقالتهم، وأضم أقوال مشايخ أهل الحقيقة إلى ذلك، وأرتبه على السور حسب وسعي وطاقتي.

طعن بعض العلماء على هذا التفسير:

غير أن الاقتصار على المعاني الإشارية، والإعراض عن المعاني الظاهرة في هذا المؤلف، ترك للعلماء مجالا للطعن على هذا التفسير وعلى صاحبه من أجله. فالحافظ الذهبي رحمه الله يقول عن السلمي: وله كتاب يقال له حقائق التفسير، وليته لم يصنفه فإنه تحريف وقرمطة، ودونك الكتاب فسترى العجب(1).

وهذا هو الشيخ ابن تيمية يطعن على تفسير السلمي من ناحية أخرى فيقول: وما ينقل في حقائق السلمي عن جعفر الصادق عامته كذب على جعفر كما قد كذب عليه في غير ذلك(2).

وهذه كلمة حق من ابن تيمية، إذ إن غالب ما جاء فيه عن جعفر الصادق كله من وضع الشيعة عليه، وما كان ينبغي أن يعتمد السلمي بذلك. وما قاله الذهبي فهو غير صحيح لأن القرامطة لا يؤمنون بظاهر القرآن والسلمي يؤمن به.

نماذج من تفسير السّلمي:

في سورة الرعد عند قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ [الرعد: ٣] يقول: قال بعضهم: هو الذي بسط الأرض وجعل فيها أوتادا من أوليائه وسادة من عبيده فإليهم الملجأ، وبهم النجاة، فمن ضرب في الأرض يقصدهم فاز ونجا، ومن كان بغيته لغيرهم خاب وخسر.

---

1) طبقات الشافعية للسبكي: ٣ / ٦١. [وسير أعلام النبلاء للذهبي: ١٣/ ٤٤٢].

2) منهاج السنة لابن تيمية ـ الأميرية ١٣٢٢هـ: ٤ / ١٥٥.

وفي سورة الانفطار عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤﴾ [الانفطار: ١٣ ـ ١٤] يقول: قال جعفر: النعيم: المعرفة والمشاهدة، والجحيم: النفوس، فإن لها نيرانا تتقد.

وفي سورة النصر عند قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ [النصر: ١] يقول: قال ابن عطاء الله: إذا شغلك به عما دونه فقد جاءك الفتح من الله تعالى، والفتح هو النجاة من السجن البشري بلقاء الله تعالى.

٣ ـ عرائس البيان في حقائق القرآن
لأبي محمد الشيرازي

التعريف بالمؤلف وتفسيره:

هو أبو محمد روزبهان بن أبي النصر، البقلي، الشيرازي الصوفي، المتوفي سنة: ٦٠٦هـ[1]. والتفسير طبع في الهند ١٣١٥هـ.

وقد جرى في هذا التفسير على نمط التفسير الإشاري، ولم يتعرض للتفسير الظاهر بحال، وإن كان يَعتقد أنه لا بد منه أولاً، يدل على ذلك قوله في المقدمة: «ولما وجدت أن كلامه الأزلي لا نهاية له في الظاهر والباطن، ولم يبلغ أحد إلى كماله وغاية معانيه... فتعرضت أن أغرف من هذه البحور الأزلية غرفات من حكم الأزليات، والإشارات والأبديات، التي تقصر عنها أفهام العلماء وعقول الحكماء، اقتداء بالأولياء، وأسوة بالخلفاء... واستخرت الله تعالى في ذلك، واستعنت به، ليكون لمراده، ومواطئاً لسنة رسوله وأصحابه وأولياء أمته».

فأنت ترى من هذه المقدمة أن صاحبنا يعترف بالمعاني الظاهرة للقرآن، ويقرر أن ما ذكره في كتابه إشارات تجلت له من جانب الرحمٰن، غير أني ألحظ من قوله: «واستعنت به ليكون موافقاً لمراده، ومواطئاً لسنة رسوله». أنه يريد أن يقرر أن كل ما في كتابه من المعاني ليس إلا تفسيراً لكتاب الله وبياناً لمراده منه، وهذا هو مالا نقره عليه؛ لأن هذه المعاني الغريبة التي يأتي بها تفسيره لا يمكن أن تكون داخلة تحت مدلول اللفظ القرآني، ولا يعقل أن تكون مرادة لله تعالى من خطابه لأفراد الأمة، وحسبه أن نقره على أنها ذكر لنظير ما ورد به القرآن.

وإليك بعض ما جاء في هذا التفسير:

---

١) كشف الظنون ـ ملا كاتب جلبي: ٢ / ٢١. ولم نقف على أكثر من هذا في ترجمته.

في سورة النحل عند قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [النحل: ٨١] يقول: يعني ظلال أوليائه، ليستظل بها المريدون من شدة حر الهجران، ويأوون إليها من قهر الطغيان، وشياطين الإنس والجان، لأنهم ظلال الله في أرضه، لقوله ﷺ: «السلطان ظل الله في أرضه، يأوى إليه كل مظلوم»[(١)] .﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾: أكنان الجبال: قلوب أكابر المعرفة، وظلال أهل السعادة من أهل المحبة، يسكن فيها المنقطعون إلى الله ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ جعل للعارفين سرابيل روح الإنس، لئلا يحترقوا بنيران القدس ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ سرابيل المعرفة وأسلحة المحبة، لتدفعوا بها محاربة النفوس والشياطين ثم زاد نعمته ومنته عليهم بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾.

٤ ـ التأويلات النّجمية
لنجم الدين داية، وعلاء الدولة السمناني

نجم الدّين داية:

هو الشيخ نجم الدين، أبو بكر بن عبد الله بن محمد بن ساهارد الأسدي الرازي المعروف بداية، المتوفى سنة ٦٥٤هـ. كان من خيار الصوفية «أخذ الطريق عن شيخه نجم الدين أبي الجناب المعروف بالبكري، وكان مقيماً أول أمره بخوارزم، ثم خرج منها أيام حروب جنكيزخان إلى بلاد الروم، ويقال: إنه استشهد في حروب جنكيزخان، كما يقال إنه مدفون بالشونزية ببغداد، قرب السرى السقطى والجنيد[(٢)].

علاء الدولة السمناني:

هو أحمد بن محمد بن أحمد السمناني، البياناكي، الملقب بعلاء الدولة، وركن الدين، والمولود سنة ٦٥٩هـ. تفقه وطلب الحديث على كثير من شيوخ عصره، حتى برع في العلم قال الذهبي: كان إماماً جامعاً، كثير التلاوة، وله وقع في النفوس، وكان يحط على ابن عربي ويكفره، وكان مليح الشكل. أخذ عن صدر الدين بن حموية، وسراج الدين القزويني...وذكر أن مصنفاته تزيد على ثلاثمائة[(٣)].

---

١ ـ قال الهيثمي: وفيه سعيد بن سنان أبو مهدي وهو متروك. وضعفه غيره أيضا راجع: فيض القدير للمناوي: ٤/ ١٤٢ ـ ١٤٣.

٢) انظر نفحات الأنس: ٤٩١.

٣) الدرر الكامنة ـ ابن حجر العسقلاني: ١ / ٢٥٠ ـ ٢٥٢.

ومن مصنفاته: مدارج المعارج، وكان رحمه الله قد دخل بلاد التتار، ثم رجع وسكن تبريز وبغداد، ومات في رجب سنة ٧٣٦هـ.

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلِّفه فيه:

ألفه نجم الدين داية، ومات قبل أن يتمه، فكمله من بعده علاء الدولة السمناني.

يقع هذا التفسير في خمس مجلدات كبار، ومنه نسخة مخطوطة بدار الكتب [المصرية]، وهي التي رجعنا إليها، ينتهي المجلد الرابع عند قوله تعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات: ١٧ ـ ١٨] وهذا هو نهاية ما وصل إليه نجم الدين داية في تفسيره. أما المجلد الخامس، فهو تكملة لهذا التفسير، كتبه علاء الدولة، وجعله تتمة لكتاب نجم الدين داية، وقد قدم لهذه التكملة بمقدمة طويلة لا يفهمها إلا من يعرف لغة القوم واصطلاحاتهم، ولهذا يقول فيها: ولا يؤمن أحد بالذي قلته إلا بعد السلوك، ومشاهدته من حيث العيان ما سمعه من هذا البيان[١]. ثم بعد أن فرغ من المقدمة، فسر الفاتحة على طريقة القوم، مع أن نجم الدين فسرها أول الكتاب. ثم بعد ذلك ابتدأ بسورة الطور، وانتهى عند آخر القرآن. ويلاحظ أنه لم يكمل تفسير سورة الذاريات، التي مات نجم الدين قبل أن يفرغ من تفسيرها.

والذي يقرأ في هذا التفسير، ويقارن بين ما كتبه نجم الدين داية، وبين ما كتبه السمناني، يلحظ أن هناك فرقاً بين التفسيرين، ذلك أن الجانب الذي كتبه نجم الدين يتعرض فيه أحياناً للتفسير الظاهر، ثم يعقبه بالتفسير الإشاري قائلاً: والإشارة فيه إلى كذا وكذا، وما يذكره من التفسير الإشاري سهل المأخذ؛ لأنه لا يقوم على قواعد من الفلسفة الصوفية. كما أنه يربط بين الآيات.

أما الجانب الذي كتبه السمناني فلا يعرج فيه على المعاني الظاهرة، كما أنه تفسير معقد مغلق، والسر في ذلك: أنه بناه على قواعد فلسفية صوفية، هذه القواعد ذكرها في مقدمة التكملة.

فمثلاً نراه يقرر في هذه المقدمة: أن كل آية لها سبع أبطن، كل بطن غير الآخر. ثم يوضح لنا هذه البطون السبعة: فبطن مخصوص بالطبقة القالبية، وبطن مخصوص باللطيفة النفسية، وبطن مخصوص باللطيفة القلبية، وبطن مخصوص باللطيفة السرية، وبطن مخصوص باللطيفة الروحية، وبطن مخصوص باللطيفة الخفية، وبطن مخصوص باللطيفة الحقية، ولتوضيح ذلك فسر لنا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ [النساء: ٤٣] على هذه البطون السبعة سبع تفسيرات، كل يخالف الآخر، ثم هو لم يقف عند

---

١) جـ٥ ص؟ يلاحظ أننا لا نذكر رقم الصفحات؛ لأن النسخة التي بأيدينا لم ترقم صفحاتها.

هذا الحد، بل تعداه إلى القول بأن لكل آية سبعين بطناً بل سبعمائة، ووضح ذلك بكلام يطول ذكره.

وعلى الجملة، فهذا التفسير المعروف بالتأويلات النجمية يعد من أهم كتب التفسير الإشاري، وهو أقرب إلى الفهم من غيره لولا هذه التكملة. وإليك نماذج منه.

من تأويلات نجم الدّين:

عند قولة تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣] يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أي صدقوا محمداً ﷺ، فيما دلهم إلى الله بإذنه .﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ أي جاهدوا كفار النفس وصفاتها بمخالفة هواها صفاتها، وتبديلها وحملها على طاعة الله، والمجاهدة في سبيله. فإنها تحجبك عن الله ﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ أي عزيمة صادقة في فنائها بترك شهواتها ولذاتها ومستحسناتها، ومنازعتها في هواها، وحملها على المتابعة في طلب الحق، ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ بجذبة الوصول، ليتقوا به عما سواه، كما يتقي المرء بترسه عن النشاب، والرمح والسيف.

من تأويلات السّمناني:

عند قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾ [الشمس: ١١ ـ ١٥] يقول: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾﴾ يعني إذ انبعثت اللطيفة، وأسرعت إلى الطاغية انبعث أشقى قوى النفس إلى إثر اللطيفة الصالحة، ليعقر ناقة شوقها ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ أي اللطيفة ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾ أي احذروا عقر ناقة الشوق وشربها من عين الذكر ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ بتكذيبهم صالح اللطيفة النفسية، وعقروا ناقة الشوق ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ﴾ أي أهلكهم الله، ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ أي عمهم بذلك العذاب، ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾ ولا يخاف القوى العاقرة في عقر ناقة الشوق عاقبة الأمر، فأهلكهم بطغيانهم لرسوله وتكذيبهم إياه.

٥ ـ التفسير المنسوب لابن عربي

مَن مؤلف هذا التفسير؟

هذا التفسير طبع مجرداً في مجلدين، وطبع على هامش عرائس البيان في حقائق القرآن. لأبي محمد بن أبي النصر الشيرازي، الصوفي. وكلتا النسختين ينسب فيهما التفسير لابن عربي.

وهناك من يروي بأنه تأليف عبد الرزاق القاشاني وهذا ما أخذ به الشيخ محمد عبده وتلميذه رشيد رضا كما هو مبين في مقدمة تفسير المنار. وهذا هو الصحيح للآتي:

أولاً: أن جميع النسخ الخطية منسوبة للقاشاني، والاعتماد على النسخ المخطوطة أقوى؛ لأنها الأصل الذي أخذت عنه النسخ المطبوعة.

ثانياً: قال في كشف الظنون: (تأويلات القرآن) المعروف بتأويلات القاشاني، هو تفسير بالتأويل على اصطلاح أهل التصوف إلى سورة صّ. أوله الحمد لله الذي جعل مناظم كلامه مظاهر حسن صفاته... الخ [1]. وقد رجعنا إلى مقدمة التفسير المنسوب لابن عربي، فوجدنا أوله هذه العبارة المذكورة بنصها.

ثالثاً: هذا الكتاب عند قوله تعالى: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ [القصص: ٣٢] يقول: وقد سمعت شيخنا نور الدين عبد الصمد قدس روحه العزيز في شهود الوحدة ومقام الفناء عن أبيه أنه... [2]. ونور الدين هذا هو نور الدين عبد الصمد بن علي النطنزي الأصفهاني، والمتوفى في أواخر القرن السابع، وكان شيخاً لعبد الرزاق القاشاني، المتوفى سنة ٧٣٠هـ، كما يستفاد ذلك من كتاب نفحات الأنس [3] في مناقب الأولياء: ص٥٣٤ ـ ٥٣٧. وغير معقول أن يكون نور الدين عبد الصمد النطنزي المتوفى في أواخر القرن السابع الهجري شيخاً لابن عربي المتوفى سنة: ٦٣٨هـ.

لهذا كله نستطيع أن نؤكد أن هذا التفسير ليس لابن عربي، وإنما هو لعبد الرزاق القاشاني الصوفي.

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

هذا التفسير جمع مؤلفه فيه بين التفسير الصوفي النظري، وبين التفسير الإشاري، ولم يتعرض فيه للكلام عن التفسير الظاهر بحال من الأحوال. أما ما فيه من التفسير الصوفي النظري: فغالبه يقوم على مذهب وحدة الوجود، ذلك المذهب كان له أثره السيئ في تفسير القرآن الكريم.

وأما ما فيه من تفسير إشاري: فكثير منه لا نفهم له معنى، وكان هذا هو السبب الذي من أجله قال الأستاذ الإمام ـ [في مقدمة تفسير المنار] ـ في القاشاني: إنه باطني، وأنا مع

---

١) كشف الظنون ـ ملا كاتب جلبي: ١٨٧. ولكن لم نعرف من أتم هذا التفسير والكتاب من أوله إلى آخره يسير على طريقة واحدة.

٢) تفسير ابن عربي: ٢ / ١١٦.

٣) هذا الكتاب باللغة التركية، وقد رجعنا إليه بمعونة الأستاذ الشيخ زاهد الكوثري وكل المشيخة الإسلامية العثمانية بدار الخلافة سابقاً.

اعترافي بأن الكتاب في جملته أشبه ما يكون بتفسير الباطنية، من ناحية ما فيه من المعاني التي تقوم على نظرية وحدة الوجود، وما فيه من المعاني الإشارية البعيدة - مع اعترافي بهذا أخالف كل من يقول: إن القاشاني من الباطنية؛ ذلك لأن تاريخ الرجل يشهد له بأنه كان من المتصوفة المشهود لهم بالزهد والورع، وأيضاً فإنا نعلم أن الباطنية ينكرون المعاني الظاهرية للقرآن، ويقولون: إن المراد هو الباطن وحده، أما صاحبنا، فلم يذهب هذا المذهب، بل نجده في مقدمة تفسيره يعترف بأن الظاهر مراد ولا بد منه أولاً، كما نبه أنه لا يحوم في كتابه هذا حول ناحية التفسير الظاهر.

وإليك بعض ما جاء في هذه المقدمة، لتعلم أن الرجل ليس باطنياً، ولتعلم أيضاً منهجه الذي نهجه في تفسيره، قال رحمه الله: فتذكرت...قول النبي الأمي الصادق عليه أفضل الصلوات من كل صامت: «ما نزل من القرآن من آية إلا ولها ظهر وبطن، ولكل حرف حد ولكل حد مطلع»[1] وفهمت منه أن الظهر: هو التفسير، والبطن: هو التأويل، والحد: ما يتناهى إليه المفهوم من معنى الكلام. والمطلع: ما يصعد إليه منه فيطلع على شهود الملك العلام. وقد نقل عن الإمام المحقق السابق جعفر بن محمد الصادقعليه السلام أنه قال: لقد تجلى الله لعباده في كلامه، ولكن لا يبصرون، وروي عنهعليه السلام أنه خر مغشيا عليه وهو في الصلاة فسئل عن ذلك فقال: ما زلت أردد الآية حتى سمعتها من المتكلم بها...فرأيت أن أعلق بعض ما يسنح لي في الأوقات من أسرار حقائق البطون وأنوار شوارق المطلعات، دون ما يتعلق بالظواهر والحدود... فشرعت في تسويد هذه الأوراق بما عسى يسمح به الخاطر على سبيل الإنفاق، غير حائم بقيعة التفسير...مراعياً لنطق الكتاب وترتيبه، غير معيد لما تكرر منه أو تشابه في أساليبه، وكل ما لا يقبل التأويل عندي، أو لا يحتاج إليه مما أوردته أصلاً... وما يمكن تأويله من الأحكام الظاهر منها إرادة ظاهرها فما أولته إلا قليلا.

من خلال ما سبق تحكم على القاشاني بأنه صوفي لا باطني. وإليك نماذج من تفسيره:

نموذج من تفسيره الإشاري:

عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [الأنعام: ٩٥] يقول: إن الله فالق حبة القلب بنور الروح عن العلوم والمعارف. ونوى النفس بنور القلب عن الأخلاق والمكارم، ويخرج حي القلب عن ميت النفس تارة باستيلاء نور الروح عليها، ومخرج ميت النفس عن حي القلب أخرى بإقباله عليها، واستيلاء الهوى وصفات النفس عليه، ذلكم الله القادر على تقليب أحوالكم، وتقليبكم في أطواركم فأنى تصرفون عنه إلى غيره.

---

١ - سبق الكلام على هذا الحديث تحت عنوان: هل للتفسير الإشاري أصل شرعي؟.

نماذج التفسير المبني على وحدة الوجود:

عند قوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ۝٥٧﴾ [الواقعة: ٥٧] يقول: نحن خلقناكم بإظهاركم بوجودنا وظهورنا في صوركم.

وفي سورة المزمل عند قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾ [المزمل: ٨ ـ ٩] يقول: وأذكر اسم ربك الذي هو أنت، أي أعرف نفسك، واذكرها، ولا تنسها، فينسك الله، واجتهد لتحصيل كمالها بعد معرفة حقيقتها.

ولو أنك تصفحت هذا الكتاب لوجدته يقوم في الغالب على مذهب صاحبه في وحدة الوجود، ولعل هذا هو السر الذي من أجله نسب الكتاب لابن عربي، فإن ابن عربي يقول بوحدة الوجود، وبنى كثيراً من تفسيره لبعض الآيات على هذا المذهب، فلاتحاد المذهب وتشابه التفسير وقع الإلتباس، فنسب التفسير لابن عربي، أو قصدت النسبة ليروج الكتاب. وأرى إتماماً للفائدة أن أذكر نبذة عن حياة ابن عربي، وعن مذهبه في التفسير، لنرى التشابه بينه وبين القاشاني.

ابن عربي ومذهبه

ترجمة ابن عربي (١)

هو أبو بكر محيي الدين محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الحاتمي، الطائي، الأندلسي، المعروف: بابن عربي، بدون أداة التعريف، كما اصطلح على ذلك أهل المشرق، فرقا بينه وبين القاضي أبي بكر بن العربي صاحب أحكام القرآن. وكان بالمغرب يعرف بابن العربي بالألف والام.

ولد بِمَرسية سنة ٥٦٠هـ، تلقى فيها العلم على كثير من الشيوخ حتى ظهر نجمه، وعلا ذكره، وفي سنة ٥٩٨هـ نزح إلى المشرق وطوف في كثير من البلاد، فدخل الشام، ومصر، والموصل، وآسيا الصغرى، ومكة، وأخيراً استقر في دمشق، وتوفي بها في سنة ٦٣٨ هـ، ودفن بها.

ابن عربي بين أعدائه ومريديه:

كان ابن عربي شيخ المتصوفة في وقته، حتى لقبوه فيما بينهم بالشيخ الأكبر، كما كان له أعداء ينقمون عليه، ويرمونه بالكفر والزندقة، وذلك لما كان يدين به من القول بوحدة

---

١ ـ رجعنا في هذه الترجمة لترجمته المذكورة في آخر الفتوحات، وهي ملخصة من نفح الطيب. وإلى شذرات الذهب: ٥ / ١٩١، وإلى دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الأول، ع٣، ودائرة المعارف للبستاني، المجلد الأول: ٥٩٩.

الوجود، ولما كان يصدر عنه من المقالات الموهمة، التي تحمل في ظاهرها كل معاني الكفر والزندقة، فمن المعجبين بابن عربي: قاضي القضاة مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي الفيروز أبادي صاحب القاموس، وقد كتب كتاباً يدافع فيه عنه، رداً على رضى الدين بن الخياط الذي كتب عن عقيدة ابن عربي ورماه بالكفر. والحافظ السيوطي الذي ألف في الدفاع عنه كتاباً سماه: (تنبيه الغبي على تنزيه ابن عربي)، وغيرهم. ومن الناقمين عليه: ابن الخياط السابق ذكره، والحافظ الذهبي، وابن تيمية.

مذهب ابن عربي في وحدة الوجود:

يرى أن الوجود حقيقة واحدة. ويعد التعدد والكثرة أمراً قضت به الحواس الظاهرة وقد أداه قوله بوحدة الوجود إلى قوله بوحدة الأديان، لا فرق بين سماويها وغير سماويها، إذ الكل يعبدون الإله الواحد المتجلي في صورهم، وصور جميع المعبودات، والغاية الحقيقية من عبادة العبد لربه: هو التحقق من وحدته الذاتية معه. وإنما الباطل من العبادة: أن يقصر العبد ربه على مجلى واحد دون غيره، ويسميه إلها[١].

مؤلفات ابن عربي كثيرة، وقد بلغ ما بقي منها إلى اليوم مائة وخمسون كتاباً[٢]. وأهم هذه المؤلفات: الفتوحات المكية، ثم فصوص الحكم. غير أن هذه المؤلفات، يوجد في تضاعيفها كثير من الكلمات المشكلة، التي سببت خوض الناس في عقيدته، ورميهم إياه بالكفر والزندقة.

وقد قال السيوطي في كتابه تنبيه الغبي على تنزيه ابن عربي: والقول الفصل في ابن عربي: اعتقاد ولايته، وتحريم النظر في كتبه، فقد نقل عنه هو أنه قال: نحن قوم يحرم النظر في كتبنا. قال السيوطي: وذلك لأن الصوفية تواضعوا على ألفاظ اصطلحوا عليها. وأرادوا بها غير المعاني المتعارفة، فمن حمل ألفاظهم على معانيها المتعارفة بين أهل العلم الظاهر كفر. نص على ذلك الغزالي في بعض كتبه وقال: إنه شبيه بالمتشابه من القرآن والسنة، من حمله على ظاهره كفر[٣].

ومما استدلوا به على أن ابن عربي لا يريد الظاهر الموهم من كلامه: ما يروونه عنه من أنه أنشد بعض إخوانه هذا البيت وهو من نظمه:

يـا مـن يـرانـي ولا أراه　　كـم ذا أراه ولا يـرانـي

فاعترض عليه السامع وقال: كيف تقول إنه لا يراك، وأنت تعلم أنه يراك فقال:

---

١) هامش دائرة المعارف الإسلامية ـ أحمد الشنتناوي وشركاه: المجلد الأول / ٢٣٣.
٢) هامش دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الأول / ٢٣٦.
٣) شذرات الذهب ـ ابن العماد: ٥ / ١٩١.

يـــا مـــن يـــرانـــي مـــجـــرمـــاً ولا أراه آخـــــــذاً
كـــم ذا أراه مـــنـــعـــمـــاً ولا يـــرانـــي لائـــذا[1]

قالوا: فهذا يدل على أن كلام الشيخ لا يراد به ظاهره، وإنما له محامل تليق به.

ومن العلماء من ينزه ابن عربي عن هذه العبارات الموهمة ويقول: إن ما جاء من ذلك فهو مدسوس عليه، ويروون في ذلك أن الشعراني الذي اختصر الفتوحات قال: وقد توقفت حال الاختصار في مواضع كثيرة منه، لم يظهر لي موافقتها لما عليه أهل السنة والجماعة. فحذفتها من هذا المختصر...حتى قدم علينا الأخ العالم الشريف شمس الدين السيد محمد بن السيد أبي الطيب المدني المتوفى سنة ٩٥٥هـ، فذاكرته في ذلك، فأخرج إليّ نسخة من الفتوحات التي قابلها على النسخة التي عليها خط الشيخ محيي الدين نفسه بقونيه، فلم أر فيها شيئاً مما توقفت فيه وحذفته، فعلمت أن النسخ التي في مصر الآن كلها كتبت من النسخة التي دسوا على الشيخ فيها ما يخالف عقائد أهل السنة والجماعة، كما وقع له ذلك في كتاب الفصوص وغيره[2].

وكلمة الإنصاف فيه ـ كما أعتقد ـ قول الحافظ الذهبي عنه، وله توسع في الكلام، وذكاء، وقوة خاطر، وحافظة، وتدقيق في التصوف، وتآليفه في العرفان، ولولا شطحه في الكلام لم يكن به بأس[3].

مذهب ابن عربي
في تفسير القرآن الكريم

يقوم مذهب ابن عربي في التفسير غالبًا على:

١ ـ التأثر بمذهب وحدة الوجود، فإنا نراه في كثير من الأحيان يتعسف في التأويل. ليجعل الآية تتمشى مع هذه النظرية. وهذا ـ فيما اعتقد ـ منهج كله شر في التفسير، فهو يبدل فيما أراد الله من آياته، ويفسرها على أن تتضمن مذهبه.

٢ ـ الفيض الإلهي: فهو واسع الباع فيها، وقد مرت بك (مقالة ابن عربي في التفسير الإشاري)، ورأيت كيف ادعى أن كل ما يجري على لسان أهل الحقيقة من المعاني الإشارية في القرآن هو في الحقيقة تفسير وشرح لمراد الله، وإنما عبر عنها بالإشارة. تقية من أهل الظاهر، وأن أهل الله ـ وهم الصوفية ـ أحق الناس بشرح كتابه، لأنهم يتلقون علومهم عن

---

١) ترجمة المؤلف الموجودة بخاتمة الفتوحات: ٤ / ٥٧.
٢) خاتمة الفتوحات لابن عربي: ٥٥٥.
٣) دائرة المعارف للبستاني ـ طبع بيروت ـ ١٨٧٦م: ٥٩٩.

الله، فهم يقولون في القرآن على بصيرة، أما أهل الظاهر فيقولون بالظن والتخمين.

ثم هو لا يرى فرقا بين القرآن نفسه، وبين تفسير أهل الله له، من ناحية أن كلاً منهما حق ثابت، وصدق لا يعتريه شك، فإذا كان القرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ لأنه من عند الله، فكذلك أقوال أهل الحقيقة في التفسير، لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها؛ لأنها منزلة على قلوبهم من عند الله.

هذا، وإن ابن عربي لم نظفر له بكتاب في التفسير، ولكن نجد صاحب كشف الظنون يقول: «صنف تفسيراً كبيراً على طريقة أهل التصوف في مجلدات. قيل إنه في ستين سفراً، وهو إلى سورة الكهف، وله تفسير صغير في ثمانية أسفار على طريقة المفسرين»[1]، وإذا كنا لم نظفر بهذين الكتابين، فإنا قد ظفرنا بما فيه بعض الكفاية عنهما، وهو تفسيره لبعض الآية التي وجدناها متفرقة في غضون مؤلفاته، كالفصوص، والفتوحات. إليك بعضاً منها:

نموذج من التفسير الصوفي النظري له:

عند قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾ [النساء: ٨٠] يقول: لأنه لا ينطق إلا عن الله، بل لا ينطبق إلا بالله، بل لا ينطق إلا الله منه فإنه صورته[2].

نموذج من التفسير الإشاري له:

عند قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾ [الحج: ٣٢ ـ ٣٣] يقول: ﴿شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ أعلامه. وأعلامه: الدلائل الموصلة إليه. ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ يقول: هو بيت الإيمان عند أهل الإشارات، وليس إلا قلب المؤمن الذي وسع عظمة الله وجلاله[3].

نموذج من التفسير الظاهر لابن عربي:

عند قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣] يقول: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا﴾ فأضافه إليه ولم يقل صراط الله، ووصفه بالاستقامة، ثم قال: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾ الضمير يعود على صراطه ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ يعني شرائع من تقدمه ومنهاجهم من حيث ما هي شرائع لهم، إلا أن وجد حكم فيها شرعي فاتبعوه من حيث ما هو شرع لنا لا من حيث ما كان شرعاً لهم ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ يعني تلك الشرائع عن سبيله: أي عن طريق الذي

---

١) كشف الظنون ـ ملا كاتب الجلبي: ١ / ٢٣٣.

٢) الفتوحات لابن العربي: ٤/ ١٢٢.

٣) الفتوحات ـ لابن العربي: ٤ / ١٠٩.

جاء به محمد ﷺ، ولم يقل عن سبيل الله: لأن الكل سبيل الله، إذ كان الله غايتها ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي تتخذون تلك السبيل وقاية تحول بينكم وبين المشي على غيره[1].

---

1) الفتوحات لابن العربي: ٢ / ٢١٧.

الفصل السادس

تفسير الفلاسفة

كيف وجدت الصلة بين التفسير والفلسفة؟

في إبان شوكة الملة الإسلامية ترجمت كتب الفلسفة من اللغات المختلفة إلى اللغة العربية، ويرجع الفضل الأكبر في هذا العمل إلى العباسيين وحدهم، إذا إنهم نظموا الترجمة الإسلامية وشجعوها.

بدأ المنصور هذه الحركة المباركة، وتعهدها أبناؤه وأحفاده من بعده، وبلغ بها المأمون القمة، وأضحت بغداد كعبة علمية يحج إليها الطلاب من كل مكان.

قرأ بعض المسلمين هذه الكتب الفلسفية، فلم يرقهم أكثر ما فيها من نظريات وأبحاث؛ لأنهم وجدوها تتعارض مع الدين، فكرسوا حياتهم للرد عليها، وكان على رأس هؤلاء: الغزالي، والفخر الرازي.

وقرأ بعض المسلمين هذه الكتب فأعجبوا بها إلى حد كبير، رغم ما فيها من نظريات تبدو متعارضة مع نصوص الشرع القويم، وتعاليمه التي لا يلحقها الشك؛ لأنهم وجدوا أن في مقدورهم أن يوفقوا بين الفلسفة والدين، وفعلا وصل فلاسفة المسلمين إلى هذا التوفيق، ولكنه توفيق إن أرضى بعض المسلمين فقد أغضب الكثير منهم؛ ذلك لأنهم لم يصلوا في توفيقهم إلا إلى حلول وسطى، صوروا فيها التعاليم الدينية تصويراً يبعد كثيراً عن الصور الثابته المأثورة .

وكان هذا التوفيق من خلال طريقتين:

١ ـ التأويل للنصوص الدينية والحقائق الشرعية، بما يتفق مع الآراء الفلسفية. ومعنى هذا إخضاع تلك النصوص والحقائق إلى هذه الآراء حتى تسايرها وتتمشى معها.

٢ ـ شرح النصوص الدينية والحقائق الشرعية بالآراء والنظريات الفلسفية، ومعنى هذا أن تطغى الفلسفة على الدين وتتحكم في نصوصه، وهذه الطريقة أخطر من الأولى.

الأثر الفلسفي
في تفسير القرآن الكريم

لقد كان لكلا الفريقين ـ المتفق مع الفلسفة والمخالف لها ـ أثره على تفسير القرآن:

١ ـ أما الفريق المعاند للفلسفة: فرأى من واجبه كمفسر أن يعرض لهذه النظريات ويمزجها بالتفسير، ويدافع عنها في حال سلامتها عنده، وأن يردّ عليها إن لم تسلم عنده. وممن فعل هذا في تفسيره: الإمام فخر الدين الرازي.

٢ ـ وأما الفريق المسالم للفلسفة: فإنه لما فسر القرآن سلك طريقا كله شر وضلال، إذ إنه وضع الآراء الفلسفية أمام عينيه، ثم نظر من خلالها إلى القرآن، فشرح نصوصه على حسب ما تمليه عليه نزعته الفلسفية، فكان تفسيره خدمة للفلسفة على حساب القرآن.

من تفسير الفارابي

فمن هذه الروح التي طغت عليها الفلسفة، ما تجده للفارابي المتوفى سنة **٣٣٩**هـ في كتابه فصوص الحكم، من تفسيره لبعض الآيات والحقائق التي جاء بها القرآن تفسيرا فلسفياً بحتا، فمن ذلك أنه يفسر الوحي بقوله: والوحي: لوح من مراد الملك للروح الإنسانية بلا واسطة، وذلك هو الكلام الحقيقي، فإن الكلام إنما يراد به تصوير ما يتضمنه باطن المخاطِب في باطن المخاطَب ليصير مثله، فإذا عجز المخاطب عن مس باطن المخاطَب بباطنه مس الخاتم الشمع فيجعله مثل نفسه، اتخذ فيما بين الباطنين سفيراً من الظاهرين، فتكلم بالصوت أو كتب أو أشار. وإذا كان المخاطب لا حجاب بينه وبين الروح اطلع عليه اطلاع الشمس على الماء الصافي فانتقش منه[١].

كما يشرح الملائكة بأنها: صورة علمية، جواهرها علوم إبداعية قائمة بذواتها، تلحظ الأمر الأعلى فينطبع في هويتها ما تلحظ، وهي مطلقة، لكن الروح القدسية تخاطبها في اليقظة، والروح البشرية تعاشرها في النوم[٢].

وقال بقدم العالم عند تفسيره للأول والآخر في سورة الحديد: **٣**[٣].

من تفسير إخوان الصفا

ومن الشروح الفلسفية للقرآن أيضاً ما نجده في رسائل إخوان الصفا، الذين لا زلنا

---

١) فصوص الحكم للفارابي ـ السعادة ـ ١٩٠٧م: ١٦٣.

٢) المرجع السابق: ١٤٦.

٣) فصوص الحكم للفارابي: ١٧٢ ـ ١٧٣.

نجهل الكثير عن تاريخ نشأتهم، وتكوينهم والذين كانوا يمتون في أغلب الظن بصلة إلى الباطنية الإسماعيلية.

فمن ذلك أنهم يشرحون الجنة والنار، بما يفهم منه أن الجنة هي عالم الأفلاك وأن النار هي عالم ما تحت فلك القمر، وهو عالم الدنيا، ففي حديثهم عن تجرد النفس واشتياقها إلى عالم الأفلاك، يقررون أنه لا يمكن الصعود إلى ما هناك بهذا الجسد الثقيل الكثيف، ويقولون: «إن النفس إذا فارقت هذه الجنة، ولم يعقها شيء من سوء أفعالها، أو فساد آرائها، وتراكم جهالاتها أو رداءة أخلافها، فهي هناك في عالم الفلك في أقل من طرفة عين بلا زمان؛ لأن كونها حيث همتها أو محبوبها كما تكون نفس العاشق حيث معشوقه فإذا كان عشقها هو الكون مع هذا الجسد، ومعشوقها هو الملذات المحسوسة المموهة الجرمانية، وشهواتها هذه الزينات الجسمانية، فهي لا تبرح من ههنا ولا تشتاق الصعود إلى عالم الأفلاك، ولا تفتح لها أبواب السماء ولا تدخل الجنة مع زمرة الملائكة، بل تبقى تحت فلك القمر، سائحة في قعر هذه الأجسام المستحيلة المتضادة، تارة من الكون إلى الفساد؛ وتارة من الفساد إلى الكون ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ [النساء: ٥٦].

ومن ذلك أنهم يفسرون الملائكة بأنها كواكب الأفلاك فيقولون: «إن كواكب الفلك هم ملائكة الله وملوك سمواته. خلقهم الله تعالى لعمارة عالمه، وتدبير خلائقه؛ وسياسة بريته، وهم خلفاء الله في أفلاكه كما أن ملوك الأرض هم خلفاء الله في أرضه»(١).

ثم إن إخوان الصفا يعتقدون أن القرآن ما هو إلا رموز للحقائق البعيدة عن أذهان العامة، يقولون: «إن النبي ﷺ يخبر خواص أمته بما جاء به واعتقده بالتصريح في السر والعلن، غير مرموز ولا مكتوم، ثم يشير إليها، ويرمز عنها عند العوام بالألفاظ المشترك، والمعاني المحتملة للتأويل بما يعقلها الجمهور، وتقبلها نفوسهم(٢) وغير خاف أن هذا هو عين مذهب الباطنية القائل بأن ظواهر القرآن غير مرادة.

ولم نسمع أن فيلسوفا من هؤلاء الفلاسفة ألف لنا تفسيراً كاملا للقرآن الكريم، وكل ما وجدناه لهم بعض أفهام قرآنية مفرقة في كتبهم التي ألفوها في الفلسفة. وأكثر من وجدنا له أثرا في التفسير هو الرئيس أبو علي بن سينا؛ إذ قد عثر له على تفسير قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [سورة النور: ٣٥](٣). وعلى تفسير سورة الإخلاص، والمعوذتين(٤) وبعض

---

١) رسائل إخوان الصفا: ١/ ٩٨، المطبعة العربية ـ ١٩٢٨م.

٢) المرجع السابق: ٤/ ١٨٥.

٣) يوجد هذا التفسير في كتاب جامع البدائع.

٤) يوجد تفسير هذه السور الثلاث في رسائل ابن سينا. مطبعة هندية ـ ١٩٠٨م.

آيات أخرى، ولهذا سأعتبر ابن سينا الشخصية الأولى التي كان لها أكبر أثر في التفسير الفلسفي، فأذكر نبذة عن حياته، ثم أعرض لمسلكه في التفسير فأقول:

[ابن سينا والتفسير الفلسفي]

ترجمته:

هو الرئيس أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا. كان أبوه من أهل بلخ، ثم انتقل إلى بخارى، وفي قرية من قراها ولد له أبو علي بن سينا سنة **٣٧٠هـ**. ثم طوف أبو علي بعد ذلك في البلاد، واشتغل بالعلوم. حفظ القرآن وله من العمر عشر سنين، وأتقن الأدب، وحفظ أشياء من أصول الدين، والحساب والجبر، ثم تعلم المنطق على أبي عبد الله الفاتلي، وفاقه، ثم اشتغل بالعلوم الطبيعية والإلهية، ثم رغب في علم الطب فقرأه وتفوق فيه. ثم لم تأت عليه سن الثامنة عشرة إلا وقد فرغ من تحصيل العلوم التي عاناها، مما يدل على ذكائه الخارق وذهنه الثاقب. أما تصانيفه فكثيرة، تقارب المائة مصنف، ومن أهمها: كتاب الشفاء في الحكمة، والقانون، وغير ذلك.

ولقد جمع ابن سينا إلى شهرته العلمية شهرة أخرى سياسية؛ إذ إنه كان يتقلد مع والده الأعمال للسلطان، وكانت وفاته بهمذان سنة ٤٢٨هـ ودفن بها، فرحمه الله[١].

مسلك ابن سينا في التفسير:

كان حريصا كل الحرص على أن يوفق بين الدين والفلسفة، حتى يرضي ناحيته الدينية والفلسفية. وفعلا قام بهذه العملية التي كانت ـ فيما أعتقد ـ شراً على الدين، وإبطالا لحقائق القرآن الصريحة الثابتة؛ لأنه حكّم النظريات الفلسفية في النصوص القرآنية، فشرحها شرحاً فلسفياً بحتاً، وذلك لأنه كان يعتقد أن القرآن ما هو إلا رموز رمز بها النبي ﷺ لحقائق تعجز أفهام العامة عن إدراكها، فرمز إليها النبي بما يمكنهم أن يدركوه، وأخفى عنهم ما يعجز عن إدراكه عامة الناس إلا الخواص منهم، وهو يقول: «إن المشترط على النبي أن يكون كلامه رمزا، وألفاظه إيماء، وكما يذكر أفلاطون في كتاب النواميس: إن من لم يقف على معاني رموز الرسل لم ينل الملكوت الإلهي، وكذلك أجلة فلاسفة يونان وأنبياؤهم كانوا يستعملون في كتبهم الرموز والإشارات، التي حشوا فيها أسرارهم، كفيثاغورس وسقراط وأفلاطون... وما كان يمكن النبي محمداً ﷺ أن يوقف على العلم أعرابيا جافيا، ولا سيما البشر كلهم، إذ كان مبعوثا إليهم كلهم»[٢].

---

١) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان: ٢٧١ ـ ٢٧٥، وشذرات الذهب لابن العماد: ٣/ ٢٣٤ ـ ٢٣٧.

٢) رسائل ابن سينا: ١٢٤ ـ ١٢٥. مطبعة هندية سنة ١٩٠٨م.

وإليك بعض ما قاله لترى بُعده عن حقائق القرآن الثابتة:

في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ ﴿١٧﴾﴾ [الحاقة: ١٧]. فسر العرش بأنه الفلك التاسع الذي هو فلك الأفلاك، وفسر الملائكة الثمانية التي تحمل العرش بأنها الأفلاك الثمانية التي تحت الفلك التاسع وإليك عبارته:

فالأفلاك تسمى ملائكة. فإذا تقدم هذه المقدمات وضح أن العرش محمول، ووضح تفسير المفسرين أنها ثمانية أفلاك. والحمل يقال على وجهين: حمل بشري، وهو أولى باسم الحمل ،كالحجر المحمول على ظهر الإنسان، وحمل طبيعي كقولنا الماء محمول على الأرض، والنار على الهواء، والمعنى هنا الحمل الطبيعي لا الأول .وقوله: يومئذ والساعة، والقيامة. فالمراد بها ما ذكره الشارع: أن من مات قامت قيامته. ولما كان تحقيق النفس الإنسانية عند المفارقة آكد جعل الوعد والوعيد، وأشباههما إلى ذلك الوقت[١].

ويفسر قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٦] فيقول: الجن: هو الاستتار، والإنس: هو الاستئناس، فالأمور المستترة هي الحواس الباطنة، والمستأنسة هو الحواس الظاهرة[٢].

رأينا في تفسير الفلاسفة

هذا هو بعض ما قاله ابن سينا في شرحه لبعض نصوص القرآن الكريم. ولعل القارئ الكريم يلحظ معي أن الإمامية الإثني عشرية، والباطنية الإسماعيلية، ومتطرفي الصوفية، ورجال الفلسفة الإسلامية، كلهم يسيرون على نمط واحد هدام لمقاصد القرآن ومراميه، ذلك هو ما يعبرون عنه بالرمز، أو الإشارة، أو الباطن. ويظهر لنا أنها عدوى إلى المسلمين من قدماء الفلاسفة[٣]، ثم تلقتها هذه الفرق بصدر رحب، وتقبلتها بقبول حسن؛ لأنهم رأوا فيها عوناً كبيراً على ترويج بدعهم، ونشر ضلالاتهم بين المسلمين !.

---

١) رسائل ابن سينا: ١٢٨ ـ ١٢٩.

٢) المرجع السابق: ٢١ ـ ٢٣.

٣) انظر ما قلناه عن فيلون اليهودي عند كلامنا عن البابية.

الفصل السابع

تفسير الفقهاء

كلمة إجمالية عن تطور التفسير الفقهي

نزل القرآن الكريم مشتملا على آيات تتضمن الأحكام الفقهية التي تتعلق بمصالح العباد في دنياهم وأخراهم، وكان المسلمون على عهد رسول الله ﷺ يفهمون ما تحمله هذه الآيات من الأحكام الفقهية بمقتضى سليقتهم العربية. وما أشكل عليهم من ذلك رجعوا فيه إلى رسول الله ﷺ. وبعد الرسول ﷺ اجتهدوا عند الحاجة دون أي تعصب فيما بينهم، فالحق مطلب الجميع.

ظل الأمر على هذا إلى عهد ظهور أئمة المذاهب ـ الأربعة وغيرها ـ وفيه جدت حوادث كثيرة للمسلمين لم يسبق لمن تقدمهم حكم عليها، فأخذ كل إمام ينظر إلى هذه الحوادث تحت ضوء القرآن والسنة، وغيرهما من مصادر التشريع. ثم يحكم عليها بالحكم الذي يعتقد أنه هو الحق، ومع كثرة اختلافهم في الأحكام لم تظهر منهم بادرة التعصب [للرأي]، فهذا هو الشافعي رحمه الله كان يقول: إذا صح الحديث فهو رأيي، وكان يقول: الناس عيال في الفقه على أبي حنيفة. إلى غير ذلك مما يدل على انتشار روح التقدير والحب بين أولئك الفقهاء[١].

ثم خلف من بعد هؤلاء الأئمة خلف سرت فيهم روح التقليد لهؤلاء الأئمة.. التقليد الذي يقوم على التعصب المذهبي، ولا يطلب الحق لذاته، فهذا عبد الله الكرخي المتوفي سنة ٣٤٠هـ وهو أحد المتعصبين لمذهب أبي حنيفة يقول: «كل آية أو حديث يخالف ما عليه أصحابنا فهو مؤول أو منسوخ»[٢]. ومع ذلك وجد في صفوف المقلدين من بحث عن الحق أينما كان.

١) انظر تاريخ التشريع الإسلامي للخضري ـ مطبعة عيسى الحلبي: ١٩٣٠م: ٣٥٣ ـ ٣٥٤.

٢) تاريخ التشريع الإسلامي للأساتذة: السبكي والسايس والبربري: ٢٨١ .

تنوع التفسير الفقهي تبعاً لتنوع الفِرَق الإسلامية:

فلأهل السنة تفسير فقهي متنوع بدأ نظيفاً من التعصب، ثم لم يلبث أن تلوث به كما أسلفنا، وللظاهرية تفسير فقهي يقوم على الوقوف عند ظواهر القرآن دون أن يحيد عنها، وللخوارج تفسير فقهي يخصهم، وللشيعة تفسير فقهي يخالفهون به من عداهم، وكل فريق من هؤلاء يجتهد في تأويل النصوص القرآنية حتى تشهد له أو لا تعارضه على الأقل. مما أدى ببعضهم إلى التعسف في التأويل، والخروج بالألفاظ القرآنية عن معانيها ومدلولاتها.

الإنتاج التفسيري للفقهاء

لا نكاد نعثر على شيء من ذلك قبل عصر التدوين. اللهم إلا متفرقات تؤثر عن فقهاء الصحابة والتابعين، أما بعد عصر التدوين فقد ألف كثير من العلماء في التفسير الفقهي:

فمن الحنفية: ألف أبو بكر الرازي المعروف بالجصاص والمتوفى سنة ٣٧٠هـ (أحكام القرآن)، وهو مطبوع في ثلاث مجلدات كبار. ومن الشافعية: ألف أبو الحسن الطبري المعروف بالكيا الهراسي المتوفي سنة ٥٠٤هـ كتابه أحكام القرآن، وهو [مطبوع في مجلدين ومتداول بين أهل العلم]. ومن المالكية: ألف أبو بكر بن العربي المتوفى سنة ٥٤٣هـ كتابه أحكام القرآن. وهو مطبوع في مجلدين كبيرين. وألف أبو عبد الله القرطبي المتوفى سنة ٦٧١هـ، كتابه: (الجامع لأحكام القرآن) [وهو مطبوع في ١٥ مجلدا كبيرا]. ومن الزيدية: ألف شمس الدين بن يوسف بن أحمد من علماء القرن التاسع الهجري، (الثمرات اليانعة والأحكام الواضحة القاطعة)، [وهو مطبوع في خمسة مجلدات ومتداول]. ومن الإمامية الإثني عشرية: ألف مقداد السيوري، من أهل القرن الثامن الهجري، كتابه: (كنز الفرقان في فقه القرآن)، مطبوعة في مجلد صغير على هامش تفسير الحسن العسكري.

وهناك كتب أخرى في تفسير آيات الأحكام ذكرها صاحب كشف الظنون، لا نطيل بذكرها، ويكفي أن نعرض لأهمها وهو ما يأتي:

١ ـ أحكام القرآن
للجصّاص (الحنفي)

ترجمة المؤلف والتعريف بتفسيره:

هو أبو بكر، أحمد بن علي الرازي، المشهور بالجصاص[1]. ولد ببغداد سنة ٣٠٥هـ، وكان إمام الحنفية في وقته. أخذ عن أبي سهل الزجاج، وعن أبي الحسن الكرخي، وعن

---

١) الجصاص: نسبة إلى العمل بالجص.

غيرهما من فقهاء عصره. واستقر التدريس له ببغداد، وبلغ من زهده أنه خوطب في أن يلي القضاء فامتنع. أما مصنفاته فكثيرة أهمها كتاب أحكام القرآن، وهو ما نحن بصدده الآن، وشرح مختصر الكرخي، وغير ذلك. وعلى الجملة فإليه يرجع كثير من الفضل في تدعيم مذهب الحنفية على البراهين والأدلة. هذا وقد ذكره المنصور بالله في طبقات المعتزلة[١]. أما وفاته فكانت سنة ٣٧٠هـ، فرحمه الله[٢].

ويعد تفسيير الجصاص من أهم كتب التفسير الفقهي خصوصاً عند الحنفية؛ لأنه يقوم على تركيز مذهبهم والترويج له، والدفاع عنه، وهو يعرض لآيات الأحكام فقط، وهو ـ وإن كان يسير على ترتيب سور القرآن ـ مبوب كتبويب الفقه.

استطراده لمسائل فقهية بعيدة عن فقه القرآن:

يستطرد ويتفرع حتى يشعرك بأنك تقرأ فقها مقارنا! فمثلا عندما عرض لقوله تعالى: ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [يوسف: ٢٦]. نجده يستطرد لخلاف الفقهاء في مدعي اللقطة إذا ذكر علامتها، وخلافهم في اللقيط إذا ادعاه رجلان ووصف أحدهما علامة في جسده، وخلافهم في متاع البيت إذا ادعاه الزوج لنفسه وادعته الزوجة لنفسها، وخلافهم في مصراع الباب إذا ادعاه رب الدار والمستأجر، وغير ذلك من مسائل الخلاف التي لا تتصل بالآية إلا عن بعد.

تعصبه لمذهبه وحملته على المخالفين:

متعصب لمذهبه الحنفي بشكل كبير، فمثلا عندما تعرض لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٢]. نجده يحاول أن يستدل بالآية من عدة وجوه على أن للمرأة أن تعقد على نفسها بغير الولي، وبدون إذنه.

كما أنه ليس عف اللسان مع الأئمة، فمثلا عندما عرض لآية المحرمات من النساء في سورة النساء [آية ٢٣] نجده يعرض للخلاف الذي بين الحنفية والشافعية في حكم من زنى بامرأة، هل يحل له التزوج بابنتها أو لا؟ ثم يذكر مناظرة طويلة جرت بين الشافعي وغيره في هذه المسألة، ويناقش الشافعي فيما يرد به على مناظره، ويرميه بعبارات شنيعة لاذعة كقوله: «فقد بان أن ما قاله الشافعي وما سلمه له السائل كلام فارغ لا معنى تحته في حكم ما سئل عنه».

وقوله حين لم يرقه أحد أجوبة الشافعي على سؤال مناظره: «ولو كلم بذلك المبتدئون من أحداث أصحابنا لما خفي عليهم عوار هذا الحجاج، وضعف السائل والمسؤول فيه».

---

١) شرح الأزهار ـ أحمد بن عبد الله الجنداري: ٢/ ٤.

٢) انظر ترجمته في الفوائد البهية في تراجم الحنفية ـ محمد اللكنوي: ٢٧ ـ ٢٨.

تأثر الجصاص بمذهب المعتزلة:

يميل إلى عقيدة المعتزلة في تفسيره، فمثلا عند قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ [البقرة: ١٠٢]. نجده يذكر حقيقة السحر ويقول إنه: «متى أطلق فهو اسم لكل أمر هو باطل لا حقيقة له ولا ثبات. كما ينكر حديث البخاري في سحر رسول الله ﷺ[١] ويقرر أنه من وضع الملاحدة». كما أنه يتأول رؤية الله يوم القيامة عند تفسيره للآية **١٠٣** من سورة الأنعام.

حملة الجصاص على معاوية رضي الله عنه:

فمثلا عند قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج: ٤١]. يقول: «وهذه صفة الخلفاء الراشدين، الذين مكنهم الله في الأرض وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم وفيه الدلالة الواضحة على صحة إمامتهم، ولا يدخل معاوية في هؤلاء؛ لأن الله إنما وصف بذلك المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم، وليس معاوية من المهاجرين، بل هو من الطلقاء».

وما كان أولى بصاحبنا أن يترك هذا التحامل على معاوية الصحابي، ويفوض أمره إلى الله، ولا يلوي مثل هذه الآيات إلى ميوله وهواه. والكتاب مطبوع في ثلاثة مجلدات كبار، ومتداول بين أهل العلم.

٢ ـ أحكام القرآن
لكيا الهراسي (الشافعي)

ترجمة المؤلف:

هو عماد الدين، أبو الحسن علي بن محمد بن علي الطبري، المعروف بالكيا[٢] الهراسي، الفقيه الشافعي، المولود سنة ٤٥٠هـ، أصله من خراسان، ثم رحل عنها إلى نيسابور، وتفقه على إمام الحرمين الجويني، ثم خرج إلى بيهق ثم إلى العراق، وتولى التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد إلى أن توفي سنة ٥٠٤هـ. وكان رحمه الله فصيح العبارة، محدثاً، يستعمل الأحاديث في مناظراته ومجالسه، رحمه الله[٣].

---

١ ـ حديث سحر الرسول ﷺ موجود في البخاري: **١٠/ ١٩١ ـ ١٩٧** في الطب. ومسلم: **٢١٨٩** في السلام. وفي جامع الأصول: رقم ٣٠٧٧.

٢) الكيا: بكسر الكاف وفتح الياء (المخففة) معناه في اللغة العجمية: الكبير القدر المقدم بين الناس. وفيات الأعيان ـ ابن خلكان: ١ / ٥٩٠.

٣) انظر وفيات الأعيان ـ ابن خلكان: ١ / ٥٩٠.

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

يعتبر من أهم المؤلفات في التفسير الفقهي عند الشافعية، وذلك لأن مؤلفه شافعي لا يقل في تعصبه لمذهبه عن الجصاص بالنسبة لمذهب الحنفية، مما جعله يفسر آيات الأحكام على وفق قواعد مذهبه الشافعي. وليس أدل على روح التعصب عند المؤلف من مقدمة تفسيره التي يقرر فيها: إن مذهب الشافعي أسدّ المذاهب وأقومها، وأرشدها وأحكمها، وإن نظر الشافعي في أكثر آرائه ومعظم أبحاثه يترقى عن حد الظن والتخمين، إلى درجة الحق واليقين.

تأدبه مع الأئمة وحملته على الجصاص:

غير أن الهراسي ـ والحق يقال ـ كان عف اللسان مع كل من يتعرض للرد عليه من المخالفين، وكل ما لاحظناه عليه من ذلك هو أنه وقف من الجصاص موقفاً كان فيه قاسي العبارة، إذ إنه عرض لأهم مواضع الخلاف التي ذكرها الجصاص في تفسيره وعاب فيها مذهب الشافعي، ففند كل شبهة أوردها بحجج قوية يسلم له الكثير منها، كما أنه اقتص للشافعي من الجصاص، فرماه بالعبارات الساخرة (والجزاء من جنس العمل).

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] نجده يرد على الجصاص ما استدل به لمذهبه القائل بأن الزنى بامرأة يحرم على الزاني أصول المرأة وفروعها، ويفند ما رد به الجصاص على الشافعي في هذه المسالة، ثم يقول في شأن الجصاص: «إنه لم يفهم معنى كلام الشافعي رضي الله عنه، ولم يميز بين محل ومحل، ولكل مقام مقال، ولتفهّم معاني كتاب الله رجال، وليس هو منهم».

ثم إن المؤلف يتعرض لآيات الأحكام فقط، مع استيفاء ما في جميع السور. والكتاب [مطبوع في مجلدين ومتداول بين أهل العلم].

٣ ـ أحكام القرآن
لابن العربي (المالكي)

ترجمة المؤلف:

هو القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد المعافري، الأندلسي، الإشبيلي، الإمام، ختام علماء الأندلس، كان أبوه من فقهاء إشبيلية ورؤسائها.

ولد أبو بكر سنة ٤٦٨هـ، قرأ القراءات، ثم رحل إلى مصر، والشام، وبغداد، ومكة. وكان يأخذ عن علماء كل بلد يرحل إليه حتى أتقن الفقه، والأصول وقيد الحديث، وأتقن مسائل الخلاف والكلام، وتبحر في التفسير، وبرع في الأدب والشعر... وأخيراً عاد إلى بلده إشبيلية بعلم كثير.

قال القاضي عياض ـ وهو ممن أخذوا عنه: «استقضى ببلده فنفع الله به أهلها لصرامته، وشدة نفوذ أحكامه، وكانت له في الظالمين سورة مرهوبة، وتؤثر عنه في قضائه أحكام غريبة، ثم صرف عن القضاء، وأقبل على نشر العلم وبثّه».

ومن تصانيفه: أحكام القرآن، وهو ما نحن بصدده الآن، وكتاب المسالك في شرح موطأ مالك، والقواسم والعواصم. وغير ذلك. وقد كانت وفاته سنة ٥٤٣هـ، منصرفه من مراكش، وحمل ميتاً إلى مدينة فاس ودفن فيها. رحمه الله[١].

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

يتعرض لآيات الأحكام فقط، وطريقته في ذلك أن يذكر السورة ثم يذكر عدد ما فيها من آيات الأحكام، ثم يأخذ في شرحها آية آية.. قائلاً: الآية الأولى وفيها خمس مسائل (مثلاً)، والآية الثانية وفيها سبع مسائل (مثلاً) وهكذا، حتى يفرغ من آيات الأحكام الموجودة في السورة.

ويعتبر تفسير ابن العربي مرجعاً مهماً للتفسير الفقهي عند المالكية، وذلك لأن مؤلفه مالكي تأثر بمذهبه، فظهرت عليه في تفسيره روح التعصب، وقسوة الأسلوب ولكن لم يبلغ به التعسف إلى الحد الذي يجعله يفند كلام مخالفه إذا كان وجيهاً ومقبولاً.

طرف من إنصافه:

انظر إليه عندما تعرض لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ﴾ [المائدة: ٦] حيث يقول: المسألة السابعة والعشرون في قوله تعالى: ﴿بِرُءُوسِكُمۡ﴾ ثم يذكر أن العلماء اختلفوا في مسح الرأس على أحد عشر قولا، ثم يأخذ في بيانها واحداً واحداً. ثم يقول: «ولكل قول من هذه الأقوال مطلع من القرآن والسنة»، ثم يذكر لنا مطلع كل قول، ثم يقول بعد أن يفرغ من هذا كله: وليس يخفى على أحد عند اطلاعه على هذه الأقوال والأنحاء والمطلعات أن القوم لم يخرج اجتهادهم عن سبيل الدلالات في مقصود الشريعة. ولا جاوز طرفيها إلى الإفراط، فإن للشريعة طرفين، أحدهما طرف التخفيف في التكليف، والآخر طرف الاحتياط في العبادات، فمن احتاط استوفى الكل، ومن خفف أخذ بالبعض. فأنت ترى أنه يصوب كل ما قيل في مسح الرأس.

طرف من تعصّبه لمذهبه وحملته على المخالفين:

وإن أردت أن أضع يدك على شيء من تعصب ابن العربي، فانظر إليه عندما تعرض

---

١) انظر الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ـ ابن فرحون: ٢٨١ ـ ٢٨٤.

لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾ [النساء: ٨٦] حيث يقول: (المسألة السابعة) إذا كان الرد فرضاً بلا خلاف، فقد استدل علماؤنا على أن هذه الآية دليل على وجوب الثواب في الهبة للعين، وكما يلزمه أن يرد مثل التحية يلزمه أن يرد مثل الهبة. وقال الشافعي: ليس في هبة الأجنبي ثواب...وهذا فاسد؛ لأن المرء ما أعطى إلا ليعطي، وهذا هو الأصل فيها، وإنا لا نعمل عملاً لمولانا إلا ليعطينا، فكيف بعضنا لبعض.

وإن أردت أن تقف على مبلغ قسوته على أئمة المذاهب الأخرى وأتباعهم، فانظر إليه عندما تعرض لقوله تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ﴾ [البقرة: ٢٢٩] حيث يقول: (المسألة الرابعة عشرة): هذا يدل على أن الخلع طلاق، خلافاً لقول الشافعي في القديم: إنه فسخ، وفائدة الخلاف أنه إن كان فسخاً لم يُعدّ طلقة. قال الشافعي: لأن الله تعالى ذكر الطلاق مرتين وذكر الخلع بعده، وذكر الثالث بقولة تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ﴾ [البقرة: ٢٣٠] وهذا غير صحيح؛ لأنه لو كان كل مذكور في معرض هذه الآيات لا يعد طلاقاً لوقوع الزيادة على الثلاث لما كان قوله تعالى: ﴿أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ﴾ طلاقاً؛ لأنه يزيد به على الثلاث، ولا يفهم هذا إلا غبي أو متغاب.

فأنت ترى من هذه الأمثلة كلها، أن الرجل ليس عف اللسان مع الأئمة، ولا مع أتباعهم، وهذه ظاهرة من ظواهر التعصب المذهبي، الذي يقود صاحبه إلى مالا يليق به، ويدفعه إلى الخروج عن حد اللطافة والكياسة.

احتكامه إلى اللغة:

ثم أن المؤلف ـ رحمه الله ـ كثيراً ما يحتكم إلى اللغة في استنباط المعاني من الآيات، وفي الكتاب من ذلك أمثلة كثيرة يمكن الرجوع إليها بسهولة[1].

كراهته للإسرائيليات:

كما أنه شديد النفرة من الخوض في الإسرائيليات، ولذلك عندما تعرض لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ﴾ [البقرة: ٦٧] نجده يقول: (المسألة الثانية) في الحديث عن بني إسرائيل: كثر استرسال العلماء في الحديث عنهم في كل طريق، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج»[2] ومعنى هذا الخبر:

---

١) انظر ما قاله عند تفسير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟﴾ [النساء:٣]، وما قاله عند تفسيره قوله تعالى: ﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ﴾ [النساء: ٣٤].

٢ ـ البخاري: ٦/ ٣٦١ في الأنبياء. والترمذي: ٢٦٧١ في العلم. وفي جامع الأصول: ٥٨٥٠.

الحديث عنهم بما يخبرون به عن أنفسهم وقصصهم، لا بما يخبرون به عن غيرهم؛ لأن أخبارهم عن غيرهم مفتقرة إلى العدالة وللثبوت إلى منتهى الخبر...وإذا أخبروا عن شرع لم يلزم قبوله، في رواية مالك عن عمر رضي الله عنه أنه قال: رآني رسول الله ﷺ وأنا أمسك مصحفاً قد تشرمت حواشيه، فقال ما هذا؟ قلت جزء من التوراة، فغضب وقال: والله لو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي[١].

نفرته من الأحاديث الضعيفة:

يحذر منها في تفسيره هذا، فيقول لأصحابه بعد أن بين ضعف الحديث القائل: بأن رسول الله ﷺ توضأ مرة وقال: «هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به، وتوضأ مرتين مرتين، وقال: من توضأ مرتين مرتين آتاه الله أجره مرتين، ثم توضأ ثلاثاً وقال: هذا وضوئي ووضوء الأنبياء من قبلي، ووضوء أبي إبراهيم»[٢]، يقول لهم بعد ما بين ضعف هذا الحديث: وقد ألقيت إليكم وصيتي في كل ورقة ومجلس، أن لا تشتغلوا من الأحاديث بما لا يصح سنده[٣].

هذا والكتاب مطبوع في مجلدين كبيرين، ومتداولين بين أهل العلم.

٤ ـ الجامع لأحكام القرآن
لأبي عبد الله القرطبي (المالكي)

ترجمة المؤلف:

هو الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرْحْ ـ بإسكان الراء والحاء المهملة ـ الأنصاري، الخزرجي، الأندلسي، القرطبي المفسر.

كان ـ رحمه الله ـ من عباد الله الصالحين، والعلماء العارفين، الزاهدين في الدنيا، ومن مصنفاته: كتابه في التفسير المسمى: بالجامع لأحكام القرآن، وهو ما نحن بصدده، وشرح أسماء الله الحسنى، وغير ذلك.

سمع من الشيخ العباس بن عمر القرطبي، مؤلف: المفهم في شرح صحيح مسلم بعض هذا الشرح. وكان مستقراً بمنية ابن خصيب، وتوفي ودفن بها في شوال سنة ٦٧١هـ، فرحمه الله رحمة واسعة[٤].

---

١ ـ نحوه في مسند الإمام أحمد: ٣/ ٣٨٧. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: ١/ ١٧٤: رواه أحمد وأبو يعلى والبزار وفيه مجالد بن سعيد ضعفه أحمد ويحيى بن سعيد وغيرهما.

٢ ـ ضعفه الزيلعي في نصب الراية ـ أحاديث تخليل الأصابع: ١/ ٢٧ ـ ٢٨.

٣) ١/ ٢٤١.

٤) انظر الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب لابن فرحون: ٣١٧ ـ ٣١٨.

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

وصف العلامة ابن فرحون هذا التفسير فقال: «هو من أجل التفاسير وأعظمها نفعاً، أسقط منه القصص والتواريخ، واثبت عوضها أحكام القرآن واستنباط الأدلة، وذكر القراءات والإعراب والناسخ والمنسوخ»(١) وذكر المؤلف رحمه الله في مقدمة هذا التفسير السبب الذي حمله على تأليفه، والطريق الذي رسمه لنفسه ليسير عليه فيه، فقال: وبعد، فلما كان كتاب الله هو الكفيل بجمع علوم الشرع... رأيت أن أشتغل به مدى عمري... بأن أكتب فيه تعليقاً وجيزاً يتضمن نكتاً من التفسير، واللغات، والإعراب، والقراءات، والرد على أهل الزيغ والضلالات، وأحاديث كثيرة شاهدة لما نذكره من الأحكام ونزول الآيات، جامعاً بين معانيها... ومبيناً ما أشكل منها بأقاويل السلف ومن تبعهم من الخلف... وشرطي في هذا الكتاب إضافة الأقوال إلى قائليها، والأحاديث إلى مصنفيها... واضرب عن كثير من قصص المفسرين، وأخبار المؤرخين، إلا مالا بدّ منه، وما لا غنى عنه للتبيين، واعتَضْت من ذلك تبين آي الأحكام... فضمنت كل آية تتضمن حكماً أو حكمين فما زاد مسائل، أبين فيها ما تحتوي عليه من أسباب النزول، والتفسير، والغريب، والحكم. فإن لم تتضمن حكماً ذكرت ما فيها من التفسير والتأويل... وسميته بالجامع لأحكام القرآن، والمبين لما تضمنه من السنة وأحكام الفرقان...

ونجد القرطبي يكثر من الاستشهاد بأشعار العرب، ويرد على المعتزلة، والقدرية، والروافض، والفلاسفة، وغلاة المتصوفة، ويروي أحياناً ما جاء من غرائب القصص الإسرائيلي.

كما ينقل عمن تقدمه في التفسير، خصوصاً من ألف منهم في كتب الأحكام، مع تعقيبه على ما ينقل منها. وممن ينقل عنهم كثيرًا: ابن جرير الطبري، وابن عطية، وابن العربي، والكيا الهراسي، وأبو بكر الجصاص.

وأما من ناحية الأحكام، فإنا نلاحظ عليه أنه يفيض في ذكر مسائل الخلاف ما تعلق منها بالآيات عن قرب، وما تعلق بها عن بعد، مع بيان أدلة كل قول.

إنصاف القرطبي وعدم تعصبه:

وخير ما في الرجل أنه لا يتعصب لمذهبه المالكي، بل يمشي مع الدليل ويصل إلى ما يرى أنه الصواب أياً كان قائله.

فمثلاً عندما تعرض لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ [البقرة: ١٧٣] نراه يعقد المسألة الثانية والثلاثين من مسائل هذه الآية في اختلاف العلماء فيمن اقترن

---

١) الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب لابن فرحون: ٣١٧.

بضرورته معصية، فيذكر أن مالكاً حظر ذلك عليه، وكذا الشافعي في أحد قوليه...وينقل عن ابن العربي أنه قال: «عجباً ممن يبيح له ذلك مع التمادي على المعصية، وما أظن أحداً يقوله: فإن قاله فهو مخطئ قطعاً»، ثم يعقب القرطبي على هذا كله فيقول: قلت: الصحيح خلاف هذا، فإن إتلاف المرء نفسه في سفر المعصية أشد معصية مما هو فيه، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩] وهذا عام، ولعله يتوب في ثاني الحال، فتمحو التوبة عنه ما كان.

موقفه من حملات ابن العربي على مخالفيه:

كذلك نجد القرطبي ـ رحمه الله ـ كثيراً ما يدفعه الإنصاف إلى أن يقف موقف الدفاع عمن يهاجم ابن العربي من المخالفين، مع توجيه اللوم إليه أحياناً، على ما يصدر منه من عبارات قاسية في حق علماء المسلمين، الذاهبين إلى ما لم يذهب إليه.

فمثلاً عندما تعرض لقوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٦٧﴾ [النحل: ٦٧] نراه يعيب على ابن العربي تشنيعه على من يقول من الحنفية وغيرهم بحل النبيذ، وجعله إياهم مثل أغبياء الكفار فيقول: «وهذا تشنيع شنيع، حتى يلحق فيه العلماء الأخيار في قصور الفهم بالكفار».

وعلى الجملة، فإن القرطبي في تفسيره هذا حُرّ في بحثه، نزيه في نقده، عَفّ في مناقشته وجدله، ملم بالتفسير من جميع نواحيه. [هذا والكتاب مطبوع ومتداول بين أهل العلم].

٥ ـ كنز العرفان في فقه القرآن لمقداد السيوري (من الإمامية الإثني عشرية)

ترجمة المؤلف:

هو مقداد بن عبد الله بن محمد بن الحسن بن محمد السيوري[١] أحد علماء الإمامية الإثني عشرية، والمعروف بينهم بالعلم، والفضل. وله مؤلفات كثيرة منها: التنقيح الرائع في شرح مختصر الشرائع، وغير ذلك، وكان أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع الهجري[٢].

---

١) السيوري: نسبة إلى السيور، وهو ما يقدّ من الجلد، أو إلى بلد من بلاد اليمن كما في روضات الجنات لمحمد باقر الموسوي.

٢) انظر روضات الجنات ـ محمد باقر الموسوي: ٥٦٦ ـ ٥٦٧.

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

يتعرض هذا التفسير لآيات الأحكام فقط، حسب الأبواب الفقهية وليس على ترتيب المصحف، فمثلاً يقول: باب الطهارة، ثم يذكر ما ورد في الطهارة من الآيات القرآنية، شارحاً كل آية منها على حدة، مبينا ما فيها من الأحكام على حسب ما يذهب إليه الإمامية الإثنا عشرية في فروعهم، مع تعرضه للمذاهب الأخرى، وردّه على من يخالف ما يذهب إليه الإمامية الإثنا عشرية.

فمثلاً يقول عندما تعرض لآية التيمم: [﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [المائدة: ٦]] «وتجب ضربة واحدة للوضوء واثنتان للغسل»، ثم يرد على الحنفية والشافعية القائلين بأن التيمم ضربتان: واحدة للوجه وأخرى لليدين، وأن المراد بالوجه: كله، وباليدين: إلى المرفقين.. يرد عليهم فيقول: وروايات أهل البيت تدفع ذلك.

وهكذا يسير المؤلف بهذا الشذوذ في كثير من الأحكام، والذي يقرأ الكتاب يعجب من محاولاته الفاشلة في استنباط ما يشذ به من الآيات التي تجبهه، ولا يمكن أن تتمشى مع مذهبه بحال من الأحوال. هذا، وإن الكتاب مطبوع على هامش تفسير الحسن العسكري، وموجود بدار الكتب [المصرية].

٦ ـ الثمرات اليانعة والأحكام الواضحة القاطعة ليوسف الثلائي (الزيدي)

ترجمة المؤلف وطريقته في تفسيره:

هو شمس الدين يوسف بن أحمد بن محمد بن أحمد بن عثمان [الثلائي][(١)]، الزيدي الفقيه، أحد أصحاب الإمام المهدي ،وأحد أساطين العلم وجبال التحقيق عند أصحابه.

أخذ عن الفقيه حسن النحوي، وله تصانيف، منها: الزهور والرياض، وهذا التفسير، وهو أجل مصنف عند الزيدية، وهو ما نحن بصدده الآن، توفي رحمه الله بثلا سنة ٨٣٢هـ[(٢)].

والكتاب [مطبوع في خمسة مجلدات ومتداول بين أهل العلم] يقتصر فيه المؤلف على آيات الأحكام، متمشياً مع ترتيب المصحف، يذكر الآية أولاً. ثم يذكر ما ورد في سبب نزولها إن كان لها سبب، ثم يقول: ولهذه الآية ثمرات، هي أحكام شرعية: الأولى: كذا والثانية: كذا.. إلى أن ينتهي من كل ما يتعلق بالآية من الأحكام.

---

١ ـ في الأصل: الثلاثي وهو خطأ.

٢) انظر شرح الأزهار ـ أحمد بن عبد الله الجنداري: ١ /٤٣.

وهو يسرد أقوال السلف والخلف في المسألة، فيعرض لما ورد عن الصحابة والتابعين، ويعرض لمذهب الشافعية، والحنفية، والمالكية، والظاهرية، والإمامية.. وغيرهم من فقهاء المذاهب، ذاكراً لكل مذهب دليله ومستنده في الغالب. كما يذكر بعناية خاصة مذهب الزيدية واختلاف علمائهم في المسألة التي يعرض لها، مع الإفاضة في بيان أدلتهم التي استندوا إليها، والرد على من يخالفهم. كل هذا بدون أن نلحظ على الرجل شيئاً من القدح في مخالفيه.

ويلاحظ على المؤلف أنه كثير النقل عن الكشاف للزمخشري، مما يدل على أنه معجب به وبتفسيره إلى حد كبير، ولعل ذلك ناشئ عما بين الرجلين من صلة التمذهب بمذهب الاعتزال.

اعتماد المؤلف على الروايات التي لا تصح:

لا يتحرى الصحة فيما ينقله من الأحاديث. فمثلاً عندما تعرض لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥] نراه يذكر الروايات الواردة في سبب نزول هذه الآية، ويذكر ضمن ما يذكر: أنها نزلت في علي بن أبي طالب لما تصدق بخاتمه في الصلاة وهو راكع[١]. وقد علمنا أن هذه رواية موضوعة لا أساس لها من الصحة، ولكن المؤلف يذكرها، ثم يأخذ في تفريع الأحكام على هذه القصة المكذوبة، كأنها عنده من الثابت الصحيح.

رأيه في نكاح الكتابيات:

فمثلاً عندما تعرض لقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ [المائدة: ٥] نراه يعرض لأقوال العلماء في حكم نكاح الكتابيات فيقول: ظاهر الآية جواز نكاح الكتابية، وهذا مذهب أكثر الفقهاء والمفسرين، ورواية عن زيد بن علي، والصادق، والباقر، واختاره الإمام يحيى بن حمزة وقال: إنه إجماع الصدر الأول من الصحابة، وإن عثمان قد نكح نائلة بنت الفرافصة وهي نصرانية.

وقال القاسم، والهادي، والناصر، ومحمد بن عبد الله، وعامة القاسمية، وهو مروى عن ابن عمر: أنه لا يجوز لمسلم نكاح كافرة كتابية كانت أو غيرها، واحتجوا

---

١ ـ جامع الأصول رقم: ٦٥١٥: وقال الأرناؤوط في الحاشية: رواه بنحوه ابن مردويه من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، وإسناده ضعيف. وراجع أيضا إنكار ابن كثير والرازي لهذه الرواية في تفسيرهما عند الآية المذكورة.

بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢١] قالوا: هذا في المشركات لا في الكتابيات، قلنا: اسم المشرك ينطلق على أهل الكتاب، بدليل قوله تعالى بعد ذكر اليهود والنصارى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١][1].

المسح على الخفين:

ومثلاً عندما تعرض لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: ٦] نراه يعرض لمسألة المسح على الخفين فيقول: إن المسح على الخفين والجوربين لا يجوز، وهو مروي عن علي عليه السلام، وابن عباس، وعمار بن ياسر، وأبي هريرة، وعائشة. وقال عامة الفقهاء... إنه يجوز المسح عليهما. حجتنا هذه الآية، وهي قوله تعالى: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ فأمرت بتطهير الرجلين، والمسح على الخفين لا يكون مطهراً لهما، وكذلك الأخبار التي دلت على الغسل للقدمين. فأما ما روي أنه صلى الله عليه وآله مسح على الخفين وأمر به، فهذه الأخبار كانت بمكة وبعد هجرته صلى الله عليه وآله ثم نزلت سورة المائدة بعد ذلك فكانت ناسخة[2].

وهكذا نجد المؤلف ـ رحمه الله ـ يناقش مخالفيه من أصحاب المذاهب الأخرى مناقشة حادة، وإن دلت على شيء فهو قوة ذهن الرجل، وسعة اطلاعه هذا.. ولا يكاد القارئ لهذا التفسير يجد فيه خلافاً كثيراً للمذاهب الفقهية الأخرى، كما هو الشأن في كتب التفسير الفقهي للإمامية الإثني عشرية، وهذا راجع إلى تقارب وجهات النظر بين الزيدية وأهل السنة من أصول الفقه وفروعه.

---

١ ـ ٢/٦ ـ ٧.

٢ ـ ٢/١٨ ـ ١٩.

الفصل الثامن

التفسير العلمي

نريد بالتفسير العلمي: التفسير الذي يُحكّم الاصطلاحات العلمية في عبارات القرآن. ويجتهد في استخراج مختلف العلوم والآراء الفلسفية منها.

التوسع في هذا النوع من التفسير وكثرة القائلين به

القرآن في نظر أصحاب هذه الطريقة يشمل إلى جانب العلوم الدينية الاعتقادية والعملية، سائر علوم الدنيا على اختلاف أنواعها، وتعدد ألوانها.

الإمام الغزالي والتفسير العلمي:

كان في عهده أكثر من استوفى بيان هذا القول في تفسير القرآن، وأهم من أيّده وعمل على ترويجه في الأوساط العلمية الإسلامية، على رغم ما قرر فيها من قواعد فهم عبارات القرآن.

وبين أيدينا كتاب الإحياء للغزالي نتصفحه فنجده يعقد الباب الرابع من أبواب آداب تلاوة القرآن، في فهم القرآن وتفسيره بالرأي من غير نقل. وفيه ينقل عن بعض العلماء «أن القرآن يحوي سبعة وسبعين ألف علم ومائتي علم؛ إذ كل كلمة علم، ثم يتضاعف ذلك أربعة أضعاف: إذ لكل كلمة ظاهر وباطن، وحد ومطلع[1]. ثم يقول بعد ذلك: وهذه العلوم لا نهاية لها، وفي القرآن إشارة إلى مجامعها[2].

ثم إننا نتصفح كتابه (جواهر القرآن) الذي ألفه بعد الإحياء كما يظهر لنا من مقدمته، فنجده يعقد الفصل الخامس منه لكيفية انشعاب سائر العلوم من القرآن، فيذكر علم الطب

---

١) الإحياء للغزالي ـ مطبعة لجنة نشر الثقافة الإسلامية ـ ١٣٥٦هـ: ٣/ ١٣٥. مطبعة لجنة نشر الثقافة الإسلامية ـ سنة ١٣٥٦هـ.

٢) المرجع السابق.

والنجوم، وهيئة العالم، وهيئة بدن الحيوان، وتشريح أعضائه وعلم السحر، وعلم الطلسمات.

ثم يقول بعد ذلك: «ثم هذه العلوم ما عددنا وما لم نعددها، ليست أوائلها خارجة من القرآن. فإن جميعها مغترفة من بحر واحد من بحار معرفة الله تعالى، وهو بحر الأفعال، وقد ذكرنا أنه بحر لا ساحل له... فمن أفعال الله تعالى وهو بحر الأفعال مثلا ـ الشفاء والمرض كما قال الله تعالى حكاية عن إبراهيم: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [الشعراء: ٨٠]. وهذا الفعل الواحد لا يعرفه إلا من عرف الطب بكماله، إذ لا معنى للطب إلا معرفة المرض بكماله وعلاماته، ومعرفة الشفاء وأسبابه. ومن أفعاله تقدير معرفة الشمس والقمر ومنازلهما بحسبان، وقد قال الله تعالى: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾﴾ [الرحمن: ٥]. وقال: ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥]...وقال: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ [يس: ٣٨]. ولا يعرف حقيقة سير الشمس والقمر بحسبان وخسوفهما، وولوج الليل في النهار، وكيفية تكوّر أحدهما على الآخر إلا من عرف هيئات تركيب السموات والأرض... ولو ذهبت أفصل ما تدل عليه آيات القرآن من تفاصيل الأفعال لطال، ولا يمكن الإشارة إلا إلى مجامعها... فتفكر في القرآن، والتمس غرائبه لتصادف فيه مجامع علم الأولين والآخرين»[(١)].

الجلال السيوطي والتفسير العلمي:

كذلك نجد العلامة جلال الدين السيوطي ينحو منحى الغزالي في القول بالتفسير العلمي في كتابه (الإتقان)، في النوع الخامس والستين منه، كما يقرر ذلك أيضا بمثل هذا الوضوح والتوسع في كتابه: (الإكليل في استنباط التنزيل) ونجده يسوق من الآيات والأحاديث والآثار ما يستدل به على أن القرآن مشتمل على كل العلوم.

فمن الآيات: قوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

ومن الأحاديث: ما أخرجه الترمذي وغيره: أن رسول الله ﷺ قال: «ستكون فتن، قيل: وما المخرج منها؟ قال كتاب الله. فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم»[(٢)] [(٣)].

---

١) جواهر القرآن للإمام الغزالي ـ كردستان العلمية ـ ١٣٢٩هـ: ٣٢ ـ ٣٤.

٢) الإتقان للسيوطي: ٢/ ١٣١.

٣ ـ الترمذي: ٥/ ١٧٢. فضائل القرآن: ١٤، وقال عنه: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإسناده مجهول. وفي الحارث مقال. وفي الدارمي: / ٨٣١ ـ فضائل القرآن / ١. وانظر جامع الأصول رقم: ٦٢٣٢.

ومن الآثار: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: أنزل في القرآن كل علم وبين لنا فيه كل شيء، لكن علمنا يقصر عما بين لنا في القرآن[(١)].

ثم نجده بعد أن يسوق هذه الأدلة وغيرها يذكر لنا عن بعض العلماء أنه استنبط أن عمر النبي ﷺ ثلاث وستون سنة من قوله تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾ [المنافقون: ١١] فإنها رأس ثلاث وستين سورة، وعقبها بالتغابن ليظهر التغابن في فقده[(٢)].

أبو الفضل المرسي والتفسير العلمي:

ثم ذكر عن أبي الفضل المرسي أنه قال في تفسيره: جمع القرآن علوم الأولين والآخرين بحيث لم يحط بها علما حقيقة إلا المتكلم به. ثم رسول الله ﷺ، خلا ما استأثر به سبحانه وتعالى. ثم ورث عنه معظم ذلك سادات الصحابة وأعلامهم، مثل الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وابن عباس حتى قال: لو ضاع لي عقال بعير لوجدته في كتاب الله تعالى... وقد احتوى على علوم أخر من علوم الأوائل مثل: الطب، والجدل، والهيئة، والهندسة، والجبر، والمقابلة، والنجامة، وغير ذلك من العلوم.

ـ **أما الطب**: فمداره على حفظ نظام الصحة واستحكام القوة، وذلك إنما يكون باعتدال المزاج بتفاعل الكيفيات المتضادة، وقد جمع ذلك في آية واحدة وهي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان: ٦٧]. وعرفنا فيه بما يفيد نظام الصحة بعد اختلاله في قوله تعالى: ﴿شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٩]...

ـ **وأما الجبر والمقابلة**: فقد قيل: إن أوائل السور فيها ذكر مدد وأعوام، أيام التواريخ لأمم سالفة، وإن فيها بقاء هذه الأمة، وتاريخ مدة أيام الدنيا، وما مضى وما بقي، مضروب بعضها في بعض[(٣)].

ـ وفيه من أسماء الآلات وضروب المأكولات، والمشروبات، والمنكوحات، وجميع ما وقع ويقع في الكائنات ما يحقق معنى قوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍۚ﴾ [الأنعام: ٣٨]. قال السيوطي: «انتهى كلام المرسي ملخصا مع زيادات»[(٤)].

ثم بعد روايته لهذه المقالة الطويلة، نجده يذكر عن أبي بكر بن العربي أنه قال في كتابه

---

١) الإكليل في استنباط التنزيل ـ السيوطي: ٢.
٢) الإكليل في استنباط التنزيل ـ السيوطي: ٢. والإتقان للسيوطي: ٢/١٢٦.
٣ ـ حاد أبو الفضل هنا عن الظاهر، واقترب من التفسير بحساب الجمل، وهو طريقة يهودية.
٤) الإكليل في استنباط التنزيل ـ السيوطي: ٢ ـ ٥. والإتقان للسيوطي: ٣/١٢٦ ـ ١٢٨.

قانون التأويل: «علوم القرآن خمسون علما، وأربعمائة علم، وسبعة آلاف علم، وسبعون ألف علم، على عدد كلم القرآن مضروبة في أربعة؛ إذ لكل كلمة ظهر وبطن، وحد ومطلع. وهذا مطلق دون اعتبار التراكيب وما بينها من روابط، وهذا ما لا يحصى، وما لا يعلمه إلا الله»[1].

وأخيراً عقب السيوطي على هذه النقول وغيرها فقال: «وأنا أقول: قد اشتمل كتاب الله العزيز على كل شيء؛ أما أنوع العلوم فليس منها باب ولا مسألة هي أصل إلا وفي القرآن ما يدل عليها، وفيه عجائب المخلوقات، وملكوت السموات والأرض، وما في الأفق الأعلى وما تحت الثرى... إلى غير ذلك مما يحتاج شرحه إلى مجلدات»[2].

ولو أنا تتبعنا سلسلة البحوث التفسيرية للقرآن الكريم، لوجدنا أن هذه النزعة ـ نزعة التفسير العلمي ـ تمتد من عهد النهضة العلمية العباسية إلى يومنا هذا، ولوجدنا أنها كانت في أول الأمر عبارة عن محاولات، يقصد منها التوفيق بين القرآن، وما جد من العلوم، ثم وجدت الفكرة مركزة وصريحة على لسان الغزالي، وابن العربي، والمرسي، والسيوطي، ولوجدنا أيضا أن هذه الفكرة قد طبقت علمياً، وظهرت في مثل محاولات الفخر الرازي، ضمن تفسيره للقرآن.

ثم وجدت بعد ذلك كتب مستقلة في استخراج العلوم من القرآن، وراجت هذه الفكرة في العصر المتأخر رواجاً كبيراً بين جماعة من أهل العلم.

إنكار التفسير العلمي

إذا كانت فكرة التفسير العلمي قد راجت عند بعض المتقدمين، وازدادت رواجا عند بعض المتأخرين، فإنها لم تلق رواجاً عند بعض العلماء الأقدمين، كما أنها لم تلق رواجا عند بعض المتأخرين منهم أيضاً.

إنكار الشاطبي للتفسير العلمي:

زعيم المعارضة لهذه الفكرة في العصور المتقدمة هو الفقيه الأصولي، أبو إسحق إبراهيم بن موسي الشاطبي، الأندلسي، المتوفى سنة: ٧٩٠هـ؛ وذلك أنا نجده في كتابه (الموافقات) ذكر من العلوم الصحيحة التي كان للعرب اعتناء بها:

ـ علم النجوم وما يختص به من الاهتداء في البر، والبحر، واختلاف الأزمان باختلاف سيرها. وما يتعلق بهذا المعنى. ثم قال: «وهو معنى مقرر في أثناء القرآن في مواضع كثيرة

---

١) الإتقان للسيوطي: ١٣٨/٢.

٢) الإتقان للسيوطي: ١٢٩/٢ ـ ١٣٢.

كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٩٧﴾ [الأنعام: ٦٧]. وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥﴾ [يونس: ٥].

ـ وذكر علم الأنواء، وأوقات نزول الأمطار، وإنشاء السحاب، وهبوب الرياح المثيرة لها، وعرض لما ورد في ذلك من القرآن مثل قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ۝١٢ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ۝١٣﴾ [الرعد: ١٢ ـ ١٣].

ـ وذكر علم التاريخ وأخبار الأمم الماضية .قال: وفي القرآن من ذاك ما هو كثير...قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ۝٤٤﴾ [آل عمران: ٤٤].

ـ وذكر علم الطب، وبين أنه كان في العرب منه شيء مبني على تجارب الأميين، لا على قواعد الأقدمين. قال: وعلى ذلك المساق جاء في الشريعة لكن على وجه جامع شاف، قليل، يطلع منه على كثير، فقال تعالى: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٣١﴾ [الأعراف: ٣١].

ـ وذكر التفنن في علم فنون البلاغة فقال: فجاءهم بما أعجزهم من القرآن. قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۝٨٨﴾ [الإسراء: ٨٨].

ثم يتوجه باللوم إلى من أضافوا للقرآن كل علوم الأولين والآخرين، فتجاوزوا الحدّ في دعواهم على القرآن. وذلك حيث يقول: ما تقرر من أمية الشريعة وأنها جارية على مذاهب أهلها وهم العرب، ينبني عليه قواعد: منها: أن كثيرا من الناس تجاوزوا في الدعوى على القرآن الحد، فأضافوا إليه كل علم يذكر للمتقدمين والمتأخرين من علوم الطبعيات والتعاليم كالهندسة وغيرها من الرياضيات، والمنطق وعلم الحروف، وجميع ما نظر فيه الناظرون من هذه الفنون وأشباهها، وهذا إذا عرضناه على ما تقدم لم يصح(١).

ثم أخذ الشاطبي بعد هذا في ذكر ما استند إليه أرباب التفسير العلمي من الأدلة فقال: «وربما استدلوا على دعواهم بقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]. ونحو ذلك، وبفواتح السور ـ وهي مما لم يعهد عند العرب ـ وبما نقل عن الناس فيها، وربما حكي من ذلك عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره أشياء»(٢).

---

١) الموافقات للشاطبي: ١/ ٧٩.

٢) الموافقات للشاطبي: ٢/ ٨٠.

ثم أخذ الشاطبي يفنّد هذه الأدلة فقال:

ـ **فأما الآيات**: فالمراد بها عند المفسرين ما يتعلق بحال التكليف والتعبد، أو المراد بالكتاب في قوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، اللوح المحفوظ، ولم يذكروا فيها ما يقتضي تضمنه لجميع العلوم النقلية والعقلية.

ـ **وأما فواتح السور**: فقد تكلم الناس فيها بما يقتضي أن للعرب بها عهداً كعدد الجمل الذي تعرّفوه من أهل الكتاب، حسبما ذكره أصحاب السير، أو هي من المتشابهات التي لا يعلم تأويلها إلا الله تعالى، وغير ذلك. وأما تفسيرها بما لا عهد به فلا يكون ولم يدعه أحد ممن تقدم، فلا دليل فيها على ما ادعوا، وما ينقل عن علي أو غيره في هذا لايثبت، فليس بجائز أن يضاف إلى القرآن ما لا يقتضيه، كما أنه لا يصح أن ينكر منه ما يقتضيه، ويجب الاقتصار في الاستعانة على فهمه على كل ما يضاف علمه إلى العرب خاصة؛ فبه يوصل إلى علم ما أودع من الأحكام الشرعية، فمن طلبه بغير ما هو أداة له ضل عن فهمه، وتقول على الله ورسوله فيه، والله أعلم، وبه التوفيق(١).

هذه هي الخلاصة الشاملة لمقالة الشاطبي في هذا الموضوع، وذلك هو رأيه في التفسير العلمي الذي شغف به بعض العلماء المتقدمين والمتأخرين. ويبدو لي أن الحق مع الشاطبي رحمه الله؛ لأن الأدلة التي ساقها لتصحيح مدعاه أدلة قوية؛ ولأن ما أجاب به على أدلة مخالفيه أجوبة سديدة دامغة(٢).

---

١) الموافقات للشاطبي: ٢/ ٨١ ـ ٨٢.

٢ ـ يبدو واضحا أن الشاطبي التزم تفسير القرآن انطلاقا من ثقافة العرب إبان نزوله. ويبدو لي مع تقديري لهذا الإمام أنه ضيق واسعا، وألزم نفسه في التفسير ما لا يلزمه؛ ولا شك أن فهم أحوال العرب من شرائط التفسير؛ لأن بعض الآيات لايمكن فهمها إلا بهذا العلم، ولكن ليس المقصود الحصر؛ إذ ليس كل القرآن مقصورا على ثقافتهم، وقصر أي تفسير على أن يكون منطلقا من ثقافتهم لا دليل عليه، اللهم إلا بعض النصوص المعدودة التي تعرضت لعاداتهم مثل: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة: ٣٧]. ولا يفهم من كلامي أن هناك آية أو آيات نزلت على العرب ولم تفهم! بل أقول إن كل آية في القرآن الكريم لها أفهام على قدر ما تتسع له لغة العرب، وبما لا يتعارض مع باقي شرائط التفسير، وأن هذا النص القرآني يمكن أن يطرأ لنا فهم له لم يكن معروفا في أيام العرب الأوَل، وخاصة في الجوانب العلمية لبعد العرب آنذاك عن هذا الجانب، فهذا النص يفهمه العرب الأوَل فهما سديدا ومقصودا للشارع، ونحن نفسّره بما فهموه أيضا وعلى رأسهم الرسول ﷺ والصحابة رضوان الله عليهم أجمعين. ولكن هذا لا يعني الحصر والقصر بغير نص يفيد ذلك، إذ لا يُستبعد أن تطرأ لنفس النص القرآني أفهام أخرى تتناسب مع ثقافة زمانها؛ فالقرآن نعم نزل على العرب الأوَل، لكنه نزل لهم ولغيرهم، ونزل ليدوم إلى قيام الساعة، مع دوام التحدي فيه إلى قيام =

التفسير وألوانه في العصر الحديث

لم يترك الأوائل للأواخر كبير جهد في تفسير كتاب الله، والذي يقرأ كتب التفسير على اختلاف ألوانها، لا يدخله شك في أن كل ما يتعلق بالتفسير من الدراسات المختلفة قد وفاه هؤلاء المفسرون الأقدمون حقه بحثا وتحقيقا، لم يترك لمن جاء بعدهم ـ إلى ما قبل عصرنا بقليل ـ من عمل جديد، اللهم إلا عملا ضئيلا لا يعدو أن يكون جمعاً لأقوال المتقدمين، أو شرحا لغامضها، أو نقداً لما يعتوره الضعف منها، أو ترجيحا لرأي على رأي، مما جعل التفسير يقف وقفة طويلة مليئة بالركود.

مميزات التفسير في العصر الحديث:

ولقد ظل الأمر على هذا حتى جاء عصر النهضة العلمية الحديثة، فاتجهت أنظار العلماء الذين لهم عناية بدراسة التفسير إلى أن يتحرروا من قيد هذا الركود فنظروا في كتاب الله نظرة ـ وإن كان لها اعتماد كبير على ما دونه الأوائل في التفسير ـ أثرت في الاتجاه التفسيري للقرآن تأثيراً لا يسعنا إنكاره، ذلك هو العمل على التخلص من كل هذه الاستطرادات العلمية، التي حشرت في التفسير حشراً، والعمل على تنقية التفسير من القصص الإسرائيلي الذي كاد يذهب بجمال القرآن وجلاله، وتمحيص ما جاء فيه من الأحاديث الضعيفة أو الموضوعة على رسول الله ﷺ، أو على أصحابه عليهم رضوان الله تعالى، وإلباس التفسير ثوباً أدبياً اجتماعياً، يظهر روعة القرآن، ويكشف عن مراميه الدقيقة وأهدافه

= الساعة. فهو يُعجز أهل كل زمان مهما كانت ثقافتهم وعلومهم بنفس النص القديم الذي أعجز العرب قديما ببلاغته وفكره، ويعجز غيرهم بما مضى وبأفهام أخرى.

وهنا أريد أن أقول أمرا هاما يقع فيه بعض من تعرض للإعجاز العلمي في القرآن من غير المتخصصين في تفسير القرآن الكريم، وهو أنهم يعتبرون الأفهام الجديدة لبعض الآيات العلمية هي المعنى المقصود فقط وليس ما قيل سابقا ! بل بعضهم يهزأ من أقوال السلف الصالح في النص القرآني ! وفي هذا من الخطر الشيء الكثير، فلازم هذا الكلام أن أجيالا من زمن الرسول ﷺ ومن بعدها إلى أن قالوا فهمهم الجديد، كل هذه الأجيال كانت على ضلال، والآن وقفت على الهدى ! وهذا الكلام هو الضلال بعينه، وهو إساءة لكتاب الله بل لحكمة الله من تنزيل كتابه، وتكليف العباد به. والقول السديد الذي لا محيد لمن أراد الهداية عنه هو أن الفهم الجديد لا يتناقض مع كل أقوال السلف ـ (وهذا شرط لكل تفسير وله تفاصيل) ـ، وإنما معنى آخر يضاف إلى المعنى الأول، والقرآن حمّال ذو وجوه، وكلها حق طالما أنها خاضعة لشرائط التفسير، وتدخل كل الأقوال ضمن حدود خلاف التنوع لا التضاد، وضمن حدود تطوير المعنى لا نسْفه. وجمهور العلماء على أن الكلمة ذات المعاني المتعددة لا مانع من حملها على كل هذه المعاني إن لم يكن هناك مانع شرعي، وبهذه الطريقة نترابط مع سلفنا، وننضم إلى سلسلتهم ونتّبع ولا نبتدع، ولهذا الكلام تفصيل لا يتسع له المقام هنا. والله أعلم.

السامية، والتوفيق بجد بالغ وجهد ظاهر بين القرآن وما جد من نظريات علمية صحيحة، على تفاوت بين الموقفين في الغلو والاعتدال، وكان ذلك من أجل أن يعرف المسلمون وغير المسلمين أن القرآن هو الكتاب الخالد، الذي يتمشى مع الزمن في جميع أطواره ومراحله.
وهناك غير هذه الآثار آثار أخرى ظهرت في الاتجاه التفسيري في هذا العصر الحديث، نشأت عن عوامل مختلفة، أهمها: التوسع العلمي والتأثر بالمذهب والعقيدة، والإلحاد الذي قام على حرية الرأي الفاسد.

ألوان التفسير في العصر الحديث

نستطيع أن نجملها بما يأتي:

١ ـ اللون العلمي.

٢ ـ اللون الإلحادي.

٣ ـ اللون المذهبي.

٤ ـ اللون الأدبي الاجتماعي.

وسأتكلم عن هذه الألوان الأربعة للتفسير على حسب ترتيبها.

١ ـ اللون العلمي
للتفسير في عصرنا الحاضر

راج لدى بعض المثقفين الذين لهم عناية بالعلوم، وعناية بالقرآن الكريم، وكان من أثر هذه النزعة التفسيرية التي تسلطت على قلوب أصحابها، أن أخرج لنا المشغوفون بها كثيراً من الكتب يحاول أصحابها فيها أن يُحمّلوا القرآن كل علوم الأرض والسماء، وأن يجعلوه دالا عليها بطريق التصريح أو التلميح، اعتقاداً منهم ـ كما قلنا ـ أن هذا بيان لناحية من أهم نواحي صدقه، وإعجازه، وصلاحيته للبقاء.

أهم الكتب التي عنيت بهذا اللون

ـ ومن أهم هذه الكتب التي ظهرت فيها هذه النزعة التفسيرية كتاب: (كشف الأسرار النورانية القرآنية، فيما يتعلق بالأجرام السماوية، والأرضية، والحيوانات، والنباتات، والجواهر المعدنية) للإمام الفاضل والطبيب البارع، محمد بن أحمد الإسكندراني من علماء القرن الثالث عشر الهجري، وهو كتاب كبير الحجم، يقع في ثلاثة مجلدات. ومطبوع بالمطبعة الوهبية بمصر سنة: ١٢٩٧هـ.

ـ وبين أيدينا كتاب: (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) لرجل الإصلاح الإسلامي المرحوم السيد عبد الرحمن الكواكبي. وهو عبارة عن مجموعة مقالات له، نشرها في بعض الصحف عندما زار مصر سنة ١٣١٨هـ. وقد طبع هذا الكتاب وأبهم اسم مؤلفه ورمز له (الرحالة ك). وفي هذا الكتاب نجد المؤلف ـ رحمه الله ـ ينحاز انحيازاً بليغاً إلى هذا اللون من ألوان التفسير ويقرر بأن السر في إحجام العلماء عن تفسير قسمي الآلاء والأخلاق من القرآن، وبيان ما يشتمل عليه من العلوم المختلفة هو «أنهم كانوا يخافون مخالفة رأي بعض السلف القاصرين في العلم فيُكفّرون فيُقتلون».

ثم نراه يأخذ في بيان اشتمال القرآن على ما جد من نظريات علمية تؤيد إعجاز القرآن، فيقول: «إنه لو أطلق للعلماء عنان التدقيق وحرية الرأي والتأليف كما أطلق لأهل التأويل والخرافات: لرأوا في ألوف من آيات القرآن ألوف آيات من الإعجاز... لرأوا فيه كل يوم آية تتجدد مع الزمان والحدثان، تبرهن على إعجاز بصدق قوله تعالى: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩] برهان عيان لا مجرد تسليم وإيمان... وذلك أنهم كشفوا أن مادة الكون هي الأثير، وقد وصف القرآن بدء التكوين فقال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت: ١١].

وكشفوا أن الكائنات في حركة دائمة دائبة، والقرآن يقول: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: ٤٠]. وكشفوا وجود المكروب وتأثيره الجدري وغيره من المرض، والقرآن يقول: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾﴾ [الفيل: ٣]. أي متتابعة مجتمعة ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾﴾ [الفيل: ٤]. أي من طير المستنقعات اليابس[١].. إلى غير ذلك من الآيات... تجديداً لإعجازه مادام الزمان[٢]».

ـ وبين أيدينا كتاب: (إعجاز القرآن) للمرحوم مصطفى صادق الرافعي، وهو من أنصار هذه النزعة التفسيرية، وفي هذا الكتاب نجد المؤلف ـ رحمه الله ـ يقول: «وإذا أطلق حساب الجمل في كلمات القرآن كشف منه كل عجائب العصور، وتواريخها، وأسرارها، ولولا أن هذا خارج عن غرض الكتاب لجئنا منه بأشياء كثيرة من القديم والحديث[٣]». ويقول: «وقد استخرج بعض علمائنا من القرآن ما يشير إلى مستحدثات الاختراع، وما يحقق بعض غوامض

---

١ ـ واضح أنه عطل المعجزة القرآنية المذكورة في سورة الفيل، وتأولها تأويلاً ما قال به إلا أصحاب المدرسة العقلية أمثال محمد عبده، وهذا مما أخذ عليهم وعد من عيوبهم لأن المعجزة خاطب القرآن بها العرب، وكثير منهم كان حاضراً وقت المعجزة، ولم يعترض أو يتأول القرآن بمثل هذه الأقوال المنهزمة والتي لم يشاطره فيها الرأي أحد من علماء الأمة طوال القرون الماضية.

٢) ص ٢٣ ـ ٢٥.

٣) ص١١٣ ـ ١١٤ ـ (هامش) مطبعة الاستقامة ـ سنة ١٣٥٩هـ.

العلوم الطبيعية، وبسطوا كل ذلك بسطاً ليس هو من غرضنا فنستقصي فيه [1]». ثم يقول: «وقد أشار القرآن إلى نشأة هذه العلوم وإلى تمحيصها وغايتها على ما وصفناه آنفا، وذلك قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣]»[2].

ـ كذلك نجد المرحوم الدكتور عبد العزيز إسماعيل، الطبيب المعروف، ينحاز إلى هذا اللون من ألوان التفسير في كتابه (الإسلام والطب الحديث) الذي جمع فيه مقالاته التي نشرها في مجلة الأزهر. وبين أيدينا هذا الكتاب، وهو مطبوع بمطبعة الاعتماد سنة ١٣٥٧هـ وفيه نجد المؤلف رحمه الله يقرر أن كثيرا من آيات القرآن «لا يفهم شيئا من معناها الحقيقي إلا من درس العلوم الحديثة». ويؤكد أن العلم الحديث «كشف عن معنى بعض الآيات، وسينكشف الباقي منها كلما تقدمت العلوم، ثم يأتي وقت يكون فيه العلماء الماديون أقرب الناس إلى الدين»[3].

وفي هذا كما ترى اتهام للصحابة ومن جاء بعدهم من سلف الأمة بأنهم لم يفهموا المعاني الحقيقية لبعض الآيات القرآنية؛ لجهلهم بهذه العلوم المستحدثة وهذا اتهام نعيذ منه صحابة رسول الله ﷺ، وسلف الأمة رضوان الله عليهم.

وإذا نحن تتبعنا ما في هذا الكتاب لوجدنا الكثير منه لا يقصده القرآن، ولا يهدف إليه من وراء خطابه للعرب الأمية.

فمثلا نجده يعرض لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢] تحت عنوان: (الحياة تحت ضوء القرآن) وفيه يقول: «هذه الآية الكريمة معناها ـ والله أعلم ـ (وتأمل قوله: معناها) أن اللحوم والأسماك والألبان..إلخ أفضل في التغذية من البقول والقمح والذرة، وليست الأفضلية في مقدار المواد الزلالية الضرورية للجسم في كل نوع؛ لأن هذا يجب أن لا يكون سببا مهما للأفضلية». ثم يعقد مقارنة بين بعض الأغذية وما فيها من نسبة المواد الزلالية، ثم يقول: «إن هذه النتيجة التي لخصها القرآن الشريف لم تظهر حقيقة ثابتة إلا منذ سنوات قليلة»[4].

هذا، وإن أعظم علماء العصر الحديث تشيعا للنزعة التفسيرية العلمية، وأكثرهم إنتاجا لهذا التفسير العلمي، هو المرحوم الشيخ طنطاوي جوهري في تفسيره: (الجواهر)، الذي يقع

---

١) وهنا نرى المؤلف يعلق على قوله هذا بذكر بعض ما نقلناه عن طبائع الاستبداد للكواكبي من استخراج بعض العلوم من القرآن الكريم.
٢) إعجاز القرآن ـ مصطفى صادق الرافعي ـ الاستقامة، ١٩٤٠م: ١٢٤ ـ ١٢٦.
٣) ص ١١٢.
٤) ص١٣ ـ ١٥.

في خمسة وعشرين جزءًا، والمطبوع بمصر سنة: ١٣٤١ ـ ١٣٥١هـ، ولهذا أرى أن أتكلم عنه بما يكشف عن طريقة مؤلفه ومنهجه الذي سلكه فيه.

الجواهر في تفسير القرآن الكريم
للشيخ طنطاوي جوهري

[التعريف بالمؤلف:

الشيخ طنطاوي جوهري من العلماء البارزين الذين جمعوا بين المعارف الدينية والعلوم الطبيعية. ولد في: (كفر عوض الله حجازي) من قرى محافظة الشرقية بمصر سنة ١٨٦٢م، حفظ القرآن الكريم صغيرا، والتحق بالأزهر سنة ١٨٧٧م، ثم التحق بدار العلوم سنة ١٨٨٩م، ودرس مبادئ العلوم الحديثة :كالحساب والهندسة والجبر والفلك. وتعلم اللغة الإنجليزية وأتقنها، شارك في ثورة ١٩١٩م على الإنجليز، وكان عضوًا في جماعة الإخوان المسلمين.

له أكثر من ثلاثين كتابًا في مختلف فروع العلم والمعرفة، وترجم بعض مؤلفاته إلى الإنجليزية والفرنسية والهندية، وأهم مؤلفاته: نظام العالم والأمم، وكتابه في التفسير الذي نحن بصدده. وقد توفي الشيخ طنطاوي ـ رحمه الله ـ بالقاهرة: ١٣٥٨هـ = ١٩٤٠م، وهو في سن الثامنة والسبعين][١].

غرض المؤلف من تفسيره:

قال المؤلف: «وإني لعلى رجاء أن يؤيد الله هذه الأمة بهذا الدين، وينسج على منوال هذا التفسير المسلمون، وليقر أن في مشارق الأرض ومغاربها مقرونا بالقبول، وليولعن بالعجائب السماوية والبدائع الأرضية الشبان الموحدون، وليرفعن الله مدنيتهم إلى العلا، وليكونن داعياً حثيثاً إلى درس العوالم العلوية والسفلية».

[تطاول الجوهري على الفقهاء]:

يقول: الحمد لله، إنك تقرأ في هذا التفسير خلاصات من العلوم، ودراستها أفضل من دراسة علم الفرائض؛ لأنه فرض كفاية، فأما هذه فإنها للازدياد في معرفة الله وهي فرض عين

١ ـ راجع: أنور الجندي ـ أعلام القرن الرابع عشر الهجري ـ مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة. ود. فتحي صالح ـ الشيخ طنطاوي جوهري والموسيقى العربية ـ مجلة الهلال ديسمبر٢٠٠٠. ومحمود عبد الحليم ـ الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ ـ دار الدعوة الإسكندرية. خير الدين الزركلي ـ الأعلام ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ الطبعة السابعة ـ ١٩٨٦. بالإضافة إلى ما ذكره الذهبي. وراجع الشبكة الإخوانية: .www.ikhwan-info.net

على كل قادر... إن هذه العلوم التي أدخلناها في تفسير القرآن، هي التي أغفلها الجهلاء المغرورون من صغار الفقهاء في الإسلام، فهذا زمان الانقلاب، وظهور الحقائق، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم[(١)].

وقد لاقى الجوهري الكثير من لوم العلماء على مسلكه الذي سلكه في تفسيره، مما يدل على أن هذه النزعة التفسيرية لم تلق قبولا لدى كثير من المثقفين. ولعل هذا المنزع في تفسير القرآن الكريم هو السر الذي من أجله صادرت المملكة العربية السعودية هذا الكتاب، ولم تسمح بدخوله إلى بلادها، كما يجد القراء ذلك في نص الكتاب المرسل من المؤلف إلى الملك عبد العزيز آل سعود، ملك نجد والحجاز ص ٢٣٨ من الجزء الخامس والعشرين.

طريقة المؤلف في هذا التفسير:

يفسر الآيات القرآنية تفسيراً لفظياً مختصراً، لا يكاد يخرج عما في كتب التفسير المألوفة لنا، ولكنه سرعان ما يخلص من هذا التفسير الذي يسميه لفظياً، ويدخل في أبحاث علمية مستفيضة يسميها هو لطائف أو جواهر، هذه الأبحاث عبارة عن مجموعة كبيرة من أفكار علماء الشرق والغرب في العصر الحديث، أتى بها المؤلف ليبين للمسلمين ولغير المسلمين أن القرآن الكريم قد سبق إلى هذه الأبحاث ونبه على تلك العلوم قبل أن يصل إليها هؤلاء العلماء بقرون متطاولة.

ثم إننا نجد المؤلف رحمه الله يضع لنا في تفسيره هذا كثيراً من صور النباتات، والحيوانات، ومناظر الطبيعة. وتجارب العلوم، بقصد أن يوضح للقارئ ما يقول توضيحا يجعل الحقيقة أمامه كالأمر المشاهد المحسوس.

كذلك نجد المؤلف رحمه الله يستشهد أحيانا على ما يقول بما جاء في إنجيل (برنابا)؛ لأنه ـ كما يرى ـ أصح الأناجيل، بل هو الإنجيل الوحيد الذي لم تصل إليه يد التحريف والتبديل كما قيل[(٢)].

وكثيراً ما نرى المؤلف رحمه الله يشرح بعض الحقائق الدينية بما جاء عن أفلاطون في جمهوريته، أو بما جاء عن إخوان الصفا في رسائلهم، وهو حين ينقلها يبدي لنا رضاه عنها، وتصديقه بها، مع أنها تخالف الثابت عن رسول الله ﷺ.

كما أنه يستخرج كثيراً من علوم القرآن بواسطة حساب الجمل الذي لا نصدق أنه

---

١) الجواهر ـ طبع الجزائر ـ ١٣٢٣هـ: ١٩/٣.

٢ ـ هذا من الغلو البعيد عن أصول العلم، فإن بعض النصوص الموافقة للإسلام والواردة في هذا الإنجيل لا تعني أنه لم يحرف، بل حكمه حسب أصولنا: «لا أصل له» لفقدان السند تماماً، وحكمه كحكم الإسرائيليات عند العلماء وقد سبق التفصيل في هذا.

يوصل إلى حقيقة ثابته، وإنما هي عدوى تسربت من اليهود إلى المسلمين، فتسلطت على عقول الكثير منهم. ولست أرى هذا المسلك في التفسير إلا ضروباً من التكلف، إن لم يذهب بغرض القرآن، فلا أقل من أن يذهب بجلاله وجماله.

نماذج من هذا التفسير:

عندما تعرض لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ﴾ [البقرة: ٦١]. نجده يقول: «الفوائد الطبية في هذه الآية» ثم يأخذ في بيان ما أثبته الطب الحديث من نظريات طبية، ويذكر مناهج أطباء أوروبا في الطب، ثم يقول: «أوليست هذه المناهج هي التي نحا نحوها القرآن؟ أوليس قوله: (أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير) رمزاً لذلك؟ كأنه يقول: العيشة البدوية على المن والسلوى، وهما الطعامان الخفيفان اللذان لا مرض يتبعهما. مع الهواء النقي والحياة الحرة، أفضل من حياة شقية في المدن بأكل التوابل، واللحم، والإكثار من ألوان الطعام، مع الذلة، وجور الحكام، والجبن، وطمع الجيران من الممالك، فتختطفكم على حين غفلة وأنتم لا تشعرون. بمثل هذا تفسر هذه الآيات. بمثل هذا فليفهم المسلمون كتاب الله»[1].

مثلا عندما تعرض لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ...﴾ [البقرة: ٦٧ وما بعدها]. نجده يعقد بحثاً في عجائب القرآن وغرائبه، فيذكر ما انطوت عليه هذه الآيات من عجائب، ويذكر فيما يذكر علم تحضير الأرواح فيقول: «وأما علم تحضير الأرواح فإنه من هذه الآية استخراجه.. إن هذه الآية تتلى، والمسلمون يؤمنون بها، حتى ظهر علم الأرواح بأمريكا أولا، ثم بسائر أوربا ثانياً..» ثم ذكر نبذة طويلة عن مبدأ ظهور هذا العلم، وكيف كان انتشاره بين الأمم، وفائدة هذا العلم، ثم قال أخيراً: «ولما كانت السورة التي نحن بصددها قد جاء فيها حياة العزير بعد موته، وكذلك حماره، ومسألة الطير وإبراهيم الخليل، ومسألة الذين خرجوا من ديارهم فرارا من الطاعون، فماتوا ثم أحياهم.. وعلم الله أننا نعجز عن ذلك، جعل قبل ذكر تلك الثلاثة في السورة ما يرمز إلى استحضار الأرواح في مسألة البقرة، كأنه يقول: إذا قرأتم ما جاء عن بني إسرائيل في إحياء الموتى في هذه السورة عند أواخرها. فلا تيأسوا من ذلك؛ فإني قد بدأت بذكر استحضار الأرواح، فاستحضروها بطرقها المعروفة و﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، ولكن ليكن المحضّر ذا قلب نقي خالص على قدم الأنبياء والمرسلين، كالعزير، وإبراهيم، وموسى، فهؤلاء لعلو نفوسهم أريتهم بالمعاينة، وأنا أمرت

---

١) الجواهر: ١/ ٦٦ ـ ٦٧.

نبيكم أن يقتدي بهم فقلت: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]»[١].

هذا هو تفسير الجواهر، وهذه نماذج منه وضعتها أمام القارئ، ليقف على مقدار تسلط هذه النزعة التفسيرية على قلم مؤلفه وقلبه، ولا شك أن هذا خروج بالقرآن عن قصده، وانحراف به عن هدفه، وقد عرفت رأينا في المسألة فلا نعيده.

إنكار بعض العلماء المعاصرين للتفسير العلمي:

شأن المعاصرين كشأن من سبقهم من العلماء الأقدمين في الاختلاف حول هذا النوع من التفسير، فنجد بعض المعاصرين ينعون على من يأخذ بهذه الفكرة ويقول بها، ومن بين هؤلاء أستاذنا الشيخ محمود شلتوت. فقد تناول هذا الموضوع بالبحث في العدد **٤٠٧** و **٤٠٨** من السنة التاسعة لمجلة الرسالة، إبريل، سنة **١٩٤١**م. وفيه يرد على من يذهب إلى هذا اللون من التفسير بحجج قوية واضحة.

وهذا هو الأستاذ الشيخ أمين الخولي يتناول هذا الموضوع في كتابه (التفسير: معالم حياته. منهجة اليوم) وفيه يرد على أنصار هذا المذهب في التفسير بحجج قوية واضحة، استفدنا منها كثيراً في تأييد ما اخترنا، من المذهبين.

وأخيرا فهذا هو شيخنا العلامة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ يقول: يجب أن لا نجر الآية إلى العلوم كي نفسرها، ولا العلوم إلى الآية: ولكن إن اتفق ظاهر الآية مع حقيقة علمية ثابتة فسرناها بها[٢].

٢ ـ اللون المذهبي للتفسير في عصرنا الحاضر

لم يبق من الفرق المنسوبة إلى الإسلام في هذا العصر الحديث من له كيان، أو شيء من الكيان ـ حسبما نعلم ـ إلا أهل السنة، والإمامية الإثنا عشرية، والإمامية الإسماعيلية، والزيدية، والإباضية من الخوارج، والبهائية من الباطنية. هذه هي الفرق التي لا تزال في اعتبارنا قائمة إلى يومنا هذا، محتفظة بتعاليمها وعقائدها التي تسير عليها من أول عهدها ومبدأ ظهورها. وقد ذكرنا جهد هؤلاء في التفسير في العصور السابقة، وأما في العصر الحاضر:

ـ **فأهل السنة** ألفوا الكتب في التفسير بما يتفق وعقيدتهم، كما نرى ذلك واضحا فيما

---

١) الجواهر: ١/ ٧١ ـ ٧٧.

٢) الإسلام والطب الحديث ـ عبد العزيز إسماعيل باشا: ٣.

خلفته لنا مدرسة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده من كتب في التفسير [1].

ـ **والإمامية الإثنا عشرية** فسروا القرآن وألفوا الكتب فيه بما يتمشى مع مذهبهم، ومن أحدث كتبهم في التفسير كتاب: (بيان السعادة في مقامات العبادة)، للشيخ سلطان محمد الخراساني، من أهل القرن الرابع عشر الهجري، وقد سبق لنا الكلام عنه.

ـ **والإباضية من الخوارج** فسروا القرآن وألفوا فيه الكتب بما يناسب عقيدتهم، ويساير مذهبهم، كما نجد ذلك في كتاب: (هميان الزاد، إلى دار المعاد) للشيخ محمد بن يوسف إطفيش، المتوفى سنة ١٣٣٢هـ وقد مرّ الكلام عنه أيضاً.

ـ **والبهائية من الباطنية** نظروا إلى القرآن من خلال عقيدتهم، فأولوا وحرفوا، كما نجد ذلك جليا في رسائل أبي الفضائل الجرفادقاني. أحد رجال البهائية في هذا العصر.

ـ **أما الزيدية**، فهي وإن كانت لا تزال قائمة إلى يومنا هذا، إلا أنا لم نقف لها على شيء في التفسير في هذا العصر الحديث.

ـ **وأما المعتزلة**، فنحن وإن كنا لا نسمع عن قيامها في هذا العصر كفرقة لها كيان، ووحدة، ومقومات، إلا أنا نرى أثرا كبيراً لتعاليمها في تفسير القرآن في العصر الحديث، كما يظهر ذلك جليا في تفاسير الإمامية الإثني عشرية. والإباضية، ومقالات بعض المحدثين من المفسرين.

ولا أريد أن أطيل بذكر نماذج من هذا اللون التفسيري؛ إذ قد سبق لنا الكلام عن هذه الكتب.

٣ ـ اللون الإلحادي
للتفسير في عصرنا الحاضر

مُني الإسلام من زمن بعيد بأناس يكيدون له، ويعملون على هدمه بكل ما يستطيعون من وسائل الكيد. وكان من أهم الأبواب التي طرقوها ليصلوا منها إلى نواياهم السيئة: تأويلهم للقرآن الكريم على وجوه تتنافى مع ما في القرآن من هداية، وتناقض ماهو عليه من محجة بيضاء وتهدف إلى ما سولته لهم نفوسهم من نحل حاسرة وأهواء!.

---

١ ـ إن الشيخ محمد عبده ومدرسته وإن كانوا ينتمون لأهل السنة، إلا أنهم لا يُضربون مثلا لها، فكثيرا من أقوالهم وأفكارهم في التفسير ليست موافقة لعقيدة أهل السنة ومنهجها، وسنرى هذا بجلاء عند الحديث عن التفسير من خلال مدرسة محمد عبده رحمه الله.

الباعث على هذا اللون من التفسير:

اندفع هؤلاء النفر من المؤولة إلى ما ذهبوا إليه من أفهام زائفة في القرآن بعوامل مختلفة، فمنهم من حسب أن التجديد ولو بتحريف كتاب الله سبب لظهوره وشهرته، فأخذ يثور على قدماء المفسرين ويرميهم جميعاً بالسفه والغفلة، ثم طلع على الناس بجديده في تفسير كتاب الله، جديد لا تقره لغة القرآن، ولا يقوم على أصل من الدين.

ومنهم من تلقى من العلم حظاً يسيراً، ونصيباً قليلاً، ثم راح ينظر في كتاب الله نظرة حرة لا تتقيد بأي أصل من أصول التفسير، ثم أخذ يهذي بأفهام فاسدة، تتنافى مع ما قرره أئمة اللغة وأئمة الدين.

ومنهم من لم يَسر على عقيدة معروفة، وتسلطت على قلبه وعقله أفكار وآراء من نحل مختلفة، فانطلق إلى القرآن فأخذ يؤوله بما يتفق معه، تأويلا لا يقرره العقل ولا يرضاه الدين.

ولولا أن الله قيض لهذا الدين رجالا يدرسونه ببصائر تنفذ إلى لبابه، ويدفعهم الإيمان والإخلاص إلى أن يبعدوا عنه هذه الخبائث، لولا هذا لأصاب المسلمين من هؤلاء المضللين شر مستطير، ولنتج عن أفكارهم وأهوائهم فتنة في الأرض وفساد كبير.

[نماذج من التفسير الإلحادي]:

وأنا إذ أعرض لهذا اللون من التفسير، لا أريد أن أذكر أحداً من أصحابه باسمه ولقبه، إذ ربما كان هذا سببا للفتنة، وكثير منهم أحياء يرزقون، ويكفي أن أضع يد القارئ على المراجع التي أنقل عنها تفسير هؤلاء القوم. وهي مراجع ميسورة لكل من يريد أن يرجع إليها:

أ ـ وجدنا من أصحاب هذا اللون من ألوان التفسير، رجلا يكتب بحثاً طويلا تحت عنوان: (القرآن والمفسرون)، وفيه يعرض لنواحي التقصير في تفسير كافة المفسرين لكتاب الله تعالى، ويوجه إليهم جميعاً نقده الساخر، بدون أن يستثني منهم مفسراً واحداً.

رأيناه يتهم المفسرين جميعاً بأنهم تأثروا في تفاسيرهم بعقائدهم، فأمالوا آيات القرآن نحو آرائهم، في تعسف ظاهر، وتكلف غير مقبول[1]. ورأيناه يرميهم جميعا بأنهم كثيراً ما يكتفون بذكر إسرئيليات ليس لها سند أصلا، ونراه يذكر لهذا الاتهام الأخير مثلا من أقوالهم في تفسير قصة أيوب عليه السلام، ثم يأخذ في تفنيد ما ذهبوا إليه، وبعد هذا كله تناول هو قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴿٤٤﴾﴾ [ص: ٤١ ـ ٤٤]. تناول الكاتب هذه

---

١) انظر مجلة الإيمان ـ علماء الوعظ والإرشاد ـ ع٢ ـ السنة الثانية، سنة ١٣٥٤هـ.

الآيات، فشرحها شرحا يخالف ما ذهب إليه المفسرون جميعا، مدعيا أن ما ذهب إليه هو الذي يتفق مع بلاغة القرآن، وقدسية الأنبياء، فقال:

«يجب أن ننظر في الآية نظرة أخرى ـ يعني خلاف ما عليه المفسرون ـ تساير بها نظائرها من آيات القصص ونحن إذا التفتنا إلى ما في هذه الآية من أن أيوب عليه السلام قد عزى النصب والعذاب للشيطان فقال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾ [صٓ: ٤١] كان ذلك مانعاً كل المنع من أن يراد بالنصب والعذاب داء أصاب أيوب، وكان من نتائجه ما ذكره المفسرون... إذ الشيطان لا يملك للإنسان إلا أن ينزغه. ويوسوس إليه، فيلويه عن الخير إلى الشر، وعن العزم... وما كانت شكوى الأنبياء إلا من إعراض أممهم عن الاستجابة، ولا كان حزنهم الذي كان يبلغ أحيانا حد الإهلاك للنفس إلا لبطء في سير الدعوة إلى الله تعالى.. انظر قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ١٢٧﴾ [النحل: ١٢٧]...

ولما كانت الشكوى تشعر بوهن في العزيمة، وضعف في الثقة. وعدم القوة في السير إلى الغاية، كان جواب تلك الشكاية أن قيل له: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ﴾ [صٓ: ٤٢] فالمراد بالركض هنا: عقد العزيمة وتأكيدها... فهي كناية من أعذب الكنايات وأروعها... ولما كان تردد المرء في غايته، ووهن عزيمته إليها. وضعف ثقته بها، صدأ يغشى الأرواح، ومرضا يتعب النفوس ويضايق الصدور، كان عقد العزيمة واستكمال الثقة غسلا للروح من صدئها، وشفاء للنفس من مرضها، ونقعا لغلة الصدور؛ لذلك قال الله لرسوله أيوب: ﴿هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ﴾ [صٓ: ٤٢].

ثم بيَّن الله بعد ذلك سيرة أيوب التي أمره أن يسير بها في قومه. وهي اللين في القول... فقال: ﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ﴾ [صٓ: ٤٤] أي لا ترفع في وجوه قومك رمحا ولا عصا، ولا تغلظ لهم القول، ولا تخاشنهم في الطلب، بل لوح في وجوههم بالرياحين والأزهار، ولا تأثم بالغلظة والجفوة[1]».

هذا هو التفسير الصحيح في نظر صاحبه، وأحسب أن القارئ الكريم سوف لا يتردد في الحكم عليه بأنه تفسير منابذ لبلاغة القرآن، ومخالف لظاهره، وأي شيء يقف في سبيل المعنى الظاهر حتى نعدل عنه إلى مجاز أو كناية فيها تعسف ظاهر وتكلف غير مقبول؟ اللهم لا شيء إلا دعوى التجديد، والثورة على القديم، والعمل على هدم آراء العلماء الذين عرف الناس مبلغ خدماتهم للعلم، ودفاعهم عن الدين.

ب ـ ووجدنا من أصحاب هذا اللون رجلا آخر دفعه حب التجديد المزيف إلى أن

---

١) مجلة الإيمان ـ ع٣ ـ السنة الثانية، سنة: ١٣٥٤هـ.

يساير روح الإلحاد ويجاري من يتهمون الشريعة الإسلامية بالقسوة في أحكامها وحدودها. فراح يتأول آيات الحدود بما يوافق هواه وهوى أصحابه، فحمل الأمر فيها على الإباحة.

وقال هذا الكاتب تحت عنوان: (التشريع المصري وصلته بالفقه الإسلامي): وقوله تعالى في حد السرقة: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَـٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ [المائدة: ٣٨ - ٣٩]. وقوله تعالى في حد الزنى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ [النور: ٢]. فهل لنا أن نجتهد في الأمر الوارد في حد السرقة وهو قوله تعالى: ﴿فَٱقْطَعُوٓاْ﴾، والأمر الوارد في حد الزنى وهو قوله تعالى: ﴿فَٱجْلِدُواْ﴾ فنجعل كلا منهما للإباحة لا للوجوب، ويكون الأمر فيهما مثل الأمر في قوله تعالى: ﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الأعراف: ٣١]. الرجم في الزنى لا يقول به فقهاء الخوارج؛ لعدم النص عليه في القرآن الكريم، وهل لنا أن نذلل بهذا عقبة من العقبات التي تقوم في سبيل الأخذ بالتشريع الإسلامي. مع أنا في هذه الحالة لا نكون قد أبطلنا نصاً ولا ألغينا حداً، وإنما وسعنا الأمر توسيعاً يليق بما امتازت به الشريعة الإسلامية من المرونة والصلاحية لكل زمان ومكان، وبما عرف عنها من إيثار التيسير على التعسير، والتخفيف على التشديد»[1].

فأنت ترى من هذا المقال مقدار ما وصل إليه الكاتب من الجرأة على كتاب الله، إذ أول آية السرقة وآية الزنى تأويلا غير مقبول بأي حال من الأحوال، ومن ينظر إلى آية السرقة وآية الزنى لا يفهم منهما إلا أن الأمر فيهما للوجوب؛ فإن بناء الأمر بالقطع في آية السرقة على قوله: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾ [المائدة: ٣٨] وبناء الأمر بالجلد في آية الزنى على قوله: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى﴾ [النور: ٢] يصرفه عن احتمال الإباحة إلى الوجوب؛ وهذا لأن تعليق الحكم على شخص، موصوف بوصف يؤذن بأن المقتضي للحكم هو ذلك الوصف الذي قام بالشخص، وإذا كان ذلك الوصف جناية مثل السرقة والزنى ووضع الشارع لهما حكما في صيغة الأمر ولم يذكر حكما غيره، لا يصح أن يقال: إن هذا الأمر محتمل للإباحة كما احتملها الأمر في قوله: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١].

ثم إن قوله تعالى في آية السرقة: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَـٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ﴾ [المائدة: ٣٨] وقوله في آية الزنى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٢] وقوله: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢] يؤكد أن الأمر في الآيتين للوجوب لا للإباحة.

---

١) السياسة الأسبوعية - محمد حسين هيكل (باشا): ع٦٠ - من السنة السادسة (٥٠ فبراير سنة ١٩٣٧).

ثم إن هناك من سنة رسول الله ﷺ القولية والعملية ما يؤكد كون الأمر للوجوب في الآيتين.

اللهم إن هذا التأويل لا يجوز، ولهذا فإنه لم يصادف غفلة من عقول العلماء وأفلامهم، فقام كثير منهم بالرد على صاحبه، وتفنيد ما ذهب إليه [1].

ج ـ وأنكر بعضهم وجود عالم الجن، وتأول ما جاء من ذلك صريحا في آيات القرآن الكريم، ففسر قوله تعالى في أول سورة الجن: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١﴾ [الجن: ١] بأن الجن قبيلة من العرب [2].

وهذا تأويل ينافي صريح القرآن في مواضع كثيرة، فضلا عن أنه لا يقوم على دليل يصححه.

د ـ ووجدنا غير هؤلاء جميعاً رجلا نكس على رأسه، فطوعت له نفسه أن يخوض في تفسير كتاب الله على ما به من غواية وعماية، وأخيراً طلع على الناس بكتاب مختصر في تفسير القرآن الكريم، تفسيراً جمع فيه الكثير من وساوسه وأوهامه .ثم سول له الغرور أن يسميه: الهداية والعرفان في تفسير القرآن بالقرآن. وإليك تفاصيل عن هذا الكتاب.

الهداية والعرفان في تفسير القرآن بالقرآن محمد أبو زيد (مصري)

أحدث هذا التفسير ضجة كبرى في المحيط العلمي، وقام رجال الأزهر وقعدوا من أجله، ثم ألفت لجنة من بعض العلماء لتنظر في هذا الكتاب .ثم لتحكم عليه بما ترى فيه. ثم رفعت اللجنة تقريرها لشيخ الأزهر إذ ذاك، وفيه تفنيد لآراء الرجل وحكم عليه بأنه «أفاك خراص، اشتهى أن يعرف فلم ير وسيلة أهون عليه وأوفى بغرضه من الإلحاد في الدين بتحريف كلام الله عن مواضعه ليستفز الكثير من الناس إلى الحديث في شأنه وترديد سيرته». ثم صودر الكتاب واختفى عن أعين الناس.

حملته على جميع المفسرين:

عاب كل المفسرين وكتب التفسير جميعا فقال: «وقد بلغ الدس والحشو في التفاسير أنك لا تجد أصلا من أصول القرآن إلا وتجد بجانبه رواية موضوعة؛ لهدمه وتبديله، والمفسرون قد وضعوا هذا في كتبهم من حيث لا يشعرون» [3].

---

١) خير من رد عليه أستاذنا السيد محمد الخضر حسين، في مجلة الهداية الإسلامية ـ جمعية الهداية الإسلامية ـ عدد السابع من المجلد التاسع ـ (مارس سنة ١٩٣٧م).

٢) انظر: مجلة الهداية الإسلامية ـ المجلد الثامن ـ العدد الحادي عشر ٧٠٣١.

٣) ص (ب).

طريقته في التفسير:

ثم قال بعد ذلك: «فهذا كله ـ يعني الدس والحشو في التفاسير ـ دعاني إلى تفسيري، وأن تكون طريقتي فيه كشف الآية وألفاظها بما ورد في موضوعها من الآيات والسور، فيكون من ذلك العلم بكل مواضع القرآن، ويكون القرآن هو الذي ينطبق عليه ويؤيده من سنن الله في الكون ونظامه في الاجتماع»[1].

ولعل القارئ الكريم يلحظ كما ألحظ أن المؤلف يريد أن يهدر صلة السنة بالقرآن الكريم، وينفي أن منزلتها منه منزلة المبيّن من المبيَّن. والله تعالى يقول: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

ويظهر لنا أن المؤلف قد ركب رأسه فراح يهدم ما للسنة من المكانة في التشريع الإسلامي فقال في قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور: ٦٣]، «يفيدك أن المخالفة المحذورة هي التي تكون للإعراض عن أمره، وأما التي تكون للرأي والمصلحة فلا مانع منها بل هي من حكمة الشورى» فأنت ترى أنه يجيز مخالفة أمر الرسول للمصلحة، وهذا عناد ومكابرة ومخالفة صريحة لقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]. ثم أي مصلحة تخالف ما جاء به رسول الله ﷺ؟.

إنكاره لمعجزات الأنبياء عليهم السلام

فيقول في بعض المواضع: «وبعد هذا تعلم أن الله ينادي الناس بأنهم لا ينبغي أن ينتظروا من الرسول آية على صدقه في دعوته غير ما في سيرته ورسالته »[2] وفي موضع آخر يقول: «واعلم أن آيات الله في نصر أنبيائه لا تناقض سنته في خلقه وكونه »[3]. وفي موضع ثالث يقول: «وقد كانت كل آياتهم حججا وبراهين من سيرتهم ورسالتهم. فلا يمكن أن يأتوا بدليل على صدقهم من غير الدعوة نفسها، فتكون هناك علاقة بين الدعوة ودليلها فتدبر»[4].

موقفه من معجزات عيسى عليه السلام:

فمثلا تجده ينكر أن يكون عيسى عليه السلام قد تكلم في المهد وذلك حيث يؤول قوله تعالى:

---

١) ص جـ ـ د.
٢) ص ١٦١.
٣) ص ٢٩٠.
٤) ص ٢٩٧.

﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران: ٤٦] ما نصه: «في المهد: في دور التمهيد للحياة وهو دور الصبا، علامة على الجرأة وقوة الاستعداد في الصغر. وكهلا: علامة على أنه لا يفل عزمه بالشيخوخة والكبر - ويصح أن يكون المعنى يكلم الناس الصغير منهم والكبير علامة على تواضعه ومباشرة دعوته بنفسه». وبمثل هذا عطل باقي معجزات الأنبياء وأنكرها.

إنكاره للملائكة والجن والشياطين:

كذلك نجد صاحب هذا الكتاب يؤول الملائكة، والجن، والشياطين، بما لا يتفق والحقائق الشرعية الثابتة.

فمثلا عندما تعرض لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: ٣٤]. نجده يقول: الملائكة، رسل النظام وعالم السنن، وسجودهم للإنسان معناه أن الكون مسخر له .﴿إِبْلِيسَ﴾ اسم لكل مستكبر على الحق.

وعند قوله تعالى: ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٧١] نجده يقول: «﴿ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ تطلق على الحيات والثعابين، تستهوي من يتبعها ليقتلها فيهوي معها وتضله بتعرجها راجع ٢٧٥ في البقرة».

إنكاره لأحكام من الدين لم ينازع فيها أحد من المجتهدين

حدّ السّرقة وحدّ الزّنى:

فمثلاً عند قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المائدة: ٣٨]. يقول: «واعلم أن لفظ السارق والسارقة يعطي معنى التعود. أي أن السرقة صفة من صفاتهم الملازمة لهم، ويظهر لك من هذا المعنى: أن من سرق مرة أو مرتين ولا يستمر في السرقة ولم يتعود اللصوصية لا يعاقب بقطع يده؛ لأن قطعها فيه تعجيز له، ولا يكون ذلك إلا بعد اليأس من علاجه».

وعند قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢] نجده يقول: «﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى﴾ يطلق هذا الوصف على المرأة والرجل إذا كانا معروفين بالزنى وكان من عادتهما وخلقهما، فهما بذلك يستحقان الجلد».

الربا:

كذلك نجد المؤلف يميل إلى أن الربا المحرم شرعا هو الفاحش فقط، ولهذا نراه عندما يعرض لآيات الربا في سورة البقرة يفسر (الربا) فيقول: «الربا هو الزيادة من الربح في

رأس المال، وهو معروف ومقيد بالآية (١٣٠) في آل عمران، فانظرها أولا»[١]، يريد قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٠].

ولست في حاجة إلى أن أطيل بذكر ما يبطل هذه الأوهام ويفندها؛ فإني لست في مقام الرد والتفنيد، وإنما أنا في مقام بيان لون من ألوان التفسير في هذا العصر وإذا كان القارئ الكريم يود أن يقف على إبطال هذه المزاعم التي حشا بها المؤلف كتابه، فليرجع إلى قرار اللجنة الأزهرية، التي ألفت الرد على هذا الكتاب[٢]، وليرجع إلى ما كتبه شيخنا العلامة السيد محمد الخضر حسين في الجزء الثالث من رسائل الإصلاح[٣].

٤ ـ اللون الأدبي الاجتماعي للتفسير في عصرنا الحاضر

يمتاز التفسير في هذا العصر بأنه يتلون باللون الأدبي الاجتماعي، ونعني بذلك: أن التفسير لم يعد يظهر عليه ذلك الطابع الجاف. وتلون بلون يكاد يكون جديداً وطارئا على التفسير، ذلك هو معالجة النصوص القرآنية معالجة تقوم على:

١ ـ إظهار مواضع الدقة في التعبير القرآني.

٢ ـ صياغة المعاني التي يهدف القرآن إليها في أسوب أخّاذ.

٣ ـ تطبيق النص القرآني على ما في الكون من سنن الاجتماع، ونظم العمران.

مدرسة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده وأثرها في التفسير

وإذا كان هذا اللون الأدبي الاجتماعي يعتبر في نظرنا عملاً جديداً في التفسير، وابتكارا يرجع فضله إلى مفسري هذا العصر الحديث، فإنا نستطيع أن نقول بحق: إن الفضل في هذا اللون التفسيري يرجع إلى مدرسة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده للتفسير.

محاسن هذه المدرسة

١ ـ نظرت للقرآن نظرة بعيدة عن التأثر بمذهب من المذاهب.

---

١) ص ٣٧.

٢) ع ٣، ٤ ـ المجلد الثاني ـ مجلة نور الإسلام ـ الأزهر ـ سنة ١٣٥٠هـ.

٣) ص ١٤٠ ـ ١٦٠.

٢ ـ وقفت من الروايات الإسرائيلية موقف الناقد البصير، وكذلك الروايات الخرافية المكذوبة، التي أحاطت بجمال القرآن وجلاله، فأساءت إليه وجرّأت الطاعنين عليه.

٣ ـ لم تغتر هذه المدرسة بما اغتر به كثير من المفسرين من الأحاديث الضعيفة أو الموضوعة التي كان لها أثر سيئ في تفسير القرآن الكريم.

٤ ـ لم تخض في تعيين ما أبهمه القرآن.

٥ ـ ولم تجرؤ على الخوض في الكلام عن الأمور الغيبية، التي لا تعرف إلا من جهة النصوص الشرعية الصحيحة، بل قررت مبدأ الإيمان بما جاء من ذلك مجملا، ومنعت من الخوض في التفصيلات والجزئيات، وهذا مبدأ سليم، يقف حاجزا منيعا دون تسرب شيء من خرافات الغيب المظنون إلى المعقول والعقائد.

٦ ـ أبعدت التفسير عن التأثر باصطلاحات العلوم والفنون، التي زُجّ بها في التفسير بدون أن يكون في حاجة إليها، ولم تتناول من ذلك إلا بمقدار الحاجة.

٧ ـ نهجت بالتفسير منهجاً أدبياً اجتماعياً. فكشفت عن بلاغة القرآن وإعجازه، وأوضحت معانيه ومراميه، وأظهرت ما فيه من سنن الكون الأعظم ونظم الاجتماع، وعالجت مشاكل الأمة الإسلامية خاصة، ومشاكل الأمم عامة بما أرشد إليه القرآن.

٨ ـ وفّقت بين القرآن وما أثبته العلم من نظريات صحيحة، وجلّت للناس أن القرآن كتاب الله الخالد، الذي يستطيع أن يساير التطور الزمني والبشري.

٩ ـ دفعت ما ورد من شبه على القرآن، وفندت ما أثير حوله من شكوك وأوهام، بحجج قوية قذفت بها على الباطل فدمغته فإذا هو زاهق.

عيوب هذه المدرسة

١ ـ أعطت لعقلها حرية واسعة، فتأولت بعض الحقائق الشرعية التي جاء بها القرآن الكريم، وعدلت بها عن الحقيقة إلى المجاز أو التمثيل، وليس هناك ما يدعو لذلك إلا مجرد الاستبعاد والاستغراب. استبعاد بالنسبة لقدرة البشر القاصرة، واستغراب لا يكون إلا ممن جهل قدرة الله وصلاحيتها لكل ممكن.

٢ ـ جارت المعتزلة في بعض تعاليمها وعقائدها، وحمّلت بعض ألفاظ القرآن من المعاني مالم يكن معهوداً عند العرب في زمن نزول القرآن، وطعنت في بعض الأحاديث: تارة بالضعف، وتارة بالوضع، مع أنها أحاديث صحيحة رواها البخاري ومسلم، وهما أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى بإجماع أهل العلم.

٣ ـ لم تأخذ بأحاديث الآحاد الصحيحة الثابتة، في كل ما هو من قبيل العقائد، أو من قبيل السمعيات، مع أن أحاديث الآحاد في هذا الباب كثيرة لا يستهان بها.

أهم رجال هذه المدرسة:

أهم رجال هذه المدرسة هو الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده زعيمها وعميدها، ثم المرحوم السيد محمد رشيد رضا، والمرحوم الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي، وهما خير من أنجبت هذه المدرسة، وخير من ترسم خطا الأستاذ الإمام، وسار على منهجه وطريقته في التفسير.

ولست أرى القارئ بحاجة إلى أن أترجم لحياة هؤلاء الرجال الثلاثة، فالعهد بهم قريب، ويكفي أن أتكلم عن إنتاج كل واحد منهم في التفسير وعن منهجه الذي سلكه فيه.

١ ـ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده[١]

إنتاجه في التفسير:

له تفسير جزء (عم)، ألفه عام ١٣٢١هـ، ليكون مرجعًا لأساتذة مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية، وبذل جهده كما يقول: في أن تكون العبارة سهلة التناول، خالية من الخلاف وكثرة الوجوه في الإعراب، بحيث لا يحتاج في فهمها إلا أن يعرف القارئ كيف يقرأ، أو السامع كيف يسمع، مع حسن النية وسلامة الوجدان[٢].

وله تفسير مطول لسورة (العصر) ألقاه على هيئة محاضرات، على علماء مدينة الجزائر ووجهائها في سنة ١٣٢١هـ.

كذلك نجد له بعض بحوث تفسيرية، عالج فيها بعض مشكلات القرآن، ودفع بها ما أثير حول القرآن من شكوك وإشكالات، كشرحه لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨] وقوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾ [النساء: ٧٩] وجمعه بينهما، وتوفيقه بين ما يظن فيهما من تناف وتضاد، وهو نسبة أفعال العباد تارة إلى الله تعالى، وتارة إلى العبد.

ونجد من آثار الأستاذ الإمام في التفسير، تلك الدروس التي ألقاها في الأزهر على تلاميذه ومريديه[٣]. وهي تبدأ بأول القرآن في غرّة المحرم سنة ١٣١٧هـ، وحتى الآية (١٢٦) من سورة النساء سنة ١٣٢٣هـ، إذ أدركته المنية فيها رحمه الله[٤].

---

١) ولد سنة ١٨٤٨م، وتوفي سنة ١٩٠٥م.

٢) مقدمة تفسير جزء (عم) ـ مطبعة مصر ـ ١٣٤١هـ: ٢.

٣) تفسير المنار لرشيد رضا: ١/ ٤.

٤) المرجع نفسه.

ولم يدوَّن من هذه الدروس إلا أقوال سجلها تلميذه رشيد رضا ثم نشرها مع إضافات في مجلة المنار بعد إقرار الأستاذ الإمام[1]. هذا هو كل ما وصلت إليه من إنتاج الأستاذ الإمام في التفسير، وعلى قلته كان له أثر بالغ في تطور التفسير واتجاهاته.

منهجه في التفسير:

كان الأستاذ الإمام هو الذي قام وحده من بين رجال الأزهر بالدعوة إلى التجديد، فكان له من وراء ذلك آراء وأفكار خالف بها من سبقه، فأغضبت عليه الكثير من أهل العلم، وجمعت حوله قلوب مريديه والمعجبين به.

وذلك: أن الأستاذ الإمام اتخذ لنفسه مبدءًا يسير عليه في تفسير القرآن الكريم، ويخالف به المفسرين المتقدمين. وهو فهم كتاب الله من حيث هو دين يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم في حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة[2]؛ لهذا نرى الأستاذ الإمام يقسم التفسير إلى قسمين:

أحدهما: جافّ مبعد عن الله وكتابه، وهو ما يقصد به حل الألفاظ، وإعراب الجمل، قال: وهذا لا ينبغي أن يسمى تفسيراً. وإنما هو ضرب من التمرين في الفنون كالنحو، والمعاني، وغيرهما.

وثانيهما: ذهاب المفسر إلى فهم المراد من القول، وحكمة التشريع في العقائد والأحكام، على الوجه الذي يجذب الأرواح، ويسوقها إلى العمل والهداية. قال الأستاذ الإمام: وهذا هو الغرض الأول الذي أرمي إليه في قراءة التفسير[3].

القرآن لا يتبع العقيدة وإنما تؤخذ العقيدة من القرآن:

ويرى الأستاذ الإمام: أن القرآن الكريم هو الميزان الذي توزن به العقائد لتعرف قيمتها، وفي هذا يقول: إذا وزنا ما في أدمغتنا من الاعتقاد بكتاب الله تعالى، من غير أن ندخلها أولاً فيه، يظهر لنا كوننا مهتدين أو ضالين. وأما إذا أدخلنا أدمغتنا في القرآن، وحشرناها فيه أولاً، فلا يمكننا أن نعرف الهداية من الضلال، لاختلاط الموزون بالميزان فلا يدري ما هو الموزون به[4].

---

١) راجع تفسير المنار ـ رشيد رضا: ١/ ١٥.

٢) تفسير المنار: ١/ ١٧.

٣) تفسير المنار: ١/ ٢٥.

٤) تفسير سورة الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن، محمد عبده ورشيد رضا ـ المنار ١٣٥٣هـ: ٥٤.

كيف كان يقرأ الأستاذ الإمام التفسير ويكتبه:

تناول الأستاذ الإمام تفسير القرآن الكريم بالتأليف والتدريس، أما ناحية التأليف، فمحدودة ضيقة، كما ظهر لك فيما سبق. وأما ناحية التدريس فكانت أوسع إلى حد ما، فقد ألقى دروساً في التفسير بالجامع الأزهر، مدة ست سنوات، قرأ فيها ما يقرب من خمسة أجزاء من القرآن. كذلك ألقى دروساً في التفسير بمدينة الجزائر من بلاد المغرب. كما ألقى دروساً في التفسير أيضاً في مساجد بيروت[١].

وكان الأستاذ الإمام يعتمد في دروسه وكتابته في التفسير على عقله الحر وكان ـ كما يقول عنه بعض الكاتبين ـ: لا يلتزم في التفسير كتاباً، وإنما يقرأ في المصحف، ويلقي ما يفيض الله على قلبه[٢]. وقد حدث عن نفسه بذلك فقال: إنني لا أطالع عند ما أقرأ لكنني ربما أتصفح كتاب تفسير إذا كان هناك وجه غريب في الإعراب، أو كلمة غريبة في اللغة[٣].

ومما يذكر في هذا المقام أنه لما أبدى الأستاذ الإمام رأياً طريفاً في تفسير بعض الآيات، قال له أحد المجاورين: إن ما قلته لا يوافق عليه الجمل ـ يعني بالجمل أحد المؤلفين ممن كتبوا الحواشي على تفسير الجلالين ـ فقال الأستاذ على الفور: إنني أقرر ما يدل عليه المعنى الجليل، والكلام البليغ، ولا يعنيني أوافق عليه الجمل أو الحمار[٤].

هذا وإن الأستاذ الإمام لم يكن كغيره من المفسرين الذين كلفوا **بالإسرائيليات** فجعلوا منها شروحاً **لمبهمات القرآن**، بل وجدناه على العكس من ذلك نفوراً منها، لاعتقاده أن الله تعالى لم يكلفنا بالبحث عن الجزئيات والتفصيلات لما جاء به مبهما في كتابه[٥]. وإذا نحن تتبعنا أقواله في مبهمات القرآن وجدناه محافظاً على هذا المبدأ، لا يعدل عنه إلا في مواضع قليلة نادرة.

فمثلاً عند قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١﴾ [الانفطار: ١٠ ـ ١١] نجده يقول: ومن الغيب الذي يجب علينا الإيمان به ما أنبأنا به كتابه: أن علينا حفظة يكتبون أعمالنا حسنات وسيئات، ولكن ليس علينا أن نبحث عن حقيقة هؤلاء، ومن أي شيء خلقوا، وما هو عملهم في حفظهم وكتابتهم، هل عندهم أوراق وأقلام ومداد كالمعهود

---

١) محمد عبده لعثمان أمين ـ مطبعة عيسى الحلبي ١٩٤٤م: ١٠١.
٢) محمد عبده لعثمان أمين: ١٠١.
٣) تفسير المنار لرشيد رضا: ١/ ١٤. ويظهر من سياق الكلام أن صحة العبارة: (قبل أن أقرأ كما نبه على ذلك في حاشية الكتاب).
٤) محمد عبده لعثمان أمين: ١٢٥.
٥) تفسير المنار لرشيد رضا: ١/ ٣٢٠.

عندنا... وإنما نكلف الإيمان بصدق الخبر وتفويض الأمر في معناه إلى الله[1]، والذي يجب علينا اعتقاده من جهة ما يدخل في عملنا، هو: أن أعمالنا تحفظ وتحصى، لا يضيع منها نقير ولا قطمير[2].

ومثلاً عندما تعرض لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧﴾ [الفجر: ٦ ـ ٧] نجده يقول: وقد يروي المفسرون هنا حكايات في تصوير إرم ذات العماد، كان يجب أن ينزه عنها كتاب الله. فإذا وقع إليك شيء من كتبهم، ونظرت في هذا الموضع منها، فتخط ببصرك ما تجده في وصف إرم، وإياك أن تنظر فيه[3].

معالجته للمسائل الاجتماعية:

ثم إنا نجد الأستاذ الإمام لا يكاد يمر بآية من القرآن، يمكنه أن يأخذ منها علاجاً للأمراض الاجتماعية، إلا أفاض في ذلك بما يصور للقارئ خطر العلة الاجتماعية التي يتكلم عنها، ويرشده إلى وسيلة علاجها والتخلص منها.

فمثلاً عندما تعرض لقوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣] يقول: والصبر ملكة في النفس يتيسر معها احتمال ما يشق احتماله، والرضى بما يكره في سبيل الحق. وهو خلق يتعلق به بل يتوقف عليه كمال كل خلق، وما أُتيَ الناس من شيء مثل ما أتوا من فقد الصبر أو ضعفه. كل أمة ضعف الصبر في نفوس أفرادها، ضعف فيها كل شيء، وذهبت منها كل قوة، ولنضرب لذلك مثلاً: نقص العلم عند أمة من الأمم كالمسلمين اليوم، إذا دققت النظر وجدت السبب فيه ضعف الصبر، فإن من عرف باباً من أبواب العلم، لا يجد في نفسه صبراً على التوسع فيه، والتعب في تحقيق مسائله، وينام على فراش من التقليد هين لين، لا يكلفه مشقة، ولا يجشمه تعباً، ويسلي نفسه عن كسله بتعظيم من سبقه، ولو كان عنده احترام حقيقي لسلفه، لاتخذهم أسوة في عمله، فحذا حذوهم، وسلك مسلكهم، وكلف نفسه بعض ما حملوا أنفسهم عليه، واعتقد كما كانوا يعتقدون أنهم ليسوا بمعصومين[4].

ومثلاً عندما تعرض لقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥﴾ [العاديات: ١ ـ ٥] نجده يقول: وكان في هذه

---

١ ـ معلوم أن هذا مخالف لما عليه أهل السنة في الاعتقاد؛ فأهل السنة لا يفوّضون المعنى، وإنما يفوضون في الكيفية. وأما المعنى فمعلوم أنهم ملائكة، وخلقوا من نور كما هو ثابت بالنصوص، ومعلوم في العقائد = ومن علم مذهب محمد عبده في إنكار حقيقة الملائكة لا يستغرب منه هذا التفسير. وسترى رأيه في الملائكة عند الحديث عن موقفه منها.

٢) تفسير جزء (عم): ٣٦.

٣) تفسير جزء (عم): ٧٩.

٤) مجموعة تفسير الفاتحة وست من خواتيم القرآن: ٨٧ ـ ٨٩.

الآيات القارعات، وفي تخصيص الخيل بالذكر في قوله: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠] وفيما ورد في الأحاديث[١] التي لا تكاد تحصر ما يحمل كل فرد من رجال المسلمين على أن يكون في مقدمة فرسان الأرض مهارة في ركوب الخيل... أليس أغرب ما يستغرب أن أناساً يزعمون أن هذا الكتاب كتابهم، يكون طلاب العلوم الدينية منهم أشد الناس رهبة من ركوب الخيل، وأبعدهم عن صفات الرجولية، حتى وقع من أحد أساتذتهم المشار إليهم بالبنان عندما كنت أكلمه في منافع بعض العلوم، وفوائدها في علم الدين أن قال: «إذا كان كل ما يفيد في الدين نُعلّمه لطلبة العلم، كان علينا إذاً أن نعلمهم ركوب الخيل؟» يقول ذلك ليفحمني وتقوم له الحجة عليّ، كأن تعليم ركوب الخيل مما لا يليق ولا ينبغي لطلبة العلم، وهم يقولون إن العلماء ورثة الأنبياء، فهل هذه الأعمال وهذه العقائد تتفق مع الإيمان بهذا الكتاب؟ أنصف ثم أحكم[٢].

ومن أجل هذه الروح التي تسيطر على الأستاذ الإمام في تفسيره، نجد الشيخ المراغي يقول: وكانت دروسه يجد علماء الاجتماع فيها تطبيق القرآن على معارفهم[٣].

تفسيره للقرآن على ضوء العلم الحديث:

فمثلاً عندما يعرض لتفسير سورة الفيل، بعد أن ذكر ما قيل في إرسال الطير على أبرهة، وما جاءت به بعض الروايات من أن الذي أصابهم هو داء الجدري والحصبة يقول: وقد بينت لنا هذه السورة الكريمة، أن ذلك الجدري أو تلك الحصبة نشأت من حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش، بواسطة فرق عظيمة من الطير مما يرسله الله مع الريح، فيجوز لك أن تعتقد أن هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذي يحمل جراثيم بعض الأمراض، وأن تكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس، الذي تحمله الرياح فيعلق بأرجل هذه الحيوانات، فإذا اتصل بجسده دخل في مسامه فأثار فيه تلك القروح التي تنتهي بإفساد وتساقط لحمه[٤].

وهنا أيضاً نجد الأستاذ الإمام قد خالف طريقته في مبهمات القرآن فراح يخوض في التفصيلات والجزئيات، ثم جوز أن تكون الطير هي ما يسمى اليوم بالميكروبات، كما جوز

---

١ ـ على سبيل المثال، قول الرسول ﷺ: «الخيلُ مَعقُود في نواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة». الترمذي رقم: ١٦٣٦ في فضائل الجهاد، والنسائي: ٦/ ٢١٥ في الخيل. قال الأرناؤوط في حاشية جامع الأصول رقم: ٣٠٥١: وهو حديث صحيح. وانظر جامع الأصول رقم: ٣٠٤٤ وما بعده.

٢) تفسير جزء (عم): ١٤٢.

٣) محمد عبده لعثمان أمين: ١٢٢.

٤) تفسير جزء (عم): ١٥٨.

أن تكون الحجارة هي جراثيم بعض الأمراض، وهذا مالا نقره عليه؛ لأن هذه الجراثيم التي اكتشفها الطب الحديث لم يكن للعرب علم بها وقت نزول القرآن، والعربي إذا سمع لفظ الحجارة في هذه السورة لا ينصرف ذهنه إلى تلك الجراثيم بحال من الأحوال، وقد جاء القرآن بلغة العرب، وخاطبهم بما يعهدون ويألفون[1].

وإذا كان الأستاذ الإمام قد أعطى لعقلة الحرية الكاملة في تفسيره للقرآن الكريم، فإنا نجده يغرق في هذه الحرية، ويتوسع فيها، إلى درجة وصلت به إلى ما يشبه التطرف في أفكاره، والغلو في آرائه.

موقفه من حقيقة الملائكة وإبليس:

[يخالف أهل السنة الذين يثبتون وجود الملائكة والجن] فمثلاً عندما تعرض لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾ [البقرة: ٣٤] إلى آخر القصة نجده يقول: فكل أمر كلي قائم بنظام مخصوص تمت به الحكمة الإلهية في إيجاده، فإنما قوامه بروح إلهي سُمّي في لسان الشرع ملكاً، ومن لم يبال في التسمية بالتوقيف، يسم هذه المعاني: القوى الطبيعية، إذا كان لا يعرف من عالم الإمكان إلا ما هو طبيعة، أو قوة يظهر أثرها في الطبيعة. والأمر الثابت الذي لا نزاع فيه، هو أن في باطن الخلقة أمراً هو مناطها، وبه قوامها ونظامها، لا يمكن العاقل أن ينكره، وإن أنكر غير المؤمن بالوحي تسميته ملكا، وزعم أنه لا دليل على وجود الملائكة، أو أنكر بعض المؤمنين بالوحي تسميته قوة طبيعية أو ناموساً طبيعياً؛ لأن هذه الأسماء لم ترد في الشرع، فالحقيقة واحدة...

إن إخبار الله الملائكة بجعل الإنسان خليفة في الأرض هو عبارة عن تهيئة الأرض وقوى هذا العالم وأرواحه التي بها قوامه ونظامه، لوجود نوع من المخلوقات يتصرف فيها، فيكون به كمال الوجود في هذه الأرض. وسؤال الملائكة عن جعل خليفة يفسد في الأرض لأنه يعمل باختياره، ويعطى استعداداً في العلم والعمل لا حد لهما، هو تصوير لما في استعداد الإنسان لذلك، وتمهيد لبيان أنه لا ينافي خلافته في الأرض.

وتعليم آدم الأسماء كلها بيان لاستعداد الإنسان لعلم كل شيء في هذه الأرض، وانتفاعه به في استعمارها، وعرض الأسماء على الملائكة، وسؤالهم عنها، وتنصلهم في الجواب تصوير لكون الشعور الذي يصاحب كل روح من الأرواح المدبرة للعوالم محدوداً لا

---

١ ـ الغريب أن ينسى محمد عبده وتلميذه أن بعض من عايش قصة الفيل من العرب عايش أيضاً سورة الفيل، ولو كان في السورة شيء غير ظاهرها لكان هذا فرصة للمشركين ليطعنوا في القرآن. ولم يسكتوا إلا لتوافق ظاهر القرآن مع ما شاهدته عيونهم.

يتعدى وظيفته. وسجود الملائكة لآدم عبارة عن تسخير هذه الأرواح والقوى له، ينتفع في ترقية الكون بمعرفة سنن الله تعالى في ذلك. وإباء إبليس واستكباره عن السجود تمثيل لعجز الإنسان عن إخضاع روح الشر، وإبطال داعية خواطر السوء، التي هي منار التنازع والتخاصم والتعدي والإفساد في الأرض(١)(٢).

والذي ينظر في هذا التأويل الذي جوزه الشيخ، وفي سياق الآية وألفاظها وما فيها من محاورة ومقاولة، لا يسعه إلا أن يرده، وإن حاول قائله أن يروج له بجعله الأوامر التي وردت في الآية من قبيل الأمر التكويني، لا الأمر التكليفي.

موقفه من السحر:

يخالف رأي جمهور أهل السنة، ويذهب إلى ما ذهب إليه المعتزلة، من أن السحر لا حقيقة له، ولذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤﴾ [الفلق: ٤] نجده يفسر المراد بالنفاثات في الآية فيقول: المراد هنا هم النمامون، المقطّعون لروابط الألفة... لأن الله جل شأنه أراد أن يشبههم بأولئك السحرة المشعوذين، الذين إذا أرادوا أن يحلوا عقدة المحبة بين المرء وزوجه ـ مثلاً ـ فيما يوهمون به العامة، عقدوا عقدة ثم نفثوا فيها، وحلّوها ليكون ذلك حلا للعقد التي بين الزوجين. والنميمة: تشبه أن تكون ضرباً من السحر؛ لأنها تحوّل ما بين الصديقين من محبة إلى عداوة، بوسيلة خفية كاذبة(٣).

إنكاره لبعض الأحاديث الصّحيحة:

ثم راح الشيخ رحمه الله يرد ما جاء من الروايات في سحر الرسول ﷺ فقال: وقد رووا هنا أحاديث في أن النبي ﷺ سحره لبيد بن الأعصم، وأثر سحره فيه، حتى كان يخيل له أنه يفعل الشيء وهو لا يفعله، أو يأتي شيئاً وهو لا يأتيه، وهو مما يصدق قول المشركين فيه: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان: ٨] وليس المسحور عندهم إلا من خولط في عقله، وخُيل له أن شيئاً يقع وهو لا يقع، فيخيل إليه أنه يوحى إليه، ولا يوحى إليه، وقد قال كثير من المقلدين الذين لا يعقلون ما هي النبوة ولا ما يجب لها: إن الخبر بتأثير السحر في النفس الشريفة قد صح فيلزم الاعتقاد به، وعدم التصديق به من بدع المبتدعين.

---

١) تفسير المنار لرشيد رضا: ١/ ٢٨١ ـ ٢٨٢.

٢ ـ ولكن ما موقف محمد عبده من حديث جبريل المشهور عندما جاء مجلس الرسول ﷺ على شكل رجل وراَه الصحابة، وسأل الرسول ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان. والحديث متفق عليه ـ راجع اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان: رقم: ٥. وحديث الإسراء والمعراج الذي كان برفقة الملك جبريل عليه السلام والحديث في البخاري ومسلم والترمذي والنسائي: راجع جامع الأصول رقم: ٨٨٦٧.

٣) تفسير جزء (عم): ١٨١.

والذي يجب اعتقاده أن القرآن مقطوع به... وقد جاء بنفي السحر عنه ﷺ، حيث نسب القول بإثبات حصول السحر له إلى المشركين أعدائه، ووبخهم على زعمهم هذا، فإذًا هو ليس بمسحور قطعاً. وأما الحديث فعلى فرض صحته، هو آحاد، والآحاد لا يؤخذ بها في باب العقائد، وعصمة النبي من تأثير السحر في عقله عقيدة من العقائد، لا يؤخذ نفيها إلا عنه باليقين[1].

وهذا الحديث الذي يردّه الأستاذ الإمام رواه البخاري[2] وغيره، وليس من وراء صحته ما يخل بمقام النبوة، فإن السحر الذي أصيب به ﷺ كان من قبيل الأمراض التي تعرض للبدن بدون أن تؤثر على شيء من العقل، وقد قالوا: إن ما فعله لبيد بن الأعصم بالنبي ﷺ من السحر لا يعدو أن يكون نوعاً من أنواع العقد عند النساء، وهو الذي يسمونه: (رباطاً)، فكان يخيل إليه أن عنده قدرة على إتيان إحدى نسائه، فإذا ما همّ بحاجته عجز عن ذلك. أما السحر الذي نُفي عنه ﷺ فمراد به الجنون، وهو مخل بمقام النبوة. وقد قالوا: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦﴾ [الحجر: ٦].

وليس هذا الحديث وحده هو الذي يضعفه الشيخ، أو يتخلص منه بأنه رواية آحاد، بل هناك كثرة من الأحاديث نالها هذا الحكم القاسي، فمن ذلك أيضاً حديث الشيخين: «كل بني آدم يمسه الشيطان يوم ولدته أمه إلا مريم وابنها»[3] فإنه قال فيه: إذا صح الحديث فهو من قبيل التمثيل لا من باب الحقيقة[4].

٢ ـ الشيخ محمد رشيد رضا[5]

كيف اتصل الشيخ رشيد بالأستاذ الإمام:

نشأ السيد محمد رشيد رضا في طرابلس الشام، وفيها تلقى العلم عن شيوخها، وفي هذه الأثناء وقع في يده جريدة العروة الوثقى، التي كان يقوم بإخراجها والكتابة فيها رجل الإصلاح جمال الدين الأفغاني، وتلميذه محمد عبده، فقرأ الشيخ رشيد ما في الجريدة، فأعجب بالرجلين إعجاباً شديداً، ورغب في الاتصال بالسيد جمال الدين الأفغاني فلم يسعده

---

١) تفسير جزء (عم): ١٨١ ـ ١٩٢.

٢ ـ الحديث في البخاري: ١٠/١٩١ ـ ١٩٧ في الطب. وفي مسلم: ٢١٨٩ في السلام، وكلاهما في باب السحر. وفي جامع الأصول رقم: ٣٠٧٧.

٣ ـ متفق عليه: رواه البخاري: ٦/٣٣٨ و ٣٣٩ في الأنبياء. ومسلم: ٢٣٦٦ في الفضائل: فضل عيسى عليه السلام.

٤) تفسير المنار ٣/٣٩٠.

٥) ولد في سنة: ١٢٨٢هـ، وتوفي في سنة: ١٣٥٤هـ.

الحظ، ثم تعلق أمله بالاتصال بخليفته الشيخ محمد عبده، فأسعده الحظ في هذه المرة، واتصل بالشيخ في رجب سنة ١٣١٥هـ، وكان أول اقتراح عرضه عليه، أن يكتب تفسيراً للقرآن على نهج ما كان يكتب في جريدة العروة الوثقى، وبعد أخذ ورد بين الشيخين اقتنع الأستاذ الإمام بأن يقرأ دروساً في التفسير بالجامع الأزهر.

وكان الشيخ رشيد رحمه الله ألزم الناس لهذه الدروس، وأحرصهم على تلقيها وضبطها. فكان يكتب بعض ما يسمع، ثم يزيد عليه بما يذكره من دروس الشيخ بعد ذلك، ثم قام بنشر ما كتب على الناس في مجلته (المنار)، ولكنه لم يفعل ذلك إلا بعد مراجعة أستاذه لما كتب(١).

لهذا كله نستطيع أن نقول إن الشيخ رشيد هو الوارث الأول لعلم الأستاذ الإمام، وليس غريباً ما يرويه الشيخ رشيد من أن الأستاذ الإمام كان يقول: «صاحب المنار ترجمان أفكاري»(٢). كما أنه ليس غريبا ما يحدث به أحد تلاميذ الشيخ رشيد، من أن الأستاذ الإمام وصف الشيخ رشيداً بأنه «متحد معه في العقيدة، والفكر، والرأي، والخلق، والعمل»(٣).

إنتاج الشيخ رشيد في التفسير:

هو أكثر رجال مدرسة الأستاذ الإمام إنتاجاً في التفسير؛ حيث كتب تفسيره المسمى بتفسير القرآن الحكيم، والمشهور بتفسير المنار، ابتدأ بأول القرآن وانتهى عند قوله تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١] ثم عاجلته المنية قبل أن يكمله. وهذا القدر من التفسير مطبوع في اثني عشر مجلداً.

وقد أكمل الأستاذ بهجت البيطار تفسير سورة يوسف. وطبع تفسير هذه السورة بتمامها في كتاب مستقل يحمل اسم الشيخ رشيد رحمه الله.

هذا، وقد فسر الشيخ من القصار سورة الكوثر، والكافرون، والإخلاص والمعوذتين، ولا نعرف له إنتاجا في التفسير أكثر من هذا، وهو إنتاج لا بأس به، وفيه تتجلى روح الأستاذ الإمام ممزوجة بروح تلميذه.

مصادره في التفسير:

كان يستعين ببعض آيات القرآن على فهم بعض آخر منه، وكان يستعين أيضاً بما صح

---

١) اختصرنا هذا الموضوع من مقدمة تفسير المنار لرشيد رضا: ١/ ١٠ ـ ١٥.

٢) ٢/ ٤٩٨.

٣) المحدث بهذا هو الأستاذ عبد الرحمن عاصم، في مقال كتبه عن حياة الشيخ رشيد ـ ع١٢. من السنة الخامسة من مجلة: نور الإسلام.

عنده من بيان رسول الله ﷺ، وبما جرى عليه سلف الأمة من الصحابة والتابعين، وبأساليب لغة العرب وسنن الله في خلقه[1]، ومستعينا بعد ذلك كله بعقله المتحرر من التقليد للمفسرين، إلا فيما يقتنع به من أقوالهم، وأقوال شيخه على الأخص، ويحدثنا بعض تلاميذه: «أنه كان لا يراجع ما يكتب في التفسير إلا بعد أن يكتب فهمه في الآية، حذراً من تأثير أقوال المفسرين على نفسه»[2].

هدفه من التفسير:

هدفه نفس هدف شيخه، فها هو يقول بعد أن يوجه اللوم إلى من حشروا في التفسير من قواعد العلوم، ومسائل الفنون، وموضوعات الحديث، وخرافات الإسرائيليات، ما يصرف الناس عن هداية القرآن: «إن حاجة الناس صارت شديدة إلى تفسير تتوجه العناية الأولى فيه إلى هداية القرآن على الوجه الذي يتفق مع الآيات الكريمة، المنزلة في وصفه. وما أنزل لأجله. من الإنذار. والتبشير، والهداية، والإصلاح»[3]. «إن قصدنا من التفسير بيان معنى القرآن، وطرق الاهتداء به في هذا الزمان»[4].

منهجه في التفسير:

وأما منهجه فيه فهو عين ما نهجه الأستاذ الإمام، فلا تقيد بأقوال المفسرين، ولا تحكم للعقيدة في نص القرآن، ولا خوض في إسرائيليات، ولا تعيين لمبهمات، ولا تعلق بأحاديث موضوعة، ولا حشد لمباحث الفنون، ولا رجوع بالنص إلى اصطلاحات العلوم، بل شرح للآيات بأسلوب رائع، وكشف عن المعاني بعبارة سهلة مقبوله وتوضيح لمشكلات القرآن، ودفاع عنه يردّ ما أثير حوله من شبهات، وبيان لهدايته، وتوقيف على حكَم تشريعه، ومعالجة لأمراض المجتمع بناجع دوائه، وبيان لسنن الله في خليقته. ولكنا نجد الشيخ رشيد ـ رحمه الله ـ يحيد عن هذا المنهج بعض الشيء، وذلك بعد وفاة شيخه، واستقلاله بالعمل، ويحدثنا هو بذلك فيقول: «وإنني لما استقللت بالعمل بعد وفاته، خالفت منهجه رحمه الله تعالى بالتوسع فيما يتعلق بالآية من السنة الصحيحة، سواء كان تفسيراً لها، أو في حكمها، وفي تحقيق بعض المفردات، أو الجمل اللغوية، والمسائل الخلافية بين العلماء، وفي الإكثار من شواهد الآيات في السور المختلفة، وفي بعض الاستطرادات لتحقيق مسائل تشتد حاجة المسلمين إلى تحقيقها، بما يثبتهم بهداية دينهم في

---

1) انظر تفسير المنار لرشيد رضا: ٦/١٩٦.
2) من مقال نشره الأستاذ عبد الرحمٰن عاصم عن الشيخ رشيد، في مجلة نور الإسلام ـ السنة الخامسة ـ العدد ١٢ ـ ١٣٥٤هـ.
3) تفسير المنار لرشيد رضا: ١/١٠.
4) تفسير المنار لرشيد رضا: ٤/٤٢.

هذا العصر، أو يقوي حجتهم على خصومهم من الكفار والمتبدعة، أو بحل بعض المشكلات التي أعيا حلها. بما يطمئن به القلب، وتكن إليه النفس»[1].

ويبدو لنا أن هذا التوسع الذي كان من الشيخ رشيد خصوصاً في المسائل الاجتماعية، لم يدفعه إليه إلا كونه رجلاً (صحفياً) اتصل عن طريق مجلته بالناس على اختلاف منازعهم ومشاربهم، فأراد أن يتمشى بكتابته مع الجميع[2].

رأيه في أصحاب الكبائر:

فمثلاً عندما تعرض للمرابين في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥] نجده يخالف أهل السنة، ويؤكد أن صاحب الكبيرة التي في درجة أكل الربا وقتل العمد إذا مات ولم يتب منها يخلد في النار، ولا يخرج منها أبداً فيقول: «أي ومن عاد إلى ما كان يأكل من الربا المحرم بعد تحريمه، فأولئك البعداء عن الاتعاظ بموعظة ربهم، الذي لا ينهاهم إلا عما يضرهم في أفرادهم أو جمعهم، هم أهل النار الذين يلازمونها كما يلازم الصاحب صاحبه، فيكونون فيها خالدين...

وقد أول الخلود المفسرون؛ لتتفق الآية مع المقرر في العقائد والفقه من كون المعاصي لا توجب الخلود في النار... أما نحن فنقول: ما كل ما يسمى إيمانا يعصم صاحبه من الخلود في النار، الإيمان إيمانان: إيمان لا يعدو التسليم الإجمالي بالدين الذي نشأ فيه المرء أو نسب إليه، ومجاراة أهله ولو بعدم معارضتهم فيما هم عليه. وإيمان هو عبارة عن معرفة صحيحة بالدين عن يقين بالإيمان، متمكنة في العقل بالبرهان، مؤثرة في النفس بمقتضى الإذعان، حاكمة على الإرادة المصرفة للجوارح في الأعمال، بحيث يكون صاحبها خاضعا لسلطانها في كل حال، إلا ما لا يخلو منه الإنسان من غلبة جهالة أو نسيان... وأما الإيمان الأول: فهو صوري فقط، فلا قيمة له عند الله تعالى...وهو مذهب السلف الصالح[3]»[4].

تقليده لشيخه في قصّة آدم:

كذلك نجد صاحب المنار [يخالف أهل السنة] ويقلد شيخه في موقفه من قصة آدم وإبليس وما يتعلق بها فيقول:

---

١) تفسير المنار لرشيد رضا: ١٦/١.

٢) كان الشيخ رشيد ينشر ما يكتبه في التفسير تباعا بمجلته: (المنار) ثم جمع ما كتب في كتاب واحد، وهو تفسيره المتداول بين أهل العلم.

٣) تفسير المنار لرشيد رضا: ٣/ ٩٨ ـ ٩٩. وراجع أيضا ما كتبه عن قتل العمد: ٥/ ٣٣٩ ـ ٣٤٥.

٤ ليس هذا مذهب السلف، بل هو مذهب الخوارج الذين يكفرون صاحب الكبيرة، ومذهب المعتزلة الذين لم يكفره ولم يحكموا له بالإيمان وخلّدوه في النار. وأما السلف فلا يكفرون أصحاب الكبائر ما لم يستحلها الفاعل لها. راجع: شرح العقيدة الطحاوية لأبي العز ٣٥٥ وما بعدها. ومجموع الفتاوى لا بن تيمية ٧/ ٤٢٣ وما بعدها.

وهذا التفضيل مبني على كون الأمر بالسجود للتكليف، وأنه وقع حوار بين الرب سبحانه وبين إبليس. وأما على القول بأن الأمر للتكوين، وأن القصة بيان لغرائز البشر والملائكة والشياطين، فالمعنى: أنه تعالى جعل ملائكة الأرض المدبرة بأمر الله وإذنه لأمورها بالسنن التي عليها مدار نظامها كما قال: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥﴾ [النازعات: ٥] مسخرة لآدم وذريته، إذ خلق الله هذا النوع مستعدا للانتفاع بها كلها، بعلمه بسنن الله تعالى فيها، وبعلمه بمقتضى هذه السنن كخواص الماء، والهواء، والكهرباء... إلا أنه جعل الشيطان عاتياً متمرداً على الإنسان، بل عدواً له، من حيث إن الإنسان بروحه وسط بين روح الملائكة المفطورين على طاعة الله وإقامة سننه في صلاح الخلق، وبين روح الجن الذي يغلب على شرارهم - وهم الشياطين - التمرد والعصيان. وقد أعطى الإنسان إرادة واختياراً من ربه في ترجيح ما به يصعد إلى أفق الملائكة، وما به يهبط إلى أفق الشياطين[١].

تذرعه بالمجاز والتشبيه:

وهذا المسلك الذي جرى عليه الشيخ رشيد هو مسلك شيخه، ومسلك الزمخشري وغيره من المعتزلة، الذين اتخذوا التشبيه والتمثيل سبيلا للفرار من الحقائق التي يصرح بها القرآن.

فمثلاً عند قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ﴾ [النساء: ٤٧] نراه يستظهر أن المعنى المراد هنا هو: آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوه مقاصدكم التي توجهتم إليها في كيد الإسلام، ونردها خاسئة خاسرة إلى الوراء، بإظهار الإسلام ونصره عليكم... ثم بين أن ما اختاره هو رأي شيخه الذي مال إليه في دروسه[٢].

رأيه في السحر:

ثم إن صاحب المنار لا يرى السحر إلا ضربا من التمويه والخداع، وليس له حقيقة كما يقول أهل السنة، وهو يوافق بهذا القول قول شيخه وقول المعتزلة من قبله؛ ولهذا نراه عندما فسر قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾ [الأنعام: ٧] نجده يقول: والآية تدل على أن السحر خداع باطل، وتخييل يري ما لا حقيقة له في صورة الحقائق[٣].

هذا ولم يستطع الشيخ رشيد أن يرد حديث البخاري في سحر رسول الله ﷺ كما فعل شيخه، ولكنه تأول الحديث على أنه كان من قبيل العقد من النساء، وبين أن عذر من طعن

---

١) تفسير المنار لرشيد رضا: ٨/ ٢٣٢.

٢) تفسير المنار لرشيد رضا: ٥/ ١٤٥ - ١٤٦.

٣) تفسير المنار لرشيد رضا: ٧/ ٣١١.

في الحديث هو أن هشاما راوي الحديث عن أبيه عن عائشة مطعون فيه من كثير من أئمة الجرح والتعديل[1].

رأيه في الشياطين:

وهو يرى أن شياطين الجن لا تسلط لها على الإنسان إلا بالإغواء فقط، ويقول: كل ما يدعيه بعض الدجالين من تسلط الشيطان، أو ملوك الجان على بعض الناس، وقدرتهم على نفعهم وضرهم، فهو كذب وحيل من شياطين الإنس وحدهم[2].

رأيه في الجن:

يرى أن الجن لا تُرى للإنسان أبدا، ويرجح أن من ادعى رؤية الجن فذلك وهم منه وتخيل، ولا حقيقة له في الخارج، أو لعله رأى حيوانا غريباً كبعض القردة فظنه أحد أفراد الجن[3]. يقول هذا ثم يعرض في (الهامش) لذكر حديث أبي هريرة فيمن كان يسرق تمر الصدقة، وإخبار النبي له بأنه شيطان ـ وهو في البخاري[4] ـ ولغيره من الأحاديث التي تدل على أن الإنسان يرى الجني ويبصره. ثم يقول بعد أن يفرغ من سرده للروايات: «والصواب أنه ليس في هذه الروايات كلها حديث صحيح»[5].

بل ونجده يزيد على ذلك فيجوز أن تكون ميكروبات الأمراض نوعا من الجن. وذلك حيث يقول عند قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، والمتكلمون يقولون: إن الجن أجسام حية خفية لا ترى، وقد قلنا في المنار غير مرة: أنه يصح أن يقال: إن الأجسام الحية الخفية التي عرفت في هذا العصر بواسطة المنظارات المكبرة وتسمى بالميكروبات، يصح أن تكون نوعا من الجن، وقد ثبت أنها علل لأكثر الأمراض.

رأيه في معجزات النبي ﷺ:

لا يرى معجزة للنبي ﷺ غير القرآن، وينكر بعض معجزاته الكونية. ويتأول ما يشهد لها من آيات، ويجحد صحة ما يقوم بإثباتها من الأحاديث، وما يسلمه من بعض الآيات الكونية فهو في نظره إكرام للنبي من ربه، وليس من قبيل المعجزة، أو الحجة على صدق دعوته.

يذهب إلى هذا ويستدل له بمثل قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ

---

١) انظر تفسير سورة الفلق من مجموعة تفسير الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن: ١٢٩ ـ ١٣٤.

٢) تفسير سورة الناس من مجموعة تفسير الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن: ١٤١.

٣) انظر تفسير المنار لرشيد رضا: ٥١٦/٧.

٤ ـ رواه البخاري: ٣٩٦/٤ و ٣٩٨ في الوكالة معلقا، قال ابن حجر: وقد وصله النسائي. راجع جامع الأصول رقم: ٦٢٤٩، وما ذكره الشيخ عبد القادر الأرناؤوط في الحاشية.

٥) تفسير المنار في الهامش: ٥١٦/٧.

بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ﴾ [الإسراء: ٥٩]. وبمثل قوله ﷺ من رواية أبي هريرة عند الشيخين وغيرهما: «ما من نبي من الأنبياء إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر. وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة»[١].

ثم يقول: «وقد يعارضه ـ يعني الحديث السابق ـ آية انشقاق القمر مع ما ورد في أحاديث الصحيحين وغيرهما من أن قريشا سألوا النبي ﷺ آية على نبوته فانشق القمر فكان فرقتين[٢]، ولكن في الأحاديث الواردة في انشقاقه عللا في متنها وأسانيدها[٣]، وإشكالات علمية، وعقلية وتاريخية»[٤]. كما أنه فسر انشقاق القمر بظهور الحجة[٥].

رأيه في مسائل من الفقه:

يخالف جمهور الفقهاء ويسفّههم، فمثلاً: في آية التيمم [النساء: ٤٣]، يقرر: أن المسافر يجوز له التيمم ولو كان الماء بين يديه ولا علة تمنعه من استعماله إلا كونه مسافراً، ويخالف بذلك جماعة الفقهاء، ويحمل عليهم حملة شديدة فيما ذهبوا إليه من أن المسافر لا يجوز له التيمم مع وجود الماء. إلى أن قال: ألا إن من أعجب العجيب، غفلة جماهير الفقهاء عن هذه الرخصة الصريحة في عبارة القرآن، التي هي أظهر وأولى من قصر الصلاة وترك الصيام.

شرحه لمبهمات القرآن بما جاء في التوراة والإنجيل:

كان مع شدة لومه على المفسرين الذين يزجون بالإسرائيليات في تفاسيرهم، يخوض هو أيضا فيما هو من هذا القبيل، وذلك أنه كثيراً ما ينقل عن الكتاب المقدس [٦] أخباراً وآثاراً يفسر بها بعض مبهمات القرآن، أو يرد بها على أقوال بعض المفسرين [٧]. وكان الأجدر بهذا المفسر الذي يشدد النكير على عشاق الإسرائيليات، أن يكف هو أيضا عن النقل

---

١ ـ اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان: ح ٩٣. وفي جامع الأصول رقم: ٦٣٣٣.

٢ ـ اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان: ح ١٧٨٤.

٣ ـ لا يليق برشيد رضا أن يتجاهل قول كبار علماء الحديث إلى هذه الدرجة، فالحديث متفق عليه، بل قال ابن كثير والشوكاني في فتح القدير ٥/ ١٢٠: إنه متواتر.

٤) تفسير المنار لرشيد رضا: ١١/ ٢٢٢.وانظر الوحي المحمدي للمؤلف: ٦٩ ـ ٧٠.

٥) انظر القول الفصل ـ شيخ الإسلام صبري ـ مطبعة عيسى الحلبي ١٣٦١هـ: ١٦٣.

٦ ـ الكتاب المقدس: لقب يطلق على مجموع التوراة والإنجيل. كما تسمى أيضاً التوراة بالعهد القديم، والإنجيل بالعهد الجديد.

٧) انظر ما نقله عن الفصل الخامس والعشرين من سفر الخروج عن التابوت وما حواه: ٢/ ٤٨٢ ـ ٤٨٣، واستشهادة على ما فسر به استجابة الله لدعاء موسى وهارون، حيث قالا كما جاء في الآيتين: (٨٨ و ٨٩) من سورة يونس: ﴿رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ۝٨٨ قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا﴾، بما جاء في سفر الخروج: ١١/ ٤٧٤.

عن كتب أهل الكتاب، خصوصا وهو يعترف أنه قد تطرق إليها التحريف والتبديل.

وأخيراً فلا يفوتنا أن الرجل قد دافع عن الإسلام والقرآن، وكشف عما أحاط بهما من شكوك ومشاكل، وقد استعمل في ذلك لسانه وقلمه، وضمنه مجلته وتفسيره، وتلك مزية للرجل يحمد عليها، ولا ننسى ما له من أفكار جريئة ومتطرفة.

٣ ـ الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي[١]

تأثر بروح الأستاذ الإمام، ونهج على طريقته من التجديد وطرح التقليد والعمل للإسلام والمسلمين، وقد ترقى في الدعوة حتى صار شيخاً للأزهر. وكان يتمتع بجاذبية وقدرة على استجلاب قلوب سامعيه واستمالتها إليه، مما أجلس بين يديه الملك، والأمير، والوزير، والشيخ الكبير والطالب الصغير، ورجل الشارع.

إنتاجه في التفسير:

عقد دروساً في تفسير القرآن الكريم، استمع إليها الكثير من الناس على اختلاف طبقاتهم، من الملك إلى رجل الشارع كما قلت، وأذيعت هذه الدروس أيضاً في كثير من ممالك الأرض ودول الإسلام وأخيراً طبعت هذه الدروس، ووزعت على الناس ليعم نفعها، ويزداد أثرها.

لم تكن هذه الدروس على شيء من الكثرة، ولم يكن مقدار ما تناولته من آيات القرآن بالمقدار الكبير. وإذا نحن ذهبنا نستقصيه فإنا لا نجده أكثر من شرحه للآية (١٧٧) من سورة البقرة، ومن (١٣٣ ـ ١٣٨) من سورة آل عمران، والآيتين (١٣ و١٤) من سورة الشورى، و(١٥١ ـ ١٥٣) من سورة الأنعام، و(١٨٣ ـ ١٨٦) من سورة البقرة، و(٢٤ ـ ٢٩) من سورة الأنفال، وشرحه لسورة الحجرات والحديد ولقمان، و(١٦٠ ـ ١٦٥) من سورة الأنعام، و(١٩٩ ـ ٢٠٦) من سورة الأعراف، و(٣٠ ـ ٣٤) من سورة فصلت، وأول تسع آيات من سورة الأعراف، و(١١٢ ـ ١٢٣) من سورة هود، و(٥٨ و ٥٩) من سورة النساء، و(١٧) من سورة الرعد، و(٨٣ ـ ٨٨) من سورة القصص، و(١ ـ ١٠) و(٦٣ ـ ٧٧) من سورة الفرقان، وشرحه لسورة العصر والملك.

هذا هو كل ما للأستاذ المراغي من إنتاج في التفسير[٢]، وحسب الشيخ أن يكون قد لفت قلوب كثيرة من المسلمين إلى القرآن.

---

١) ولد في سنة: ١٨٨١م، وتوفي في سنة: ١٩٤٥م. [ومنعا للبس بين محمد المراغي وإخوته أقول: لشيخ الأزهر محمد مصطفى المراغي ثلاثة إخوة برزوا في ميدان التأليف، الشيخ أحمد مصطفى المراغي، صاحب تفسير المراغي في ٣٠ جزءًا، والدكتور عبد العزيز المراغي صاحب كتاب ابن تيمية، وعبد الله المراغي مؤلف كتاب العظات البينات].

٢ ـ وأكثرها عبارة عن دروس في مساجد مصر. طبعتها مطبعة الأزهر بعنوان: الدروس الدينية ـ ١٣٥٦ ـ ١٣٦٤هـ.

منهجه في التفسير:

كان يختار لدروسه من آيات القرآن ما تتجلى فيه دلائل قدرة الله وآيات عظمته، وما تظهر فيه وسائل هداية البشر، ومواضع العظمة والعبرة، كما يلحظ أيضاً أنه وجه جانباً من عنايته إلى الآيات التي يجمعها وقضايا العلم الحديث صلة القربى، ليظهر للناس أن القرآن لا يقف في سبيل العلم.

مصادره في التفسير:

وأعتقد أن الشيخ كان يستند في تحضير دروسه على كتاب الله تعالى بجمع ما كان من الآيات في موضوع واحد، وعلى ما صح من بيان رسول الله ﷺ، وبيان السلف الصالح، ثم أساليب اللغة وسنن الله في الكون، ثم على ما كتبه قدماء المفسرين، ولكنه لم يلغ عقله في هذا كله، بل كان يعرض ما فيها على قلبه وعقله، فما أعجبه منها أقره، وما لم يطمئن إليه نبذه وأعرض عنه، وكان يعترف بالفضل للأقدمين. فيقول عن تفسيره: ما هو إلا ثمرات من غرس أسلافنا الأقدمين، وزهرات من رياضهم[1].

موقفه من مبهمات القرآن:

نهج في تفسيره منهج شيخه، فوجدناه لا يخوض في مبهمات القرآن بالتفصيل، فلا الروايات الموضوعة أو الضعيفة، ولا الأخبار الإسرائيلية بمقبولة لديه، فلهذا نراه تعرض لقوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران: ١٣٣] نجده يقول: والآية تدل بظاهرها على أن الجنة مخلوقة الآن؛ لأن الفعل الماضي يفهم هذا. غير أنه من الجائز أن يكون من قبيل قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر: ٦٨] فلا يدل على خلقها الآن، والبحث في هذا لا فائدة له، ولا طائل تحته[2] [3].

وفي الآية: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [لقمان: ١٢] وجدناه يقول: اختلف الناس في لقمان هذا من هو؟ ومن أي الأمم هو؟ فقيل: إنه من بني إسرائيل. وقيل: إنه كان عبداً حبشياً، وقيل: إنه

---

١) مقدمة تفسيره لسورة الحديد.

٢) ص ٢١ من الدروس الدينية لسنة ١٣٥٦هـ، مطبعة وزارة الأوقاف سنة ١٩٣٨م.

٣ ـ الجنة والنار مخلوقتان موجودتان، وهذه مسألة لا داعي للنقاش فيها، فهي ثابتة بنص القرآن الذي لا يوجد ما يصرفه عن ظاهره في استعمال الفعل الماضي، وبخاصة أن السنة تدعم هذا الفهم، وعلى الأخص حديث الإسراء والمعراج الذي رأى فيه الرسول ﷺ عيانا الجنة والنار، والحديث في البخاري ومسلم والترمذي والنسائي: راجع جامع الأصول رقم: ٨٨٦٧.

أسود من سودان مصر، وقيل إنه يوناني...وكل هذه أقوال ليس لها سند يعول عليه، وبعد أن وصفه الله بالحكمة فلا يرفع من شأنه أنه كان من أشرف الأمم ولا يضع من قدره أنه كان زنجياً مملوكاً[1].

عنايته بإظهار أسرار التشريع:

كذلك نجد الأستاذ الأكبر يهتم في تفسيره اهتماماً كبيراً بإظهار سر التشريع الإسلامي، وحكمة التكليف الإلهي، ليظهر محاسن الإسلام، ويكشف عن هدايته للناس.

فمثلاً عندما تعرض لآيات الصوم في سورة البقرة [2]، نجده يفيض في سر الصوم وحكمته، فيقول: الصيام أحد الأركان الخمسة التي بني عليها الإسلام، وهو رياضة بدنية، وتهذيب خلقي، وتطهير روحي، ذلك أن الاسترسال في الشهوات، والانغماس في اللذات حجاب بين الروح وبين الكمالات القدسية والفيض الإلهي، يعوقها عن تلقي الإلهام وعن لذة الإتصال، ولذلك يلجأ أرباب المقامات والعارفون إلى الصوم، كلما أحسوا بعداً عن الذات الإلهية، وانزعج خاطرهم شوقاً إلى القرب منها...

وفي الصبر على الحرمان من اللذات التي تنازع إليها النفس، وتقتضيها الطبيعة، تربية للإرادة، وتقوية على المضي في العزم[3].

معالجته للمشاكل الاجتماعية:

كذلك نجد الشيخ المراغي رحمه الله يعرض لمشاكل المجتمع وأسباب الانحطاط في دول الإسلام.

فمثلاً في الآية: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ [الشورى: ١٣] يقول: والحكمة في هذه الشرائع الإلهية: أن الإنسان إذا تُرك إلى مداركه الحسية ونظرياته العقلية، ضل وكره الحياة، وكان أشقى من أنواع الحيوان، وشقاؤه يكون من ناحية العقل نفسه... وهذه مذاهب الاجتماع قديمها وحديثها، لم تسعد الأمم بها، فلا بد من هداية تصدر عن المعصوم يحملها من عند الله العلي الحكيم. وقد دلت التجارب أيضاً على أن الأمم التي عملت بالهدى كله أو بعضه سعدت بمقدار ذلك الهدى الذي عملت به...

وأما أنه لولا الدين لما احتمل الإنسان هذه الحياة، فإنها على قصرها مملوءة بالمصائب والويلات، فمن فقر مدقع، إلى مرض مزمن، ومن فقد الأهل والعشيرة، إلى فقد العزة والجاه، ومن شرف رفيع، إلى ذلة ومهانة... فلا بد من نظام يعتقد فيه العصمة من

---

١) تفسير سورة لقمان: ١٨ ـ مطبعة الأزهر سنة ١٩٤٢م.

٢ ـ البقرة: ١٨٣ ـ ١٨٧.

٣) الدروس الدينية لسنة ١٩٥٧م، ص٦ ـ ٧.

الخطأ، ويهدر معه حكم العقل إذا حصل تعارض بينهما، فإن دائرة العقل محدودة، وهي قاصرة عن إدراك خفايا المستقبل.

توفيقه بين القرآن والعلم الحديث:

كان يكره أن يسلك المفسر للقرآن مسلك من يجر الآية القرآنية إلى العلوم، أو العلوم إلى الآية، كي يفسرها تفسيراً علمياً يتفق مع نظريات العلم الحديث فيقول: وجد الخلاف بين المسلمين في العقائد والأحكام الفقهية، ووجد عندهم مرض آخر هو الغرور بالفلسفة وتأويل القرآن ليرجع إليها، وتأويله لبعض النظريات العلمية التي لم يقر قرارها، وذلك خطر عظيم على الكتاب، فإن للفلاسفة أوهاماً لا تزيد على هذيان المصاب بالحمى، والنظريات التي لم تستقر لا يصح أن يُردّ إليها كتاب الله[1].

ولكن الأستاذ المراغي مع هذا كله كان يرى أن يكون مفسر كتاب الله على شيء من العلم ببعض نظريات العلم الحديث، ليستطيع أن يأخذ منها دليلاً على قدرة الله، ويستلهم منها مكان العبرة والعظة، فقال: ليس من غرض مفسر كتاب الله أن يشرح عالم السموات، ومادته وأبعاده وأقداره، وأوزانه؟ لكنه يجب أن يلم بطرف يسير منه، ليدل به على القدرة الإلهية ويشير إليه للعظة والاعتبار.

ثم وجدنا الأستاذ المراغي بعد هذا كله يشرح قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ۝١٠﴾ [لقمان: ١٠] شرحاً على هذا المبدأ الذي ارتضاه فقال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾ السموات مجموع ما نراه في الفضاء فوقنا من سيارات، ونجوم وسدائم... فإذا قيل: إن نظام الجاذبية وهو الناموس الإلهي قائم مقام العمد، ويطلق عليه اسم العمد، جاز أن نقول: إن لها عمداً غير منظورة.

حرية الرأي في تفسيره:

ثم إن الشيخ المراغي رحمه الله كان كغيره من رجال هذه المدرسة لا يتقيد بأقوال الأئمة، ولا يقف عند مذهب مخصوص معين. [فنراه أحيانا يبتعد عن الحديث عن عالم الجن، ورمْي النجوم للشياطين بالشهب، ويتأوّل هذا].

فمثلاً في الآية: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥﴾ [الملك: ٥] يشرح كون النجوم رجوماً للشياطين بمعناه: «أن ما في السماء من النجوم دلائل قاطعة على تمام قدرة الله تعالى، فالله سبحانه وتعالى زين السماء الدنيا بهذه

---

١) الدروس الدينية لسنة: ١٣٥٦هـ، ص٤٢.

الكواكب، وجعلها على هيئات مخصومة ونظام محكم، لتكون حججاً دامغة، وأدلة قوية على من يجحدون قدرة الله وينكرون وجوده».

ثم يستشعر الشيخ بعد ذلك أن في القرآن آيات كثيرة تصادم هذا الفهم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾ [الصافات: ٦ ـ ١٠] وكقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾ [الجن: ٨ ـ ٩] يستشعر الشيخ مصادمة هذه الآيات لرأيه فيقول ما معناه: «وهناك آيات أخرى في هذا المقام، تبدو مخالفة لهذا المعنى ولكن يمكن حملها عليه، وليس في الوقت متسع لذلك، وسنعرض لها في موضوع غير هذا».

ولست أدري كيف كان يستطيع الشيخ رحمه الله أن يحمل كل الآيات الواردة في هذا الموضوع على المعنى الذي قاله حملاً صحيحاً، وهي كما ترى صريحة في أن الشياطين كانوا يصعدون إلى السماء ويسترقون السمع، ثم منعوا من ذلك عند رسالة محمد ﷺ، فمن حاول منهم استراق السمع ـ كما كانوا يفعلون من قبل ـ رُميَ بشهاب من السماء فحال بينه وبين ما يريد.

وخاتمة المطاف في هذه الدروس، أنها كانت عاملاً قوياً في توجيه المسلمين ونشئهم الطيب الطاهر إلى الجانب الديني، ولفت أنظارهم إلى ما في كتاب الله من تشريع حكيم، وأدب جَمّ كريم، وإرشاد قيم مفيد، فحببت إليهم الدين، وزينته في قلوبهم، وهرعوا إليه يتعرفون حكمه، وأحكامه ويتلمسون بها حياة طيبة ونهضة قوية، أساسها الدين والخلق الكريم.

تم والحمد لله

الدكتور محمد أبو زيد أبو زيد

الثلاثاء، ٧ جمادى الاولى، ١٤٢٣/الموافق: ٢٠٠٢/٧/١٦م

التراجم

العلم | **الصفحة**

إبن سينا ٢٦٦
أبو منصور العجلي ١٥٤
أبي بن كعب ٣٨
أحمد بن إبراهيم الثعلبي ٨٢
أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني ١٢
أحمد بن علي الرازي (الجصاص) ٢٦٩
إسماعيل بن كثير ٨٧
الأسود بن يزيد ٥١
الحسن البصري ٥٢
الحسن العسكري ١٧٠
الحسن بن مسعود الفراء البغوي ٨٤
العجلي ٤٧
الفارابي ٢٦٤
الفضل بن الحسين الطبرسي ١٧٥
المغيرة بن سعيد العجلي ١٥٤
بابك الخرمي ١٥٢
بهاء الله ٢١٢
بيان بن سمعان التميمي ١٥٤
جلال الدين المحلى ١١٩
جلال الدين عبد الرحمن السيوطي .... ٩١ ـ ١١٩
رفيع بن مهران الرياحي ٤٩
روزبهان البقلي الشيرازي ٢٥٢

العلم	الصفحة

زيد بن أسلم ٤٩
سعيد بن أبي عروبة ٧٣
سعيد بن جبير ٤٤
سلطان محمد حيدر الخراساني ١٩٥
سهل بن حنيف ٤٦
سهل بن عبد الله التستري ٢٤٩
سهل بن محمد الإمام (أبو حاتم) ٤٩
شعبة بن الحجاج ٥٤
طاووس بن كيسان اليماني ٤٧
طنطاوي جوهري ٢٩١
عامر الشعبي ٥١
عبد الحق بن غالب بن عطية ٨٦
عبد الرحمن بن ملجم ٣٧
عبد الرزاق القاشاني ٢٥٦
عبد الله أحمد النسفي ١٠٩
عبد الله بن حبيب (السلمي) ٢٣
عبد الله بن سلام ٧٠
عبد الله بن عمر البيضاوي ١٠٧
عبد الله بن محمد رضا العلوي ١٩١
عبد الله بن مسعود ٣٤
عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج ٧٢
عثمان بن حكيم ٤٦
عطاء بن أبي رباح ٤٨
عقبة بن عامر ٣٦
عكرمة بن أبي جهل ٤٦
علاء الدولة السمناني ٢٥٣
علقمة بن قيس ٥٠

العلم	الصفحة
علي بن أبي طالب رضي الله عنه	٣٦
علي بن الطاهر بن موسى الكاظم	١٤٠
علي بن محمد الشيحي (الخازن)	١١٢
علي بن محمد الطبري (الكيا الهراسي)	٢٧١
قاضي شهبة	٨٧
قتادة بن دعامة السدوسي	٥٢
كعب الأحبار	٧٠
مجاهد بن جبر	٤٥
محمد بن أحمد الشربيني	١٢١
محمد بن أحمد بن فرح (القرطبي)	٢٧٥
محمد حسين الذهبي	١٠
محمد بن الحسين الأزدي السلمي	٢٥٠
محمد بن الشاه مرتضى الكاشي	١٨٢
محمد بن جرير الطبري	٧٤
محمد بن سيرين	٥٢
محمد بن عبد الله (الزركشي)	١٤
محمد بن عبد الله الأندلسي (ابن العربي)	٢٧٢
محمد بن علي الشوكاني	٢٢١
محمد بن عمر التميمي الرازي	١٠٤
محمد بن كعب القرظي	٤٩
محمد بن محمد مصطفى (أبو السعود)	١٢٣
محمد بن مخلوف الثعالبي	٨٩
محمد بن يوسف إطفيش	٢٣١
محمد بن يوسف بن حيان	١١٤
محمد رشيد رضا	٣١١
محمد عبده	٣٠٤
محمد مصطفى المراغي	٣١٨

العلم	الصفحة
محمود أفندي الآلوسي	١٢٦
محمود بن عمر الخوارزمي الزمخشري	١٤٢
محيي الدين بن عربي	٢٣٩ ـ ٢٥٨
مرة الهمداني	٥١
مسروق بن الأجدع	٥٠
معبد الجهني	١٣٠
معمر بن المثنى التيمي	١٣
مقداد السيوري	٢٧٧
نجم الدين داية	٢٥٣
نصر بن محمد السمرقندي	٨١
نظام الدين بن الحسن (النظام الأعرج)	١١٦
واصل بن عطاء	١٣١
وهب بن منبه	٧١
يوسف الثلائي	٢٧٨

المحتويات

مقدمة الطبعة الثانية ٧

وعملي في الكتاب يتلخص فيما يأتي: ٧

التعريف بالذهبي ١٠

من مؤلفاته: ١٠

المقدمة ١١

المبحث الأول معنى التفسير والتأويل والفرق بينهما: التفسير في اللغة: ... ١١

التفسير في الاصطلاح: ١١

التأويل في اللغة: ١١

التأويل في الاصطلاح: ١٢

١ ـ [التأويل عند السلف: التأويل عند السلف له معنيان: ١٢

٢ ـ التأويل عند المتأخرين من المتفقهة، والمتكلمة، والمحدثة، والمتصوفة: ١٢

الفرق بين التفسير والتأويل ١٣

[ومن] أقوال العلماء في الفرق بين التفسير والتأويل: ١٣

المبحث الثاني تفسير القرآن بغير لغته ١٤

١ ـ الترجمة الحرفية للقرآن ١٤

أ ـ أما الترجمة الحرفية بالمثل: ١٥

ب ـ وأما الترجمة الحرفية بغير المثل: ١٥

الترجمة الحرفية ليست تفسيراً للقرآن: ١٥

٢ ـ الترجمة التفسيرية للقرآن ١٦

شروط الترجمة التفسيرية ١٦

الباب الأول
المرحلة الأولى للتفسير
أو: التفسير في عهد النبي ﷺ وأصحابه

الفصل الأول: فهم النبي ﷺ والصحابة للقرآن ١٩

تمهيد: ١٩

فَهْم النبي ﷺ والصحابة للقرآن: ١٩

تفاوت الصحابة في فهم القرآن: ١٩

مصادر التفسير في عهد النبي ﷺ وأصحابه ٢٠

المصدر الأول: القرآن الكريم ٢١

المصدر الثاني: النبي ﷺ ٢١

الوضع على رسول الله ﷺ في التفسير: ٢٢

هل تناول النبي ﷺ القرآن كله بالبيان؟ ٢٢

١. أدلة من قال بأن النبي ﷺ بين كل معاني القرآن: ٢٣

٢. أدلة من قال بأن النبي ﷺ لم يبين لأصحابه إلا القليل من معاني القرآن: ٢٤

مناقشة أدلة الفريق الأول ٢٤

مناقشة أدلة الفريق الثاني ٢٥

اختيارنا في المسألة: ٢٥

أوجه بيان السنة للكتاب ٢٦

المصدر الثالث: الاجتهاد ٢٧

أدوات الاجتهاد في التفسير عند الصحابة: ٢٧

المصدر الرابع: أهل الكتاب ٢٨

أهمية هذا المصدر بالنسبة للمصادر السابقة: ٢٨

الفصل الثاني: أشهر المفسرين من الصحابة ٢٩

١ ـ عبد الله بن عباس ٢٩

ترجمته: ٢٩

مبلغه من العلم: ٣٠

أسباب نبوغه: ٣٠
قيمة ابن عباس في تفسير القرآن: ٣١
رجوع ابن عباس إلى أهل الكتاب: ٣١
ردّ هذا الاتهام: ٣٢
رجوع ابن عباس إلى الشعر القديم: ٣٢
الرواية عن ابن عباس ومبلغها من الصحة: ٣٢
طعن جولد زيهر على هذه الطريقة: ٣٣
تفنيد هذا الطعن: ٣٣
التفسير المنسوب إلى ابن عباس وقيمته: ٣٤
أسباب الوضع على ابن عباس: ٣٤
٢ ـ عبد الله بن مسعود ٣٤
ترجمته: ٣٤
مبلغه من العلم: ٣٥
قيمة ابن مسعود في التفسير: ٣٥
الرواية عن ابن مسعود ومبلغها من الصحة: ٣٦
٣ ـ علي بن أبي طالب ٣٦
ترجمته: ٣٦
مبلغه من العلم: ٣٧
مكانته في التفسير: ٣٧
الرواية عن علي ومبلغها من الصحة: ٣٨
أهم الطرق عن علي في التفسير: ٣٨
٤ ـ أبي بن كعب ٣٨
ترجمته: ٣٨
مبلغه من العلم: ٣٨
مكانته في التفسير: ٣٩
الرواية عنه في التفسير ومبلغها من الصحة: ٣٩
الفصل الثالث: قيمة التفسير المأثور عن الصحابة ٤٠

الفصل الرابع: مميزات التفسير في عهد النبي ﷺ وأصحابه ٤١

الباب الثاني
المرحلة الثانية للتفسير
أو: التفسير في عصر التابعين

الفصل الأول ٤٣
أ ـ ابتداء هذه المرحلة: ٤٣
ب ـ مصادر التفسير في هذا العصر: ٤٣
ج ـ مدارس التفسير في عصر التابعين: ٤٣
أولا: مدرسة التفسير بمكة ٤٤
قيامها على ابن عباس: ٤٤
١ ـ سعيد بن جُبَير ٤٤
ترجمته ومكانته في التفسير: ٤٤
٢ ـ مجاهد بن جَبْر ٤٥
مكانته في التفسير: ٤٥
مجاهد والتفسير العقلي: ٤٥
٣ ـ عكرمة ٤٦
ترجمته واختلاف العلماء في توثيقه: ٤٦
تفنيد هذه المطاعن ودفاع عكرمة عن نفسه: ٤٦
شهادات الموثقين له: ٤٧
مبلغه من العلم ومكانته في التفسير: ٤٧
٤ ـ طاووس بن كَيْسان اليماني ٤٧
ترجمته ومكانته في التفسير: ٤٧
٥ ـ عطاء بن أبي رباح ٤٨
ترجمته ومكانته في التفسير: ٤٨
ثانيا: مدرسة التفسير بالمدينة ٤٨
قيامها على أبيّ بن كعب: ٤٨

١ ـ أبو العالية ٤٩
ترجمته ومكانته في التفسير: ٤٩
٢ ـ محمد بن كعب القرظي ٤٩
ترجمته ومكانته في التفسير: ٤٩
٣ ـ زيد بن أسلم ٤٩
ترجمته ومكانته في التفسير: ٤٩
ثالثا: مدرسة التفسير بالعراق ٥٠
قيامها على ابن مسعود: ٥٠
١ ـ علقمة بن قيس ٥٠
ترجمته ومكانته في التفسير: ٥٠
٢ ـ مسروق ٥٠
ترجمته ومكانته في التفسير: ٥٠
٣ ـ الأسود بن يزيد ٥١
ترجمته ومكانته في التفسير: ٥١
٤ ـ مرة الهمداني ٥١
٥ ـ عامر الشَّعْبي ٥١
ترجمته ومكانته في التفسير: ٥١
٦ ـ الحسن البصري ٥٢
ترجمته ومكانته في التفسير: ٥٢
٧ ـ قتادة ٥٢
ترجمته ومكانته في التفسير: ٥٢
الفصل الثاني: قيمة التفسير المأثور عن التابعين ٥٤
الفصل الثالث: مميزات التفسير في عصر التابعين ٥٥
يمتاز التفسير في هذه المرحلة بالمميزات الآتية: ٥٥
الفصل الرابع: الخلاف بين السلف في التفسير ٥٦

الباب الثالث
المرحلة الثالثة للتفسير
أو: التفسير في عصور التدوين

الخطوات التي تدرج فيها التفسير ٥٩
١ ـ [الرواية]: ٥٩
٢ ـ [التدوين مع الحديث]: ٥٩
٣ ـ [الإنفصال عن الحديث]: ٦٠
٤ ـ [تجاوز الإسناد]: ٦٠
٥ ـ [اختلاط التفسير بالفهم العقلي]: ٦٠
تدرج التفسير العقلي ٦١
التفسير الموضوعي ٦١
توسع المتقدمين قعد بالمتأخرين عن البحث المستقل ٦١
الفصل الأول: التفسير بالمأثور ٦٢
ما هو التفسير المأثور؟ ٦٢
اللون الشخصي للتفسير المأثور: ٦٢
الضعف في رواية التفسير المأثور وأسبابه: ٦٣
أولا: الوضع في التفسير ٦٣
أ ـ نشأة الوضع في التفسير: ٦٣
ب ـ أسباب الوضع في التفسير: ومنها: ٦٣
ج ـ أثر الوضع في التفسير: ٦٤
شبهة: ٦٤
الرد: ٦٤
ثانيا: دخول الإسرائيليات في التفسير ٦٥
١ ـ المراد بالإسرائيليات: ٦٥
٢ ـ مبدأ دخول الإسرائيليات في التفسير وتطوره: ٦٦
شبهة وردّ: ٦٧
٣ ـ أثر الإسرائيليات في التفسير: ٦٨

٤ ـ قيمة ما يروى من الإسرائيليات: ٦٨
٥ ـ موقف المفسر إزاء هذه الإسرائيليات: ٦٩
٦ ـ أقطاب الروايات الإسرائيلية: ٦٩
١ ـ عبد الله بن سلام ٧٠
ترجمته ومبلغه من العلم والعدالة: ٧٠
٢ ـ كعْب الأحْبار ٧٠
ترجمته ومبلغه من العلم: ٧٠
ثقته وعدالته: ٧١
اتهام الأستاذ أحمد أمين لكعب: ٧١
٣ ـ وهْبُ بن مُنَبِّه ٧١
ترجمته ومبلغه من العلم والعدالة: ٧١
شهادات الموثقين له: ٧٢
٤ ـ عبد الملك بن عبد العزيز بن جُرَيْج ٧٢
ترجمته ومبلغه من العلم والعدالة: ٧٢
ثالثاً: حذف الإسناد ٧٣
أشهر ما دون من كتب التفسير المأثور وخصائص هذه الكتب ٧٤
١ ـ جامع البيان في تفسير القرآن للطبري ٧٤
التعريف بمؤلف هذا التفسير: ٧٤
مبلغه من العلم والعدالة: ٧٥
التعريف بهذا التفسير: ٧٥
طريقة ابن جرير في تفسيره: ٧٦
إنكاره على من يفسر بمجرد الرأي: ٧٦
موقفه من الأسانيد: ٧٧
تقديره للإجماع: ٧٧
موقفه من القراءات: ٧٨
موقفه من الإسرائيليات: ٧٨
انصرافه عما لا فائدة فيه: ٧٩

احتكامه إلى المعروف من كلام العرب: ٧٩
رجوعه إلى الشعر القديم: ٧٩
اهتمامه بالمذاهب النحوية: ٧٩
معالجته للأحكام الفقهية: ٨٠
خوضه في مسائل الكلام: ٨٠
٢ ـ بحر العلوم للسمرقندي ٨١
التعريف بمؤلف هذا التفسير: ٨١
التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه: ٨٢
٣ ـ الكشف والبيان عن تفسير القرآن للثعلبي ٨٢
التعريف بمؤلف هذا التفسير: ٨٢
التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه: ٨٣
٤ ـ معالم التنزيل للبغوي ٨٤
التعريف بمؤلف هذا التفسير: ٨٤
التعريف بمعالم التنزيل وطريقة مؤلفه فيه: ٨٥
٥ ـ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية ٨٦
التعريف بمؤلف هذا التفسير: ٨٦
التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه: ٨٦
٦ ـ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨٧
التعريف بمؤلف هذا التفسير: ٨٧
مكانته العلمية: ٨٨
التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه: ٨٨
٧ ـ الجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي ٨٩
التعريف بمؤلف هذا التفسير: ٨٩
التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه: ٩٠
٨ ـ الدر المنثور في التفسير المأثور للسيوطي ٩١
التعريف بمؤلف هذا التفسير: ٩١
التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه: ٩١

الفصل الثاني: التفسير بالرأي وما يتعلق به من مباحث ٩٣
موقف العلماء من التفسير بالرأي: ٩٣
أولاً: [مناقشة مانعي التفسير بالرأي] ٩٣
ثانياً: [أدلة المجوزين للتفسير بالرأي] ٩٦
الرأي قسمان: ٩٦
العلوم التي يحتاج إليها المفسر ٩٧
مصادر التفسير ٩٨
الأمور التي يجب على المفسر أن يتجنبها في تفسيره ٩٩
المنهج الذي يجب على المفسر أن ينهجه في تفسيره ٩٩
قانون الترجيح في الرأي ١٠٠
منشأ الخطأ في التفسير بالرأي ١٠٠
التعارض بين التفسير المأثور والتفسير بالرأي ١٠٢
الفصل الثالث: أهم كتب التفسير بالرأي الجائز ١٠٣
١ ـ مفاتيح الغيب للرازي ١٠٤
التعريف بمؤلف هذا التفسير: ١٠٤
التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه: ١٠٤
اهتمام الرازي بالمناسبات بين الآيات والسّور: ١٠٦
اهتمامه بالعلوم الرياضية والفلسفية: ١٠٦
موقفه من المعتزلة: ١٠٦
موقفه من علوم الفقه والأصول والنحو والبلاغة: ١٠٧
٢ ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ١٠٧
التعريف بمؤلف هذا التفسير: ١٠٧
التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه: ١٠٨
٣ ـ مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي ١٠٩
التعريف بمؤلف هذا التفسير: ١٠٩
التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه: ١١٠
خوضه في المسائل النحوية: ١١٠

موقفه من القراءات وخوضه في مسائل الفقه: ١١٠
موقفه من الإسرائيليات: ١١١
٤ ـ لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ١١٢
التعريف بمؤلف هذا التفسير: ١١٢
التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه: ١١٢
توسعه في ذكر الإسرائيليات: ١١٢
عنايته بالأخبار التاريخية: ١١٣
عنايته بالناحية الفقهية: ١١٣
عنايته بالمواعظ: ١١٤
٥ ـ البحر المحيط لأبي حيان ١١٤
التعريف بمؤلف هذا التفسير: ١١٤
التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه: ١١٥
٦ ـ غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوي ١١٦
التعريف بمؤلف هذا التفسير: ١١٦
التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه: ١١٦
موقفه من الزمخشري والفخر الرازي: ١١٧
نهجه في التفسير: ١١٧
خوضه في المسائل الكلامية: ١١٨
خوضه في المسائل الكونية والفلسفية: ١١٨
النزعة الصوفية في تفسير النيسابوري: ١١٨
ليس في تفسير النيسابوري ما يدل على تشيعه: ١١٩
٧ ـ تفسير الجلالين لجلال الدين المحلى وجلال الدين السيوطي ١١٩
التعريف بمؤلفي هذا التفسير: ١١٩
التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفَيْه فيه: ١٢٠
٨ ـ السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير للخطيب الشربيني ١٢١
التعريف بمؤلف هذا التفسير: ١٢١

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه: ١٢١
موقفه من القراءات والأعاريب والحديث: ١٢١
اهتمامه بالنكت التفسيرية وبالمناسبات بين الآيات: ١٢٢
موقفه من المسائل الفقهية: ١٢٢
خوضه في الإسرائيليات: ١٢٢
٩ ـ إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود ١٢٣
التعريف بمؤلف هذا التفسير: ١٢٣
التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه: ١٢٣
عنايته ببلاغة القرآن وبالمناسبات والقراءات: ١٢٤
إقلاله من رواية الإسرائيليات: ١٢٤
روايته عن بعض من اشتهر بالكذب: ١٢٥
إقلاله من ذكر المسائل الفقهية: ١٢٥
ذكره لوجوه الإعراب: ١٢٥
١٠ ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للآلوسي ١٢٦
التعريف بمؤلف هذا التفسير: ١٢٦
التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه: ١٢٦
موقف الآلوسي من المخالفين لأهل السنة: ١٢٧
الآلوسي والمسائل الكونية: ١٢٧
كثرة استطراده في المسائل النحوية: ١٢٨
موقفه من المسائل الفقهية: ١٢٨
موقفه من الإسرائيليات: ١٢٨
تعرضه للقراءات والمناسبات وأسباب النزول: ١٢٩
الآلوسي والتفسير الإشاري: ١٢٩
الفصل الرابع: التفسير بالرأي المذموم أو: تفسير الفرق المبتدعة ١٣٠
تمهيد في بيان نشأة الفرق الإسلامية: ١٣٠

المعتزلة
وموقفهم من تفسير القرآن الكريم

كلمة إجمالية عن المعتزلة وأصولهم المذهبية: نشأة المعتزلة: ١٣٢
أصول المعتزلة: ١٣٣
موقف المعتزلة من تفسير القرآن الكريم ١٣٣
إنكار المعتزلة لما يعارضهم من الأحاديث الصحيحة ١٣٣
ادعاؤهم أن كل محاولاتهم في التفسير مرادة لله ١٣٤
المبدأ اللغوي في التفسير وأهميته لدى المعتزلة ١٣٤
تصرف المعتزلة في القراءات المتواترة المنافية لمذهبهم ١٣٥
تفسيرهم للقرآن على ضوء ما أنكروه من الحقائق الدينية ١٣٥
حُكم الإمام أبي الحسن الأشعري على تفسير المعتزلة ١٣٦
حكم ابن تيمية على تفسير المعتزلة ١٣٦
أهم كتب التفسير الاعتزالي ١٣٦
١ ـ تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عبد الجبار ١٣٧
التعريف بمؤلف هذا التفسير: ١٣٧
التعريف بالتفسير وطريقة مؤلفه فيه: ١٣٧
بعض مواقفه من المشكلات العقدية الاعتزالية ١٣٨
١ ـ الهداية والضلال: ١٣٨
٢ ـ مس الشيطان: ١٣٨
٣ ـ رؤية الله: ١٣٨
٤ ـ أفعال العباد: ١٣٩
٥ ـ المنزلة بين المنزلتين: ١٣٩
٦ ـ تذرعه بالمجاز والتشبيه فيما يستبعد ظاهره: ١٣٩
٢ ـ أمالي الشريف المرتضى أو غُرر الفوائد ودُرر القلائد ١٤٠
التعريف بمؤلف هذا الكتاب: ١٤٠
التعريف بهذا الكتاب وطريقة مؤلفه فيه: ١٤٠
الطريقة اللغوية في تفسيره للقرآن: ١٤١

[أثر تشيعه على الأمالي:] ١٤١
٣ ـ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري ١٤٢
التعريف بمؤلف هذا التفسير: ١٤٢
التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه: ١٤٢
مقالة الشيخ حيدر الهروي في الكشاف: ١٤٣
مقالة التاج السبكي: ١٤٣
اهتمام الزمخشري بالناحية البلاغية للقرآن: ١٤٤
تذرعه بالمعاني اللغوية لنصرة مذهبه الاعتزالي: ١٤٥
مبدأ الزمخشري في التفسير عندما يصادم النص القرآني مذهبه: ١٤٥
انتصاره لرأي المعتزلة في أصحاب الكبائر: ١٤٦
حملة الزمخشري على أهل السنة: ١٤٦
حملة ابن المنير على الزمخشري: ١٤٧
موقف الزمخشري من المسائل الفقهية: ١٤٧
موقف الزمخشري من الإسرائيليات: ١٤٧

الشيعة
وموقفهم من تفسير القرآن الكريم

كلمة إجمالية عن الشيعة وعقائدهم: ١٤٩
أ ـ الزيدية ١٥٠
قوام مذهب الزيدية: ١٥٠
ب ـ الإمامية ١٥٠
١ ـ الإمامية الإثنا عشرية ١٥١
أشهر تعاليم الإمامية الإثني عشرية: ١٥١
٢ ـ الإمامية الإسماعيلية ١٥٢
موقف الشيعة من تفسير القرآن الكريم ١٥٣
من تأويلات السبئية : ١٥٣
من تأويلات البيانية: ١٥٤
من تأويلات المغيرية: ١٥٤

من تأويلات المنصورية: ١٥٤
من تأويلات الخطابية: ١٥٥
من تأويلات العبيديين: ١٥٥
١ ـ موقف الإمامية الإثني عشرية من تفسير القرآن الكريم ١٥٧
موقفهم من الأئمة وأثر ذلك في تفسيرهم: ١٥٧
تأثر الإمامية الإثني عشرية بآراء المعتزلة وأثر ذلك في تفسيرهم: ١٥٨
تأثرهم بمذاهبهم الفقهية والأصولية في تفاسيرهم: ١٥٨
احتيالهم على تركيز عقائدهم وترويجها: ١٥٩
١ ـ للقرآن ظاهر وباطن ١٥٩
حملهم الناس على التسليم بما يدعون من المعاني الباطنة للقرآن: ١٥٩
أثر التفسير الباطني في تلاعبهم بنصوص القرآن: ١٥٩
٢ ـ القرآن كله في أئمتهم ١٦٠
٣ ـ تحريف القرآن وتبديله ١٦٠
٤ ـ موقفهم من الأحاديث النبوية وآثار الصحابة ١٦١
أهم كتب التفسير عند الإمامية الإثني عشرية ١٦٢
١ ـ مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار للمولى عبد اللطيف الكازراني ١٦٣
التعريف بمرآة الأنوار ومشكاة الأسرار وطريقة مؤلفه فيه: ١٦٣
١ ـ [بطن القرآن في الأئمة وظاهره في الدعوة إلى الإسلام] ١٦٥
٢ ـ [وقوع التحريف في القرآن] ١٦٦
٣ ـ [تأويلات الأئمة] ١٦٧
ثم ذكر تأويلات متفرقة مثل: ١٦٨
ثم ذكر الخاتمة، وجعلها مشتملة على فصلين ١٦٨
٢ ـ تفسير الحسن العسكري ١٧٠
التعريف بمؤلف هذا التفسير: ١٧٠
التعريف بهذا التفسير: ١٧٠
ولاية علي: ١٧١
روايات مكذوبة في فضل أهل البيت: ١٧٢

توسل الأنبياء والأمم السابقة بمحمد ﷺ وبأهل البيت: ١٧٣
التقية: ١٧٤
تأثره بمذهب المعتزلة: ١٧٤
تأثره في تفسيره بآراء الشيعة في الفروع الفقهية: ١٧٤
٣ ـ مجمع البيان لعلوم القرآن للطبرسي ١٧٥
ترجمة المؤلف ومكانته العلمية: ١٧٥
التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه: ١٧٥
إمامة علي رضي الله عنه: ١٧٦
عصمة الأئمة: ١٧٧
الرجعة والمهدي: ١٧٧
التقية: ١٧٨
تأثّر الطبرسي بفقه الشيعة في تفسيره: ١٧٨
ميراث الأنبياء عليهم السلام: ١٧٨
الإجماع: ١٧٩
تأثّر الطبرسي بمذهب المعتزلة في تفسيره: ١٧٩
السحر: ١٧٩
روايته للأحاديث الموضوعة: ١٨٠
موقفه من الإسرائيليات: ١٨٠
التفسير الرمزي: ١٨١
اعتداله في تشيّعه: ١٨٢
٤ ـ الصافي في تفسير القرآن الكريم للملا محسن الكاشي ١٨٢
التعريف بصاحب هذا التفسير: ١٨٢
التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه: ١٨٣
آل البيت هم تراجمة القرآن: لأنهم جمعوا علمه كله دون من عداهم: .. ١٨٤
من يجوز له أن يفسر القرآن برأيه: ١٨٤
الطعن في تفسير الصحابة: ١٨٤
جُلّ القرآن نازل في شأن آل البيت وأوليائهم وأعدائهم: ١٨٥

رأيه في تحريف القرآن وتبديله: ١٨٥
طريقة المؤلف في تفسيره: ١٨٦
القرآن وأهل البيت: ١٨٦
طعن المؤلف على الصحابة: ١٨٧
طعنه على عثمان رضي الله عنه: ١٨٧
طعنه على أبي بكر وعمر وعائشة وحفصة رضي الله عنهم: ١٨٧
ولاية عليّ: ١٨٨
أولو الأمر الذين تجب طاعتهم: ١٨٨
استدلاله على الرجعة: ١٨٨
تأثره في تفسيره بالفروع الفقهية للإمامية: ١٨٨
المتعة: ١٨٩
نكاح الكتابيات: ١٨٩
مسح الرجلين في الوضوء: ١٨٩
الغنائم: ١٨٩
أفعال العباد: ١٩٠
رؤية الله: ١٩٠
الشفاعة: ١٩٠
السحر: ١٩٠
روايته للأحاديث الموضوعة: ١٩١
٥ ـ تفسير القرآن للسيد عبد الله العلوي ١٩١
التعريف بصاحب هذا التفسير: ١٩١
التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه: ١٩١
تعصب المؤلف لأصول مذهبه وأثر ذلك في تفسيره ١٩٢
الإمامة [والعصمة]: ١٩٢
الرجعة وتحريف القرآن: ١٩٢
طعنه على الصحابة: ١٩٣
تعصبه لآل البيت: ١٩٣

تأثّر المؤلف في تفسيره بفروع الإمامية الفقهية ١٩٣
نكاح المتعة: ١٩٣
الغنائم وميراث الأنبياء: ١٩٣
نكاح الكتابيات: ١٩٤
تأثّره بمذهب المعتزلة في تفسيره ١٩٤
حرية الإرادة وخلق الأفعال: ١٩٤
رؤية الله وغفران الذّنوب: ١٩٤
٦ ـ بيان السعادة في مقامات العبادة لسلطان محمد الخراساني ١٩٥
التعريف بصاحب هذا التفسير: ١٩٥
قيمة هذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه: ١٩٥
الإماميّة الإثنا عشريّة والمهدي المنتظر: ١٩٥
القرآن والعترة: ١٩٦
علم القرآن جميعه عند محمد ﷺ والأوصياء: ١٩٦
تحريف القرآن وتبديله: ١٩٦
نزول القرآن في شأن الأئمة وأشياعهم وأعدائهم: ١٩٦
[نزعته] الصوفية: ١٩٧
[ميله] إلى التفسير الفلسفي: ١٩٧
آل البيت والأمم السّابقة: ١٩٨
قَصَص القرآن: ١٩٨
الإمامة: ١٩٩
الرّجعة: ١٩٩
تحريف القرآن: ١٩٩
موقف المؤلف من الصحابة: ١٩٩
الناحية الفقهية في هذا التفسير ٢٠٠
نكاح الكتابيات: ٢٠٠
المتعة: ٢٠٠
ميراث الأنبياء: ٢٠١

الغنائم: ٢٠١
موقف المؤلف في المسائل الكلاميّة ٢٠١
رؤية الله: ٢٠١
السحر: ٢٠٢
الإمامية الإسماعيلية (الباطنية) وموقفهم من تفسير القرآن الكريم ٢٠٢
كلمة إجمالية عن الإسماعيلية وعقائدهم وأغراضهم: ٢٠٢
مؤسّسو هذه الطائفة: ٢٠٣
احتيالهم على الوصول إلى أغراضهم: ٢٠٣
مراتب الدّعوة عند الباطنيّة ٢٠٣
إنتاج الباطنية في تفسير القرآن الكريم: ٢٠٥
١ ـ موقف متقدّمي الباطنيّة من تفسير القرآن الكريم ٢٠٥
من تأويلات الباطنية القدامى: ٢٠٦
مقالة محمد بن مالك اليماني في الباطنيّة: ٢٠٨
٢ ـ موقف متأخّري الباطنيّة من تفسير القرآن الكريم ٢١٠
تمهيد: في بيان انتشار الباطنيّة في البلاد الآن وتعدّد ألقابهم: ٢١٠
البابية والبهائية ٢١١
كلمة إجمالية عن نشأة البابيّة والبهائيّة: ٢١١
(بهاء الله): ٢١٢
الصّلة بين عقائد البابيّة وعقائد الباطنيّة القدامى: ٢١٣
موقف البابية والبهائية من تفسير القرآن الكريم ٢١٤
أبو الفضائل الإيراني يعيب تفاسير أهل السّنة: ٢١٤
إنتاج البابية والبهائية في التفسير، ومثل من تأويلاتهم الفاسدة: ٢١٥
من تأويلات الباب: ٢١٥
من تأويلات بهاء الله: ٢١٥
من تأويلات عبد البهاء عباس: ٢١٦
الزيدية وموقفهم من تفسير القرآن الكريم ٢١٩
تمهيد: ٢١٩

أهم كتب التّفسير عند الزّيديّة: ٢٢٠
فتح القدير للشوكاني ٢٢١
التعريف بمؤلف هذا التفسير: ٢٢١
التعريف بهذا التفسير: ٢٢٢
طريقة الشّوكاني في تفسيره: ٢٢٢
نقله للروايات الموضوعة والضعيفة: ٢٢٢
ذمه للتقليد والمقلدين: ٢٢٣
حياة الشهداء: ٢٢٣
التوسل: ٢٢٤
موقفه من المتشابه: ٢٢٤
موقفه من آراء المعتزلة: ٢٢٤
موقف الشوكاني من مسألة خلق القرآن: ٢٢٥
الخوارج وموقفهم من تفسير القرآن الكريم ٢٢٦
كلمة إجمالية عن الخوارج: ٢٢٦
[أشهر فرق الخوارج]: ٢٢٧
موقف الخوارج من تفسير القرآن الكريم ٢٢٨
مدى فهم الخوارج لنصوص القرآن: ٢٢٩
موقف الخوارج من السنة وإجماع الأمة وأثر ذلك في تفسيرهم للقرآن: ٢٢٩
الإنتاج التفسيري للخوارج [الإباضية]: ٢٣٠
أسباب قلة إنتاج الخوارج في التفسير: ٢٣١
هميان الزاد إلى دار المعاد لمحمد بن يوسف إطفيش ٢٣١
التعريف بمؤلف هذا التفسير: ٢٣١
التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه: ٢٣٢
حقيقة الإيمان: ٢٣٢
موقفه من أصحاب الكبائر: ٢٣٣
حملته على أهل السنة: ٢٣٣
رأيه في الشفاعة: ٢٣٣

رؤية الله تعالى: ٢٣٤
أفعال العباد: ٢٣٤
موقفه من المتشابه: ٢٣٤
موقفه من تفسير الصّوفية: ٢٣٥
موقفه من الشّيعة: ٢٣٥
رأيه في التحكيم: ٢٣٥
إشادته بالخوارج وحطّه من قدر عثمان وعلي ومن والاهما: ٢٣٦
اعتداده بنفسه وحملته على جمهور المسلمين: ٢٣٦
الفصل الخامس: تفسير الصّوفيّة ٢٣٧
تمهيد: ٢٣٧
أصل كلمة تصوّف: ٢٣٧
معنى التصوّف: ٢٣٧
نشأة التصوّف و تطوّره: ٢٣٨
أقسام التصوف: ٢٣٨
أولا ـ التفسير الصّوفي النّظري ٢٣٩
إبن عربي: شيخ هذه الطريقة ٢٣٩
تأثّر ابن عربي بالنّظريات الفلسفيّة: ٢٣٩
تأثّره في تفسيره بنظريّة وحدة الوجود: ٢٣٩
قياسه الغائب على الشّاهد: ٢٤٠
إخضاعه قواعد النّحو لنظرته الصّوفيّة: ٢٤٠
التفسير الصّوفي النظري في الميزان ٢٤١
ثانياً ـ التفسير الصّوفي الفيضي أو الإشاري ٢٤٢
الفرق بينه وبين التفسير الصّوفي النظري: ٢٤٢
هل للتفسير الإشاري أصل شرعي؟ ٢٤٢
التفاوت في إدراك المعاني الباطنة وإصابتها: ٢٤٤
التفسير الإشاري في الميزان ٢٤٤
مقالات بعض العلماء في التفسير الإشاري ٢٤٦

مقالة ابن الصلاح: ٢٤٦
مقالة ابن عطاء الله السكندري: ٢٤٦
مقالة ابن عربي في التفسير الإشاري ٢٤٧
رأينا في مقالة ابن عربي: ٢٤٧
شروط قبول التفسير الإشاري ٢٤٨
أهم كتب التفسير الإشاري ٢٤٨
١ ـ تفسير القرآن العظيم للتُسْتَري ٢٤٩
التعريف بمؤلف هذا التفسير: ٢٤٩
التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه: ٢٤٩
٢ ـ حقائق التفسير للسّلمي ٢٥٠
التعريف بمؤلف هذا التفسير: ٢٥٠
التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه: ٢٥٠
طعن بعض العلماء على هذا التفسير: ٢٥١
نماذج من تفسير السّلمي: ٢٥١
٣ ـ عرائس البيان في حقائق القرآن لأبي محمد الشيرازي ٢٥٢
التعريف بالمؤلف وتفسيره: ٢٥٢
٤ ـ التأويلات النّجمية لنجم الدين داية، وعلاء الدولة السمناني ٢٥٣
نجم الدّين داية: ٢٥٣
علاء الدولة السمناني: ٢٥٣
التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفَيه فيه: ٢٥٤
من تأويلات نجم الدّين: ٢٥٥
من تأويلات السّمناني: ٢٥٥
٥ ـ التفسير المنسوب لابن عربي ٢٥٥
مَن مؤلف هذا التفسير؟ ٢٥٥
التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه: ٢٥٦
نموذج من تفسيره الإشاري: ٢٥٧
نماذج التفسير المبني على وحدة الوجود: ٢٥٨

ابن عربي ومذهبه ٢٥٨
ترجمة ابن عربي ٢٥٨
ابن عربي بين أعدائه ومريديه: ٢٥٨
مذهب ابن عربي في وحدة الوجود: ٢٥٩
مذهب ابن عربي في تفسير القرآن الكريم ٢٦٠
يقوم مذهب ابن عربي في التفسير غالبًا على: ٢٦٠
نموذج من التفسير الصوفي النظري له: ٢٦١
نموذج من التفسير الإشاري له: ٢٦١
نموذج من التفسير الظاهر لابن عربي: ٢٦١
الفصل السادس: تفسير الفلاسفة ٢٦٣
كيف وجدت الصلة بين التفسير والفلسفة؟ ٢٦٣
الأثر الفلسفي في تفسير القرآن الكريم ٢٦٤
من تفسير الفارابي ٢٦٤
من تفسير إخوان الصفا ٢٦٤
[ابن سينا والتفسير الفلسفي] ٢٦٦
ترجمته: ٢٦٦
مسلك ابن سينا في التفسير: ٢٦٦
وإليك بعض ما قاله لترى بُعده عن حقائق القرآن الثابتة: ٢٦٧
رأينا في تفسير الفلاسفة ٢٦٧
الفصل السابع: تفسير الفقهاء ٢٦٨
كلمة إجمالية عن تطور التفسير الفقهي ٢٦٨
تنوع التفسير الفقهي تبعاً لتنوع الفِرَق الإسلامية: ٢٦٩
الإنتاج التفسيري للفقهاء ٢٦٩
١ ـ أحكام القرآن للجصّاص (الحنفي) ٢٦٩
ترجمة المؤلف والتعريف بتفسيره: ٢٦٩
استطراده لمسائل فقهية بعيدة عن فقه القرآن: ٢٧٠
تعصبه لمذهبه وحملته على المخالفين: ٢٧٠

تأثر الجصاص بمذهب المعتزلة: ٢٧١
حملة الجصاص على معاوية رضي الله عنه: ٢٧١
٢ ـ أحكام القرآن لكيا الهراسي (الشافعي) ٢٧١
ترجمة المؤلف: ٢٧١
التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه: ٢٧٢
تأدبه مع الأئمة وحملته على الجصاص: ٢٧٢
٣ ـ أحكام القرآن لابن العربي (المالكي) ٢٧٢
ترجمة المؤلف: ٢٧٢
التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه: ٢٧٣
طرف من إنصافه: ٢٧٣
طرف من تعصّبه لمذهبه وحملته على المخالفين: ٢٧٣
احتكامه إلى اللغة: ٢٧٤
كراهته للإسرائيليات: ٢٧٤
نفرته من الأحاديث الضعيفة: ٢٧٥
٤ ـ الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله القرطبي (المالكي) ٢٧٥
ترجمة المؤلف: ٢٧٥
التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه: ٢٧٦
إنصاف القرطبي وعدم تعصبه: ٢٧٦
موقفه من حملات ابن العربي على مخالفيه: ٢٧٧
٥ ـ كنز العرفان في فقه القرآن لمقداد السيوري (من الإمامية الإثني عشرية) . ٢٧٧
ترجمة المؤلف: ٢٧٧
التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه: ٢٧٨
٦ ـ الثمرات اليانعة والأحكام الواضحة القاطعة ليوسف الثلائي (الزيدي) .. ٢٧٨
ترجمة المؤلف وطريقته في تفسيره: ٢٧٨
اعتماد المؤلف على الروايات التي لا تصح: ٢٧٩
رأيه في نكاح الكتابيات: ٢٧٩
المسح على الخفين: ٢٨٠

الفصل الثامن: التفسير العلمي ٢٨١
التوسع في هذا النوع من التفسير وكثرة القائلين به ٢٨١
الإمام الغزالي والتفسير العلمي: ٢٨١
الجلال السيوطي والتفسير العلمي: ٢٨٢
أبو الفضل المرسي والتفسير العلمي: ٢٨٣
إنكار التفسير العلمي ٢٨٤
إنكار الشاطبي للتفسير العلمي: ٢٨٤
ثم أخذ الشاطبي يفنّد هذه الأدلة فقال: ٢٨٦
التفسير وألوانه في العصر الحديث ٢٨٧
مميزات التفسير في العصر الحديث: ٢٨٧
ألوان التفسير في العصر الحديث ٢٨٨
١ ـ اللون العلمي للتفسير في عصرنا الحاضر ٢٨٨
أهم الكتب التي عنيت بهذا اللون ٢٨٨
الجواهر في تفسير القرآن الكريم للشيخ طنطاوي جوهري ٢٩١
[التعريف بالمؤلف: ٢٩١
غرض المؤلف من تفسيره: ٢٩١
[تطاول الجوهري على الفقهاء]: ٢٩١
طريقة المؤلف في هذا التفسير: ٢٩٢
نماذج من هذا التفسير: ٢٩٣
إنكار بعض العلماء المعاصرين للتفسير العلمي: ٢٩٤
٢ ـ اللون المذهبي للتفسير في عصرنا الحاضر ٢٩٤
٣ ـ اللون الإلحادي للتفسير في عصرنا الحاضر ٢٩٥
الباعث على هذا اللون من التفسير: ٢٩٦
[نماذج من التفسير الإلحادي]: ٢٩٦
الهداية والعرفان في تفسير القرآن بالقرآن ٢٩٩
حملته على جميع المفسرين: ٢٩٩
طريقته في التفسير: ٣٠٠

إنكاره لمعجزات الأنبياء عليهم السلام ٣٠٠
موقفه من معجزات عيسى عليه السلام: ٣٠٠
إنكاره للملائكة والجن والشياطين: ٣٠١
إنكاره لأحكام من الدين لم ينازع فيها أحد من المجتهدين ٣٠١
حدّ السّرقة وحدّ الزّنى: ٣٠١
الربا: ٣٠١
٤ ـ اللون الأدبي الاجتماعي للتفسير في عصرنا الحاضر ٣٠٢
مدرسة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده وأثرها في التفسير ٣٠٢
محاسن هذه المدرسة ٣٠٢
عيوب هذه المدرسة ٣٠٣
أهم رجال هذه المدرسة: ٣٠٤
١ ـ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ٣٠٤
إنتاجه في التفسير: ٣٠٤
منهجه في التفسير: ٣٠٥
القرآن لا يتبع العقيدة وإنما تؤخذ العقيدة من القرآن: ٣٠٥
كيف كان يقرأ الأستاذ الإمام التفسير ويكتبه: ٣٠٦
معالجته للمسائل الاجتماعية: ٣٠٧
تفسيره للقرآن على ضوء العلم الحديث: ٣٠٨
موقفه من حقيقة الملائكة وإبليس: ٣٠٩
موقفه من السحر: ٣١٠
إنكاره لبعض الأحاديث الصّحيحة: ٣١٠
٢ ـ الشيخ محمد رشيد رضا ٣١١
كيف اتصل الشيخ رشيد بالأستاذ الإمام: ٣١١
إنتاج الشيخ رشيد في التفسير: ٣١٢
مصادره في التفسير: ٣١٢
هدفه من التفسير: ٣١٣
منهجه في التفسير: ٣١٣

رأيه في أصحاب الكبائر: ٣١٤
تقليده لشيخه في قصّة آدم: ٣١٤
تذرعه بالمجاز والتشبيه: ٣١٥
رأيه في السحر: ٣١٥
رأيه في الشياطين: ٣١٦
رأيه في الجن: ٣١٦
رأيه في معجزات النبي ﷺ: ٣١٦
رأيه في مسائل من الفقه: ٣١٧
شرحه لمبهمات القرآن بما جاء في التوراة والإنجيل: ٣١٧
٣ ـ الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي ٣١٨
إنتاجه في التفسير: ٣١٨
منهجه في التفسير: ٣١٩
مصادره في التفسير: ٣١٩
موقفه من مبهمات القرآن: ٣١٩
عنايته بإظهار أسرار التشريع: ٣٢٠
معالجته للمشاكل الاجتماعية: ٣٢٠
توفيقه بين القرآن والعلم الحديث: ٣٢١
حرية الرأي في تفسيره: ٣٢١
تم والحمد لله ٣٢٢
التراجم ٣٢٣
المحتويات ٣٢٧

مكتبة الجيل الجديد